
يوسف
أبو عبدو البغل
تاريخ نضال من مفكرة وطن
عداد معن دانيال داود
ونجدت يوسف تحقاخة



مراد يوسف تاريخ نضال من مفكرة وطن (2018).

إعداد وإخراج	: معن دانيال داود
حوار وأرشفة	: خالد نعمة
إعداد وثائقي وتاريخي ومراجعة	: نجدت يوسف تحقاخة
المقدمة	: عطية مسّوح
الخاتمة	: عبد الله حنا

المقدّمة

مراد يوسف
حياة موسومة بالصدق والتضحية

رحل مراد يوسف وهو يقف على ذروة أكثر من نصف قرن من النضال تحت راية الشيوعيّة. كان واحداً من أولئك الرجال الذين لم يعبروا الحياة دون أن يتركوا أثراً كبيراً وبصمات لا يمحوها الزمن. وحين يبحث الباحثون في شؤون السياسة السوريّة في النصف الثاني من القرن العشرين، وبخاصة في شؤون الحركات اليسارية، والنضالِ من أجل التحرّر السياسيّ والاجتماعيّ، فسيجدون أنّ مراد يوسف كان واحداً من المناضلين الفاعلين المسهمين في الحياة العامة إسهاماً واضحاً، من خلال انتماء واعٍ إلى حركة كانت من أهمّ تلك الحركات، وهي الحزب الشيوعيّ السوريّ.

وقبل أن ندخل في الحديث عن مراد يوسف وأهمّيّة نشاطه، نريد أن نؤكّد أنّ إبراز نشاط القادة وإسهامهم في حياة الحركات السياسيّة والاجتماعيّة اليساريّة، لا يعني بأيّ معنى من المعاني الانتقاصَ من أهمّيّة ما قامت وتقوم به قواعد تلك الحركات ومناصروها، فالفعل الحاسم في النهاية هو لمن درجنا على تسميتهم بالقواعد الشعبيّة، التي تحمل على عاتقها المهمات اليوميّة، وتعيش مع الناس، تتداول معهم أمور السياسة والهموم الحياتيّة، وتشدّهم إلى المشاركة في النضال من أجل مصالحهم الاقتصاديّة والاجتماعيّة.

وأقول بإيجاز، إنّ كلّ من انتسب إلى الحزب الشيوعيّ، في الظروف التي كان الحزب فيها مُعارضاً، وكان عضوُ الحزب عرضة للاضطهاد والملاحقة والمحاربة بلقمة العيش، كلّ من انتسب إلى الحزب وعمل في صفوفه وهو يعرف ألّا مكسب له من ذلك سوى أن يكون موضعاً لظلم المستبدّين، هو إنسان يستحقّ التقدير، بل التمجيد، لأنّه قدّم المصلحة العامة على الخاصّة، واقتنع بحقيقة أكّدها التاريخ، وهي أنّ للتطوّر والتقدّم طريقاً واحداً هو طريق النضال والتضحية. ولا يقتصر ذلك على أعضاء الحزب الشيوعي، بل يشمل المنتمين لكلّ الحركات التي ناضلت من أجل استقلال الوطن وتقدّمه وازدهاره، ومن أجل العدالة الاجتماعيّة والوصول إلى حياة إنسانيّة أفضل.

ومن بين هؤلاء المناضلين يبرز القادة الحقيقيون على مختلف المستويات والميادين.

ولا يكون القادة قادة حقيقيين ومحترمين وفاعلين إلّا إذا قدّمتهم الحياة نفسُها، وأهّلتهم سماتهم الشخصيّة، دون افتعال أو مراوغة. فكلّ (قائد) صُنّع تصنيعاً، أو رفعه إلى سُدّة القيادة ولاء شخصيّ أو أسلوب مُداهنة أو تدليس أو تسلّق، هو قائد زائف، يُلحق الأذى بالحركة، أو لا ينفعها على الأقلّ. ولقد عانت الحركات الثوريّة - ومنها الحزب الشيوعي - الضررَ الكبير من أمثال هؤلاء.

وحين نقول إنّ القادة الحقيقيين لا يبرزون إلّا إذا قدّمتهم الحياة نفسُها، فنحن نعني أنّهم يتقدّمون من خلال نضالهم، دون أن (يدعمهم) هذا الزعيم أو ذاك المسؤول. ففي العمل اليومي، والنضالِ بين الناس من أجل تحقيق مهمات سياسيّة أو فكريّة أو مطلبيّة محدّدة، يظهر التفاوت بين قدرات المناضلين، ويمتاز بعضهم من بعض بمواهبهم الخاصّة، وسماتهم الذهنيّة والنفسيّة المؤهّلة للعمل القياديّ .. فيصبحون - على التدريج - قادة يعترف بهم رفاقهم وزملاؤهم قبل أن يحتلّوا المراكز القياديّة رسميّاً.

كان مراد يوسف واحداً من هؤلاء القادة الحقيقيّين ... انبثق من وسط شعبيّ كادح، من أسرة حرفيّة يعمل أفرادُها، كلّ حسب ما يستطيع، كي تسدّ الأسرة احتياجاتها وتؤمّن حياة مقبولة، وتدرّج في سُلّم التعليم والخبرة الحياتيّة، منجزاً مراحل الدراسة في القنيطرة ودمشق ومصر؛ حتّى تخرّج في جامعة الأزهر متخصّصاً باللغة العربيّة، وعمل مدرّساً لها بضعَ سنوات، كما تدرّج من فتىً في بيئة متديّنة، إلى فتىً يهتمّ بالشؤون العامّة لمجتمعه ووطنه، إلى مؤيّد للحزب الشيوعيّ سياسيّاً وفكريّاً، إلى عضوٍ منتظم في صفوفه، إلى قائدٍ من قادته المرموقين. وفي هذه المسيرة عبَرَ الرجل جسوراً من الصعوبات، منها السّجنُ والتعذيب الجسديّ الذي كان مراد يوسف نموذجاً في الصمود إزاءه.

ظلّ مراد يوسف يعمل في الهيئات القياديّة العليا في الحزب الشيوعي حتّى أواسط العقد الأوّل من القرن الحادي والعشرين، حين امتنع بإرادته عن الترشّح لعضويّة تلك الهيئات، ولكنّه ظلّ على ما دأب عليه من الاهتمام بنشاط الحزب ومتابعة أعماله، كما ظلّ على صلة وثيقة بأعضائه، ولا سيّما أولئك الذين ربطته بهم علاقات صداقة شخصيّة، وهم كثر.

اتّسم مراد يوسف، كمعظم القادة الحقيقيين، بالإخلاص للحركة التي

انتمى إليها، وصدق النوايا وهو ينشط في صفوفها. وإذا كانت الخلافات السياسيّة والفكريّة والتنظيميّة قد وسمت عمل الحزب الشيوعي السوريّ في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين، وأدّت إلى تكتلات وانقسامات شتّتت قوى الحزب وأضعفت فاعليّته وزعزعت مكانته بين الناس، فإنّ تحميل قادة الحزب وحدهم، أو قادة الكتل الحزبيّة، مسوؤليّة ذلك، فيه شيء من الظلم، أو البعد عن الموضوعيّة.

صحيح أنّ المسوؤليّة في كلّ ما يحدث في الحزب من تكتّلات وانقسامات تكون أكبر كلّما ارتفع موقع العضو في الهرم الحزبيّ، لكنّ التقاليد التنظيميّة والإداريّة العامّة في الحركة الشيوعيّة، والوضع العام الذي أحاط بعمل الشيوعيّين في البلدان العربيّة، كوّنت المناخ الملائم لما حدث. وأظنّ أنّه لا يمكن البحث في أزمة الحزب الشيوعيّ السوريّ وانقساماته المتكرّرة دون أخذ النقاط التالية بالحسبان:

أوّلاً - ليست الأزمة ناتجة عن الانقسامات والتكتّلات، وإنّما هي السبب في ظهورها. الأزمة على ما أظنّ هي في أنّ أساليب عمل الأحزاب الشيوعيّة، وخطابها، وبناها التنظيميّة، ومضامين سياساتها، لم تعد مناسبة للواقع ومقتضيات التغيير بدءاً من سبعينيّات القرن العشرين، وربّما قبل ذلك. وهذا ما جعل الأحزاب تعيش حالاً من الارتباك، وجعل نشاطها يضعف ونفوذها الشعبيّ يتراجع.

ثانياً - وما يؤكّد ذلك هو أنّ الانقسامات لم تقتصر على الحزب الشيوعيّ السوريّ، فالكثير من الأحزاب الشيوعيّة العربيّة انقسمت، وازدادت الخلافات في صفوفها، ومعظم الأحزاب الشيوعيّة في العالم تراجعت نشاطاً ونفوذاً وعدداً، ولا يُستثنى من ذلك الأحزاب الكبيرة التي كانت حتّى أوائل سبعينيّات القرن العشرين من أقوى الأحزاب في بلدانها: (الفرنسيّ، الإيطاليّ، الإسباني، البرتغاليّ ...).

ثالثاً - إنّ مسألة التجديد الفكريّ والتنظيميّ طرحت في كلّ الأحزاب تقريباً، في العقود الأخيرة من القرن العشرين، وهذا دليل على الشعور الواسع بأنّ بُنى هذه الأحزاب وخطابها وسُلّم مهمّاتها ومضامين سياساتها لم تعد ملائمة لكي تمضي في نضالها التغييريّ، وهذا هو جوهر أزمتها، أمّا التكتّلات والانقسامات فليست إلّا تجلّيات لهذه الأزمة. ولعلّ أقرب مثل لذلك هو الأسرة التي تتعقّد أمورها الحياتيّة وتزداد صعوباتها، عند ذلك لا بدّ من أن تكثر فيها الآراء وتتعدّد التأويلات وقد تشتدّ الخلافات، أي تتوتّر الأسرة وقد تصل علاقاتها إلى أسوأ حال ..

وانطلاقاً من ذلك، لا يمكن قصر أسباب التوتّر والتكتّل والانقسامات التي حدثت في الحزب الشيوعيّ السوريّ على ما هو ذاتيّ أو شخصيّ. وسنحدّد أثر العامل الشخصيّ بجانب واحد كبير ومؤثّر، هو: عدم قدرة قيادة الحزب على التعامل مع التنوّع السياسيّ والفكريّ، ومع اختلاف الآراء داخل صفوف الحزب، تعاملاً ديمقراطيّاً أساسه الإقرار بالتنوّع والتعدّد داخل الحزب في إطار وحدته التنظيميّة ووحدة توجّهه العام. ويدخل في هذا الإطار الإقرار باحتمال وجود من يُعارض قيادة الحزب أو أمينه العام، سواء أكان المعارض فرداً أم مجموعة أم تيّاراً، وبحقّ المعارض بأن يطرح آراءه في الاجتماعات الحزبيّة وصحافة الحزب، والسعي إلى نشرها، وحقّه في الطموح إلى أن تحظى آراؤه بتأييد الأكثرية، كي تتبدّل القيادة، ومنها الأمين العام على أساس ذلك.

مثل هذا المناخ كان مفقوداً في الأحزاب الشيوعيّة بعامة، وفي الأحزاب التي اشتدّت فيها فرديّة القائد (الأمين العام) بخاصّة، ومنها حزبنا الشيوعيّ السوريّ. ولو توفّر هذا المناخ لقلّت احتمالات وصول الخلافات والتنوّعات إلى الانقسام التنظيميّ، وتحوّلت إلى مصدر غنى وتطوّر. أي، بعبارة أخرى، لو توفر ذلك لكان أثر الأزمة التي تحدّثنا عنها في الفقرات السابقة أقلّ ضرراً.

ولا يمكن إغفال أثر ضعف قواعد الحزب من الناحية الثقافيّة، وغياب التقاليد الديمقراطيّة في المجتمع، في دفع قواعد الأحزاب إلى الانسياق وراء أخطاء القادة أحياناً، وعدم القدرة على النقد والإسهام بردع القائد المخطئ أو المتأثّر بمصالح شخصيّة أحياناً عمّا يقوم به.

من هنا، أرى أنّه من غير الموضوعيّ وغير المنصف إدانة قادة الحزب الذين جرت الانقسامات في عهدهم، أو النقمة عليهم بوصفهم فرسان التكتّل والانقسام، فلم يكن أحدٌ منهم راغباً في إضعاف الحزب أو قسمه، لكنّ سوء إدارة التعدّد في الحزب وضع كلاًّ منهم في مأزق يمكن تلخيصه بما يلي: إمّا الانقسام وإمّا أن ينسحق تياره وينكّل بأنصاره. ولعلّ ما يثبت هذه الفكرة، هو أنّ عدداً من الرفاق الذين قادوا الانقسامات، قادوا فصائلهم إلى الوحدة عبر اتّفاقات تحرص على الجميع وتُلغي التمييز بين أعضاء الحزب على أساس الانتماء إلى الكتل المتّحدة.

لا أقول هذا الكلام دفاعاً عنهم، فهم كلّهم بشر يصيبون ويخطئون، وكلّ منهم له ما له وعليه ما عليه. وإذا كانت مسؤوليّتهم الأدبيّة عن أخطاء الحزب وانقساماته تتفاوت من واحدٍ لآخر حسب مكانه القيادي،

فإنّ ما قلتُه ينطبق أيضاً على أكبرهم وأعلاهم في الهرم الحزبيّ، وهو الأمين العام التاريخيّ الرفيق خالد بكداش، فهذا الرجل القادر الموهوب كان أحد قادة الحركة الشيوعيّة العالميّة، وكان متأثراً ومقتنعاً بما هو سائد فيها من مبادئ تنظيميّة تقوم على فكرة (المركزيّة الديمقراطيّة)، التي أدّت إلى هيمنة القيادة على إرادة هيئات الحزب وأعضائه، وأضعفت تفرّد عضو الحزب بطريقة عمله التي قد تكون مبدعة أو - على الأقلّ - ملائمة لظروف نضاله وبيئته، وكان ذلك في النهاية لصالح فرديّة القائد الذي تحوّل على التدريج إلى مسيطر متسلّط لا يقبل مخالفة لرأيه وإن في أبسط الأمور.

لقد كان خالد بكداش، كما كان أكثر القادة، ابناً مخلصاً لما اصطلح على تسميته بالستالينيّة التي سادت على نطاق الحركة الشيوعيّة، وطبّقت في الأحزاب والمجتمعات التي استلمت فيها الأحزاب الشيوعيّة الحكم، كما انتقلت إلى دول العالم الثالث التي استلمت الحكم فيها أحزاب ذات توجّه اشتراكيّ. وأريد أن أقول - للإنصاف - إنّ التأثر بالمدرسة السوفييتيّة الستالينيّة لا ينفي الإخلاص للحزب والاشتراكيّة، ولا يقلّل من صدق النوايا والحرص على المصلحة العامّة، ولكنّه يتعارض مع الديمقراطيّة في إدارة الحزب، وفي إدارة المجتمع عند تسلّم السلطة، وهذا ما يلحق الأذى بالحزب والمجتمع الذي يظنّ القائد أنّه يخدمه.

ولكنّ السمات العمليّة التي أنتجتها تلك المدرسة كانت تتفاوت بين هذا القائد وذاك، والسبب هو السمات النفسيّة الشخصيّة الناتجة عن التربية والبيئة والمنشأ، فكان بعض القادة أكثر من بعضهم الآخر دماثة وصراحة وبعداً عن التمييز غير المبدئيّ في التعامل اليوميّ، ويشهد كلّ من تعاملوا مع الرفيق مراد يوسف أنّه كان على مستوى رفيع من الخلق، وعلى درجة عالية من حسن التعامل مع الرفاق، كما كان جريئاً في قول الحقّ، صريحاً في الإشارة إلى ما يراه خطأ، وهذا ما يشهد به كلّ من تعامل معه، ومنهم كاتب هذه السطور. وسنذكر بعض ما قاله رفاقه صادقين، وهم يودّعونه الوداع الأخير. فالرفيق يوسف الفيصل - وهو من كان ومراد يوسف على طرفي نقيض في مرحلة من مراحل الصراع الحزبي - يؤكّد في حفل تأبينه أنّه كان يتّسم (بالصراحة والجرأة والتواضع)، كما يشير إلى الصلابة التي تحلّى بها مراد يوسف في الحياة الحزبيّة بعامة، وفي السجن بخاصة: "قدّم نموذجاً للقائد الصلب الذي لم تتزعزع عزيمته أو يتراجع صبره أو يخفّ إيمانه طوال فترة سجنه."

وكان مراد يوسف زاهداً بأمور الحياة الدنيا التي يتنافس عليها معظم الناس. لم يسعَ إلى الغنى الماديّ ولا إلى المناصب والمكاسب، وهذا ما يعرفه كلّ من عايشوه عن قرب، وهو ما أكّده الرفيق نبيه جلاحج في كلمته التأبينيّة: "ما كان لك يوماً أن تبحث عن امتيازات من أيّ نوع كان، كنتَ الزاهدَ ناكرَ الذات، كناسك على قمّة جبل من المنح والعطاء."

ومما يجدر ذكره أنّ مراد يوسف، وهو الشركسيّ الذي يعتزّ بشركسيّته كما يعتزّ بوطنيّته السوريّة، كان يتحدّث ويكتب بلسان عربيّ مُبين، يفوق في ذلك الكثير من قادة الحزب وكوادره، وقد ساعده هذا على التواصل مع الناس بعامة، ومع المثقفين في الحزب والمجتمع.

إنّ مراد يوسف واحدٌ ممّن سيظلّون أحياء في ذكرة الأجيال، تحدو به إلى مملكة الخلود سماتُه الشخصيّة الإنسانيّة وسموّه الأخلاقيّ وتفانيه في خدمة الوطن والشعب. ولعلّ واجبنا، نحن الذين عايشناه، أن نقدّم لمن لم يعرفوه، وللذين سيدخلون لجج النضال في المستقبل، ما يعرّفهم بالأعلام من أسلافهم .. ولعلّ هذا الكتاب يضع أمام الأجيال بعضاً من سيرة هذا المناضل الإنسان، فالشكر لمن قاموا بإعداده والمشاركة في إنجازه.

عطيّة مسوح

حبنمرة / 14 نيسان 2016

الباب الأول

مراد يوسف يروي بعضاً من ذكرياته[1]

من عادتي أن أجلس مع نفسي بين المدة والأخرى، كي أستعرض ذكرياتي، ولأقارن بين الجيد والسيئ منها، والمشاكل التي نواجهها ونتعامل معها، لكن ذلك لا يتوفر دائماً بسبب ضيق الوقت.

ما هو الوسط الاجتماعي الذي عشت فيه؟ وكيف تعرفت إلى نشاط الشيوعيين؟ ومن هو الذي أثر فيَّ؟ وكيف تعامل الشيوعيون معي للانضمام إليهم؟ وما الذي حسم رأيي فقررت الانتساب إلى الحزب؟

---

1) سُجّلت هذه الذكريات المروية في عام 2004 على مدى ثلاث جلسات، وذلك في إطار مشروع لتدوين ما يمكن استدراكه من تاريخ الحزب الشيوعي عبر الموثّق، الذي صاغته نضالات أعضاء الحزب على مختلف مستوياتهم، وكان يراد لهذه الذكريات أن تكون أشمل، لكن سفر الرفيق مراد إلى خارج سورية، ثم مرضه المتكرر، وانشغالي منعني من استكمالها. وفي شباط من عام 2008، حاولت ثانية استكمالها، واتصلت بالرفيق مراد طالباً أن نواصل ما بدأناه، لكنه استمهلني أسبوعاً كي يبرأ من داء في الصدر ألمّ به، وبعد هذه الفترة طلبت من الرفيقة زينب نُتُّوه أن ترتب لي موعداً مع الرفيق مراد، لكن وطأة المرض منعت الأمر، وجاءت وفاته كي تأخذ معها كل ما كان ينبغي أن يستكمل تسجيلاً أو تدويناً، لتبقى صفحات مهمة من تاريخ الحزب مجهولة بسبب رحيل من كتبوها بنضالاتهم.

في هذه الأوراق نقلتُ كل ما وصل إليَّ من الرفيق أبي سامي بمنتهى الأمانة، مع بعض التدخل البسيط في الصياغة للضرورات اللغوية فقط وفي عنونة الفقرات وفي تقديم وتأخير بعض الجمل والأفكار هنا أو هناك.

خالد نعمة

أجرى هذا الحوار خالد نعمة منذ أكثر من عقد مضى، وأُعدّ للنشر في نهاية العام 2011، وأعيد تبويب المادة خلال عام 2015 أثناء الإخراج النهائي إلى ثلاث فصول ضمن باب واحد، واستخدمت أوراق الرفيق أبي سامي، وملاحظات أخيه ورفيق دربه نجدت في تعزيز الهوامش التوضيحية، وقد نسبت كل من هذه الهوامش في موقعها إلى المصدر الذي أتت منه، ووضعت هوامش الخاتمة من قبل المؤرخ الدكتور عبد الله حنا - **معن**.

شجرة وارفة الظلال

بداياتي الحزبية

هناك فرق زمني يصل إلى سنتين بين الوقت الذي حسمت فيه خياراتي والوقت الذي انتسبت فيه إلى الحزب، فقد انتسبت إلى الحزب عام 1955، مع أنني كنت قبل ذلك على صلة بالحزب أحضر نشاطاته وأشارك فيها، فالرسالة التي أوصلتها في الخمسينيات إلى الحزب، أوصلتها دون أن أكون عضواً في الحزب بعد. وقد سألت المسؤول في السويداء آنذاك: كيف يكلفني بمهمة وأنا لست عضواً؟ فكان جوابه: ما الفرق؟

بعد اغتيال المالكي قررت دخول التنظيم، أما قبل ذلك فكانت المهمات والنشاطات التي يكلفنا بها الحزب تجري من خلال رفيق كان في مجموعتنا وله في الوقت ذاته صلة بالحزب. ونحن كنا نقوم ببعض المبادرات، إذ كنا نشتري بعض النسخ من جريدة (الصرخة) ونرسلها إلى عناوين محددة في القرى، أي إلى أناس محترمين هناك ومؤثرين ويهتمون بالشأن العام. طبعاً لم ننجح كثيراً، لكن من خلال إرسال ست أو سبع نسخ من الجريدة إلى هذه العناوين تكوّنت ثلاث أو أربع مراكز للفكر التقدمي اليساري الشيوعي المتعاطف. وكان من نرسلها إليهم يظنون أن هذه الجريدة تصلهم من مصادرها وناشريها، لأنها كانت تصلهم بالبريد.

الجو العائلي

نحن متفقون أن الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه الفرد الفترة الأولى من حياته وطفولته، والمهن التي يميل إليها، والمحطات التي يتجاوزها، واهتماماته تترك تأثيرات كبيرة على تكوينه اللاحق، أي أن المكونات الأساسية لشخصية الإنسان تظهر في المراحل الأولى من حياته.

وبالنسبة إليّ، كانت السنوات الأولى من حياتي، أي منذ عام 1928 حتى عام 1942 تقريباً، وهي المرحلة التي أنهيت فيها الدراسة الابتدائية، هي السنين التي أثرت على حياتي. كان الوسط الذي عشنا فيه هو الوسط

الجولاني، وتحديداً في القنيطرة. كانت مدينة القنيطرة مركز منطقة الجولان، ولم يكن الجولان قد أصبح محافظة بعد، فهذا الأمر لم يحدث إلا في الستينيات. وكانت مدينة القنيطرة تابعة لمدينة دمشق العاصمة، وكانت تقع على مفترق طرق تصل سورية بفلسطين ولبنان والأردن، إذ إن الطريق الممتد إلى الاتجاه الجنوبي الغربي كان يصل سورية بفلسطين، وكانت سورية متصلة مع لبنان من خلال طريق بانياس الجولانية الذاهب إلى مرجعيون اللبنانية، وكانت العلاقات مع مرجعيون حميمة، كما كان هناك تواصل مع النبطية. هذا من ناحية الغرب، أما في الجنوب فكانت بلدة جسر بنات يعقوب الفاصلة بين سورية وفلسطين، وفيها دارت معارك شهيرة. وهناك طريق القنيطرة الحمة الواصل إلى درعا ومنها إلى الأردن. والحمة تقع قريباً من المثلث السوري اللبناني الفلسطيني الأردني عند مصب نهر اليرموك. موقع المدينة مفترق طرق رئيسية عند سفح تل أبو الندى وعند سفح جبل الشيخ وفي نهايته. أطراف المدينة الأربعة مفتوحة على مد النظر، كما يقولون، خصوصاً نحو الشمال الغربي، أي على جبل الشيخ، الذي يوجد الثلج عليه دائماً، ونحو الجنوب على امتداد السهول والمنحدرات داخل فلسطين، ونحو الجنوب الشرقي باتجاه سهول حوران وتلالها.

هذه هي المدينة التي نشأت فيها، وكانت بلدة صغيرة خلال الثلاثينيات. لقد فتحت عينيَّ على الحياة في عامَيْ 1932 و1933، وفي انطباعاتي وذكرياتي الأولى عن الحياة تلك الفُسَح المفتوحة، فبيتنا الذي نشأت فيه كان يقع على أطراف القنيطرة الجنوبية، قريباً من طريق درعا وطريق فلسطين. ومن أولى ذكرياتي الحياتية بناء القسم الأخير من البيت الذي عشنا فيه. أذكر أنني كنت طفلاً صغيراً، أجلس وأنظر كيف كان أبي وأخوالي وجدي وأمي يضعون الخشب والقرميد. كانت أسرتي فلاحية من حيث الأصل، لكن والدي لم يعمل بالفلاحة إلا نادراً، إذ كان يذهب أحياناً في الربيع إلى قطعة الأرض كي يجمع الحشيش ويصنع منه علفاً للحيوانات. كان لدى الوالد مرملة، وكان يستخرج الرمل من الأرض، ثم يسوّقه في القنيطرة، وكان هذا هو مصدر دخله الوحيد. إذن، وسطنا كان

عمالياً حرفياً، والأسرة كلها كانت تعمل بالقزمة والكريك لاستخراج الرمل وغربلته وفصل الناعم منه عن الخشن، وكنا نستخدم عربة تجرها الخيول (طنبراً)، ويسوسها الوالد غالباً، أو يساعده أحد الأشخاص الذين يعملون معه أثناء رواج البناء. كان العمال الذين يساعدونه من الأقرباء أو من العرب، وكانت الأسرة كلها تعمل.

أول علاقتي بالعمل كانت مع الوالد منذ كنت صغيراً، إذ كنت أرعى الحصان الذي يجر العربة، كما كنت أذهب مع والدتي إلى الفرن، الذي كان على مقربة من البيت في الحارة المجاورة، وأحمل معها الخشب والحطب اللازم لإيقاد الفرن، وكنت أحمل معها أيضاً الخبز في طريق العودة، كما كنت أشارك في سقاية البستان الصغير الذي كنا نزرعه بجانب بيتنا الريفي.

الوالدة كانت تعزق الأرض وتنكشها دون فلاحة غالباً، فالفلاحة كانت تجري مرة كل عدة سنوات، وكانت تزرع الفليفلة والكوسا والخيار والبطيخ والبندورة والباذنجان وغير ذلك، وكان هناك بئر ماء نستخرج منها المياه بالسطل والحبل لنروي بها البستان ونشرب منها، وكانت هذه المياه تُستخدم للغسيل أيضاً.

لم تكن الحنفيات موجودة آنذاك، وكذلك الكهرباء، وكان الكاز هو المتوفر.

البيت كان مؤلفاً من غرفتين وليوان بينهما. ولاحقاً، عمَّر والدي في النصف الثاني من الثلاثينيات غرفة أخرى، وكنت أساعده رغم أنني كنت صغيراً، وكانت هذه الغرفة المنفردة غرفة عرس الأخ الأكبر، الذي لم يكن قد تزوج بعد. هذه الغرفة كانت مثل البرج مفتوحة على كل النواحي، وتعلو عن الأرض نحو درجتين أو ثلاث، وكان لها خمسة شبابيك وباب، وكان سقفها أسمنتياً مصبوباً. وعندما انتهى صبُّ السقف، أذكر أنني كتبت عليه التاريخ آنذاك، وكان عام 1939.

هذا هو البيت الذي عشنا فيه، وكان فيه حوش كبير لم تكن له أبواب بل حيطان فقط، وكان مدخله مفتوحاً، وكان فيه حصان وعربة النقل.

كان أبي مغرماً بالخيول، وكان فارساً وخيَّالاً، وهذا الأمر كان شيئاً

عادياً بالنسبة إلى رجال ذلك الزمان في منطقتنا. وكان يهتم بالخيل والحصان الذي يقتنيه، وفي بعض الأحيان كان يوجد في دارنا أكثر من حصان، إلى حين بيع الحصان الأقدم الذي يُستعمل لجر العربة، بعد أن يتمرَّس الحصان الجديد على الجر. وكانت أحصنتنا تستخدم في الذهاب إلى القرى، إضافة إلى قيامها بالجر.

كان لديّ أخوان أكبر مني، وكان البكر بينهما لدى دخولي مرحلة الوعي يعمل ضمن الكتيبة الشركسية التابعة للجيش الفرنسي، وقد خدم فيها عدة سنوات، وكان يغيب عنا ويأتي زائراً، وكان يأخذنا في زيارات إلى بيته في جوبر قرب الشام. والأخ الثاني عزو كان معنا في البيت، وكان يعمل مع الوالد، ويؤمن الحطب شتاءً من الحرش. كان في البيت موقد يسمَّى وجاقاً، ولم تكن الصوبيات معروفة عندنا. الغرفة الأساسية كانت مطبخاً وغرفة طعام ونوم للجميع، أما الغرفة الثانية فكانت مخصصة للضيوف الوافدين وللاستحمام، وفيها الوجاق.

السنوات العشر الأولى من حياتي أمضيتها مع إخوتي في هذا البيت، وكان هناك أخوان أصغر مني، إضافة إلى أخت. كنت الأوسط بين الصبيان، وحالياً هناك ثلاثة من إخوتي رحلوا عن الحياة، الأكبران والأصغر رفعت، وبقينا فقط أنا ونجدت، كما توفيت ثلاث من أخواتي البنات، ولم تبق حية إلا سعدية التي تسكن في قدسيا مع زوجها وأولادها.



الوالد والوالدة والشقيقة زورة (المعروفة بسعدية)

إذن، أنا والأخوان الصغيران والأخت والوالد والوالدة كنا نعيش في

هذه الغرفة، وكانت السهرات كلها تجري عندنا في البيت. والشيء الذي أريد قوله هو أنني فتحت عينيَّ على العمل، وكانت العائلة كلها تعمل، وطوال عشرين عاماً كانت المرملة مصدر العمل لتأمين الرمل للسوق. وعندما كان وضع البناء يتحسن كان وضع والدي يتّحسن، وحينما كان سوق البناء يتدهور كان يضطر إلى العيش على ما يبعث به أخي كل عدة أشهر مرة، أو على ما يكسبه أخي عزو في المدينة. كان الجميع يعملون، حتى الطفل منذ أن يبلغ عامه الخامس أو السادس. كنا نساعد الوالدة في الجلي، وكانت أرضنا الزراعية مؤلفة من قسمين، الأول في الناحية القِبْلية على طريق عين زيوان ودرعا، وإلى الشرق منها بنحو مئتي متر، والثاني عند طريق لبنان المنصورة. وكانت هاتان القطعتان صغيرتين، وغالباً ما كان الوالد يضمّنهما، فيأتينا منهما كيس أو اثنان من القمح أو الشعير في السنة، وأحياناً كان الوالد يأخذنا إليهما في الربيع من أجل حش الحشيش، أو لرصف بعض الأحجار، ولم يكن لدينا ما هو أكثر من ذلك.

عائلتنا كانت من الشراكس الذين نشؤوا في القنيطرة، وانتقل أعمامي وجدتي إلى البريقة.

الشيء المؤثر في عائلتنا هو الحنان والتعاطف والتكامل والتعاون الكبير جداً. الوالد كان حنوناً جداً، ولا أذكر أنه استخدم يده في يوم من الأيام كي يضرب أحداً منا. أذكر حادثة حصلت معي، وأستغرب كيف قمت بها، إذ لم يكن من عادتي أن أرفض له طلباً، أو أن أعمل شيئاً يسيء إليه، فقد طلب مني مرة أن أجلب له شيئاً، لكنني رفضت، وقلت إنني لا أريد دون أن أدري كيف قلت ذلك، فكانت ردة فعله الاستغراب والاندهاش، ورفع يده ليضربني، لكنني هربت، فركض ورائي قليلاً، ثم تركني، وانقضى الأمر، وكان ذلك أقسى شيء مرَّ معي.

التأثيرات الكبيرة للجو العائلي المتعاون والمتضامن جداً كانت طيّبة جداً، إذ كان تعامل الوالد معنا طبيعياً جداً وهادئاً وغير قاسٍ، ففي أقصى الحالات كان يرفع صوته قليلاً، أما الوالدة فكانت أكثر حزماً في التعامل، وكانت تعنفنا، لكنها لم تكن تضربنا، وإن كانت تصيح بنا، وتزمجر أحياناً، لكن ليس خارج هذه الحدود.

ومن اللوحات التي أذكرها، أن المدينة كانت ذات سكان متنوعين جداً، إذ كنا نحن الشراكس والمسلمين، وكان جيراننا من المسيحيين، ثلاث أو أربع عائلات، خصوصاً من آل بشارة. ومقابلنا تماماً كانت هناك أسرة فلاحية مسيحية من آل إسكندر بشارة، الذي كان من جيل أهلي، وكانت علاقته بوالدي كعلاقة الإخوة، وكان أفراد هذه العائلة يأتون إلينا في الأعياد، وكنا نذهب إليهم، وعندما كان البيت يحتاج إلى أي غرض، كان والدي يرسلنا إلى تلك العائلة. طبعاً، كان في الجوار عرب وشراكس، لكن العلاقات كانت حميمة جداً مع هذه الأسرة المسيحية. وهذه الأسرة كانت تخبز خبز الصاج، وفي بيتنا كانوا يقولون: هذه المرة سنأكل خبز صاج من عند أم إسكندر، وكنا نأخذ العجين إليها، ونعود بالخبز الرقيق، الذي يُصنع كثيراً الآن في السويداء. كان هناك داغستانيون ودروز وعرب، وكان هناك حي للعرب وآخر للداغستانيين، إضافة إلى تجار شوام قدموا من دمشق، وفتحوا دكاكين، وصاروا جولانيين. سكان القنيطرة كانوا متنوعين، وعندما دخلت إلى المدرسة الابتدائية، كان فيها علويون من جباتا الزيت وزعورة، وهؤلاء هم علويو الجولان كما يُسمَّون. في المدرسة، كانت كل هذه الألوان موجودة.

العلاقات الاجتماعية بين المدينة والقرى تمثلت بالعلاقات مع الأهل الوافدين، أي مع أقربائنا وأخوالنا وأعمامنا والعرب. كان هناك شخص من عرب زويَّة، وقد خاواه أبي. كان اسمه عبد الغني، وهو شيخ محترم من جيل الوالد، وكان يأتي إلينا كل شهر أو شهرين هو وزوجته وأولاده، ويقيمون عندنا عدة أيام، وكان من العرب الحضر الفلاحين.

كان العرب في الجولان متنوعين، فمنهم البدو الذين يسكنون في خيم ويرعون الغنم والماعز، والعرب الحضر، ومنهم عرب زويَّة، الذين لم يكن لديهم أراضٍ زراعية خصبة.

العلاقات بين الناس كانت طبيعية جداً، وكان هناك تعايش بين هذه المجموعات عموماً.

الجو السياسي بعد الثورة السورية في الثلاثينيات كان له تجليات لم نرها، لكننا عشناها. السنوات الأولى من طفولتي في البيت كانت قاسية

إلى حد كبير، لأن مصدر الرزق الأساسي يأتي من المرملة، وهو كان متموجاً، وفي بعض الأحيان كانت الأمور تصل بأبي إلى حد استدانة علف الحصان.

أكثر ما تعلمته وعايشته هو الحنان العائلي، والحنان في التعامل مع الآخرين. على سبيل المثال، كان الوالد يهتم بأفراد العائلة القريبين والبعيدين، وكان يرعى كل من مرض منهم في القرى، ويأخذه إلى الطبيب أو المشفى. ولم يكن هذا الأمر مألوفاً ومتداولاً في أيامنا، إذ كان المريض يبقى مريضاً، أو يداوى بالطب العربي وما شابهه.

وعلى هذا الأساس، فإننا لم نكن نعرف إلا أن العمل هو واجب كل شخص منا.

اختصاراً للتفاصيل التي ذكرتها سابقاً، وهي كثيرة، أقول إن البيئة التي نشأت فيها ريفية زراعية فلاحية على الحدود الجنوبية مع فلسطين. الوسط العائلي وسط فقير، فقير جداً إلى حدٍ كبير، إلا في حالات من اليسر النسبي. البيت مضياف دائماً، فهكذا هو الأمر دائماً في المدن الصغيرة الفلاحية، فالأقرباء والمعارف كلهم يأتون من القرى المجاورة. وما حملته من هذا الوسط هو: العلاقات الإنسانية الطيبة بين الناس، والتعاون، ومساعدة الآخرين، والمحبة، والحنان، والتسامح، وشيء بسيط من المفاهيم الأولية للسياسة والتفاعل مع المواقف التي فيها تضحية بجزء مما في النفس، والإيمان بالقضية، وقد رويت كيف كان الوالد يتأثر بالمواقف التي فيها ظلم وغبن، وكيف كان يقرأ سورة يوسف وماذا يفعل إخوته فيها وتأثره بها، وأنا أثناء دراستي الابتدائية تأثرت كثيراً بهذه القضايا.

نسيت أن أقول إن الثورة الفلسطينية التي قامت في عام 1936 أثرت كثيراً في منطقتنا، لأن الحدود كانت مفتوحة تقريباً وليست مغلقة. وكان عندنا جار اسمه عبد الرحمن، بيته ملاصق لبيتنا، وحائطه على حائطنا، وكان شاباً محترماً ومحبوباً وحداداً ماهراً جداً، وكان الفلسطينيون يأتون ليلاً قبل الفجر كي يصلحوا عنده أسلحتهم ويأخذوا متفجرات، والله أعلم، فهكذا كان يقول الوالد، الذي كان يتعامل مع هذا الأمر بكثير من التكتم.

وعبد الرحمن كان صاحب أسرة، وعندما حدثت صعوبات في مجيء

الفلسطينيين إليه أخذوه، استدعوه إلى فلسطين، وهناك استشهد.

كان ذكر ذلك الشخص وتعامله مع الناس، وخصوصاً تعامله مع الفلسطينيين، وذهابه إلى فلسطين وخبر استشهاده من الأشياء المؤثرة التي ظلت كذكريات عندي.

وعموماً فقد تعودت في البيت على القضايا السياسية، وآمنت بموقف الوالد في نظرته إلى الثورة السورية، فهو رفض الانتساب إلى الفرقة الشركسية المشكلة من الفرنسيين. وكان يجري حديث عن هذا الأمر وعن الدور الذي يُطلب من الشبان الشراكس أن يلعبوه في هذه الكتيبة، وحديث عن الثورة السورية، التي لم تكن مؤثرة في منطقتنا وفي المنطقة الدرزية مثل مجدل شمس ومسعدة وغيرها. فتناول هذه القضية في بيتنا كان بين طرفي نقيض، أي بين مؤيد ومعارض. وفي الانتخابات، التي كانت تحدث، كان يجري تحديد مواقف مع هذا الطرف أو ذاك.

الدراسة في المدرسة الشركسية

كانت توجد مدرسة شركسية، أسستها الجمعية الشركسية عام 1935 أو 1936، وكان المؤسس شركسياً تعلم في فرنسا، واسمه أمين سمكوغ، وقد اهتم بالقومية، وكانت هذه المدرسة تعلم اللغة الشركسية بالأحرف اللاتينية، وتصدر كراريس ومطبوعات، وكان اللباس لباساً قومياً شركسياً، فالقميص أبيض، والزنار أسود، والقبة مغلقة بأزرار من صنع يدوي، إضافة إلى بنطال أسود، وكان الحذاء يخاط باليد من الجلد الأصلي المدبوغ.

كان أخي أول من التحق بهذه المدرسة من عائلتنا، لكن أبي سحبه منها إلى المدرسة النموذجية. أما أنا فتعلمت فيها أول سنة إما في عام 1935 أو في عام 1936، لم أعد أذكر التاريخ بالضبط، لأنني كنت صغيراً، بين الوعي واللاوعي. وكنت ألبس لباس المدرسة، وأذهب إليها ركضاً، وأعود منها ركضاً، ثم نُقلتُ منها إلى المدرسة النموذجية الرسمية في القنيطرة. ولهذا الأمر قصة، سنأتي إليها ربّما في السياسة، لأن هذه الجمعية والمدرسة نشأت تقريباً برعاية الفرنسيين زمن الاستعمار

الفرنسي، وكان يعمل فيها شباب جيّدون ومتعلمون ويعملون على نحو لا بأس فيه، لكن اهتمامهم كان منصباً على الرياضة والأمور الكشفية والاستعراضات على شكل أهرامات بشرية، وهي استعراضات جميلة جداً، إضافة إلى الرقص الشركسي والأغاني والأشعار الشركسية، وكان اسم هذه المدرسة: المدرسة الشركسية الابتدائية.

كان الوالد مهتماً بتعليمنا، وكان أخي الأكبر عزو في هذه المدرسة، وبيني وبينه خمس سنوات، فهو من مواليد عام 1923، وأنا من مواليد عام 1928. كانت بنيته قوية، وجسمه رياضياً، وكان من أشهر رياضيي القنيطرة، وإلى حد ما من أشهر رياضيي سورية والأردن أيضاً، لكنه هاجر منذ عام 1946 إلى عمّان، وتزوج واشتغل وعاش هناك. اهتمامات المدرسة لم تعجب الوالد، لأنه كان يريد لابنه أن يتعلم، وقد أرسل خبراً إلى مدير المدرسة يقول له فيه: لقد أرسلنا أولادنا كي يتعلموا القراءة وليس الرقص، فالرقص يمكن أن يتعلموه في البيت. وكرر رسالته عدة مرات، لكن المدير لم يرد عليه. وقد ذهب في إحدى المرات إلى المدرسة، وأعاد الكلام ذاته على مسامع المدير، ونبهه إما أن تعلموا الولد أو سأسحبه من المدرسة. كان الوالد يروي لنا هذه القصة وهو يضحك، لأن المدير أجابه: لقد أرسلت ولدك إلينا، وبظنك أنه سيصبح نابليون بونابرت. إذا لم ترده أن يدرس عندنا فخذه. كان الوالد ينظر إلى ما يفعلونه في المدرسة على أنه غلط، رغم أنه حلو وجميل، لذا فقد سحبني بسرعة، وحوّلني إلى المدرسة الابتدائية الرسمية.



أثناء فحص الشهادة الإبتدائية (السرتفيكا) 1941.

كيف تكوَّن تفكيري السياسي؟

حصل هذا في الأربعينيات، وكنت قد حصلت على الشهادة الابتدائية (السرتفيكا)، في عام 1942.

هذه الفترة اصطبغت بحراك سياسي في القنيطرة، وهو حراك كانت أولى مظاهره بين الفرنسيين والوطنيين، وقد نشأ تياران في المنطقة، تيار وطني، وآخر يسمّى التيار السياسي، ويشمل المتعاونين مع فرنسا.

البيئة القومية الشركسية، التي كانت موجودة في المدرسة وحولها، وبعض المتعلمين في فرنسا كان لديهم عواطف قومية مع ميل إلى التعاون مع فرنسا. وكان لحزب الشعب والكتلة الوطنية أنصار في القنيطرة، وأنصار بين الشراكس. وكل انتخابات كانت تجري في الجولان، كان يرافقها انتخاب أحد الشراكس عن حزب الشعب، وآخر عن الكتلة الوطنية. وعموماً، كان يُنتخب **عز الدين دوغوظ** عن الكتلة الوطنية، وكان لديه مزرعة بالقرب من زويَّة ناحية الجنوب، وكان **عاصم مراد** من الجويزة يُنتخب عن حزب الشعب، وكان من المالكين المتوسطين.

كان الناس تقريباً مقسومين: العاديون، الذين هم مثل أسرتنا، متعاطفون مع هذه الجهة أو تلك. كانت الحياة السياسية في بيتنا موجودة وظاهرة. أنا تعلّمت القراءة والكتابة. الوالد كان يجلب الجريدة، وكان متعلماً للصف الثالث أو الرابع، يقرأ الجريدة، ويعرف ماذا يوجد فيها، لكنه كان يقرأ بصعوبة، لهذا كان يعتمد عليّ غالباً كي أقرأ له الجريدة. وكان هو من يجلبها من السوق، أو يرسلني لجلبها.

وكان ابن عمي (اللزم) متعلماً، وأبوه كان عالماً، وكان يسهر عندنا كل ليلة تقريباً، وكان متعاطفاً إلى حد ما مع من كانوا يسمَّون بالسياسيين، بينما الوالد كان متعاطفاً مع الوطنيين، وكان النقاش يدور في البيت، ويصبح حامياً، لكنه مع ذلك كان يبقى ودياً دائماً، وكنت أسمع النقاش بين هذا وذاك.

مثلاً، من الأشياء التي كان يسألها الوالد: ما الذي تريده فرنسا منا؟ ولماذا أتت قواتها من بلاد بعيدة لتقيم بيننا نحن أصحاب الأرض والبلد؟ وكان يرى أن الحرس الوطني الذي يشكله الوطنيون هو للدفاع عن

الوطن، وكنت أسمع دفاعه عن الثورة السورية والثوار الذين يجاهدون في سبيل بلدهم، ورأيه بأن فرنسا هي المعتدية والظالمة وغير ذلك.

هذه القضايا كانت محور الحوار والأخذ والرد لدى من يزورون بيتنا، الذين كان بينهم متعاطفون مع هذا الاتجاه أو ذاك، وكانت عواطف الوالد مع الاتجاه المحلي الوطني، إذا صحّ التعبير.

في الأعوام المنحصرة بين 1939 و1941، وبعد أن نشبت الحرب العالمية الثانية، صارت الجرائد تتحدث عن الحرب الألمانية الروسية والغزو الهتلري لروسيا، وما أزال أذكر حتى الآن أن العناوين الرئيسية اليومية للجرائد كانت (سيفاستوبول ما تزال تقاوم) و(ستالينغراد ما تزال تقاوم). وكنت أقرأ العناوين الكبيرة للوالد. لم أكن أجلب جريدة محددة، بل تلك الصادرة، مثل الأيام والقبس.

كانت لدى الوالد شفافية، مثلاً كان يقرأ القرآن، وكان يحب قراءة سورتَيْ يوسف ومريم أكثر من غيرهما، والسبب حسب تفسيره أن اسمه يوسف، وكذلك بسبب قصة يوسف وتأثره بها، وبالظلم الذي تعرّض له من إخوته. وعندما كان يصل في قراءته إلى المكان الذي يجري الحديث فيه عن رمي يوسف في البئر، كان صوته يتهدّج، وتنساب دموعه، ويشرق بريقه. وكانت الوالدة تسخر منه، وتقول لقد وصلت الآن إلى المكان الذي تبكي فيه على يوسف سَمِيِّك، وانتقل هذا الأمر إليّ.

في الصفوف الثالث والرابع والخامس، كانت حصص القراءة تحوي قراءة تاريخية كل بضعة دروس، وأذكر مثلاً أنه كانت قصة عن عبد الله بن الزبير والحجاج عندما قتله، وأخرى عن عمر المختار، وكنت أحب قراءة هذه القصص للوالد والوالدة في آخر الليل، وإخوتي الصغار نائمون، ونحن جالسون، والوجاق مطفأ، وضوء الكاز يشتعل لأقرأ عليه.

في القصة، عندما حاصر الحجاج عبد الله بن الزبير، بدأ أنصاره بالتخلي عنه، فدخل على أمه أسماء بنت أبي بكر، وقال لها ما معناه: يا أماه، لقد خذلني أصحابي، وأنا مهدد، ومتردد هل أقاوم أم أستسلم؟ فأجابته: إذا كنت تعرف أنك على حق، فامضِ على ما أنت فيه، فقد قُتِل عليه أصحابك، أما إذا كنت على ضلال، فبئس ما فعلت.

وأنا أتذكر هذا الأمر حتى الآن، فتنتابني الغصة، ويختنق صوتي.

طبعاً، كانت إجابته أنه ما خرج إلا دفاعاً عن الحق، وعانقها، فلاحظت أنه يلبس الدرع، وخرج، فقتله الحجاج، وصلبه ثلاثة أيام.

خرجت أسماء من بيتها، وكانت عمياء، في اليوم الثالث، ومرَّت بجوار ابنها المصلوب وهي تتوكأ على عصاها، وقالت: أما آن لهذا الفارس أن يترجَّل؟ وذهبت. ووصل الحديث إلى الحجاج، فأنزله ودفنه.

هذا النص كان ضمن كتب القراءة التي درسناها، وكان من النصوص الشيِّقة، وكنت لمَّا أصل بقراءتي إلى هذا المقطع أشرق بريقي، ولا أعود قادراً على المتابعة، فتضحك أمي عليَّ، وتقول: ابن أبيك. ألَمْ تقلْ لنا تعالوا لأقرأ لكم، وقد جئناك كي نسمع، لكنك بدأت بالبكاء.

الوالدة كانت صلبة وقوية، وكانت تستنكر أن يبكي الرجل.

وهذه القصة كانت تتكرر.

هناك مثلاً قصة عمر بن الخطاب مع ابن عمرو بن العاص، عندما تسابق مع أحد الأشخاص، فسبقه الأخير، وضربه ابن عمرو بالكرباج، فشكاه المضروب إلى عمر بن الخطاب، الذي استدعاه من مصر، وأعطى الكرباج للمضروب، وطلب منه أن يضرب ابن عمرو بن العاص، وأن يضع الكرباج على عمامة أبيه، وقال لعمرو بن العاص: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟).

وهناك شيء آخر أيضاً كان يشدني، وهو أن الرسول محمد في دعوته إلى الإسلام قد تعرَّض للضغط من أقربائه، وبضمنهم عمه أبو طالب، الذي كان يحبه، ونصحه بأن يترك الدعوة لأنه مهدد، على ما جاء في النص التاريخي الموجود في كتب القراءة أيضاً، فقريش ستقتله كي لا يستمر في دعوته، وتلا عليه عرض قريش بأن يصير من زعمائها المحترمين، فأجاب محمد عمه أبا طالب: (والله يا عمَّاه، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، لما تركت)، فاقتنع عمه بأن لا سبيل لردِّه عن قناعاته، ودعمه، وإن لم يكن هو ذاته قد أسلم.

إن طبيعة ما كان يحدث في بيتنا، وطبيعة الوالد، وطريقة تعامله مع الناس، استمرَّت عندي.

والدي يدافع عن خياراتي

في ما بعد، أصبحت شيوعياً، أي نحو عام 1952 أو 1953، وكان أخويّ الأكبران يهتمان قليلاً بالسياسة، ويعرفان أن الشيوعيين يعتقلون ويلاحقون، وكنا آنذاك نسكن في حي العفيف بدمشق ضمن بيت مؤلف من غرفتين، إحداهما يقطنها الوالد والوالدة، والأخرى مضافة ولنا نحن الشباب، لذلك عندما سمعا مصادفة أنني أصبحت شيوعياً (ولم أكن قد انتسبت بعد إلى الحزب، لكن كان لديّ نشاطاتي)، اجتمعا هما الاثنان في دمشق، علماً أنهما كانا مسافرَيْن خارجها، وأخذا ينصحانني، وكان النقاش عادة بيننا هادئاً، ولا يرتفع صوت الواحد منا على الآخر، لكن في هذه المرة علت أصواتنا، رغم المحبة والاحترام العميقَيْن. كانت نصيحتهما أنني حتى لو كنت على صواب، فإن هذا الأمر يعرّضني للسجن وغير ذلك من الصعاب، وكنت آنذاك أعمل مدرساً، ونبّهاني إلى أن السلطات ستمنع توظيفي. أجبتهم أنه حتى لو كان الأمر كذلك، فإنني مقتنع بطريقي، وسأتابع السير فيه، فأنا أضع في حسباني الصعوبات التي تحدثا عنها.

في اليوم الثاني، سأل الوالد: لمَ كان صوتنا عالياً، إذ لا يحصل مثل هذا الأمر عادة؟ فذكرت له الوالدة أن السبب هو نصح أخويّ لي ورفضي لنصيحتهما. فأجابها: وما دخلهما به؟ ولمَ يعنفونه؟ إذا كان مقتنعاً، فهذا شأنه. وكان للوالد دور في دعمي من خلال موقفه الذي اتخذه.

وفيما بعد، قال لي والدي بهدوء: يا مراد سمعت عنك كيت وكيت، فهل أنت مقتنع بهذا الشيء؟ أجبته: يا أبي، ألا تذكر عندما كنا نتكلم عن الإسلام ومحمد، فقرأت لك القصة، وكنت متحمساً لمحمد؟ وأنا الآن في الوضع نفسه والموقف ذاته، ومثلما قال محمد عن الشمس والقمر، فإنني أقول لو وضعوا الدنيا كلها عن يميني، فإنني لن أتراجع، فبكى والدي[2].

بعض من خصال والدي

المغزى من ذلك أن والدي كان فارساً وشجاعاً ولا يهاب شيئاً، ونحن

---

[2] يذكر مراد انطباعه في أكثر من مكان عقب هذه المحادثة مع والده: "الحالة المثالية تكون حين تقترن في إنسان ما كلتا الصنعتين، الشيوعية في التكوين والعضوية في الحزب".

نعرف عنه ذلك، وقد حدثونا أنه قبل أن يعمل في المرملة كان يعمل في التجارة، إذ كان يشتري المحاصيل من المناطق الريفية، ويجلبها إلى المدينة كي يبيعها، وكان يشتري السكر والشاي والرز من المدينة، ويعود بحمله على جمل أو خيل ليبيعه في القرى شتاءً وصيفاً، كما حدثونا عن الأخطار التي كان يلاقيها، ولم أشاهده خائفاً من شيء في يوم من الأيام، وكان يواجه القضايا بكثير من الموضوعية والمباشرة دون لف أو دوران وبلباقة، وكان يجيب بهدوء على من كان يختصم معه ويرفع صوته عليه، ويحل المشاكل[3].

مهر الزواج كان أحد مواضيع المعاناة لدى أهل الجولان، وأذكر أنه حل مشكلتيّ اثنتين من قريباتنا كانتا تودان أن تكتبا كتابهما، وواحدة منهما أذكرها تماماً رغم أننا كنا صغاراً، فقد اعترض أقرباؤنا قبل كتب الكتاب بأن أهل العريس لن يستطيعوا أن يدفعوا المبلغ المحدد كمهر، وتساءلوا: كيف يزوجونه ابنتهم؟ وقد ناقشهم والدي، وقال لهم إنه ليس ضرورياً أن يؤخذ منهم مهر كبير، وسألهم: إذا كان لديهم ثلاث بقرات، فهل ستأخذونها منهم مهراً؟ وإذا فعلتم ذلك فكيف ستعيش ابنتكم التي ستزوجونها لابنهم؟

كان المهر آنذاك غالياً جداً، وكان يُعدُّ من الشطار ويحترم من يزوج ابنته بعد أن يقبض أكثر ما يمكن، لأن ابنته لن تكون أقل من البنات الأخريات. لذلك فقد ذهب أبي بالبنت، وكتب كتابها، وأتى لأهلها بمهر قليل قائلاً لهم: إنه يكفي.

وهناك حادثة ثانية جرت ضمن عائلتنا، فقد كان عندنا عم شيخ اسمه إبراهيم، توفي منذ سنتين أو ثلاثة، وكان طيباً جداً، وقد عمل مؤذناً في

[3] كتب نجدت أخي مراد لاحقاً، على لسانه: "من الوالدين وطريقة تعاملهما في الحياة مع الناس تشربت المفاهيم الأساسية، أهمّها: حب العمل، والجلد على شظف العيش، وحب المعرفة والإنتماء إلى الفعل الاجتماعي، والنزوع إلى مساعدة الآخرين، والاهتمام بالسياسة والتعامل مع الأحداث المحليّة والوطنية والعالمية. في بيتنا الفقير والبسيط، كانت تُعقد السهرات، وفيها يدور النقاش حول كلّ الأشياء: عن حياة الفلاحين وشؤون المعيشة والعمل، وحالة الموسم وأسعار الحنطة والشاي وحطب الوقود، وعن أحداث الثورة السورية الكبرى والثورة الفلسطينية، عن الفرنسيين المحتلين وعن النزاعات في المنطقة بين الوطنيين والمتعاونين مع الفرنسيين، وعن الحرب العالمية الثانية والغزو الألماني للاتحاد السوفييتي، بالإضافة إلى الأحاديث الدينية وقراءة القرآن وأخبار الرسل والأنبياء والصحابة وعلماء الدين، وكلّ ذلك في الغرفة نفسها التي نستعملها في الشتاء مكاناً للطبخ والأكل والوضوء والنوم واستقبال الضيوف الأقربين".

القنيطرة، وكان أعمى منذ صغره، وأحب عمنا إبراهيم فتاة عمياء أيضاً، وأحبته هي، وأراد الزواج بها، فعارضت عائلتنا، وكانت المعارضة من أعمامي تحديداً ومن بعض أقاربنا، وتدخل أبي بالموضوع، وعرف عمي إبراهيم بأن أبي يؤيده، فذهب وخطف الفتاة على الطريقة الشركسية، وأتى بها إلى بيته، وعقد قرانه عليها. وخلال النقاش الذي دار بين أبي والمعارضين لهذا الزواج قالوا له: أنت يا يوسف تريد تزويجهما، لكنه هو أعمى وهي عمياء، وقد يأتي أولادهما، لا سمح الله، عمياناً. فأجابهم: وما يدريكم أن عيون أولادهما لن تكون أفضل من عيونكم أنتم؟

وبالفعل فقد كتب كتابهما على نحو بسيط جداً، وأسسا عائلة من أفضل ما يكون، ورزقا بصبي، وهو ما يزال حياً، وعيناه أجمل وأفضل من عيون كثيرين بالفعل. والبيت الذي كان يعيش فيه عمي الأعزب الأعمى، الذي كان مكركباً قليلاً قبل زواجه، صرنا نجده مرتباً عندما كنا نذهب إليه بعد هذا الزواج، وكانت امرأة عمنا العمياء تصنع لنا الشاي، وتمد لنا طاولة الطعام، وكانت هي من تشعل بيدها ببور الكاز وتطفئه. ويقولون، رغم أننا لم نشاهد ذلك، إنها هي من كانت تنكش رأس الببور بالنكاشة، إن احتاج الأمر إلى ذلك، كما أنها كانت تعرف أين توجد أغراض البيت.

وقد تحدث أبي أنه كان في مرة من المرات قادماً من الجامع ماشياً، وأمامه عمي إبراهيم لابساً قبقابه وجراباته المرقعة، وكان مع أبي أحد معارضي زواج عمي، فقال أبي لهذا المعارض: انظر يا حاج إلى إبراهيم وإلى جراباته، التي صارت مرقعة ومخيَّطة بعد أن كانت مثقوبة قبل زواجه، وانظر إلى بنطاله المكوي، فهل كنتم تريدونه أن يبقى كما كان سابقاً؟ وضحكا.

كثيرة هي أمثال هذه القصة، مما حدث معنا ونحن صغار أو سمعنا عنها في البيت، وكثيرة هي النقاشات السياسية التي دارت فيه، لذلك فأنا تسيَّست في بيتنا، إذ كنت أقرأ في الجريدة للوالد وللسهارى عندنا، وكنت أستمع إلى القصص التي يقصونها وإلى تعليقاتهم وإلى الجدل بين أنصار ألمانيا وأنصار روسيا، وأثرت فيَّ الروح التي كانت لدى والدي تجاه القضايا الوطنية والإنسانية، وأنا أرى أن التعامل في بيتنا كان في صلب

التأسيس لطبيعتي ومفاهيمي.

في تصنيفي لوالدي

نحن نقرأ أحياناً في الروايات عن شخصيات أمية وغير متعلمة ولا ثقافة لديها، لكننا نجد من خلال سيرورة الرواية والعلاقات بين الناس للتعاون في حل القضايا والتعامل مع الآخرين والمختلفين عنهم، أنه ليس شرطاً أن يكون الناس مثقفين أو (فلهوية) كي يمارسوا ما نسميه نحن الديمقراطية والعدالة والإنصاف والتعامل دون ظلم أو غبن والاحترام لما يفكر به الآخرون. نعم نحن نجد أناساً شعبيين عاديين بتعليم بسيط يمارسون الديمقراطية دون أن يعرفوها، أو دون أن يكونوا قد سمعوا بها حتى. وأنا أعدُّ والدي من هذا الصنف من الناس بناءً على طريقة تعامله مع الآخرين، فكثيراً ما شاهدت مشاحنات من آخرين من الذين عملوا لديه أو معه، سواء كانوا من الأقرباء أم غيرهم، وكان يستمع إلى رأيهم بانتباه، ويجيبهم، فإن لم يقتنعوا وأخذوا يجادلونه ويرفعون أصواتهم، كان يقول لهم: افعلوا ما يحلو لكم، ولا تفعلوا ما لا تريدون، وكان ينأى بنفسه عن الرد بصراخ أو انفعال، ولذلك كان يتمتع باحترام العائلة والآخرين، وكانت كلمته مسموعة، وكان هو مرجعاً، وقد عشنا في هذا الجو[4]. وإذا كانت لديَّ ميول ديمقراطية الآن في تعاملي مع الآخرين، فإنني اكتسبتها في الحقيقة من البيت أكثر مما اكتسبتها من الثقافة والتعليم، رغم أننا لاحقاً صرنا نعرف ماهية الأمور من خلال قراءاتنا.

---

4) في أوراقه يكتب مراد عن والده: "الوالد كان منحازاً للثورة السورية والحركة الوطنية ضد الفرنسيين، مع الثورة الفلسطينية ضد الإنكليز، ومع الاتحاد السوفييتي ضد هتلر. وكانت سلوكياته ومواقفه منسجمة مع مفاهيمه، وله صداقات حميمة لدرجة التآخي مع عرب ومسيحيين ودروز وغيرهم من سكان القنيطرة والمنطقة. وكان يستضيف في البيت من يلتقي بهم من الإفريقيين المجندين في القوات الفرنسية، ويسكت احتجاج الوالدة بإقناعها أن هؤلاء مسلمون ومغلوبون على أمرهم مثلنا، ولم يأتوا من بلادهم البعيدة ليحاربونا بإرادتهم، ويشجعني على تعليمهم القرآن الكريم والقراءة والكتابة بالعربية.

ومن السلوكيات التي ظلّت محفورة في الذاكرة ومؤثرة في حياتي حتى اليوم: كان الوالد يحمل أخلاق الفروسية مع طبيعة في منتهى البساطة، كان جلوداً على العمل وشظف العيش وخوض المخاطر بجرأة الفرسان. في نفس الوقت، يتهدّج صوته وتنهمر دموعه وهو يرتّل سورة يوسف، وكيف رماه أخوته في البئر، بينما هو يستمع إليّ وأنا أقرأ له عن الحوار بين عبد الله بن الزُبير وأمه أسماء بنت أبي بكر حين دخل عليها ليودّعها لملاقاة الحجاج...".

وفي السياسة كان والدي مؤيداً للمطالب الوطنية ووقف إلى جانب الثورة والمعبرين عنها في الأحزاب، وميَّزها خلال فترة الاستعمار الفرنسي، وقد دعم الحزب الوطني وحزب الشعب، إذ لم تكن قضايا التقدم مطروحة آنذاك، وكان ضد المتعاونين مع الفرنسيين، وهؤلاء كانوا موجودين عند العرب وعند الشراكس.

عائلتنا والإيمان

بيتنا كان بيتاً مؤمناً، فالوالد مؤمن، والوالدة ابنة شيخ، وأبوها كان حداداً ماهراً في البريقة، الذي كان لديه مَحْدَدَة في البيت كنت أراها في طفولتي عندما أذهب إلى بيت جدي وأخوالي، وكنت أدخل إليها وأنفخ له بالكور لتأجيج النار وصَهْر الحديد. كان جدي يصنع المحاريث ويصلحها للفلاحين، وكان يصنع كل ما له علاقة بالحدادة لضيعته والضيع المجاورة الشركسية والعربية، كما كان يصلح الأسلحة من مسدسات وجفوت وبواريد، وكان متعلماً ومن الذين يضعون لفة (لام ألف) صفراء، وكان صديقاً لشيخ الضيعة وإمام جامعها، الذي كان شيخاً فهيماً، وقد علَّم جدي الأولاد والبنات القرآن، وافتتح الكتاتيب دون مقابل، وتعلّمت أمي القرآن لدى أبيها، وقرأته قراءة عادية وعرفت السُوَر، فقد كانت تفك الحرف فقط، لأنها لم تتعلم في المدرسة، وكانت تستطيع القراءة في الجريدة، وتحديداً العناوين الكبيرة، لكنها كانت تتكلم العربية بضعف.

أصل نسبتنا ومشكلتنا معها

وفيما يتعلَّق بالإسلام، فإن والديَّ كانا مؤمنين، وكان يوجد في العائلة علماء دين، فأبو جدي زكريا، أي جد والدي، كان يكنى في الجولان بالحافظ، وكانوا يدعوننا أبناء الحافظ، في حين أن نسبتنا الأصلية هي (تَحرقواخوا)، ولن تجد اثنين من العرب يلفظانها لفظاً واحداً، وقد فسرها لي أحد القفقاسيين من أقربائنا بأن معناها (مربو أبناء الله)، فالشعب الشركسي من الشعوب القديمة، رغم أنه لم تكن له دولة، ولم يتشكل له كيان إلا زمن السوفييت، وأنا هنا لا أريد أن أقول إن الشركس شعب

عريق، لكنهم مع ذلك شعب موغل في القدم، وقد عدَّ بعض المؤرخين الغربيين من ألمان وإنكليز وروس أن السومريين امتداد لهم، أو أنهم امتداد للسومريين، وتوجد دراسات وبحوث حول ذلك. وبحكم قدم الشعب فهناك أساطير وقصص شركسية تتعلق بالآلهة، وتمثل تراث هذا الشعب ذي التاريخ القديم، فالإلهة إينانا وغيرها من الآلهة لهم ما يقابلهم في اللغة الشركسية، وهناك قصص شركسية معروفة باسم نارت أو النارتيين، ويعني ذلك بالعربية العمالقة، وعموماً فإن كل الأساطير الموجودة لدى اليونانيين موجودة أيضاً لدى الشراكس، لكن بقوالب وتسميات أخرى. وربما كان حاملو هذا اللقب، أي (مربو أبناء الله) من المربين أو الكهنة، فالنسبة قديمة[5]، وهي تسبب لنا الآن مشكلات في النفوس ولدى التعامل مع الدوائر، فهي مسجلة في بطاقة هويتي (تحقاخة)، ومسجلة لدى آخرين (تحقافة)، لذلك فنحن نقع في إشكالات، وأولادي يطلبون تغييرها، لأنه لدى كل مراجعة لدائرة تُخلق لنا مشكلة.

ثانية حول العلاقة بالدين

على كل حال، فإن الفكر الذي عشته في البيت وفي بيئتنا كان الفكر الديني، لكنه الفكر الديني الإيماني الصافي الأخلاقي الإنساني الذي يسوده التعاون والتسامح والمساعدة وتجنب الشرور وتجنب المفاسد. كان هذا هو دين الأهل ودين الذين كانوا حولنا. وكان هذا سائداً على نحو كامل في البيت. كان الوالد يحب العلم، ويرغب أن يتعلم أولاده ويدرسوا، والعلم عنده كان يقترن إلى حدٍ ما بالعلم الديني. ففي العائلة كان يوجد اثنان أو ثلاثة متعلمون، ومنهم الجد حافظ، الذي درس في إسطنبول أو غيرها، وقد يكون في الأزهر لا أدري، إذ ليس لدينا تفاصيل تاريخه، وقد كان أولاده من الذين هاجروا، أما هو ذاته فقد كان في القفقاس يقرأ القرآن ويعلمه، وقد ورَّث أبناءه إلى حدٍ ما هذا الأمر، ومن ضمنهم ابن عمي

---

[5] يذكر نجدت أخي مراد في هذا ما يلي:

تروى النسبة بألفاظ وأشكال مختلفة، فـ تحرقواخه تعني مربي الطيور، أما اللفظ تحقواخه فهي مربي أبناء الله، وتأتي لفظة تحقواخوه التي تعني مناجي الله من أسطورة شركسية: ففي إحدى سني المحل صعد وفد من الشراكسة إلى قمة جبل لطلب رحمة الخالق وعلى القمة طلب كبيرهم من أحد الصفاة الصعود إلى شجرة عالية لمناجاة الله من مكان أكثر قرباً فسمعه، وسمي بـ "تحقواخوه".

الذي كان يتعاطى كثيراً مع السياسيين من المتعاونين مع فرنسا، لكنه كان معتدلاً وعالماً. وكان كثيراً ما يقص في سهراته الليلية قصصاً عن جحا، وقصص المشايخ وشراهتهم ومعيشتهم وأكلهم وشربهم ومشاكلهم كذا، وكان ينكت دائماً، وأحياناً كانت نكاته تطول من هم أكبر منه، ثم يستغفر الله ويقول: سنقرأ لكم ما تيسر من القرآن الكريم. وكان يسألني: وأنت يا مراد، ماذا تحب أن تسمع، سورة يوسف أم سورة مريم، لنقرأ لك منهما؟ وكان يقرأ بصوت رخيم وتجويد عالٍ وجميل جداً. ولغاية الآن، فإن قراءته بين قراء القرآن هي المؤثرة والحلوة في ذهني.



تمثيليات مرحة مع صبري حسين في بيت القنيطرة، 1946.



مراد وأخوته في خمسينات القرن العشرين: جالساً حباب، من اليمين عز الدين، نجدت، مراد.

طريق إلى المعرفة

من ذكريات مرحلة الدراسة الابتدائية

وهكذا، كان أبي يحب أيضاً أن يتعلم إخوتي الكبار، لكنهم لم يفعلوا، فقد وصلوا إلى الصف الرابع أو الخامس وتركوا. أما أنا فقد كنت أكثر تعلقاً بالقراءة، ومداوماً على العلم في المدرسة، وأسهر حتى وقت متأخر على ضوء الكاز لكتابة الوظائف وحفظ الدروس. كنت أحب اللغة العربية في المدرسة الابتدائية من الصف الأول إلى الصف الخامس، إذ دائماً كان يوجد أربعة أو خمسة تلاميذ يقرؤون المقطوعات الشعرية، التي كنا نسميها المحفوظات أو الاستظهار، بعد النشيد وقبل الدخول إلى الصفوف أو في الاستراحات، أو أحياناً أثناء دروس القواعد العربية، وكنت واحداً من بضعة تلاميذ في الصفوف جرى انتقاؤهم لإلقائها في اجتماعات تلاميذ الصفوف، وأتذكر منها حتى الآن قصيدة أحمد رامي (**الجندي المجهول**).

يا شهيدَ العـــلا ورمزَ الفـداءِ لكَ مني تحيـــةُ البُسـلاءِ

أنزلوكَ الترابَ من غيرِ اسمٍ ولكَ اليومَ أشرفُ الأسماءِ

وهي قصيدة كان المعلم يدبني أن ألقيها بين الحين والآخر، وكذلك قصيدة عن عمر المختار وقصائد أخرى مماثلة، لذلك رغب والدي كثيراً أن أكمل، ونلت الشهادة الابتدائية (شهادة السرتفيكا) في العام الدراسي 1941 – 1942، وقد تقدمت لامتحاناتها هنا في دمشق، إذ لم يكن متاحاً آنذاك تقديم الامتحانات في القنيطرة، ولم يتح ذلك إلا في مرحلة لاحقة.

وقد جلبونا إلى دمشق، وقدمنا الامتحانات في مدرسة معاوية، ونجحت، ونلت شهادة السرتفيكا، وبقي التعليم الإعدادي والثانوي، ولم تكن الأحوال المادية مناسبة كي يرسلوني إلى دمشق لأدرس المرحلة الثانوية في التجهيز، إذ كانت مدرسة التجهيز هي الثانوية الوحيدة على ما أذكر.

في هذه المدرسة النموذجية، التي لم أسهب في الحديث عنها، كانت الأناشيد التي نرددها صباحاً عند تحية العلم، قبل أن تبدأ الدروس هي نشيد (حماة الديار) وآخر لم يعد يردد كثيراً هو نشيد (موطني)، رغم أنه كان

نشيداً يردد يومياً، كما كنا نردد أناشيد مؤثرة جداً لم أعد أسمعها، ومنها نشيد (هبت علينا) الذي يقول:

هبّتْ علينا لمـــــــا أتينا ريحٌ منَ الأوطانِ تصدينا
والنفسُ هانتْ والحربُ قامتْ ما بيننـــا وما بينَ أعدانا
صوتُ المَدافع نحنُ المُدافع لا عاش من يبغي لنا هوانا
إن الليالي تِلوَ الليالي والحربُ في النيران تُصليـــــنا

وهذه الأناشيد التي ما زالت تتوارد في ذهني، فقد كنت متعلقاً بالقصائد الوطنية.

الدراسة في الكلية الشرعية بدمشق

مضى شهر أو شهران دون أن ألتحق، وانقضى وقت التسجيل، وحزن أهل البيت لأنني سأبقى دون تكميل تعليمي، وفي يوم من الأيام جاء عمي العالم الذي ينكت ويقرأ القرآن، وقال: جلبت لكم اليوم خبراً حلواً، فقد وجدت مدرسة لمراد. سألوه عنها، فحكى أنه يوجد مدرسة جديدة افتتحت في دمشق، وهي مدرسة دينية يعلّمون فيها الدين، ويتخرج فيها علماء دين يدرسون المرحلتين الإعدادية والثانوية، وقال: إن الدراسة فيها مجانية، وفيها مبيت، وإن السكن والأكل مؤمنان، ويعطون فيها التلميذ حتى الكتب والدفاتر، ولا يبقى غير مصروفه وذهابه وعودته في العطل[6]. سُرَّ الأهل، وسألوا إن كانوا يستطيعون تسجيلي فوراً، وجهزوا أوراقي اللازمة للتسجيل في هذه المدرسة التي كان اسمها الكلية الشرعية، وكانت موجودة في زقاق النقيب، بمنطقة العمارة.

أنا فرحت، أما أبي وأمي فعيّدا، وعدّاها أحسن من مدرسة التجهيز، فقد كانا يريداني أن أصبح شيخاً وعالماً، وأنا حقيقة كنت فرحان ومبسوطاً، فهذا كان منسجماً مع نفسيتي، فقد كنت آنذاك أصلي وأصوم، وكان إيماني

---

6) يكتب الرفيق نجدت نحفاخة في الذكرى السنوية لرحيل أبي سامي: "كان مراد متفوقاً في دراسته الابتدائية، وقد شغل أمر متابعة دراسته الأهل والأقارب، فليس في القنيطرة مدارس أعلى، وليس في وسع الأهل الإنفاق عليه في دمشق. إلى أن جاء الفرج على يد أحد أعمامه: المدرسة كلية الشريعة الإسلامية في دمشق، فهي تعني الدراسة والإقامة والطعام والكتب المجانية، وتعني أن الولد سيكون عالم دين أو قاضياً". **النور**، السنة الثامنة، العدد 378، الأربعاء 25 شباط 2009.

مثل إيمان أمي وأبي، والدين بالنسبة إلينا كان يعني التسامح وحب الآخرين ومساعدتهم وحب الخير وكره الشر والظلم. وبالمناسبة كان في بيتنا كره شديد لكل شيء فيه ظلم، فأبي وأمي كانا يتصديان لكل شيء يريان فيه ظلماً لشخص، سواء كان ذلك في محيط الأسرة أم خارجها.

أتينا إلى دمشق، وبدأت مرحلة جديدة، وكنت مسروراً لدخولي الكلية الشرعية، وتابعت الدراسة الدينية بحماسة في الصفين السادس والسابع وبانسجام في المدرسة[7]، وتكوّن لديَّ أصحاب وأصدقاء من المحافظات، إذ كان هناك تلاميذ من ريف دمشق ودمشق نفسها ومن حمص وحماة وحلب ودير الزور والبوكمال. كانت هذه مرحلة جديدة. وفي الصف الثامن تقريباً بدأت تحولات يمكن القول عنها إنها فكرية، فقد بدأ فكري يتوسع، فأنا خرجت من شبه ضيعة، وأتيت إلى دمشق ورأيتها، ودخلت السينما، التي لم تكن موجودة في القنيطرة، وتعرَّفت إلى المرجة وسوق علي باشا الذي كان يمتد من المرجة إلى سوق الهال القديم، الذي كان سوقاً جميلاً، وداخله وُجِد مقهى شعبي بسيط جلس فيه غالباً الشراكس والأتراك، وأخي كان يتردد عليه، وكان اسم المقهى مقهى بيرم، وكان القهوجي فيه أرناؤوطياً ألبانياً، ولا يمكن تشبيه المقهى المذكور بمقهى النوفرة، لأنه كان داخل سوق علي باشا، وكان متطاولاً وأذكر أنه كان يتسع لنحو ثلاثين كرسياً، وكانت (الطرابيزات) هناك صغيرة وحديدية تنتصب على ثلاثة أرجل، أما كاسات الشاي فكانت مخصوّرة ومذهبة، والشاي رائع جداً، وكنت أذهب إلى السينما والتكية السليمانية وملعب الحشيش، الذي كان يوجد في منطقة معرض دمشق القديم، والذي سمّي لاحقاً بالملعب البلدي، فأشاهد فيه مباريات كرة القدم، وكنت مغرماً كثيراً بها، وكذلك الأسرة كلها ، وكان إخوتي لاعبين مهرة الأكبر بينهم والأصغر فيما بعد.

---

7) يكتب مراد عن مدرسته (الكلية الشرعية) بدمشق: "كانت تشغل بيتين عربيين واسعين من طابقين، وفيهما غرف كثيرة وباحة واسعة مبلطة ومزروعة بنسق جمالي أخّاذ، من أشجار النارنج والبرتقال والليمون إلى شجرة جوز كبيرة. وفي المنتصف نافورة، وفي الأجناب حصر كثيرة وبسط نصلي عليها فردياً وجماعياً. وندرس في أحد البيتين، وينام في الثاني الطلاب القادمون من المحافظات من أمثالي من الفقراء والدراويش، ولكن ليس من السّذج".

كانت المدرسة الشرعية مدرسة داخلية، بمعنى أن الأكل والشرب والنوم كان يجري في المدرسة، وقد كانت الدراسة والمطالعة في بيت عربي كبير في زقاق النقيب في العمارة الجوانية، وإلى جانبه على بعد عشرين خطوة مهاجع في بيت عربي آخر للأكل والمنامة، وكنت أذهب في إجازات أيام العطل. وكان يمكننا الذهاب يوم الجمعة، فأذهب إلى القنيطرة، أما هنا في دمشق فكنت أذهب لزيارة الأقارب والمعارف. ففي المهاجرين كان يسكن قريب لنا، وكنت أذهب إليه، وكان إذا جاء أحد إخوتي يأخذني معه إلى السينما أحياناً. وفيما بعد صرت أذهب إلى السينما وحدي. هنا بدأت حياة جديدة تماماً مختلفة، ففي داخل المدرسة جرى تغيير فكري كبير فيما يتعلق بمسألة الإيمان والدين، وأفكاري تبدلت تبدلاً جذرياً باتجاه الابتعاد عن الدين كلياً، رغم أنني كنت أدرس في كلية شرعية بوجود مشايخ وعلماء أكثريتهم يضعون حطات بيضاء وبعضهم لفات صفراء ويرتدون جبات. وكنا ملزمين بارتداء اللباس الرسمي في المدرسة وبوضع لفة على الرأس.

أسباب موجبة للنفور من المتظاهرين بالتديّن

السنتان الأولى والثانية، أي الصفان السادس والسابع، مرّتا تقريباً مروراً عادياً، وإن كانت قد ظهرت فيهما البدايات والأسباب التي أنزعج منها والمؤدية إلى ابتعادي عن الدين. إنها تعامل المشايخ، سواء كانوا بعض المدرسين أم بعض الناظرين وغيرهم. بمعنى أنني كنت أنزعج من تعاملهم المتكبر الفوقي، وأول شيء في هذا التعامل تقبيل اليد، فوالدي لم يعلمنا أن نقبل يده أبداً، ولا أمي كذلك. لاحقاً بعد أن كبر أبي وأمي وكبرنا نحن، كنا نحن نذهب ونقبل أيديهما، أما عندما كنا صغاراً، فإنهما لم يعوّدونا على تقبيل اليد، حتى لو كانت يد الكبار. هذه العملية لم أفهمها حتى الآن، ولم أرها إلا في هذه المدرسة. مثلاً كثيراً ما كان يقال لي وللتلاميذ: ها قد أتى الشيخ، فاذهبوا وقبلوا يده، وأنا لم أكن أفعل ذلك. هذه كانت أول الأمور التي شغلت ذهني، أما الأمر الثاني فكان سوء تعامل بعض المدرسين، وأنا لا أريد أن أقول تعامل كل المدرسين، لأن بعضهم

كان مستقيماً وجيداً والبعض الآخر فظاً وجلفاً.

الظاهرة الثانية التي أزعجتني بعد تقبيل اليد هي الجشع لدى تناول الطعام في هذه المدرسة الداخلية، إذ كان هناك تهافت كثير على الأكل عند صغار الموظفين أو عند قسم من التلاميذ، الذين أظهروا جشعاً وحب الاستئثار بالأحسن والأفضل، هذه الأشياء أزعجتني وكرَّهتني وحتى صدمتني، وجاءت تعاملات الناس التمييزية، فالأساتذة كانوا يميزون بين الذين يأتون لهم بهدايا ويقبلون أيديهم ويسايرونهم ويتملقونهم، وبين الذين لا يفعلون ذلك. يعني كان هناك نفاق وكذب وعدم مصداقية وتمييز بين الناس وممارسة الغبن والظلم. وهذه أشياء بدأت ألمسها في واقع المدرسة. يعني كان هناك فصام بين التسامح الإنساني والأخلاقي والديني، وبين التصرفات والممارسات المسلكية[8]، بدءاً من التعامل بالسلام وصولاً إلى العلامات والنجاح والرعاية والاهتمام بالتلميذ لأسباب مصلحية، وهي أسباب صغيرة أحياناً ومرتبطة أحياناً بأبناء العائلات إن كانوا يعرفونها أو لا، ثم إن بعض التلاميذ من المحافظات كانوا يصلّون دون وضوء، ويتملقون المشايخ والمدرسين وما شابه ذلك، وينجحون، ويأخذون علامات[9].

الصدمة الأخرى كانت صدمة قومية ودينية، لذلك بدأت أنفر من تصرفات هؤلاء الناس بشخوص هؤلاء المدرسين، وشيئاً فشيئاً بدأت أرى

---

8) كتب مراد حول ذلك لاحقاً: "في هذه المدرسة أحبطت معتقداتي الإيمانية الحقيقية، التي يُدين بها بسطاء المؤمنين، الذين يرتبط الدين والإيمان عندهم بالنزاهة والاستقامة والتعاون ومحبة الناس. كان عندي قبل أمل كبير في أن أكون عالماً نافعاً في الحياة، وكانت صورة العالم الديني عندي أنه الذي يميّز الخير من الشرّ، ويناصره ضد الظلم. صورة العالم الإنسان والمعلم الصادق، وليست صورة العالم بجبته وعمامته فحسب. صُدمت إذن صدمة شديدة بالمحيط البشري، بالمناخ الفاسد الذي وجدته في المدرسة لدى الجميع تقريباً، لدى الأساتذة والشيوخ من المعممين والمطربشين. صُدمت بالنفاق والتملق والنميمة والسخرية من الآخرين. كانت الأغلبية من هذا النوع، وكان هناك أمثالي من البسطاء الطيبين، ولكننا كنا أقلية".

9) يكتب مراد عن تلك المرحلة: "كانت همومي ورغباتي المسيطرة على ذهني هي أن أتابع دراستي، فأصبح عالماً يعرف كيف يساعد الناس، ويميز الخير من الشر، ويناصر العدل. صورة العالم الإنسان، لا الصورة التقليدية بالجبة والعمامة والطربوش واللحية السوداء أو البيضاء والحمراء. كان ذلك مناخاً فاسداً بالنفاق والتملّق".

ويعلّق نجدت شقيق أبي سامي قائلاً: "لم يتحمّل مراد هذا الجو أكثر من أربع سنين، فكان هذا الموقف أول انقلاب فكري في حياته". **النور**، المرجع السابق.

أن الدين الذي كنت مؤمناً به ليس هو الذي أشاهده. هذه الصدمة الفكرية ذات طبيعة قومية، حتى ذلك الوقت لم يكن لديَّ تمييز بين شركسي وعربي، فبيتنا في القنيطرة كان مفتوحاً للجميع من عرب ومسيحيين ودروز. وحتى وقت الحرب عندما أتى الجيش الفرنسي، وأنزل قواته في القنيطرة، وكان ضمنها سنغاليون سود من إفريقيا، وبين هؤلاء مسلمون، وقد انزعجنا منهم جداً في البداية، إذ كانوا فضوليين ووقحين. ثم تعرف والدي وأخي الأكبر عزو إلى بعضهم، وكانت أسماؤهم محمد ومحمدو وغير ذلك، وصار أبي يدعوهم إلى البيت، فيأتون ويسهرون عندنا ويتعشون معنا في الغرفة ذاتها، حيث توجد أمي وأختي الصغيرة، ويجلسون حول المائدة التي كان يوجد عليها شاي وزيتون وجبن وما إلى ذلك، ويسمعون القرآن الذي يرتله عمي.

لذلك فإن التمييز عندنا بين مسيحي ومسلم، شركسي وعربي، أبيض وأسود لم يكن موجوداً، أما في المدرسة فالتمييز كان موجوداً، الشامي كان له معاملة أخرى، وكذلك الذي يقبل اليد، أو الذي يجلب هدايا، وهذا ما نفرني. الصدمة القومية كانت في الصف السابع أو الثامن، إذ كان هناك مدرس يعطينا درس التفسير، وكان شيخاً يضع عمامة (لام ألف) صفراء، ووجهه مورد، ولحيته شقراء طويلة، وكان بشوشاً ومن الأساتذة الذين كنت أحبهم ومعجب بهم وأحب درسهم، فقد كان يعطي المادة على نحو جميل.

في يوم من الأيام عندما كان يقرئنا القرآن، وكان يفعل ذلك بالدور. وجاءني الدور وكنت أقرأ الآية التالية من (سورة التكوير): **(وإذا الموءودة سُئِلَتْ بأي ذنبٍ قُتِلَتْ)**، التي تتحدث عن الوأد وتنقد هذه العادة عند العرب، وكان هذا الدرس مشروحاً سابقاً ونعرف ماذا يعني الوأد والموءودة، وقد سألني عن معنى الوأد، فوقفت لأجيب، وقلت: أستاذ، الوأد عند العرب يعني كذا وكذا. فأجابني محتداً وبغضب شديد: لا احكِ لنا عن الخطف عند الشركس. فجمدت عند ذلك، فشعرت بشيء من التعصب القومي لديه. طبعاً الوأد شيء سيِّئ، ولم يعجبه عندما قلت الوأد عند العرب، وظنَّ أنني أعيره بالوأد، وقد قلت له: أستاذ، الخطف عند

الشراكس ليس نقيصة، وهو ليس مثل الوأد، ويحصل الخطف عندما يحب الشاب الفتاة وتحبه، ويكون أهله أو أهلها غير موافقين، لذلك يخطفها، ويضعها أمانة عند شيخ أو وجيه أو المختار، ويبلّغ بالأمر، فتأتي وجاهة لعند الذي استضاف الصبية، وتتدخل الوساطات، فيكتبون الكتاب، ويزوجونهما، ولهذا فالخطف ليس عادة سيئة، بل عادة اضطرارية لحل مشكلة. كنت أريد قول ذلك، وهو يقاطعني ولا يدعني أكمل. ولأنني قلت إنها ليست عادة سيئة، فقد أصرَّ أنها عادة سيئة رداً على قولي إن الوأد عند العرب هو كذلك. كان بجانبي طالب شركسي أكبر مني، من الجويزة من آل شاكوج، وكان يشدني من يدي كي أهدأ، فقد عصَّبت، إذ شعرت كأنه سبني أو اتهمني بشيء أنا لم أقصده، وكرهت هذا الأستاذ الذي كنت أحبه. وكانت هذه أول مرة أشعر بأني شركسي، وأنني مختلف عن العربي بشيء له علاقة بالعصبية القومية.

لمجمل هذه الأسباب، ومنها أنهم كانوا يخبئون الأكل، كأن يحتفظوا لأحد الناظرين بعشر بيضات، كانت تحدث النكت فقد كنا نتظاهر بالنوم عندما ندخل إلى المهاجع كي ننام، وكان هذا الناظر الذي يضع لفة (لام ألف) لينادي على نادل المطعم بالقول: (أين بيضاتي؟)، فيبدأ التلاميذ ضحكهم المكبوت.

هذه الحالة مع التدين والإيمان الصافي والنقي والمساعدة والتسامح والمحبة بين الناس ومساعدة الآخرين شكلت مفهومي للدين. كنت متديناً جداً، وأتيت إلى دمشق، وفيها تكرست لديَّ المفاهيم الوطنية من خلال المدرسة والمظاهرات الطلابية التي كانت تقوم ويدعوننا للمشاركة فيها، وفيها كنا نسمع شعارات: (ليسقط الاستعمار الفرنسي)، ونشاهد إغلاق الأسواق والإضرابات والاصطدامات مع الجنود السنغاليين والقوات الفرنسية في الشوارع، كل هذه المشاهد عشتها خلال السنوات الأربع من الدراسة الإعدادية، لما حدثت الإضرابات وقصفت دمشق صرفونا نحن، وتلتها معركة الجلاء، كما أتذكر. وهكذا انقطعت أنا عن المدرسة، ثم أتينا وحضرنا أول احتفال بالجلاء عام 1946، وبعد ذلك سافرت إلى مصر في تلك الحالة التي ابتعدت فيها عن الدين، ليس بالمفهوم الإلحادي، بل

بمفهوم ترك العبادات، فقد كنت أصلي وأصوم دائماً، لكنني تركتهما بالتدريج خلال هذه السنوات الأربع في المدرسة الشرعية نتيجة مشاهدتي لطلاب يضعون العمائم ويصلون دون وضوء.

وهكذا فإن ابتعادي عن الدين في المدرسة جاء نتيجة النفاق والتزلف اللذين كانا يحدثان فيها، ونتيجة العلاقات التي كانت قائمة بين المعلمين والموجهين والتلاميذ، وحتى ما بين التلاميذ أنفسهم. كنت ألاحظ كيف يستخدم الدين لمصالح شخصية، وكيف أن بعض الأشخاص يتظاهرون بالتدين: يُقبّلون يد الشيخ، ويتزلفون له، ويصلون خلفه كي يراعيهم ويحبهم. هذه الأمور كلها أدت إلى رد فعل لاشعوري تطور شيئاً فشيئاً حتى الصف الثامن، فتركت المظاهر الدينية وإن كان الإيمان بالمعنى الإنساني لم يتغير[10]، فقد وجدت أن الدين لم يعد وسيلة للتعاون بين الناس بمقدار ما كان يستخدم وسيلة للتزلف.

لكل قاعدة شذوذ

كان بين الناظرين أناس طيبون وجيدون، ومنهم الشيخ صلاح الزعيم أخو حسني الزعيم، وكان من المحبوبين كثيراً لديّ، فقد كان متواضعاً ومتقشفاً وعفيفاً، كان يأكل قليلاً، ولا يطلب مخصصات إضافية. كانت الصلاة تؤدى في الساحة على حُصُر ممدودة. وبعد العشاء كنا ندخل إلى غرفة المطالعة، وكان هو يتمدد على الحصيرة هناك للمحافظة على هدوئنا، دون أن يكون عليها مخدة، وكان لا يطلب من أي أحد أن يأتيه بشيء، فسألناه يوماً: يا أستاذنا، يا شيخ صلاح أنت تنام أو تتمدد هكذا على حصير رطب، فهل نأتيك بشيء؟ فأجابنا: قال عمر بن الخطاب (اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم)، يا أبنائي على المرء على ألا يعوّد نفسه عليها. لقد كانت معاملته جيدة، وكان حازماً وعادلاً، وكان منصفاً بين التلاميذ، ولا يميز بينهم. لذلك فمجمل هذه الأشياء التي رأيتها بالتعامل بين

10) يقول مراد عن الفترة التي تلت هذا التطوّر: "كنتُ قد تخلّيت نهائياً، بوعي مني أو بلا وعي، عن ممارسة الشعائر الدينية، دون أن يقترن ذلك بالإلحاد. وبقيت على احترامي وتقديسي للقيم الإيمانية الموروثة من أهلي وبيئتي الجولانية".

بعضهم ومع الآخرين، ودون وعي، وشيئاً فشيئاً وجدت نفسي أبتعد عن الدين. ولم أعد أواظب على الصلاة أو أهتم بها.

ومن هؤلاء الأستاذ قصاص، الذي كان يدرِّسنا مادة الرياضيات، وكان أستاذاً ممتازاً يحب التلاميذ، ويتعامل معهم على نحو جيد جيداً. ومنهم أستاذ آخر درَّسنا التاريخ، وكان إنساناً متقدماً في السن، يعرف التاريخ القديم، وكان يرويه لنا، كما كان يكتبنا إياه أحياناً، إذ لم تكن كتب التاريخ متوفرة عندنا، لكنه كان خبيراً وعالماً بالتاريخ، وكان يحدثنا عن تاريخ الشعوب القديمة. هؤلاء المدرسون الثلاثة كانوا المتميزين عندي خلال دراستي.

انقطاع إجباري عن الدراسة

كنت في الصف التاسع عام 1945 عندما قصف الفرنسيون دمشق، وكنا نخرج بمظاهرات، وظهرت لدينا فكرة في المدرسة أن نذهب إلى القلعة للتطوع، وذهبت مجموعة إلى هناك، فقالوا لهم: نحن نأخذ متطوعين متدربين، أنتم لا تفيدوننا. قبل ذلك حدثت إضرابات مطلبية في المدرسة، وكان مطلب التلاميذ الرئيسي هو معادلة الشهادة الثانوية في المدرسة بشهادة الثانوية الرسمية العامة، وكان هذا الأمر موضع أخذ ورد، كما كان لديهم مطالب معاشية كتحسين الطعام وغير ذلك.

بعد القلاقل التي تراوحت بين مظاهرات ومطالب معاشية، جرى إغلاق المدارس في أيار 1945، وصرفونا منها، فانقطعت عن المدرسة وعن الدراسة بهذا الشكل، ولم أكمل، ودام انقطاعي عن الدراسة نحو سنة أو سنة ونصف، ولم يكن المجال متوفراً كي أنتقل إلى التجهيز أو إلى مدرسة خاصة. فأخي الكبير بعد أن رجع من فرنسا صار يعمل في دمشق، وإن كنت قد نسيت ماذا كان يعمل، إذ كنت أنا وهو موجودَيْن في دمشق، ثم رجعت أنا إلى القنيطرة سنة 1946، وبدأت أعمل بكل عمل أجده هناك، وأذكر أنه حصلت آنذاك موجة جراد، وقد تسجلت مع أحد المتعهدين، وعملت معه نحو شهر في مكافحة الجراد بحوران.

الدراسة في الأزهر

في هذه الأثناء أتى أخي بخبر أنه يجري قبول الطلاب في الأزهر، حيث الدراسة والمنامة والكتب مجانية إضافةً إلى خرجية شهرية مقدارها جنيهان أو ثلاثة، وهي تكفي للطعام والمصروف، وسألني إن كنت على استعداد للذهاب، وقال إن هذه فرصة ذهبية، وقد ذهب شباب من الجولان والقنيطرة. استخرجت جواز سفر، وسافرت إلى مصر في تشرين الثاني 1946. وكانت كل رغبتي في أن أصبح شيخاً، مع أنني لم أكن أرى أن ذلك هو المخرج المناسب للحياة.

بهذا الشكل ذهبت إلى مصر، وانتسبت للدراسة الثانوية في الأزهر نحو سنةً ونصف تقريباً. كانت الدراسة في الجامع، حيث كنا نقرأ المقدمات في الكتب المخصصة قبل الدراسة الجامعية العليا في كليات اللغة والشريعة وأصول الدين. وهناك بدأت حياة جديدة تختلف ووضع وعالم جديدين. إذن، انتقلت من القنيطرة إلى دمشق ثلاث أو أربع سنوات تعرفت فيها على المدينة وعلى الكلية الشرعية وما فيها، ثم انتقلت إلى الأزهر في قاهرة مصر لأتعلم فيه.

سافرت إلى مصر، وكان انتقالي قبل ذلك من القنيطرة إلى دمشق انتقالاً كبيراً، باعتبار أن مدينة القنيطرة كانت بلدة صغيرة ريفية ومحدودة، بينما في مدينة دمشق تعرفنا على السينما والأسواق والمظاهرات وغيرها من الأشياء وأجواء أخرى. وسبق أن تحدثت عن بعض الشخصيات في المدرسة والهيئة الإدارية، الذين كانوا متميزين بأخلاقياتهم الرفيعة وتعاملهم الإنساني ومنهم الشيخ صلاح الزعيم.

كان لي صداقات مع تلاميذ من مختلف المحافظات من دمشق وحمص وحماة وحلب والقنيطرة ومن رنكوس. كانت بعض هذه الصداقات متميزة واستمرت حتى مات أصحابها وهناك بعض زملاء الدراسة الذين لم أعد أراهم. كان الفضاء في مصر أوسع بكثير، إذ كنا في القاهرة نصعد إلى مئذنة الأزهر في مكان سكننا، ولم نكن نرى أطراف القاهرة، إذ كانت مدينة على امتداد البصر، كان سكان القاهرة نحو المليونين آنذاك، بينما كان عدد سكان سورية كلها نحو مليونين ونصف أو ثلاثة ملايين في

الأربعينيات، كانت القاهرة مدينة ذات كثافة سكانية هائلة جداً. وقد لمست ذلك في طريقي بالقطار، فقد ركبت بالحافلة من القنيطرة إلى حيفا، وفي حيفا نزلت وتجولت في الحي القديم حول المحطة حتى يحين موعد انطلاق القطار، ودخلت إلى مطعم شعبي، وأكلت مسبَّحة. وبالمناسبة فأنا لا أنسى صحن المسبحة الذي قدم لي في المطعم، فقد كان الزيت أكثر من المسبحة، والمسبحة تسبح في الزيت، بينما عندنا في القنيطرة أو في دمشق كان الزيت يرش رشاً على المسبحة. بعد ذلك فهمت أن الزيت كان كثيراً وقيّماً لدى الفلسطينيين، مثلما هو عندنا في المناطق التي يوجد فيها زيتون، إذ يستخدمون الزيت استخدامهم للسمن، وكمؤونة.

لقد لمست الكثافة السكانية في القطار، فعندما دخلنا الحدود المصرية كانت العربات تمتلئ بالناس الفلاحين، الذين كانوا يحملون السلال والخضراوات والدجاج، والذين كانوا يريدون الانتقال إلى مدن أخرى بقصد بيع منتوجاتهم، وكان الشاي المقدم ثقيلاً، فبائعو الشاي كانوا يضعون الإبريق على النار ليغلي والشاي كان أسود بلون الزفت. وباختصار شديد جداً عشت في مصر في حي الحسينية - حي الأزهر، حيث كانت توجد بيوت الطلبة الأجانب، وفيها ما هب ودب، وكان أكثرهم من السوريين عرباً وشراكس ومن الأردن ومن فلسطين كان هناك طلبة من قريتين شركسيتين، وكان هناك طلاب أتراك ويوغسلاف... إلخ.

وبكلمة أخرى كانت حياتنا حياة طلبة، ولم يكن الأزهر مثل الكلية الشرعية في دمشق، فهو لم يكن فقط جامعة دينية إسلامية، والعقول لم تكن جامدة مثلما رأيت في دمشق، فحتى الأستاذ الذي يلبس الحطة والجلباب كان يمزح وينكت ويروي القصص، وبضمن ذلك قصص مشابهة لتلك التي كان يرويها ابن عمي عندما كان يأتي إلينا، ومع ذلك كان يعطي الدرس كما يجب ويذهب. هناك قضيت سنة تحضيرية، وانتسبت إلى كلية اللغة العربية، وكان يوجد هناك آنذاك ثلاث كليات هي: (كلية أصول الدين، وكلية الشريعة، وكلية اللغة العربية)، وكانت كلية اللغة العربية مثل دار العلوم ودار الآداب.

لا أريد الدخول في قضية التعليم هناك، لكن من الذكريات التي أحملها

عن مصر التنوع، فالطلاب الذين كانوا موجودين في الأزهر هم عموماً من الطبقات الفقيرة، ولم يكونوا من الأثرياء، بينما في كليات الجامعات المصرية الذين اختلطت بهم، لأنه آنذاك جرى تأسيس الاتحاد الوطني لطلبة سورية، وانتدبت من الصف الثاني في كلية اللغة إلى الاتحاد الوطني للطلبة، فتعرفت هناك على طلاب سوريين من الأسر الميسورة والغنية. في الجامعات المصرية كان يوجد طلاب من طبقة الأثرياء الكبار، أما في الأزهر فعموماً كان الطلاب من الطبقتين الوسطى والفقيرة، فالطلاب الذين صادقتهم كانوا أبناء قرى، وقد دعانا أحدهم مرة أنا وشخص آخر، وذهبنا إليه في ريف القاهرة، وشاهدنا كيف أن حياة الفلاحين هناك هي حياة بائسة، ومثلها حياة الطالب الذي زرناه، فقد كانت الدواب والبقرة في حوش، وهم ينامون في غرفة أخرى، وكان بعض الناس ينامون مع الدواب في نفس المكان. كان يوجد فقر، بل فقر شديد. في عامَيْ 1946 و1947 كان الإنكليز معسكرين في القناة، وكانت العمليات الفدائية قد بدأت ضدهم، واستمرت حتى خروج القوات الإنكليزية، وكنت موجوداً هناك عندما حدثت الحرب في فلسطين، وقد لمست تأثيراتها على الشارع المصري وعلى الناس والطلاب، إذ كانت توجد حركة طلابية نشيطة داخل كلية اللغة في الأزهر، حتى إنه كان هناك يساريون، لكنهم لم يكونوا يصرحون بذلك، وإن كان يُشار إليهم.

وهناك تعرفت إلى أوساط شركسية إباظية مصرية، جاءت إلى مصر في زمن المماليك، وكان بينهم من هو من شرائح متوسطة كالأساتذة والموظفين العاديين، ومنهم من كان من البكوات، وقد دعونا إلى بيوتهم بعد أن تعرفوا إلينا، وكان لديهم قصور كبيرة.

وفي مصر نشطت الحركة الوطنية ولجان العمال والطلاب ضد الملك فاروق وضد الإنكليز، وبسبب الحرب الفلسطينية كانت هناك حماسة كبيرة بين الطلاب، وقد أثرت فيَّ هذه الأمور. وكانت الفوارق الطبقية في مصر أكثر وضوحاً مما كانت عليه في دمشق أو القنيطرة، وكانت فاقعة جداً، فهناك أحياء بمنتهى الجمال والأناقة، وبيوتها قصور، والنظافة تعمها، والناس الموجودون فيها مرفهون ويعيشون في أبهة. وعلى النقيض

من ذلك كان يوجد ما يسمى (عشش الترجمان)، أي أحياء التنك، وقد رأيت هذه الأحياء وتلك، لذلك تشكل لديّ نوع من الانتباه إلى هذه الفوارق الطبقية الكبيرة السائدة.

أما بالنسبة إلى المعتقدات الإيمانية والدينية، فقد كان يوجد جو ديني في الأزهر، إلا أنه كان جواً متحرراً، مثلاً في كلية أصول الدين، وهي إحدى الكليات الثلاثة التي كانت تشكل جامعة الأزهر، كان المرء يدرس منشأ الديانات وتطورها وأصول الدين الإسلامي وكيف أنه امتداد للديانات القديمة وما الجديد فيه، لذلك فإن طلاب الأزهر ذاتهم كانوا يقولون إن هذه الكلية تخرّج ملحدين، ولهذا السبب لم يكن هناك جو متزمت طاغ، فمع وجود الجو الديني كان هناك حرية في النقاش حتى مع الأساتذة داخل الكلية، وكانت النقاشات تجري حول الدين وصحته ودوره وصولاً حتى إلى المسائل الإلحادية، ورغم أن الأساتذة لم يكونوا يأخذون بهذه المسائل إلا أن بعضهم كان يناقشها.



الوجّ رقصة شركسية: في حدائق حلوان أثناء الدراسة في الأزهر، مراد يوسف راقصاً إلى اليسار، 17 شباط 1950.

لم أتعرف في الأزهر مباشرة إلى أناس شيوعيين، لكنني تعرفت إلى طالب شركسي أردني اسمه نورس، ولم أعد أذكر كنيته، وكان أكبر مني

سناً، ومتقدماً عليّ في الكلية دراسياً، فقد كان في الصف الرابع عام 1947، أي في آخر سنة له، وقد صادقته سنة، وكان من حيث صفاته الأخلاقية إنساناً صريحاً جداً ومنسجماً مع نفسه، لا يقول ما لا يضمر، وكان لا يتردد في أن يقول للأعور إنه أعور إذا لزم الأمر، وقد وصلت صراحته إلى حد الصدامية مع الناس. موقف هذا الشخص في قضية الدين كان مشابهاً لموقفي، لكنه كان أكثر تطوراً، وقد كان لديه فكرة مفادها أن الدين عوضاً عن أن يكون وسيلة لتربية الناس والارتقاء بهم صار وسيلة لتحقيق الغايات غير المشروعة، وكان يرى أنه عبر التاريخ غالباً ما كان رجال الدين أزلاماً لدى السلاطين والملوك أو منفذين لإراداتهم أحياناً. وأحياناً عندما كنا نسير في الشوارع حيث يوجد كثير من المتسولين الذين يجلسون على جنبات الطرق ويقرؤون القرآن، كان نورس يقول لي: "انظر يا مراد كيف حولوا القرآن إلى وسيلة للشحاذين كي يتسولوا. هذا حرام، ولا يجوز التعامل مع القرآن على هذا النحو".



فريق كرة القدم في كلية اللغة العربية في الأزهر، مراد يوسف الثاني من اليسار جلوساً، 1951.

ويبدو لي إلى حد ما أن نورس كان يحمل أفكاراً ماركسية، رغم أنه لم يكن يفصح عنها، فهو كان يتحدث عن الاشتراكية والعدالة، وكان يأسف لأن الإسلام الذي كان ينبغي أن ينشر العدالة لم يقم بذلك. نورس بأخلاقياته وطبيعته وطريقة تعامله مع الحياة هو الذي لعب دوراً في

انتسابي إلى كلية اللغة، لأنني تعرفت إليه أول قدومي إلى مصر تعرفاً عابراً جداً، لكنه عندما عرف أنني وافد جديد وأريد الانتساب إلى إحدى الكليات، وكان ينبغي أن أحضّر لذلك، فإنه طلب مني التحضير لكلية اللغة، وأشار إلى المواد التي ينبغي عليّ أن أهتم بها في السنة التحضيرية.

أثناء دراستي في الأزهر كنت غالباً أعود إلى سورية خلال فترة العطلة الصيفية، فقد رجعت إليها في صيف عام 1949، وكذلك في صيف عام 1950، وكانت أول سفرة لي إلى مصر بالقطار ذهاباً وإياباً، أما السفرات اللاحقة فكانت بالطائرة، وكان السفر والعودة يجريان عبر بيروت بعد أن حدثت الحرب وأغلقت الحدود مع فلسطين.

أشخاص مؤثرون في تكويني الشيوعي

صلاح جلاحج كان أكثر من أثر فيّ في القنيطرة، وهو شقيق والد نبيه جلاحج وأصغر أعمامه، فهم كانوا خمسة إخوة، وكانوا جيراننا في الحارة في القنيطرة، وكانت هناك قرابة بيننا، فأختي الكبيرة البكر كانت متزوجة من ابن عم نبيه، أي من نوح جلاحج، وكان صلاح أكبر مني بنحو خمس سنوات، لكننا كنا من حارة واحدة وأقرباء، لذلك فالمعرفة بيننا كانت قديمة. وفي سنوات نضوجي، أي عندما بدأت أعي الدنيا تصادقت مع صلاح، وكنا نتنزه معاً، ويزور أحدنا بيت الآخر. كان صلاح عضواً في الحزب الشيوعي، ومن الذين انتسبوا إليه بين عامَيْ 1944 و1945، وكان يزودني بكتب أدبية لمكسيم غوركي وأنطون تشيخوف وغيرهما خلال عام 1949 بعد رجوعي من مصر، وقد أمضيت كل عطلتي الصيفية التي دامت ما يزيد على شهرين معه ومع أصدقاء آخرين، ولم نكن نفترق حينذاك، وكان اهتمامه بي ملحوظاً، فقد كان يعطيني كتاباً بدل كل كتاب يسترجعه، وأحياناً كان يعطيني بيانات ونشرات، وكذلك جريدة أنصار السلم **"في سبيل سلم دائم، في سبيل ديمقراطية شعبية"**، التي كانت تصله فأقروها وأعيدها إليه. وكان صلاح فناناً، رغم أنه لم يتعلم الفن في مدرسة، وكان فنه يظهر كما في المثال التالي، فهناك قول لماركس ينص على أن (الإمبريالية تحفر قبرها بيدها)، واستناداً إلى هذا

القول أنجز صلاح لوحة لشخص يلبس البرنيطة الأمريكية العالية القبة ويحمل رفشاً بيده، وكتب تحت اللوحة قول ماركس، وكان يشرح لي الأفكار الأولية بوساطة الكتب الأدبية والأحاديث وبما هو مكتوب في بعض النشرات. وفي مرة أعطاني كراساً قديماً جداً عن المادية الديالكتيكية، فقرأته، لكنني لم أفهم أشياء كثيرة منه. وتأثرت بالقصص التي أعطاني إياها، وأتذكر أنني بدأت أشعر حينذاك أنني وجدت الطريق الذي كنت أبحث عنه، وفكرة هذا الطريق كانت موجودة عندي منذ كنت أدرس دراستي الإعدادية في دمشق، فما حدث معي هو أنني انتقلت من القنيطرة بمفهوم الإيمان والدين والتدين والرغبة في البحث عن المعرفة، أي معرفة كل شيء، لمساعدة الآخرين في التمييز بين الخير والشر، ولتأييد الخير ومحاربة الشر، ومن أجل إحقاق العدل وإزالة الظلم. هذه الأشياء كانت أفكاراً تملأ حياتي، وكان الدين بالنسبة إليَّ آنذاك وسيلة للمعرفة ووسيلة لخدمة الناس، وعلى هذه الأرضية تشكل المفهوم الذي رافقني لدى مجيئي من القنيطرة إلى دمشق، ثم تبخر هذا المفهوم. لذلك عندما سافرت إلى مصر كنت مثل الضائع، فأنا قبل كل شيء انقطعت عن الدراسة، وكنت أرغب في استكمالها، لكنني لم أستطع ذلك في دمشق وداخل سورية، لأنها كانت مكلفة لو أردت المتابعة في مدرسة خاصة، فأنا كنت سأحتاج إلى استئجار غرفة أعيش فيها ولم يكن يوجد لدينا المال اللازم لذلك، ونقص المال هو الذي أوصلني إلى الكلية الشرعية، لأنها كانت مدرسة مجانية تؤمن الإقامة والطعام والكتب ومستلزمات الدراسة للتلميذ. وعندما انقطعت عنها انقطع طريق متابعتي إلى المعرفة والدراسة والعلم، لذلك عانيت تلك الحالة من الضياع. وعندما أخبرني أخي بفرصة الدراسة في مصر، وبأنه لا يلزم لأجل ذلك إلا أجرة الطريق ونفقات السفر، لأن الدراسة هناك مجانية وكذلك الكتب والإقامة، وفوق ذلك يعطى الطالب مصروف جيب شهري، فإنني لم أتردد، لأن أخي آنذاك كان متطوعاً في الجيش الفرنسي بدمشق، وكان هو من يصرف عليَّ.

في مصر كنا نطبخ بأنفسنا في الغرف التي كنا نقيم فيها، وكانت غرفاً فردية أو ثنائية أو ثلاثية، وقد أقمت أنا وصديق لي من القنيطرة اسمه

صبري حسين في غرفة ثنائية، وكان صديقاً غالياً جداً، فقد ترافقت أنا معه منذ الصف الأول الابتدائي، وذهب معي إلى مصر، وانتسب إلى الكلية ذاتها، وتخرجنا معاً، وبعد عودته ذهب ودرّس في العراق، حيث عمل وناضل في صفوف الحزب الشيوعي العراقي، وحضر مؤتمر الشباب الديمقراطي العالمي في بوخارست ضمن الوفد العراقي، وطُرد من العراق بعد انقلاب 1963، إذ عاد إلى دمشق ودرّس فيها. ومات أثناء فترة وجودي في المدرسة الحزبية بداية الستينات. وأخواته كنَّ يسكنَّ في الجادة الثالثة من حي المهاجرين. كان صبري صديقاً عزيزاً جداً وشهماً، وقد تبلشف أثناء وجوده في العراق، ورغم أنه لم ينتسب إلى الحزب الشيوعي، إلا أنه كان شيوعياً بفكره.

وهكذا، فإن الشخص الذي أثر عليَّ ولعب دوراً في تحولي إلى الشيوعية هو صلاح جلاحج، الذي يُعد من أوائل الشيوعيين في الجولان[11]، ومن الذين حافظوا على شيوعيتهم في حين تخلى الآخرون عنها. أنا أقول ذلك لأنه في عام 1945، ومع انتصار الاتحاد السوفييتي

---

11) لم يكن هناك تنظيم شيوعي في القنيطرة أواسط أربعينيات القرن العشرين، رغم وجود أفراد أعضاء في الحزب الشيوعي، ويتذكر الرفيق نجدت نحقاحة (أبو ضياء) شقيق مراد بشأن ذلك: "بدأت تتكون الأمور وتتراكم تدريجياً منذ عام 1949، وتسارعت في الفترة الديمقراطية 1953-1955، فقد تفاعلت الأحداث بين القنيطرة ودمشق، التي لا يمكن أن تكون بمعزل عن ذلك.

كتب مراد حول هذا متذكراً: "في بداية خمسينات القرن العشرين كانت دمشق ملتقى لكل الشباب الشراكس، المقيمين في دمشق والقادمون من المحافظات السورية، القريبون من الحزب الشيوعي والمقبلون عليه. وفي تلك السنوات أيضاً التقت مجموعة من الشباب الشراكس تجمعهم الصداقات الشخصية والهموم المجتمعية مع الميول القومية الشركسية والتقدمية واليسارية، ... وكانت هذه المجموعة تلتقي في بيت الشيوعي القديم صلاح جلاحج، وكانوا يلقبونهم في الوسط الشركسي بـ "الشباب الحمر". وكانت هذه المجموعة مشاركة فعالة في كافة نشاطات الحزب الشيوعي السوري: ترسل جريدتي **الأخبار** ثم **النور** بعد صدورهما إلى عناوين محددة في القنيطرة".

وقد كانت لكل من مراد وزاراموك سكوغ في حينه علاقات وثيقة مع كثير من هؤلاء الشباب القريبين من الحزب الشيوعي والفكر الماركسي.

وفي لقاء مع الماركسي المعروف، صديق طفولة وشيخوخة مراد، قحطان بدر الدين كغدو، قال: "في أربعينات القرن الماضي (العشرين) كان يأتي من دمشق، وأحياناً من بيروت، بعض الرفاق الشيوعيين، أذكر منهم الدكتور فوزي الشلق، ورشاد عيسى، ونجاة قصاب حسن، ... وكانت الاجتماعات تُعقد في بيتنا (بيت مغني في القنيطرة) مع أخي نجم الدين، وآخرون يذهبون إلى بانياس والقرى الجولانية: يعالجون ويساعدون الفقراء مجاناً وينشرون الفكر الشيوعي".

وكتب فكرت رجب لاحقاً: "كان من أنشط الشخصيات المساهمة في نشر الفكر الماركسي نجم الدين كغدو وحكمت داغستاني واسماعيل نجيب وبخ وزكي أباظة وأشرف إسلام وعبد المجيد طش، والأخير استشهد في فلسطين في العام 1948 وعُثر في جيبه على بطاقة عضو الحزب الشيوعي".

والانتشار الواسع للشيوعية، فإن كثيرين في القنيطرة صاروا شيوعيين، إلى درجة أن مكتباً للحزب الشيوعي افتتح هناك، ووزعت بطاقات هوية حزبية، وواحد من أولئك الذين استلموا هوية شقيق أحد أعز أصدقائي من آل كردو، وهو ما يزال حياً حتى الآن. وكان هناك أرمن صاروا شيوعيين، ثم هاجروا إلى أرمينيا. ومن بين كل الذين انتسبوا إلى الحزب آنذاك، واستلموا هويات حزبية، فإن صلاح كان هو الوحيد الذي حافظ على انتسابه إلى الحزب والتزامه به. صحيح أنه لم ينتظم في فرقة، لكنه ظل مثابراً على دفع الاشتراكات وأخذ الجريدة وحضور النشاطات. وكان يعمل على نشر الفكر الاشتراكي بهدوء ومواظبة، وكان خلوقاً يحب المصداقية ويكره النفاق والتزلف والوصولية[12]. لقد تعرف إلى الحزب في القنيطرة، لكنه تابع علاقته به في دمشق والجزيرة، وكان يعرف نجاة قصاب حسن، وربما كان في وقت من الأوقات ضمن فرقة من الفرق التي قادها نجاة في الأربعينيات، لأنه كان يحدثني عنه وعن أنه حضر اجتماعات معه. وصلاح كان قد التقى بالرفيق يوسف الفيصل آنذاك، لكن لم تكن له معرفة وطيدة به، كما أنه تعرف إلى شيوعيي الجزيرة. وللعلم فإن صلاح لم يدرس إلا إلى الصف الخامس، وبعد ذلك دخل إلى سوق

وقد كتب مراد: "على أيادي هؤلاء الرواد الأوائل كان انتشار البذور الأولى للأفكار الاشتراكية والشيوعية في القنيطرة، إذ كانوا ذوي سمعة طيبة ساهم في تعزيزها ما كان يحققه الجيش الأحمر من انتصارات على الجحافل النازية الغازية لأوروبا وللإتحاد السوفياتي. وساهموا، وبدرجة محدودة ومتفاوتة بالدعوة الأولى للحزب الشيوعي في الجولان لفترة وجيزة: فترة النشاط العلني 1945-1947، حيث تم توزيع بطاقات عضوية الحزب الشيوعي السوري على عدد من شباب وناشطي الجولان، كما عاد للشيوعي القديم صلاح جلاحج فضل كبير في هذا المجال".

ويستطرد مراد: "كما لا يمكن أن تكون بمعزل عن العوامل المختلفة وجود عوامل وممهدات أخر: تعيين الأستاذ عبد الله دياب مديراً للتجهيز، وهو المنقول تأديبياً، ودوره المؤثر على التلامذة؛ وعودة بعض الطلاب من أبناء القنيطرة متأثرين بالفكر الشيوعي من لبنان والتبك، مثل مفيد بشارة؛ وتأثيرات بعض طلاب الجامعة السورية الشيوعيين، الذين درّسوا في تجهيز القنيطرة؛ وإرسال شريف ميرزا ممثلاً عن طلبة الجولان إلى مؤتمر منظمة الشيوعيين في دمشق في نيسان 1953".

وهكذا وبعد عدة محاولات في صيف عام 1955، وبتكليف من قيادة الحزب الشيوعي السوري، التقى مراد يوسف في بيت مفيد بشارة في القنيطرة أفراد المجموعة القريبة فكرياً من الحزب (مفيد بشارة، ومهدي صوفار، وفكرت رجب) في القنيطرة في منزل مفيد بشارة، وتم تشكيل أول فرقة للحزب الشيوعي في القنيطرة كانت هي البداية لانطلاق هذه المنظمة.

[12] وينقل مراد عن إحدى قريبات صلاح الموسرات في المهاجرين: "كنت أكره الشيوعيين، فأصبحت أحبهم وأحترمهم بعدما رأيت معاملة صلاح لوالدته، التي أصيبت بشظية جعلتها عاجزة".

العمل، فاشتغل موظفاً في التموين، كما عمل في الميرة، وأرسل إلى الجزيرة، فبقي فيها عدة سنوات،وكان على صلة بالمعلم جمال شركس والد إسماعيل شركس، الذي كان نقابياً وشيوعياً من أصول شركسية.

إذن كانت علاقتي يومية بصلاح[13] في صيفيّ العامين 1949 و1950، ثم في عام 1952 بعد أن رجعت من مصر، وكان هو قد استقر في القنيطرة، وخلال لقاءاتنا اليومية كانت تجري حوارات بيننا في محاولة منه لإفهامي المبادئ الشيوعية. وكنت أحرجه بالأسئلة عن طبيعة الحياة في الاتحاد السوفييتي، فعرَّفني إلى شخص شركسي آخر من مرج السلطان اسمه أكرم شركس كان يسكن في دمشق، ويعمل ميكانيكياً في سكة الحديد، وصرنا نتردد أنا وصلاح إلى بيت أكرم، الذي كان من الأشخاص الذين أرسلهم الحزب سنة 1934 إلى الاتحاد السوفييتي لدراسة الماركسية، أي مثله مثل خالد بكداش، وقد ذهب، وبقي هناك سنتين دون أن يعرف أهله عنه شيئاً، فقد ضاع عنهم، ثم عاد إلى سورية وتزوّج أخت النقابي المعروف جمال شركس، وبعد الزواج انقطعت علاقته بالحزب، لكنه عاد إلى العمل في سكة الحديد، ومات بعد تقاعده، وكان بيته في الفواخير بطلعة شورى.

عمل جمال شركس المناضل النقابي الشيوعي المعروف في الجزيرة، واعتقل أيام الوحدة السورية-المصرية، وتعرّض لتعذيب وحشي، وخوفاً من موته في السجن أُلقيَ به في أحد شوارع دمشق، ولم يعش بعدها طويلاً، إذ توفي بعد معاناة شديدة.

في زياراتي لأكرم، وخلال أول زيارة له، أعجبت به كثيراً، فقد كان

---

13) يكتب الرفيق نجدت شقيق أبي سامي بشأن ذلك: "كانت لمراد في تلك المرحلة (أواخر أربعينيات القرن العشرين) علاقة مع الشيوعي صلاح جلاحج، الذي كان يمدّه بالمنشورات الحزبية والأدبيات الماركسية، وكان مراد يكنّ له الاحترام الشديد، ويتحدّث في المناسبات عن مناقبه، وينسبُ مراد إلى صلاح الفضل الكبير في نشر الفكر الماركسي في القنيطرة في أربعينيات القرن العشرين".

ويقول عنه مراد: "لم يكن صلاح يمدّني بالأدبيات الماركسية فحسب، بل يعرّفني على شيوعيين محترمين مثل أكرم شركس من حيّ المهاجرين، الذي سافر مع الرفيق خالد بكداش في ثلاثينيات القرن الماضي إلى المدرسة الحزبية". ويقول مراد في مكان آخر: "كان لصلاح دور معنوي مهم بطريقة غير مباشرة. لم يطلب من أحد أن ينتسب إلى الحزب، لكنه كان مسلحاً بسمعته الشخصية والتزامه الصبور بالقضية إلى آخر يوم في حياته، رغم تقلبات الزمن".

إنساناً صافي السريرة، وعندما كان يتحدث عن الاتحاد السوفييتي وعما شاهده هناك، فإنه كان يتحدث بحماسة وانفعال وإعجاب شديد جداً، لذلك فقد كنت أنا وصلاح نتردد عليه بين فترة وأخرى لنتناقش معه ونستمع إليه.

أعود وأقول إن صلاحاً هو من أثر عليَّ وأعده معلماً لي بين الشيوعيين، رغم أنه لم يكن نشيطاً.وقد حبس صلاح في سجن المزة أثناء فترة الوحدة، وكان آنذاك يعمل رساماً في الفيجة، وعُذِّب بشدة، وبقي في الحبس نحو أسبوع، ثم أطلق سراحه بعد أن أُجبِر على ترك الحزب.

لم يكن صلاح من الشيوعيين الميدانيين، أي أنه لم يكن شيوعياً مقاتلاً من الذين يعملون في فرق، لكنه كان ملتزماً فكرياً بالحزب حتى مماته قبل نحو سنتين، وكان عمره آنذاك نحو ثمانين عاماً[14]، وقد كنت متعايشاً معه، إذ لم تربطني به القرابة عن طريق آل جلاحج فقط، بل ربطتني به أيضاً قرابة أخرى، فهو خال زوجتي أم جولان، وبسبب هذه القرابة، وبسبب الصداقة، فقد بقيت علاقتنا متينة إلى أن مرض ولازم البيت ولم يعد يخرج، وقد مات وهو شيوعي،وحتى آخر سنة من حياته كنت أذهب إليه لأستعير بعض الكتب منه وأعيدها إليه، وهي من الكتب القديمة غير المتوفرة لديَّ. لقد كان صلاح مخلصاً تماماً ومؤمناً تماماً بالشيوعية، وهو لم يغيِّر قناعاته حتى بعد أن حدثت البيريسترويكا وما تبعها من تغيرات.

وكان هناك شخص آخر من أصدقائي أثر عليَّ أيضاً، واسمه قحطان بدر الدين، وهو أساساً شركسي من القنيطرة، وكان يعمل في ديوان كلية التربية بجامعة دمشق مسؤولاً عن ذاتيات الأساتذة والطلاب وتسجيلهم وغير ذلك، أي أنه كان موظفاً إدارياً، وقد صادقت قحطان منذ الصف الثاني الابتدائي، وهو ابن أسرة مُسَيَّسة، فأبوه كان من الشخصيات السياسية في القنيطرة، وكان عضواً في الكتلة الوطنية على ما أذكر، وهناك علاقة قرابة بعيدة تجمعه بصبري العسلي، وقد نفي زمن العثمانيين أثناء دراسته في تركيا إلى قونية، كما أنه شارك في النضال ضد الاحتلال

---

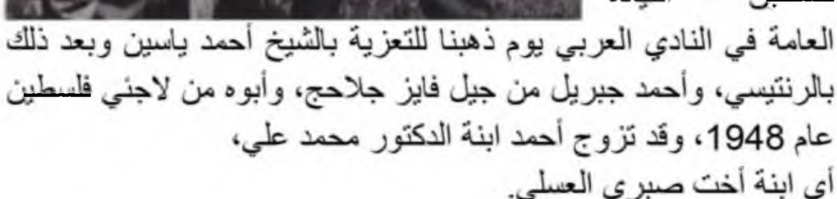
14) كرّمت منظمة القنيطرة للحزب الشيوعي السوري صلاحاً في الذكرى الثمانين لتأسيس الحزب في سهرة جميلة.

الفرنسي منذ اللحظة الأولى لدخولهم الأراضي السورية. وحسبما نقل إلينا عن طريق أولاده، وتحديداً عن طريق صديقي قحطان، الذي كان يتابع أخبار أبيه بدقة، فإن والد قحطان كان يفكر على النحو الآتي: الفرنسيون مستعمرون أجانب، والأتراك قوة احتلال، لكنهم محتلون مسلمون، لذلك كان الاحتلال العثماني بالنسبة إليه أفضل من الاستعمار الفرنسي، وعموماً فإن مثل هذا الرأي كان يجد تعبيراً له ضمن تيار موجود على النطاق السوري، وانطلاقاً من هذا الرأي فقد حارب الإنكليز، وعندما انتهت الحرب نفي إلى قونية في تركيا بسبب نشاط سياسي قام به ضد الأتراك، ثم لما جرت الحرب ضد المستعمرين الفرنسيين حاربهم كذلك، لكنه تعرّض إلى ضغط منهم فاستكان. وخلال معارك الاستقلال كان مع الحركة الوطنية ممثلة بالكتلة الوطنية وصبري العسلي. وإلى جوار عائلة بدر الدين سكن طبيب عيون شركسي اسمه محمد علي بشحه لوفة، وزوجة هذا الطبيب هي أخت صبري العسلي.



في بساتين القنيطرة، من اليمين: مراد يوسف، عدنان قوشحة، قحطان كغدو، عيد الأضحى 1950.

وبالمناسبة، فقد قابلت أحمد جبريل الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة في النادي العربي يوم ذهبنا للتعزية بالشيخ أحمد ياسين وبعد ذلك بالرنتيسي، وأحمد جبريل من جيل فايز جلاحج، وأبوه من لاجئي فلسطين عام 1948، وقد تزوج أحمد ابنة الدكتور محمد علي،



أي ابنة أخت صبري العسلي.

وبالعودة إلى قحطان فإنه كان متحمساً للشيوعية، وكانت له علاقات مع الطلاب الشيوعيين الدارسين في الجامعة أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات، ومنهم سميح الجمالي، وكان يحدثني، عندما نلتقي، عن الجامعة والنشاط الشيوعي فيها وعن سمات الطلاب الشيوعيين والأساتذة التقدميين، ومن هؤلاء الأساتذة فاخر العاقل وعبد الكريم اليافي، فقد كانت عند قحطان ذاتيات كل هؤلاء، إضافة إلى أنهم كانوا يجلسون ويتحدثون ويتناقشون في الغرفة التي كان يعمل فيها.

لعب قحطان دوراً في خلق محبة لهؤلاء الناس وتعاطف معهم دون معرفته، لذلك فعندما رجعت من مصر في حزيران من عام 1952، كان تقريباً وإلى حد كبير قد نضج لديَّ حب الاتحاد السوفييتي والتعاطف معه ومع الحركة الوطنية، وانفتح المجال أمامي واسعاً لقراءة الأدبيات السوفييتية، وكان الوسط الشبابي الذي يحيط بي في القنيطرة قد انغمس في التيار التقدمي.

بعد أن أنهيت دراستي ورجعت من مصر كنت عازماً على العودة كي أكمل الدراسة إما في كلية الصحافة أو في كلية التربية، وكنت قد قدّمت أوراقي المطلوبة في مصر، وكلفت بعض الشباب المصريين الموجودين أن يتابعوا طلبي في هاتين الكليتين، وقد قاموا باللازم، لكنني لم أستطع العودة، لأنني وجدت عائلتي في حالة من العوز، فأخي الكبير كان قد افتتح مطعماً، لكن المطعم كان خاسراً، ووالدي كان عاطلاً عن العمل، فبعد المرملة عمل في صناعة البلوك داخل البيت، وكان يأتي بالأسمنت والرمل ليصنع البلوك يدوياً حسب الطلبات التي تأتيه، لذلك كان الدخل قليلاً، ورأيت أنه من المستحيل ترك العائلة بهذا الوضع، وحتى لو رغبت في العودة إلى مصر، فإنه لم يكن هناك ما يكفي لأجرة الطريق.

وبحثت عن عمل، وخلال ذلك وفي شتاء عام 1952 بدأت بقراءة الكتب، وقد جلب لي عصمت وهو أحد أفراد شلتي وجاري وصديقي كتاب (الأم) لمكسيم غوركي، وقد حسمت قراءتي لهذا الكتاب موضوع شيوعيتي بيني وبين نفسي، وقد كتبت رسالة صغيرة لمن أعارني الكتاب قلت له فيها: (يا صديقي العزيز! إذا بحثت عني يوماً ولم تجدني قربك،

فاعلم أنني سأكون في فرقة بافل)[15]، وبافل هو بطل الرواية. وقلت لنفسي: هنا مكاني، وهذا هو طريقي، الذي كنت أبحث عنه.

منذ ذلك الوقت نشطت كصديق للشيوعيين أنا وهذه المجموعة المؤلفة من عدة أشخاص، وكان ارتباطنا على درجات مختلفة، والعلاقة بالحزب تجري من خلال أحد أفراد المجموعة، وإن لم يكن منظماً آنذاك، وهذا الشخص هو المرحوم زاراموك سمكوغ، الذي كان مدرساً للعلوم العامة متخرجاً من الجامعة، وكانت صداقتي قوية به وبقحطان، الذي كان معروفاً من الشيوعيين كلهم[16]. وعن طريق هذين الشخصين صارت تأتينا أحياناً إخباريات عامة عن النشاطات التي كانت تجري في دمشق، كالتضامن مع فيتنام وكوريا، وكنا نحضر الاحتفالات الحزبية.

رفضي للارتباط بحزب الشيشكلي

وفي عام 1952 عندما أسس أديب الشيشكلي حركة التحرير العربية كنت أنا أدرس كمعلم وكيل في القنيطرة في المرحلة الابتدائية، وقد دُعيَ كل الأساتذة إلى السرايا من أجل الانتساب إلى هذا الحزب، لكنني بقيت

---

[15] كان مراد ماركسياً قبل أن يقرأ ماركس، حاملاً هموم الناس على مبدأ ماركس: "إذا أردت أن تكون تافهاً، فأدر ظهرك لهموم الناس". ويكتب عن الحادثة المذكورة: "وقتذاك قررت بيني وبين نفسي أنني أصبحت شيوعياً، وقبلها كانت لدي ميول يسارية ووطنية مندمجة مع الميول القومية الشركسية".

[16] يكتب أبو ضياء نجدت تحقاخة عن دور أخيه مراد ورفاقه في تلك الفترة: "أذكر أنه حين كان يعود إلى القنيطرة في الصيف، كان بيتنا يتحوّل إلى ملتقى لمجموعة من شبان جيله الأكثر تنوراً وفعالية في المجتمع الشركسي، تلتقي وتبحث معاناة الناس ومشاكلهم، ومن هؤلاء: قحطان المفتي وبدر الدين كغدو وشفيق قانشاو وعادل كوشيه ويحيى قازان وعبد الكريم شق وصبري حسين.

ومن ألحّ المشكلات وألفتها للنظر آنذاك مشكلة عزوف الشبان عن الزواج، ففرص العمل أمام الشبان شبه معدومة، لأن القنيطرة محرومة من المعامل، والزراعة فيها متخلفة، وبعض الأسر تتبارى في رفع مهور بناتها، وما أكثر ما يتفرّق المجتمعون لعقد القران بسبب الاختلاف على المهر. وقد أفرزت هذه المشكلة ظاهرة العنوسة في الجنسين، وفقدت الأعراس وحفلات الرقص بهجتها لندرتها، حتى تكاد أن تنسى، فخرجت هذه المجموعة من الشبان بفكرة تحديد المهر بخمسمئة ليرة سورية مقدمة وألف مؤجلة. واستجاب الشباب الأكبر سناً وهيبة لهذا الاقتراح، وكان بينهم أخي الأكبر عبد الوهاب (حبّاب) ونور الدين تاوش وغالب كغدو وآخرون، فأنشؤوا عريضة ووقعوها من كل الأسر في الجولان ومرج السلطان، ثم قدموها إلى مفتي الجمهورية، الذي رحّب بها ووقّعها. ومنذ ذلك التاريخ، أصبح عرفاً أقوى من القانون، فكثرت الزيجات، وعادت إلى الأعراس البهجة، وانتهت مساحكات المهور بين أهل العريس وأهل العروس. وكان هذا، برأي أبي ضياء، أهم إنجاز حضاري للمجتمع الشركسي الحديث، وذلك بفضل الدور التوعوي من هذه المجموعة".

وحدي في المدرسة وذهب كل الآخرين، فأغلقت المدرسة[17]، وعدت إلى البيت. وأثناء عودتي كان أحد التحريين الشراكس جالساً في المطعم عند أخي، وبينما كنت أسلّم عليهما سألني لمَ لمْ أذهب إلى السرايا، وسألته عن موجبات ذهابي، فقال لأنه يجري تنسيب أعضاء إلى حركة التحرير العربية، ورددت عليه بأنني لا أريد الانتساب إليها. ولما حاول تخويفي بأنني سأتضرر إن لم أنتسب إلى ذلك الحزب أجبته بحزم بأنه ليس على هذه الشاكلة يجري الانتساب إلى الأحزاب.



نقاش ساخن مع عبد الكريم شق (عضو الحزب السوري القومي الاجتماعي) في حديقة بيت العائلة، مراد الأول إلى اليسار، بريقة - القنيطرة أواسط خمسينيات القرن العشرين.

عرض عمل لم أقبله

واحد من أصدقائي كان سورياً قومياً، وكنت آنذاك أبحث عن عمل، فقال لي إنه يوجد أشخاص يبحثون عن مدرس لغة عربية ليدرّس في مرمريتا، وطلب مني مقابلتهم للاتفاق معهم، وقال إنني سأستفيد كثيراً، وذهبت معه إلى الطلياني في دمشق، حيث كانت توجد مكتبة للقوميين هناك يشرف عليها شخص من آل اليازجي، وقد عرفني صديقي إليه، وجلسنا معاً نحو ساعة، تحدث لي خلالها عن حزبهم وعن مرمريتا وعن حاجتهم إلى مدرس لغة عربية، وقال لي إن المعاش جيد، وأنني سأسرُّ

[17] عمل مراد خريف 1952 في مدرسة القنيطرة النموذجية مع جاره وصديقه عصمت سيرزا.

هناك، وأنهم سيؤمنون لي بيتاً. وبعد خروجنا قلت لصديقي إن هذا ليس طريقي.

وعموماً كنت قد حسمت أمري فكرياً في عام 1952، فأنا مثل كل شاب مراهق كنت أفكر بماهية العمل المهم والقضية الكبيرة التي يجب أن أرتبط بها. ذلك كان هاجسي منذ كنت في دمشق قبل أن أسافر إلى مصر، وحتى التاريخ الذي أتكلم عنه.

المساهمات الأولى في العمل الحزبي

وأخيراً، وفي عام 1955 بدأت المساهمة في العمل الحزبي، وكانت شلّتي قد وجدت نفسها تقوم بنشاطات حزبية[18].

فبعد إسقاط الشيشكلي كنا نشتري إما جريدة الحزب الشيوعي **الصرخة** أو جريدة **الأخبار**، لا أذكر الآن أيهما بالضبط، التي كانت تصدر في لبنان وتصل إلى دمشق، وقد حددنا عدة أماكن في القرى يوجد فيها أناس طيبون وأوادم يهتمون بالشأن السياسي العام، ومنهم الدكنجي والمختار وبعض الوجوه من أقربائنا المستقرين هناك، وصرنا نرسل إليهم بالبريد هذه الجرائد كلما صدر عدد منها، وهؤلاء كانوا يظنون أن الجريدة تأتيهم من المصدر، ولم يعرفوا من كان يرسلها فعلاً إليهم،وقد أثر هذا الأمر بالفعل، فقد أصبح عدد منهم متعاطفاً مع الحركة الوطنية.

وفي الانتخابات التكميلية التي خاضها رياض المالكي في دمشق، ولم أكن بعد منتسباً إلى الحزب الشيوعي، كُلّفت بالمساهمة في هذه الانتخابات كوكيل عن المرشح على صندوق انتخابي، وفي انتخابات أحمد

---

[18] يتحدث أخو مراد نجدت عن تلك الفترة، التي تشاركا فيها السكن في دمشق منذ أواسط 1953، ويقول: "التفت حول مراد مجموعة من الشباب الشراكسة كانت تلتقي في بيت الشيوعي القديم صلاح جلاحج في الشعلان، تجمعهم الصداقات الشخصية والميول اليسارية والوطنية السورية والهموم الاجتماعية. وأذكر منهم إلى جانب مراد: صلاح جلاحج وزاراموك سمكوغ وقحطان بدر الدين كغدو وصبري حسين وبشار صوقار ونذير قارشاي وعبد الغني شق وعصمت ميرزا وبدر وبّي وكمال بارسباي، وكنت مشاركاً في معظم نشاطاتهم السياسية والاجتماعية. كانت دمشق ملتقى لكل الشباب اليساري الشركسي القادم من المحافظات السورية وحتى من الأردن. ومن هؤلاء كان المرحوم عبد الرحمن قات، الذي أصبح عضواً نشيطاً في اللجنة المنطقية بحمص، والمحامي المرحوم بشار محرَم والدكتور زكي صادق، اللذين كانا من نزلاء سجن المزة أيام الوحدة السورية المصرية، وحكمت يعقوب من منبج".

الحاج يونس في حمص، قمت بنشاط انتخابي في قرى شركسية هناك، فقد كان الحزب يريد دعاة ومحرضين يجولون هناك، وقد طلب الحزب عن طريق الرفيق الصلة أن نشكل وفداً يذهب إلى هناك للقيام بالدعاية الانتخابية لأحمد الحاج يونس، الذي كان مرشحاً عن التجمع القومي البرلماني، الذي كان سكرتيره فؤاد قدري والد قدري جميل. وكان فؤاد آنذاك نائباً في المجلس النيابي، وقد ضم التجمع شيوعيين وبعثيين ووطنيين. لذلك ذهبنا في وفد مؤلف من أربعة أشخاص، وكان ضمن الوفد عبد الرحمن قات من حمص، وقد وضعت لهذا الغرض سيارة تحت تصرفنا، وكان واصل الفيصل آنذاك في حمص، وقد تعرفت إليه هناك، ودرنا على كل القرى الشركسية في حمص، وعددها 11 قرية، ومنها ديرفول وعين زاط وغيرها.

ومن المفارقات التي حدثت في ديرفول أننا نزلنا عند مختارها، ووجدنا هناك وفداً من حزب البعث برئاسة مصباح دبشان المستشار الصحفي في رئاسة مجلس الوزراء، وهو شركسي وبعثي قديم، وإثر ذلك قامت صداقة بيني وبين مصباح.

وفي ضيعة أخرى قد تكون عين النسر أو عين زاط، والله العليم، وصلنا إليها وقت الصلاة، وكان هناك جامع في ساحة القرية، فنزلنا من السيارة التي كان ملصقاً عليها صورة أحمد الحاج يونس، وعرف أهل القرية من نحن. وكانت هناك مضافة إلى جانب الجامع يجلسون فيها، وهي عبارة عن قاعة كبيرة فيها مصاطب أسمنتية أو ترابية، لا أدري. كانت القاعة فارغة، فالناس في الجامع، وانتهت الصلاة ونحن ننتظرهم دون أن يأتي أحد، وطال الوقت دون أن يدخل أحد منهم إلينا. كانوا يقفون عند الشبابيك وينظرون منها إلينا. قال أحدنا: لنذهب فهؤلاء لن يدخلوا، وقال رفيقنا الحمصي إن أهل الضيعة من جماعة حزب الشعب، لذلك فإنهم لن يدخلوا بعد أن عرفوا أننا شيوعيين. وقلت أنا إننا لن نذهب حتى يدخلوا، فإن لم يفعلوا خرجنا إليهم، وإنه يمكننا أن نقف أمام الجامع ونقول لهم لماذا أتينا، وما هو الشيء الذي نمثله. كان أهل القرية قد تجمعوا وشكلوا جمهرة، ولو أننا كنا قد دعوناهم للمجيء لما أتى مثل هذا العدد.

وبعد قليل من الانتظار دخل عدة أفراد وجلسوا، ثم دخل بعدهم آخرون، وشيئاً فشيئاً امتلأت القاعة، وبدأ الحديث الذي كان طريفاً، وخلاصته أنه ليس للشراكس مصلحة في انتخاب أحمد الحاج يونس، وأنهم سينتخبون المرشح الآخر، فالتجمع برأيهم هو تجمع للقوميين، وإذا استلم التجمع السلطة، فإنه سيرحّل الشراكس إلى القفقاس، وقالوا إن فرنسا كانت تحميهم عندما كانت تحتل سورية. وبدا لنا أن تلك المنطقة كانت خاضعة للنفوذ الإقطاعي ومشمولة برعايته، لذلك بدأنا هجومنا، وربما أكون أنا أكثر من تكلم آنذاك، وقد خطّأتُ تفكيرهم هذا، وقلت لهم إن البلد بلدنا وسورية وطننا، فنحن خلقنا هنا، وكذلك آباؤنا، ولن يطردنا أحد، ومن نمثلهم وندافع عنهم ليسوا من النوعية التي يظنونها، بل بالعكس، فهم من يهتم بنا نحن الفقراء. وصار أخذ ورد بيننا نحن الأربعة وبين الجمهور، ثم انتهى الحديث بعد أن طال، وكان نقاشاً جدياً وساخناً، وكان الحضور من الكبار، وبعضهم خدم في الجيش الفرنسي وتقاعد. طبعاً لم يشارك الجميع في النقاش، لكنهم كلهم كانوا يستمعون، وبعد أن انتهى الحديث قلنا لهم: هذا ما عندنا، وأنتم تقررون من تنتخبون. وخرجنا، فوجدنا عدة شباب يأتون إلينا، وينتحون بنا جانباً، ثم أخذونا إلى أحد البيوت، واعتذروا عما حدث، وقالوا إنهم آسفون لما سمعناه من المسنين، وأنهم معنا، وسيصوتون للحزب ولأحمد الحاج يونس، وأعدوا لنا عشاءً، وسهرنا معهم عدة ساعات. ومن الجدير ذكره أن أحمد الحاج يونس نجح في هذه الانتخابات بأصوات عالية، وأنني آنذاك لم أكن منتسباً للحزب بعد.

مهمة أخرى كُلّفت بها تتعلق بزائر أجنبي لم أعد أذكر اسمه، وكانت جريدة **النور** حينذاك قد بدأت بالصدور، وقد سمعنا بمجيء هذا الزائر قبل أن يكلفنا الحزب بهذه المهمة. كان الزائر مرسلاً من الولايات المتحدة للقيام بدعاية في الوسط الشركسي، إذ كانت هناك مساعٍ لتشكيل حركة سياسية مهمتها القيام بدعاية معادية للشيوعية والاتحاد السوفييتي بين الشراكس، بل وحتى تشكيل قوات مسلحة من عناصر شركسية تركية وسورية وأردنية لمحاربة السوفييت.

سمعنا نحن بذلك عن طريق الجمعية الشركسية التي وجهت دعوات للقاء مع هذا الشخص، وأوصل الرفاق الذين على صلة بالحزب الخبر إليه، فطلب الحزب منا أن نكتب شيئاً ضد هذه الزيارة في جريدة **النور**. كان زاراموك هو من جلب الخبر، وزاراموك ابن رئيس الجمعية الشركسية التي أنشأت المدرسة في القنيطرة، ووالده درس في باريس، وكان مثقفاً وذا شخصية قوية، وقد صاهر مفتي القنيطرة آنذاك، وأسس الجمعية المذكورة التي مثلت حركة قوية في الوسط الشركسي. أما زاراموك فكان شيوعياً وصديقي في الآن ذاته، وهو الوحيد الذي كان منتسباً إلى الحزب من شلتنا آنذاك، وقد تخرج في كلية التربية مدرساً للعلوم. وبما أن لغتي العربية كانت جيدة، فقد جلست معه وكتبنا مقالة صغيرة عنوانها داعية للمشاريع الأمريكية، وقد نشرتها جريدة **النور** آنذاك بتوقيع زاراموك[19]، ويمكن إيجادها بالعودة إلى أرشيف الجريدة. زاراموك كان شاباً جريئاً، لكنه شيئاً فشيئاً لم يعد ينشط في الحزب بعد أن ابتدأ بالتدريس، ثم هاجر إلى الولايات المتحدة، ومات هناك، وكان قد تزوج إحدى قريباتي، وهي ابنة بنت عمتي. أما أخوه برزج فقد صار من القوميين الشراكس، وله كتابات عن التاريخ الشركسي والأصول المشتركة الشركسية السومرية، وقد توفى منذ مدة قريبة.

هذه إذن هي النشاطات التي قمنا بها، وإضافة إلى ذلك شكلنا حلقات من الشباب الأصغر سناً مرتبطة بنا، أما انتسابي إلى الحزب فقد حصل عندما ذهبت إلى السويداء بحثاً عن عمل آنذاك.

---

[19] ويكتب نجدت شقيق مراد حول هذا: "في أواسط خمسينيات القرن العشرين كان مراد وبعض أعضاء المجموعات الفكرية الناشطة سياسياً في الجولان يشاركون بنشاط في كافة نشاطات الحزب الشيوعي الجماهيرية، كالانتخابات والاحتفالات الجماهيرية، كما أرسلت جريدة **الأخبار** ثم جريدة **النور** إلى أشخاص محددين من المهتمين بالشأن العام في الجولان. وشكلت جمعية ثقافية شاركت في المناسبات الثقافية، وأقامت سهرات ذات طابع اجتماعي هادف، وساهمت في نشاطات الجمعية الخيرية الشركسية، التي كانت ساحة الصراعات الفكرية والسياسية، وساهمت هاته المجموعات في فضح بعض النشاطات التآمرية لعملاء من أصول قفقاسية، مرسلين من قبل الغرب، ينشطون ضد السياسة السورية الوطنية المعارضة للأحلاف الاستعمارية. والمقالة المذكورة التي نشرتها جريدة **النور** حينذاك تحت عنوان كبير "شاب شركسي يفضح جاسوساً استعمارياً" كتبها مراد بالتعاون مع زراموك، ونشر بتوقيع الأخير، وكان لها، إضافة إلى تأثير النشاطات الثقافية الاجتماعية، ردة فعل قوية في الوسط الشركسي".

وجودي في المعهد العربي الإسلامي

قبل أن أذهب إلى السويداء كنت قد عملت سنة دراسية كاملة في المعهد العربي الإسلامي بدمشق بصفة مدرس للغة العربية والديانة في صفوف السادس والسابع والثامن، ولم أجدد عملي في المعهد لأنه كان ذا طبيعة دينية، وكان المعهد يقع في بستان الرئيس، ومديره كان شخصاً من آل باجقني، وقد نبهني أكثر من مرة إلى أنني أعطي دروس الديانة، لذلك من الضروري أن أصلي بالطلاب في الجامع داخل المدرسة بعد كل أذان، وقد أجبته إن وظيفتي هي تدريس الديانة لا أن أؤم الطلاب، ولذلك حدث جفاء بيني وبينه.

وبهذا الخصوص فقد جرت حادثة تخص مسألة الدين، فحين كنت أعطي الدرس ويحل موعد أذان الظهر أو العصر، وبما أن التلامذة مشاغبون عادة ويحبون الولدنات الصبيانية، فإن أحدهم، وكان يجلس في مقعد في الصف الأول، كان ينهض واقفاً مع كل صوت للأذان، ويصيح: الله أكبر، كي يقطع عليَّ إعطاء الدرس، وقد كرر هذا الأمر أكثر من مرة، ونبهته في كل مرة إلى ضرورة ألا يتحرك أحد ما دمت أعطي الدرس. وبعد التنبيهات المتكررة أعاد تصرفه المذكور، وكنت في آخر مرة أقف إلى جانبه، فلطمته على نحو لا إرادي. وبعد اللطمة لم يعد إلى تكرار الأمر.

مرحلة التدريس في السويداء

بعد أن تركت المعهد العربي الإسلامي حصلت على ساعات تدريس إضافية في السويداء عن طريق المعارف، ودرَّست هناك مدة سنتين. ومع ذهابي إلى السويداء، وبدء عملي في ثانويتها، التي كانت ثكنة عسكرية فرنسية على شكل بناء ضخم ينتصب على ظهر تلة، فإنني باشرت تدريس اللغة العربية والديانة. وهناك، ومنذ أول شهر، تعرفت إلى الشيوعيين، إذ كان هناك منظمة شيوعية ناشئة، وسكنت في حي شعبي، وكان على طريقي بين البيت والمدرسة مكتبة تبيع الجرائد، ومنها جريدة **النور**،

وكان صاحبها شبلي عزام (أبو حمد)، وهو عسكري مسرح أو متقاعد، وكان شيوعياً ومسؤولاً عن المنظمة الشيوعية في السويداء.

كان بين الطلاب شيوعيون تعرفوا إليَّ وعرفوا أنني شيوعي التفكير من خلال حديثي أثناء الدروس ومن قراءتي لجريدة **النور** ومن طريقة تعاملي معهم، وتعرفت إلى أبي حمد، وخلال الأسابيع الأولى انخرطت معهم في العمل الحزبي دون أن أكون منتسباً بعد إلى الحزب، وصاروا يدعونني إلى بيوتهم لحضور بعض الاجتماعات رغم أنني أبلغتهم أنني لست شيوعياً منظماً بعد.



هيئة التدريس في ثانوية السويداء: مراد يوسف الرابع من اليمين في الصف الخلفي، 2 نيسان 1955.

وبالمناسبة، فقد درَّس قبلي في هذه الثانوية سعيد حورانية، وكان مدرساً للغة العربية فيها، وكان ينشر الثقافة الشيوعية بين طلابها، كما درَّس فيها أيضاً خليل حنا، وكان مدرساً للرياضيات، وقد حدثني عنهما الطلاب، فأنا لم يكن قد سبق لي أن التقيتهما أو سمعت بهما، كما أنني لم ألتق بهما في الهيئة التدريسية أثناء عملي في الثانوية. وقد وجدني الطلاب لقطة، فهم لم ينقطعوا عن الحزب وفكره بعد رجوع خليل حنا إلى دمشق وانتقال سعيد حورانية إما إلى دمشق أو إلى الجزيرة.

وبعد أن تعرفت إلى الطلاب الشيوعيين في ثانوية السويداء، وصرت أحضر معهم نشاطاتهم العامة التي يقومون بها، فإنني صرت أكلف بمهمات، وآنذاك تعرفت إلى دانيال نعمة أول مرة، وكان ذلك عن طريق منظمة السويداء، بعد أن صرت مراسلاً بينها وبين المركز، يرسلون معي الرسائل، وأجلب لهم المطبوعات.

المرحوم أبو حمد كان يدعوني لحضور الاجتماعات، وكان يكلفني بأن أقدم أحاديث سياسية، رغم معرفته بأنني لست في التنظيم بعد، وكان يقول لدى احتجاجي على هذا التصرف غير الصحيح تنظيمياً: وماذا في الأمر، فأنا أثق بك أكثر من الآخرين.

كان أبو حمد من الشخصيات المزوحة والنكتية وزكرتياً، وقد سبق له أن التقى بالرفيقين دانيال نعمة وإبراهيم بكري وبقية الرفاق الشيوعيين، الذين حبسوا في سجن تدمر عندما كان مساعداً في الجيش منفياً ومغضوباً عليه، وربما هناك أصبح شيوعياً. وقد ذكر لي أبو حمد مرة أنه عرض على رفاقنا المعتقلين أن يقوم بتهريبهم من السجن إذا أرادوا. وكان أبو حمد يعرف عدنان المالكي أيضاً، الذي كان محبوساً أيضاً في تدمر، وأعتقد أنه عرض على عدنان أيضاً أن يقوم بتهريبه إذا أراد.

لقد كان أبو حمد من الدروز الذين يحملون خصال الفروسية، رغم أنه لم يصمد لاحقاً عندما اعتقل في سجن المزة، إذ انهار هناك تحت التعذيب الوحشي مع الأسف، فقد بقي في السجن شهراً أو اثنين، لا أكثر، ثم وقع انسحاباً من الحزب، وخرج من السجن، وترك الحزب، لكنه بقي إنساناً له نكهته كوطني.

وجاءت حادثة اغتيال عدنان المالكي، وكنت قد اندمجت تماماً بحركة الحزب ونشاطه السياسي الوطني، إلى درجة أن حصة الديانة التي كنت أدرسها حولتها إلى تدريس للفكر الاشتراكي، واستخدمت لذلك أمثلة من الدين كنت قد درستها في الكلية الشرعية والأزهر. كنت أعطي درس الديانة كما هو في الكتاب، لكن عبر المناقشة الاجتماعية عن معنى الدين كنت أعطيه طبيعة ومضموناً اشتراكيين، وكنت أضمنه مفاهيم العدالة والحرية والمحبة بين الناس والتسامح والتعاون. بهذه الروحية كنت أعطي

الدروس عندما جرت معي حادثة مماثلة للحادثة التي جرت في المعهد العربي الإسلامي، فمفتش الديانة كان شخصاً من آل الباني، وقد جاء أكثر من مرة للتفتيش عليّ وعلى كيفية إعطائي للدروس، ووضع ملاحظة وهي أنني لا أصلي بالطلاب، خصوصاً أنهم من أبناء السويداء الدروز، وقد أجبته أيضاً بأن هذا الأمر ليس من صلب عملي، وقلت له بأنهم إذا أرادوا يمكنهم إرسال إمام ليؤم بالطلاب أثناء الصلاة.

درّس معي في الثانوية أساتذة جيدون، ومنهم بعثيون، وكان هناك أستاذ من الاشتراكيين العرب اسمه نواف، كما درّس معي ذوقان قرعوط، وكان مدير المدرسة إنساناً رائعاً جداً اسمه سلامة، وكان بعثياً وأديباً وشاعراً، وقد أصبحنا أصدقاء أنا وهو، وكان هناك مدرس للجغرافيا يحمل تفكيراً شيوعياً، لكنه لم يكن يعلن ذلك، ولم يكن يقوم بأي نشاط.

فيما بعد تعرفت إلى خليل حنا عندما صارت تأتيني أسئلة في الحلقات التثقيفية حول موقف الحزب من القضية الفلسطينية، وكانت معلوماتي حول هذه القضية قليلة، ولأنهم كانوا يذكرون لي خليل حنا كثيراً، فإنني أخذت عنوانه، وذهبت إليه، وسألته تحديداً عن موقف الحزب من هذه القضية وعن الأسباب الكامنة وراء الانتقادات الموجهة لهذا الموقف، وقد شرح لي المسألة شرحاً سليماً، وتبنيت وجهة نظره بالأمر، وكنت أجيب بالاستناد إليها عن الأسئلة المطروحة في الاجتماعات الواسعة التي كنا نعقدها في السويداء وفي الاجتماعات الحزبية.

وهكذا، فقد قررت أنه آن الأوان كي أنتسب إلى الحزب الشيوعي بعد اغتيال عدنان المالكي، وكنت قد سمعت عنه من شبلي ومن خلال الأحاديث التي كانت تصلنا عن حركة الضباط الوطنيين، الذين أسقطوا الشيشكلي، ودور عدنان المالكي فيها وفي دعم التوجه الوطني الديمقراطي في البلد. لقد أحدث اغتيال عدنان رد فعل عنيف في سورية، وظهر لدينا شعور بأننا مستهدفون، وأقصد بذلك الاتجاه الوطني اليساري، وكان هذا الأمر يحتاج إلى رد فعل، لذلك قررت الانتساب إلى الحزب بعد هذا الاغتيال مباشرة، وتحدثت حول هذا الأمر مع ناديا خوست آنذاك...

أمام المرآة

يعود ما سأقوله بذاكرتي نصف قرن إلى الوراء، لأن خمسين سنة مضت منذ لقائي الأول بالمرحوم دانيال نعمة في أواسط عام 1954 حتى رحيله. وخلال هذه السنين دام عملنا المشترك 31 سنة في اللجنة المركزية، و18 سنة في المكتب السياسي، وحدث انقطاع لأحدنا عن الآخر في هذا العمل نحو 14 سنة. وقد حدث هذا الانقطاع على فترتين، الأولى امتدت سنتين من عام 1972 إلى عام 1974، والثانية امتدت منذ 1979 حتى 1991. هذا بعجالة عن الفترات التي حكمت علاقتنا منذ لحظة التعارف حتى لحظة رحيله الأبدي وافتراقنا.

هناك قصص كثيرة عن هذه العلاقة وتلك الفترات، لكن الذاكرة لا تحفظ كل شيء، والأشياء الهامة بحاجة إلى وثائق، لذا ما سأقوله سيكون عادياً، أي دون الدخول إلى عمق القضايا، وهو سيتم على عدة مراحل، مع أخذ الأسئلة بالحسبان.

مرحلة التعارف

حصل اللقاء الأول بيني وبين دانيال في الخمسينيات، وتحديداً في عام 1954، أي بعد زوال مرحلة الشيشكلي ودخول البلاد مرحلة جديدة بعد انتهاء فترة الانقلابات وتوجه البلاد لإجراء انتخابات ديموقراطية، وكانت الجماهير المُسيَّسة وقوى واسعة وقتذاك في حالة ترقب ومتابعة للأحداث الداخلية والخارجية.

كنت آنذاك أدْرُس في ثانوية السويداء، وتعرَّفت هناك على الشيوعيين والمنظمة الشيوعية، وقد حمّلني مسؤول المنظمة رسالة إلى قيادة الحزب، ودلّني على العنوان. كان مكتب الحزب بجانب مؤسسة الكهرباء ومقابل مقهى الهافانا الشهير، ويُطلُّ عليه. كان المكتب مكتباً للجريدة، لكنه يُستخدَم كمكتب للحزب أيضاً. وهناك استقبلني رفيق، واستلم مني الرسالة، ودردش معي قليلاً. لا أذكر الآن ما الذي قاله تماماً، لكن ما أذكره أن مسؤول المنظمة سألني بعد عودتي عمّا حدث معي وبمن التقيت. ولمّا

وصفت له الشخص الذي قابلني، أخبرني أنه الرفيق دانيال نعمة، وكانت هذه هي المرة الأولى التي سمعت فيها باسمه.

تكرر هذا الشكل من اللقاءات مرتين أو ثلاثاً على فترات متقطعة، وكانت المرة الثانية التي التقيت به فيها بعد نحو سنة أو سنتين، أي إما في عام 1955 أو في عام 1956، وربّما بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي.

كنت في السويداء أيضاً، وكان دانيال يزور المنظمة، فاجتمع الرفاق، وكنت ضمن المجتمعين. وبعد الاجتماع دعانا مسؤول المنظمة إلى عشاء في بيته، وتراوحت أحاديث سهرتنا آنذاك بين المزاح والذكريات، كما جرى حديث حول التغيرات التي كانت قد بدأت في الاتحاد السوفييتي، وقد بات دانيال ليلته في ذلك البيت.

لم تترك لقاءات الخمسينيات انطباعات تستحق الذكر في الحقيقة، لكنني كنت مرتاحاً لأن بداية تعرفي على الحزب وناسه كانت من خلال الرفيق دانيال القائد الحزبي الذي يعمل في جريدة الحزب ومكتبه، وكانت اللباقة التي استقبلني بها هي سبب ارتياحي.

المرحلة الثانية

ابتدأت المرحلة الثانية من علاقتنا منذ عام 1964، لأنني كنت قد بقيت في السجن إلى أوائل عام 1962، كما أننا لم نلتق مباشرة بعد إطلاق سراحي.

عُيّنتُ سكرتيراً لمنظمة دمشق بعد عودتي من المدرسة الحزبية في موسكو عام 1964، واستلمت مسؤولية هذه المنظمة من الرفيق يوسف نمر (أبو سعيد)، الذي كان سكرتيرها. وكان الرفيق دانيال في مركز القيادة بدمشق، وصرت ألتقي به لقضاء مهمات مختلفة، وكان يأتي ليحضر اجتماعات اللجنة المنطقية، أو كان يلتقي بي من خلال موعد في الطريق. وتلقيت دعوات إلى اجتماعات موسعة للجنة المركزية، التي لم أكن عضواً فيها. وهنا لم تكن تحدث أمور كبيرة تستحق الذكر، إذا استثنينا بحث عمل اللجنة المنطقية والكادرات.

الموقف من أبي رياض

أتذكر نقاشاً جرى بيني وبين الرفيقين دانيال نعمة وإبراهيم بكري حول الرفيق يوسف أبيض (أبو رياض) إثر قرار اتخذته القيادة يقضي بإعادة يوسف إلى منظمة قاعدية، وكنتُ قد بُلغت بأن أُكلف الرفيق يوسف بالعمل في إطار فرعية القصاع.

التقيتُ يوسف ذاته، فشكا لي همومه.

كان سبب القرار بسيطاً جداً، فقد ذهب يوسف إلى لبنان بعد إخباره أن الحزب سيرسله للدراسة في المدرسة الحزبية. وفي لبنان، سأل يوسف عدة مرات عن موعد سفره، فاعتقدت قيادة الحزب أنه يسأل بدافع الخوف من الوضع السياسي الناشئ، لذا تراجعت القيادة عن قرارها بإرساله، وأعادته من لبنان.

ناقشت هذا الموضوع مطوّلاً مع الرفيق دانيال، لأنني كنت أعرف يوسف جيّداً، إذ كنتُ قد عملت معه، كما أنه كان مسؤولي عندما عملنا في لجنة الريف بدمشق، وكانت معظم الاجتماعات تُعقد في بيته وفي بيت بطرس أبي شعر (أبو سليمان)، وأحياناً في بيت أبي سعيد (يوسف نمر).

وعموماً، لمّا كنت أعمل في دمشق، كنت مكلفاً بالعمل في الريف، وتحديداً في الغوطتين الشرقية والغربية، لذلك عملت مع يوسف، وكنت أراه باستمرار، كما أننا قضينا سنوات السجن الثلاث معاً، وكان بطلاً هناك، وكان من الرفاق المتقدمين بمعنوياتهم وصمودهم وبمساعدة الرفاق الآخرين على الصمود، فاستغربت أن يُعامل على هذا النحو رفيق بهذا المستوى ولسبب بسيط.

وباختصار، بعد الخروج من السجن في أوائل عام 1962 انخرط قسم من الرفاق بالعمل الحزبي، ومنهم أبو رياض، في حين سافر للدراسة قسم آخر، وكنت أنا ورياض الترك وآخرون من المسافرين. وقد عرفت فيما بعد أن أبا رياض كان في مقدمة الرفاق المتحمسين الذين عملوا في التنظيم عملاً جيّداً. ولمّا حدثت حركة 8 آذار 1963، وحصل نوع من الرعب والهلع، لم يتزعزع أبو رياض، وبقي يعمل.

كان المركز القيادي هو الذي عرض عليه موضوع السفر والدراسة،

فانتظر وطالت المدة، وكان هو يريد الزواج، وقد ذهب إلى لبنان باتفاق مع الحزب، وكان وضعه هناك صعباً، فبقي فترة ثم عاد إلى دمشق متزوجاً، وعاد ليعمل في فرقة بإطار الفرعية.

وقد قلت للرفاق إن رفيقاً مجرباً ومن هذا المستوى لن يستوعب مسألة التعامل معه بهذه الطريقة، ويمكنني القول إن الموقف من أبي رياض كان أول الأحداث التي جعلتني أفتح عينيّ على الغلط في العمل الحزبي، فأنا أيضاً لم أستوعب قرار المركز والقيادة بحق الرفيق أبي رياض.

وتكررت الحالة مع الرفيق بطرس أبي شعر، الذي سلموني أمره، وطلبوا مني أن أجد له مكاناً في فرقة من فرق فرعية القصاع.

كانت الفرعية كلها من الشباب، وكان أبو سليمان عميداً لمنظمة القصاع وأحد مسؤوليها السابقين. وهذا ما سبب انزعاجاً لأبي سليمان، ومع ذلك سارت الأمور، وبقيت العلاقات قائمة مع الرفيقين المذكورين، وتابعا عملهما الحزبي، وإن كانت حماستهما قد خفت، ولم يعودا يقدمان كل ما باستطاعتهما تقديمه. وفيما بعد عمل أبو رياض في المركز الثقافي السوفييتي، وظل يتابع عمله في الحزب إلى حين حدوث الانقسام الأول في الحزب، فالتزم فترة من الوقت بخط المكتب السياسي ثم بخط رياض الترك، وبعد ذلك تركه، وإن كانت طريقته في التعامل مع الحياة ما تزال كما كانت، ويمكن ملاحظتها.

مطبوعات الحزب

كانت ظروف العمل شبه سرية، وكان الرفيق دانيال مسؤول المطبوعات، وكنت أنا من يستلم منه حصة دمشق من المطبوعات. كان يأتي بالمطبوعات في سيارة، فآخذ منه حصة دمشق، وأحملها على دراجة أو على كتفي وأسير بها. وفي أحيان أخرى كان يأتي بمطبوعات دمشق إلى بيتي في المهاجرين، وكانت والدتي تسألني: "ألا يوجد لديكم شبان في الحزب ليحملوا المطبوعات، ولماذا تتركون رجلاً مقتدراً يحملها على هذا النحو؟"

وكنت أرد عليها بضحكة.

تكوّنت الانطباعات عن دانيال والرفاق القياديين والعمل الحزبي القيادي خلال فترة أواسط الستينيات، أي بعد عودتي من الدراسة في الاتحاد السوفييتي.
ورغم معرفتي أن الرفيق دانيال عضو في المركز القيادي (وكان يُسمّى القيادة المركزية، إذ إن مصطلح المكتب السياسي لم يكن يُستخدَم على ما أذكر) فإنني كنت أرتاح للنقاش معه سواء كان النقاش يجري في الطريق أم في الاجتماعات، وكذلك أثناء توزيع المطبوعات وإيصالها.

في مكتب التنظيم

بقيت سكرتيراً لمنطقية دمشق منذ عام 1964 حتى عام 1966، وخلال هذه الفترة كنت أحضر اجتماعات اللجنة المركزية الموسعة. وفي عام 1966 كُلّفت بالعمل مساعداً لمكتب التنظيم الذي كان مقره شقة في السبع بحرات صارت فيما بعد سكناً للرفيق ظهير عبد الصمد. وكنت أحضر الاجتماعات مع الرفاق أعضاء مكتب التنظيم يوسف الفيصل ودانيال نعمة وإبراهيم بكري وظهير عبد الصمد ورفاق آخرين كانوا يترددون على هذا المكتب. وكانت مهمتي هي تأمين الاتصالات مع المحافظات سواء كان ذلك بالمراسلات أم بالمطبوعات. وإضافة إلى كوني صلة الوصل، فقد كنت أساهم في النشاطات، وأحضر اجتماعات منطقية دمشق.

لجنة صياغة مشروع البرنامج

كانت اجتماعات اللجنة المركزية الموسعة تجري غالباً في بيت قبو يستأجره الرفيق دانيال في شارع حلب بالقرب من القزازين.
وتطور العمل المشترك تطوراً أكثر بيننا أثناء التحضير للمؤتمر الثالث، الذي بدأ العمل له بين عامي 1965 و1966 حسبما فهمت آنذاك من بعض الوثائق التي قرأناها في لجنة صياغة مشروع البرنامج، إذ كانت هناك مخطوطات كتبها رفاق عملوا في لجان سابقة.
التحضيرات الفعلية للمؤتمر جرت بين عامي 1968 و1969، إذ

تشكلت لجنة المشروع، وكان فيها الرفيقان يعقوب كرو وعبد الوهاب رشواني وأنا، وكان الرفيق دانيال مشرفاً على هذه اللجنة.

أخذ الموضوع منا وقتاً كبيراً، فقد قرأنا وثائق وأدبيات كثيرة ومخطوطات لمشاريع كتبها رفاق سبقونا. وكان الرفيق دانيال يحضر اجتماعات اللجنة من فترة إلى أخرى، فنضعه في صورة كل ما أنجزناه، وكان يشاورنا ونشاوره ونتبادل الرأي، واستمرّ هذا الأمر إلى حين انعقاد المؤتمر.

عشية المؤتمر الثالث وبعده

كان الشيء الجديد الذي ظهر على خط حياتنا الحزبية هو النشاط التكتلي، وأوائل عام 1968 اطلعت لأول مرة على وجود خلافات واسعة في الحزب من أحد الرفاق في إحدى المحافظات.

كنت قد أرسلت بمهمة إلى محافظة الجزيرة، وأمضيت فيها أربعين يوماً، وهناك قام أحد الرفاق من أعضاء اللجنة المنطقية، وهو صبحي أنطون، فتحدث بصراحة كاملة عن الخلافات والحزب والقيادة والأمين العام، وقال لي آنذاك حرفياً: "لقد أرسلك الرفاق لترى ما هو رأينا، فاذهب وأبلغهم برأيي".

كان هذا الحديث مفاجئاً لي، وكانت جولتي في الجزيرة مفيدة لي جداً، لأنها المرة الأولى التي كنت أُرسلُ فيها بمهمة حزبية إلى منظمة كبيرة ومهمة وقوية ومحترمة ولها نشاطات جماهيرية، وقد زرت القرى وحضرت الاجتماعات في بيوت الرفاق.

وعلى هذا النحو دخلنا إلى المؤتمر الثالث، الذي كان مؤتمراً مهماً جداً وغنياً جداً. كان الحزب نشيطاً، وقد حضّرنا للمؤتمر الثالث تحضيراً جيّداً.

كان التحضير للمؤتمر كبيراً، وعشية انعقاده وضعتُ ملاحظات كثيرة على مشروع البرنامج الذي قدمناه، وأبديتُ انتقادات لمقدمته خصوصاً، إذ كانت المقدمة طويلة. وكان قد سبق أن حصل نقاش أثناء عملنا في اللجنة حول طول المقدمة، وكذلك بعد أن أحيل مشروع البرنامج إلى الرفاق الآخرين من أعضاء القيادة، ورأى الرفاق أن عيب المقدمة يكمن في

طولها وكثرة تمجيدها لتاريخ الحزب.

كان هناك رأيان حول هذا الموضوع، رأى أولهما أنه ينبغي اختصار كل ذلك، خاصة أن الحزب قد ارتكب أخطاء. بينما قال الثاني إن هذا المؤتمر هو أول مؤتمر يُعقد منذ خمس وعشرين سنة، وإن كثيرين من منتسبي الحزب الجدد والقدماء لا يعرفون تاريخ الحزب، وإن هذه المقدمة هي تعريف لأعضاء الحزب وأصدقائه بتاريخ الحزب وماضيه، لذا لا مانع من طول المقدمة.

لم يقرّ المؤتمر مشروع البرنامج، بل قرر إعادة صياغته وطرحه للنقاش الواسع داخل الحزب، وذلك تحضيراً لعقد مؤتمر استثنائي يُقرُّ فيه البرنامج.

وفيما بعد، في عامي 1970 و1971، حددت مناقشة هذا المشروع البرنامجي الاستقطابات التي حدثت.

إذن، ما حصل في المؤتمر الثالث هو إقرار عدم مناقشة مشروع البرنامج أثناء انعقاد المؤتمر، على أن يُطرح المشروع للنقاش على الحزب كله. وكان الرفيق خالد هو صاحب هذا الاقتراح استناداً إلى وجود استقطابات قبل المؤتمر، وهو الشيء الذي تبيَّن أثناء المؤتمر وبعده.

جرى إطلاع الكادرات على مشروع البرنامج لدى حضورهم وقبل الدخول إلى المؤتمر، وعندئذ حصل اللغط حول المشروع. وقد كان الرفيق دانيال يذكر أنه حصل تلاقٍ بيننا في المؤتمر الثالث دون سابق تخطيط، فقد كنا من الضاغطين على القيادة والمؤتمر كي لا ينقسم، لأن المناقشات احتدمت، وخطر الانقسام كان قائماً.

على سبيل المثال، كنا قد كُلفنا أنا والرفيق رياض الترك عشية المؤتمر بدراسة الملاحظات على النظام الداخلي، التي وردت من المنظمات. وعلى ما أذكر، فقد أمضينا فترة من الزمن في تبويب الملاحظات، وقدنا أنا وإياه لجنة النظام الداخلي، ثم فوَّضني رياض بأن ألقي تقرير لجنة النظام الداخلي بعد الدراسة التي حصلت للملاحظات. وأذكر تماماً أنني قلت في نهاية التقرير: إن ما بأيدينا هو النظام الداخلي الذي توصلنا إليه نتيجة نقاشات واسعة، وقد يكون النظام جيِّداً، وقد يكون

فيه نواقص، لكن المهم هو أن يملك الحزب نظاماً داخلياً ويسير عليه، ويمكن مع العمل تصحيحه، فنحن لا نستفيد شيئاً من وجود نظام داخلي صحيح في ظل حزب ضعيف، والحزب القوي والنشيط يمكنه أن يسير حتى لو كان نظامه الداخلي ضعيفاً، وهو الشيء الذي يمكن للحزب تطويره لاحقاً.

إذن، حصل هجوم شديد على المقدمة، ونقد لماضي الحزب، ومن درس تقرير اللجنة المركزية المقدم إلى المؤتمر الثالث سيرى أن هذا التقرير قد نوقش نقاشاً طويلاً جداً قبل إقراره بالصيغة التي عُرِضَت في المؤتمر. وورد في التقرير انتقاد ذاتي على لسان الأمين العام الرفيق خالد، الذي ذكر من جملة الأخطاء والنواقص عدم عقد المؤتمرات خلال خمس وعشرين سنة، وحمَّل المسؤولية عن ذلك للجنة المركزية والمكتب السياسي، وبالأخص للأمين العام، واستهلكت هذه العبارة نقاشاً مدة يوم أو اثنين، كي تكون أو لا تكون، وجرى ضغط شديد كي يُذكر هذا النقد الذاتي. وكان في التقرير فقرات عن موقف الحزب من فلسطين وموقفه من الوحدة العربية والمؤتمرات والمركزية الديموقراطية وعبادة الفرد، ونقد لهذه المواقف. والدارس الجيِّد لهذا التقرير سيرى كيف أن التقرير جاء كتسوية بين الآراء.

كان لي تعاون مع الرفيق دانيال طوال الفترة الممتدة منذ لحظة تعرفي إليه، وأثناء التحضير للمؤتمر الثالث، وحين انعقاده، وكذلك في الفترة التي تلت إنجازه، وصولاً إلى المجلس الوطني الذي تكلم فيه الجميع تقريباً.

وقد تحدثت أنا في هذا المجلس، وألقيت كلمة طويلة استغرقت ثلاث ساعات. لم تكن الكلمة مكتوبة، واستخدمت رؤوس الأقلام مع الوثائق التي استشهدت بها.

انعقد المجلس الوطني بعد عودة وفد الحزب من موسكو، وقد شارك في عضويته الرفاق دانيال نعمة وخالد بكداش ويوسف الفيصل ورياض الترك وأنا، كما شارك فيه بدر الطويل. وكنا قد أمضينا أربعة أيام من النقاشات في موسكو، ثلاثة منها مع العلماء لمناقشة قضايا فلسطين والوحدة العربية والمركزية الديموقراطية وقضية الهيئات، وحظيت قضيتا

فلسطين والوحدة العربية بقسط كبير من النقاش، إذ كان هناك مطلب بتحرير أراضي فلسطين وإقامة وحدة عربية دون شروط وإقامة حزب عربي واحد.

بعد بيان 3 نيسان في عام 1972 انفصلنا مع الأسف أحدنا عن الآخر، ثم عدنا والتقينا في عام 1974 أثناء المؤتمر الرابع.

كان المؤتمر الرابع ساخناً وشيقاً وغنياً، وقد حدث في هذا المؤتمر بعض سوء التفاهم. أنا كنت من أنصار إجراء انتخابات ديموقراطية بالتصويت السري، ثم حدثت اعتراضات بعد بدء التصويت، فحُوّل التصويت إلى تصويت علني، وانتهى المؤتمر بالتوافق لتجنب الانقسام.

في عام 1979 حصلت الخلافات ثانية، وانقسمنا، ثم عدنا بعضنا إلى بعض في عام 1991. وكنا قد عدنا نلتقي في إطار الحوارات التوحيدية بدءاً من عام 1986 عشية المؤتمر السادس، واستمرت هذه الحوارات حتى انعقاد المؤتمر السابع.

صفات دانيال

كان الرفيق دانيال شخصاً يُعتمَد عليه، مخلصاً جداً للشيوعية والحزب، وكان يحترم الهيئات، ويتمسك بالعمل في إطارها. كان مساهماً نشيطاً وديناميكياً في عمل هذه الهيئات، وكان محاوراً يناقش في كل القضايا الفكرية والسياسية والتنظيمية. كان دقيقاً في مواعيده، وكان تعامله مع الرفاق ودياً ومتعاوناً، إلا عندما تحدث خلافات في الرأي، وهذه هي الطبيعة الإنسانية. كان دائم الحرص على أن تكون علاقته بالرفاق الآخرين في الهيئات جيّدة وودية وطبيعية، وكان نجاحه في كثير من الأحيان يتعلق بموقف الآخر، أي قابليته للتفهم والمسامحة. كان منفتحاً على الآخرين، وما كان يستكبر على التصحيح في حال حصل سوء تفاهم بينه وبين رفيق ما. كان يبادر إلى الاعتذار، سواء طُلِبَ منه أم لم يُطلب. كان لا يخاصم، ولا يقاطع، إلا إذا أظهر الطرف الآخر جفاءً من جانبه وقطيعة.

ورغم أنني اختلفت معه بالمواقع أكثر من مرة، لكن العلاقة بيننا كانت

دائماً طيبة جداً وودية. وكان يحصل بيننا اختلاف في الرأي، لكن دون مخاصمة.

كان من أكثر الرفاق الذين أعطوا في الحزب خلال وجودنا في المكتب السياسي، وكانت أهم مساهماته في المجالين السياسي والإعلامي، إذ كان مساهماً نشيطاً في تحرير جريدة **النور** القديمة، التي صدرت في الخمسينيات، وساهم في تحرير جريدتي **نضال الشعب** و**النور** الجديدة. وكان دائماً هو المحرر الرئيسي في صحيفة الحزب ولدى إعداد مشاريع الوثائق للمؤتمرات واجتماعات المركزية وفي المناسبات. مثلاً، كان هو رئيس لجنة الاحتفالات بالذكرى المئوية لميلاد لينين عام 1970، وقاد العمل قيادة ديناميكية وحيوية وجيّدة، وكذلك فعل في الاحتفالات السنوية بذكرى تأسيس الحزب. وهناك كثير من المشاريع التي وضعها هو، وهذا يعني أن غيابه أوجد فراغاً كبيراً ليس من السهل ملؤه.

وبالمناسبة، كان دانيال يحترم الحياة العائلية، وكان صاحب لهفة على عائلته، ولديَّ تقدير كبير لزوجته نديمة يسوف (أم خالد). وعلى ما أذكر، تعرفت عليها أثناء العمل الحزبي في الخمسينيات، عندما كانت تسكن مع أخيها خليل في بيت بالزبلطاني، وقد التقيتها عدة مرات هناك أثناء لقائي بالرفاق. وبعد عودتي من موسكو واستلامي منطقية دمشق، كنت أحضر اجتماعات فرعية القصاع، التي انعقدت غالباً في بيت الرفيق دانيال. وقد لمست من أحاديثي مع الرفيق دانيال الدور الكبير الذي قامت به نديمة لتسهيل عمله الحزبي والسياسي وترتيب حياته الشخصية، وكانت في أحيان عديدة تأتيه إلى مكان الاجتماع في المكتب حاملة دواءه الذي نسيه في البيت.

دانيال والجبهة

تجلى دور الرفيق دانيال في عمل الحزب في عدة ميادين، وخاصة لدى تمثيله في القيادة المركزية للجبهة على امتداد 32 سنة. لم يكن هذا العمل سهلاً، لأنه عمل في مركز قيادي على الصعيد الوطني ضمن ظروف بلادنا وظروف حزبنا. لقد كان هذا العمل صعباً جداً في ظل

الظروف السائدة، ولا أخفي أنني كنت في بعض الأحيان أشعر بنوع من الشفقة للوضع الذي يوجد فيه. لقد أتقن إدارة العمل الجبهوي إتقاناً جيّداً، وأكثر وثائق الحزب وأدبياته في مجال التحالفات والجبهة تحمل بصماته، وله دور كبير في صياغتها تحديداً. وبكلمة، فقد كان له دور كبير في تحديد سياسة الحزب الجبهوية والتحالفية، وكذلك في ممارستها وتطبيقها.

وبالمناسبة، أتذكر أنه أثناء وضع مشروع البرنامج بعد المؤتمر الثالث كان يقول لا يكفي أن تكون لدى الحزب سياسة تحالفية صحيحة وثابتة ودائمة، وإن كان ذلك هاماً جداً، لكن على الحزب أن يتقن أيضاً فن سياسة التحالف وإدارة هذه العملية بمنهجية.

دانيال ووحدة الحزب

كان لدانيال دور كبير في صيانة وحدة الحزب واستعادة وحدته أكثر من مرة، وكما قلت فقد كنا في المؤتمر الثالث من جملة الذين ارتفعت أصواتهم الضاغطة على الموجودين، وخصوصاً المتناقشين في المنصة لوضع حد للنقاش والجدل وصيانة وحدة الحزب والمؤتمر. وهنا لا بد من القول إننا كنا نجلس أنا والرفيق المرحوم ميشيل العيسى أحدنا قرب الآخر، وكنا على درجة كبيرة من الصحبة، لأنها كانت صحبة سجن المزة، وقد نشطنا كثيراً وضغطنا بالتعاون مع دانيال للحيلولة دون انقسام المؤتمر.

بعد اختلاف الرفاق دانيال وظهير عبد الصمد وإبراهيم بكري ومحمد الحبال مع رياض الترك وانفصاله عنهم عام 1974، لم أساهم في الحوار المباشر معهم، بل كان الرفيق يوسف الفيصل هو المحاور الرئيس، ومع ذلك فقد لمست أن للرفيق دانيال دوراً كبيراً في استعادة الوحدة وعقد المؤتمر الرابع. وكان دوره كبيراً أيضاً في تحقيق الوحدة مع حركة اتحاد الشيوعيين السوريين في المؤتمر السادس، وكان له دور كبير أيضاً في الحوارات التي أدت إلى التوحيد وانعقاد المؤتمر السابع الموحد. لقد كان له دوره في هذه المحطات الثلاث، وهو دور أساسي.

لم يكن الرفيق دانيال يتوانى عن المهمات الكبيرة أو الصغيرة، مثلاً

كان يقوم بتوزيع المطبوعات، وكنت أراه على امتداد فترة طويلة كيف يعتل الكراريس والمطبوعات ونسخ الجريدة على أكتافه من مكان إلى آخر كي يسلمنا إياها... .[20]



في خمسينات القرن العشرين تكوّنت في دمشق نخبة من الشباب التقدمي واليساري الجولاني، كانت نشطة في الحياة السياسية والاجتماعية، منهم من انضمّ إلى الحزب الشيوعي السوري، ومنهم من انضمّ إلى حزب البعث، وجميعهم بقي صديقاً شخصياً لمراد وصديقاً للحزب. في أحد شوارع دمشق من اليسار إلى اليمين: صلاح جلاحج شيوعي منذ أربعينيات القرن الماضي، بشار صوقار صديق شخصي لمراد وصديق للحزب، نزيه قرشاي صديق لمراد وصديق للحزب، مراد يوسف، زاراموك سمكوغ الذي كان عضواً في الحزب الشيوعي.

[20] عند هذا الحد جرى التوقف في رواية الذكريات بتاريخ 21 نيسان 2004، على وعد بالمتابعة بعد عودة الرفيق مراد من سفرته إلى الخليج لزيارة ابنه هناك، وهو الأمر الذي لم يتحقق مع شديد الأسف - **خالد**.



من أجل تعزيز وحدة الحزب الشيوعي السوري وعقد مؤتمره الخامس على أسس مبدئية

نص الرسالة التي وجهها ثمانية من أعضاء اللجنة المركزية

من أجل تعزيز وحدة الحزب وعقد المؤتمر الخامس على أسس مبدئية

الباب الثاني

مسار واسع نحو وطن حرّ وشعب سعيد[21]

[21] يتضمن هذا الباب علاقة مميزة لأبي سامي الكادح، الصاعد إلى نور نضال طويل من صلب عائلة من كادحي هذا الوطن السوري، مع حزب أحبّه وأعطاه زهوة شبابه ورجاحة رؤى القائد الرائد فعلاً.

وتأتي غالبية مواد هذا الباب، والباب التالي له، من الوثائق الحزبية والشخصية المرتبطة بمراد يوسف (أبي سامي) التي ساهم في إعدادها وتوثيقها - كما في كثير من حواشي الباب الأول - أخاه الشقيق نجدت. وقد نسبت هذه النصوص في كل حالة إلى صاحب الكتاب أو من أعدها؛ وغالبية هذه المواد ترد ضمن السياق وفق نصها الأصلي، ولم يتم التعديل عليها - وتقديمها أو تأخيرها - إلا بالحد الأدنى وبما يتناسب والتسلسل المنطقي اللازم لإيضاح الأفكار الواردة - **معن**.

حزب للشعب والوطن[22]

"أيها الرفاق! الرائد لا يكذب أهله. الرائد هو القائد. الريادة هي القيادة. قيادتكم التي سرتم معها منذ السبعينيات، ومنذ مطلع الثمانينيات...

قطعنا معاً درباً غير مطروقة من قبل، ولم نته في المسير ومنعطفاته. هاجسنا في القيادة كان أن نتلمّس نبض قلبكم... نبض القلب عند شعبنا الكادح... وهاجسكم في القواعد والكوادر كان استشفاف مواقع الخطى من نجمة العقل، من المزاوجة... من الدمج بين الحرارة المتدفقة من القلب... من المعاناة والطموح... وبين البرودة المنبثقة من العقل.

من صقيع الواقع والإمكانات، حفرنا الطريق، الذي قطعناه واجتزناه منذ اثني عشر عاماً وأكثر حتى اليوم...[23].

اليوم وصلنا معاً إلى شاطئ جديد... إلى محطة جديدة لقوافل الرواد... اليوم ندعوكم... تدعوكم قيادتكم لركوب سفينة جديدة على طريق إعادة بناء الحزب الموحّد. لركوب سفينة قديمة جديدة متجددة، ندعوكم لمتابعة المسير في قافلة قديمة وجديدة - السفينة هي نفسها - سفينتنا القديمة كلّنا جددناها مع رفاقنا البحارة الآخرين، الذين سبق وأقلعنا معهم إلى الآفاق.

القافلة هي ذاتها التي أقلعت منذ أكثر من ستة عقود، وكنّا من أفرادها مع آخرين، وكنّا من فرسانها مع فرسان آخرين. وشاء الزمن، وشاءت مشقات الطريق أن نفترق، ولكننا مرّة أخرى التقينا وإياهم. التقينا لأن نجمة الصبح، نجمة الفجر المرتقب، هي نجمتنا مهما اختفت وراء

---

[22] يشمل هذا الفصل نصوصاً كتبها أبو سامي في أوقات مختلفة، بعضها معروف على النطاق الحزبي (الواسع أو الضيّق)، وقليل منها بقي ضمن أوراقه المخطوطة، ولكنها جميعاً تعطي للقارئ النظرة الأوضح حول مراد الإنسان، مراد الذي ارتبطت حياته على الدوام بكادحي الوطن وعماله، أولئك الذين سعى كي يكونوا أكثر وعياً بماضيهم وحاضرهم، كي تكون معارفهم مؤهلة لغد أفضل - معن.

[23] من مجموعة خواطر، متسقة في خطاب قصير، وجدها الرفيق نجدت بين أوراق أبي سامي مؤرخة بتاريخ 11 تموز 1991، أعدّها للإلقاء أمام الاجتماع الموسع للجنة المركزية، ولم تلق.

لِمَ لمْ يتم نشرها أو إلقاؤها في حينه؟ ربما "خوفاً من عدم فهمها، أو فهمها بشكل خاطئ" كما يُعقّب لاحقاً نجدت؛ أي أن يقول أحدهم، لماذا إذاً دعيت إلى تشكيل القاعدة (الحزب الشيوعي السوري - منظمات القاعدة - **معن**)؟ يجيب عن هذا السؤال أبو سامي في بيروت: "هو قرار صحيح... وإذ أدعو إلى الوحدة، فهذا قرار صحيح...".

السحب، ولأن الطريق التي ترشدنا إلى نجمتنا هي طريقنا مهما قست صخورها وتوعرت مسالكها،... ندعوكم اليوم للإبحار في السفينة القديمة المتجددة... للإقلاع في القافلة المتجمعة بعد الخصام، المتوحدة بعد الانقسام، ونقول لكم: أنتم بحارة هذه السفينة، فتفحصوها، وافتحوا أشرعتها للإبحار...

أنتم جميعاً من أفراد هذه القافلة وفرسانها، فانطلقوا إلى الأفاق، إلى الآفاق المعلومة منها والمجهولة".

كان مراد يوسف على الدوام رجل مبادئ، مميزاً في جرأته أمام الصعاب، صادقاً مخلصاً وموضوعياً في طرح ما ارتآه، قادراً دوماً (وبقي هذا من أبرز سماته حتى اللحظة الأخيرة) على إعادة النظر بمواقف سبقت، شجاعاً في إعادة تقويم النفس واتخاذ القرار الصائب، وها هو ذا عشية المؤتمر السابع للحزب الشيوعي السوري، وبعد مخاض توحيدي ونقاشات مطولة، يبدي حججه المقنعة لرفاق الدرب عبر بدائل منطقية متقابلة، مطروحة لاتخاذ قرار ديمقراطي نابع من العقل أولاً، ومن مصلحة وطن يحب، ويتحدث[24] في تعبير عن **"إرادة طيبة، وحب للشعب والوطن، وعقل منفتح على التحاور والتفاهم، والتعاون العملي من أجل خير البلاد كلها"**[25]، فيقول:

"دعونا إلى عقد هذا الاجتماع الاستثنائي لدقة وأهمية المهام الشاخصة، وفي مقدمتها قضية الوحدة والمؤتمر السابع، ويتطلّب حلّ هذه المهام بصورة صحيحة عملاً جماعياً في اللجنة المركزية والمكتب السياسي، ومساهمة نشيطة من اللجان المنطقية وكل منظمات الحزب وأعضائه، فنحن أمام مسألة انعطافية في حياة الشيوعيين السوريين، وحتى مصيرية لحدّ ما، والقرار الذي علينا اتخاذه خلال الأيام القليلة القادمة على درجة عالية من المسؤولية في الحاضر والمستقبل، والقرار الذي علينا اتخاذه اليوم هو الذي يحدّد اتجاهنا نحو القرار الحاسم وطبيعة توجهنا إليه.

---

[24] من تقرير مراد يوسف أمام الاجتماع الموسّع للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري - منظمات القاعدة في 12 حزيران 1991 عشية المؤتمر التوحيدي السابع.

[25] عبّر مراد وفي أكثر من مكان عن رأيه هذا في المواصفات الشخصية للمناضل السياسي.

لقد اقتربنا هذه المرّة أكثر من أية مرّة سابقة من إمكانية إنجاز عمل توحيدي ذي أهمية كبيرة، وربّما يكون أهم عمل في حياة الشيوعيين السوريين خلال العشرين سنة الماضية، على الأقل من ناحيتي الوحدة والانقسام. وعلى حزبنا، وعلى حزبنا ومركزيتنا تتوقف الكلمة الفاصلة بنعم أو لا لهذه الإمكانية.

أن نقول "نعم" يتطلّب منا مستوى من الجرأة والإقدام، وأن نكون قادرين على التخلّي عن جزء محدّد من تصوراتنا، التي كنا نستعين بها في رسم عملية التوحيد، والقبول مكانها بجزء من تصورات الآخرين، الذين سنتوحد معهم ضمن العملية نفسها، وذلك مقابل الإسهام في إنجاز عمليّة ستكون لها طبيعة انعطافية على الأرجح.

وأن نقول "لا" يتطلب منا كذلك مستوى آخر من الجرأة والإقدام، وأن نكون قادرين في هذه الحالة أن نعطي الشيوعيين في المستقبل بدائل أفضل مما يمكن أن نعطيهم عبر التوحيد الآن.

نعتقد أيها الرفاق أننا الآن في ظروف تُعَدُّ هي الأفضل مما صادفناه في كلّ السنوات الماضية للمساهمة الفاعلة من قبلنا في عملية توحيد معقولة، وكي نساهم معاً بالتعاون مع الآخرين في السعي إلى إعادة وضع الحزب على مسار صحيح، وقد تصبح هذه العملية جيدة وقابلة للاستمرار والتقدم والاستقطاب. طوال الشهرين الماضيين منذ اجتماعاتنا الأخيرة في 12 نيسان قمنا بمباحثات متواترة ومتنوعة ومكثفة مع الرفيق يوسف الفيصل ورفاقه، انطلاقاً من القرار الذي اتخذناه في ذلك الاجتماع، ومتزودين بكل ما عندنا من قرارات وخطط وأفكار في مسألة الحوار الرفاقي وتوحيد الشيوعيين السوريين والبدء بإعادة بناء الحزب الشيوعي السوري موحداً على أسس مبدأية وموضوعية".

بعد عام من هذا، يراجع أبو سامي ما أنجِزَ خلال عام، مسائلاً نفسه قبل الآخرين: "لأي مدى نجحنا في عملنا أو فشلنا؟ وفي أيّة ميادين كان ما صغناه صائباً، أو قاصراً، أو خاطئاً؟". ومن منطلق الثقة بالنفس المحافظة على القيم والمثل العليا التي ضحى في سبيلها الأجداد عبر العهود الماضية القريبة والبعيدة، يجيب مراد عن تساؤلاته بشفافية:

"- نؤكد على أنّ المؤتمر السابع الموحد كان محاولة جادة لإحداث انعطاف نوعي في مسار الشيوعيين السوريين، والطبيعة التوحيدية للمؤتمر كانت مؤشراً لإجراء انعطاف من حالة الانقسام والتشرذم إلى الوحدة والتلاحم. ونجحنا خلال العام باستكمال عملية التوحيد والدخول في عملية الاندماج بين آلاف الشيوعيين، الذين عاشوا منفصلين ومنقسمين لسنوات طويلة.[26]

وننظر إلى عملية الاندماج والتلاحم في هذا الحزب الموحد كعملية نضالية وصيرورة مستمرّة فكرياً وسياسياً، وكأساليب عمل وتعامل داخل الحزب، ومع الجماهير، ومع القوى السياسية الأخرى.

- ونواصل النظر إلى الحزب الشيوعي السوري كأداة سياسية منظمة للنضال الوطني والاجتماعي، تتطلب وجوده واستمراره الحاجات الموضوعية والذاتية لتطوّر بلادنا.

وإن استمرار الحزب وتطوّره وترسيخ جذوره في المجتمع وتوسيعها، كل ذلك مرهون بنشاطه العمليّ ذاته، مرهون بمدى ما يبرهن لشعبنا بجماهيره الواسعة وقواه السياسية المتنوعة أنه جدير حقاً وفعلاً بالوجود والاستمرار والتطور... مرهون بمدى ما نبرهن، نحن الشيوعيين السوريين، أننا فعلاً نافعون لشعبنا الكادح ووطننا الحبيب.

ونتذكر بهذه المناسبة ما كان يراه لينين: بأنه لا يكفي أن نسمي أنفسنا طليعة، وإنما علينا أن نعمل بطرائق تجعل الآخرين يدركون ويقرّون أننا نسير فعلاً في المقدمة.

- إن مصادرنا الفكرية هي بالدرجة الأولى أفكار ماركس وأنجلز ولينين، ولاسيَّما منها المنهج الديالكتيكي الجدلي في المعرفة والمادية التاريخية، وكل التراث الديمقراطي والتقدمي العربي والعالمي، والتعامل مع النظرية الماركسية كعلم يجب أن يتطوّر في ضوء مستجدات الحياة وتطورها وفي ضوء معطيات الثورة العلمية التكنيكية وانعكاساتها على

---

[26] أخذت هذه المقتطفات وما يتلوها من أفكار مركزة ونقاط أولية وضعها مراد يوسف للإلقاء في الندوة الجماهيرية، التي عقدت في دير الزور عام 1992 بمناسبة مرور عام على انعقاد المؤتمر السابع الموحد للحزب الشيوعي السوري.

المجتمعات.

ونتذكر هنا أيضاً ما كان يردده لينين عن غوته: "إن النظرية رمادية اللون يا صاحبي، أما شجرة الحياة فدائمة الاخضرار".

إننا نعمل على تحديد أبعاد تعميق الهوية الوطنية للحزب، ونفهمها ليس كما فسّرها البعض كانتقاص من التاريخ الوطني للحزب، بل كمواصلة لهذا التاريخ الكفاحي المشرّف ودعوة إلى ترسيخ جذوره الوطنية الكفاحية، ولتغذية هذه الجذور برؤى عصرية متقدمة من جهة، مستلهمة التراث الثوري المجيد لشعبنا وللأمّة العربية والأمم الأخرى من جهة أخرى".



في اجتماع كادر منظمة موسكو للحزب الشيوعي السوري 1975، من اليمين: يوسف الفيصل، خالد بكداش قوطرش، مراد يوسف (متحدثاً)، دانيال نعمة، ابراهيم قندور.

قليلاً في ذاكرة تاريخ غير بعيد

في بداية نيسان من العام 1986 كتب مراد يوسف: "في بعض الأحيان يكون أفضل للحركة الثورية أن تحافظ على رموزها البطولية في إطارها التاريخي، دون أن تقترن بمعايشة رموزها الشخصيين وصيرورتهم، التي قد لا تتوافق مع الرمز الحدثي الآني".

لربما كان مراد يستشرف أحداثاً قادمة تنيخ بكلاكلها على أيام ومواقف سبقت، وهو يستعيد بعضاً منها حينذاك، مواقف جعلته في طليعة مناوئي من قرّر حينه الانشقاق عن الحزب، ووضّحت وقوفه الراسخ ضدّ من قام بذلك، لأنه خالف المواقف المبدئية التي طرحها. وهو فيما بعد، خلال عمله الحزبي، وإذ غرّد منفرداً في المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوري، معبّراً وحيداً في هذه الهيئة الحزبية عن موقف معارض لما ارتآه ابتعاداً عن الديمقراطية الحزبية وأصول العمل والنضال، وإذ كان أنصار آرائه أقليّة ملموسة في لجنة الحزب المركزية، إلا أنه ارتكز في طرحه لرأيه هذا إلى قناعة راسخة بأن غالبية قواعد الحزب، بل وغالبية العارفين حقاً بالمبادئ الماركسية، تؤيد وجهات النظر في ضرورة إعادة النظر بالمنهج المتّبع للقيادة، وخاصة ترابط النقد البنّاء للأخطاء المتراكمة مع إعادة تقييم النفس والمؤسسة، بما يمكّن في الظروف الواقعية من تلمّس مواقع خطى تصل بمسيرة النضال الصعبة إلى حدود أفضل الممكن ضمن محدَّد متغيّر.

عشية قرار حاسم

قبيل انعقاد اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري أواخر حزيران 1979، جرت محاولات من قبل الحزب الشقيق، الحزب الشيوعي السوفييتي، لرأب الصدع الحاصل في قيادة الحزب الشيوعي السوري، وتجاوز الخلاف الحاصل ضمنه على أعتاب انتهاء مرحلة الإعداد لمؤتمر الحزب الخامس، وجرى لقاء بين وفدي قيادتي الحزبين في موسكو، وعرض أعضاء وفد قيادة الحزب الشيوعي السوري آراءهم

في هذه المرحلة، ولعل ورقة العمل التي تقدّم بها حينه أبو سامي تعبّر بشكل لا يترك مجالاً للشك عن هواجس محقّة تناولت الوضع في البلاد والخلافات السياسية في الحزب، خاصة تلك المتعلقة بالموقف من سلبيات نظام الحكم، ومن بعض القضايا التنظيمية[27]:

"الوضع عندنا معقد وحساس... الوضع في سورية ولدى الجماهير الشعبية حساس جداً، توجد مؤثرات عالمية ومحلية على الجماهير، ما جرى في فيتنام أثّر كثيراً، انتصار الشعب الفيتنامي على الغزو الصيني. الثورة الإيرانية أحدثت تأثيرات كبيرة، اتفاقية سالت2، أفغانستان، اليمن الديمقراطية، استمرار انتفاضة الجماهير الشعبية في الضفة الغربية... إلخ. وبالمقابل حدث رد فعل عميق عند الجماهير على خيانة السادات، الحلف الاستعماري الثلاثي خيانة سافرة قام بها السادات.

في هذا الوضع تستمر السياسة السورية حالياً باتجاهاتها العامة. فيها إيجابيات، وفيها سلبيات شديدة جداً. لا جدال حول أهمية الموقف الوطني الذي تتخذه سورية في قضية الشرق الأوسط: العداء لأمريكا، الصداقة مع الاتحاد السوفييتي. هذا يؤيده حزبنا. هذا طبيعي ومهم.

ولكن في الوقت نفسه السلبيات والاتجاهات اليمينية تتسع وتتعمق، الرفاق خالد ويوسف تحدثا عن الوضع الداخلي أيضاً، ويمكن التحدث عن ذلك أكثر، تقرير المكتب السياسي عام 1977 وصف السياسة السورية بأنها سياسة تأرجح، وهذا صحيح. ومنذ ذلك الوقت يستمر الاتجاه (لمصلحة البرجوازية) في السياسة السورية أكثر فأكثر.

إن الجماهير الشعبية عندها استياء عميق وشامل وواسع، وبالدرجة الأولى من السياسة الداخلية في جميع الميادين، وكذلك عدم رضا عن السياسة الوطنية للحكم.

الشعب السوري يريد من الحكم موقفاً وطنياً أكثر حزماً، ويوجد شعور واسع لدى الجماهير، وبضمن ذلك في ذلك داخل البعث، بأن الموقف

---

[27] حديث مراد يوسف في لقاء وفد قيادة الحزب الشيوعي السوري مع وفد اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي مطلع حزيران 1979 في موسكو، الحديث الذي قرئ لاحقاً أمام اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري في 28 و29 حزيران 1979.

الوطني ليس حازماً كما يجب، ويتمثل ذلك في عدد من المواقف: في قضية الشرق الأوسط والسياسة الخارجية، وهذا واضح في تجربة شعبنا في السنوات الأربع والخمس الأخيرة...

ففي الموقف من أمريكا يوجد موقف عدائي عام، ولكن في الوقت نفسه تستمر معها العلاقات الاقتصادية وغيرها... وفي العلاقة مع الاتحاد السوفييتي، التعاون موجود، ولكن لا يصل إلى المستوى الذي يجب أن يصل إليه. نشعر بوجود تعتيم على الاتحاد السوفييتي وإثارة شكوك والنظر إليه كمستودع أسلحة... إلخ. علاقات التعاون بين سورية والاتحاد السوفييتي ما تزال جيدة بالمقارنة مع علاقات الدول العربية الأخرى معه، وهي علاقات متعرجة، تسوء وتتحسن، لكن الاتجاه العام جيد عموماً.

سياسة الحزب المقررة في وثائقه الرئيسية، والتي هي نتيجة عمل جماعي، جيدة. لدينا وثائق ماركسية - لينينية حقيقية: البرنامج، التقريران السياسي والاقتصادي، البرنامج الانتخابي، ولكن ما يجري من نقص هو في تطبيق هذه السياسة في الحياة، ومطلوب من الحزب التوفيق الخلاق بين تأييد الإيجابيات ومعارضة السلبيات في الحكم.

التوفيق بين المبادئ الثلاثة الأساسية لسياسة الحزب فيه خلل، وهذا الخلل يجري على حساب وجه الحزب المستقل، وعلى حساب علاقته بالجماهير.

يجري إبراز أكثر للتعاون (لجانب التأييد) ولأهمية التعاون، ***ويضعف أهمية العلاقة مع الجماهير ووجه الحزب المستقل.***

منذ عام 1969، وخلال عشر سنوات يجري نسبياً انعزال تدريجي للحزب عن الجماهير، يجري إضعاف الحزب جماهيرياً، ووجه الحزب الطبقي المستقل يضعف نسبياً.

الشيء المطلوب في الحزب بشكل واسع، هو أن يكون هناك توفيق خلاق بين المبادئ الثلاثة، وتوازن معقول بين تأييد الإيجابيات وانتقاد الانحرافات، وهناك شعور قوي في اللجنة المركزية أيضاً بأن الحزب لا ينتقد بشكل كافٍ السلبيات...

لا يوجد جدل في الحزب حول أن نكون في الجبهة أو لا نكون، نتعاون

أو لا نتعاون، ولكن الجدل: ***كيف نعمل في الجبهة*** ؟! ***وكيف نقوي التعاون، ولا ننعزل عن الجماهير*** ؟! آسف لوصف ما يوضع من ملاحظات حول هذا الموضوع الأساسي بأنه هجوم على سياسة الحزب، وأنه وقوع تحت تأثير القوى الأخرى... لتكن الوثائق الحزبية هي المرجع، بدءاً من الملاحظات السوفييتية حتى آخر الوثائق، فنحن لا ندرسها بعمق في القيادة.

كادرات الحزب الجيدة لا تتهجم على سياسة الحزب، كما ذكر هنا، ولكنهم يأملون من قيادة الحزب أن تمارس سياسة مطابقة للوثائق الصادرة.

منذ ثلاث سنوات خصوصاً، نناقش في اللجنة المركزية والمكتب السياسي هذه المواضيع. وفي اجتماع نيسان 1976، جرى نقاش هام، وظهر اتجاهان واضحان، ثم برز أثناء مناقشة ووضع التقرير السياسي. مشروع التقرير وضعه الرفيق يوسف، وناقشناه خلال شهرين في المكتب السياسي، وأدخلت عليه تعديلات كثيرة لتخليصه من اتجاهه اليميني، واللجنة المركزية أدخلت تعديلات عليه. بعد إقراره في المركزية جرت ممارسات تتفق مع المشروع وليس مع التقرير من الرفيق يوسف، ووضع الرفاق ملاحظات في حينه على ذلك.

طبيعي أن التقارير هكذا توضع، يكتب مشروع ويعدّل، ولكن هنا كانت ملاحظتان أساسيتان:

1- الفرق الكبير بين المشروع والتقرير.

2- استمرار التوجيه من الرفيق يوسف بروح المشروع، وليس بروح التقرير.

- وجود خلاف في الحزب حول قضية التوفيق بين التعاون ومطالب الجماهير. هذا في ظروف بلادنا طبيعي، لكن كيف نواجه هذه الخلافات ونتغلب عليها. هنا يدخل دور القيادة، دور المركزية الديمقراطية.

المكتب السياسي عقل الحزب، فكيف يجب أن يعمل للتغلب على الصعوبات؟! وهنا ندخل إلى الحلقة الثانية من أزمة الحزب، التي هي إلى حدٍ كبير العنصر الأهم.

لو أن قيادة الحزب كانت تسلك أساليب لينينية صحيحة في قيادة الحزب، وتطبق المركزية الديمقراطية في حياة الحزب، لأمكن تجنب الكثير من المصاعب في حياة الحزب وتوفير الكثير من الآلام، التي تعرض لها الحزب.

مع الأسف، لا في الماضي، ولا في الحاضر تتبع الأساليب اللينينية في القيادة. من جهتي منذ أن عملت مع قيادة الحزب في عامَيْ 1966 و1967، صدمت بأساليب العمل في القيادة، فما تعلمناه ويتعلمه الشيوعيون في كتب لينين عن التنظيم، يبقى في الكتب وللشيوعيين البسطاء في الحزب.

يمكن تطبيق القواعد على البسطاء في الحزب، أما القيادة أو بعض أعضاء القيادة فلا ينطبق عليهم النظام الداخلي.

لا أريد الخوض في الماضي، أريد الربط فقط، لأن الأزمة التي نعيشها لم تنشأ في فراغ، كما قال يوسف... وبعض الأمثلة التي قيلت هنا في دمشق وغيرها، وبعض الانتقادات التي وجهت إليَّ، إذا أخذت منفصلة عن الوضع العام وعن تطورات الأزمة على الأقل منذ المؤتمر الرابع حتى الآن، يمكن أن تؤدي إلى استنتاج بأن مراد هو المسؤول عن أزمة الحزب!! وأنه هو العقبة أمام تطور الحزب!!

كنت أتمنى لو أن الأمر كذلك، لكان الأمر سهلاً جداً، أن يطبق على مراد النظام الداخلي، ويخرج من المكتب السياسي، أو يعاقب بأية عقوبة. ولكن الأمر ليس كذلك، ***الأزمة أعمق*** من ذلك ***وأبعد***. وفي هذا الموضوع يوجد كلام كثير، ولا مجال لذلك الآن، ولكن لي ثلاث ملاحظات:

<u>الأولى</u>: الأزمة احتدمت أواخر 1978، واتخذ قرار اللجنة المركزية في كانون الأول 1978، وعلقنا آمالاً كبيرة على القرار، ولكن القرار لم ينفذ، ***والذي لم ينفذه هو المكتب السياسي***. وأنا كعضو في المكتب السياسي أحمل قسطي من المسؤولية، ولكن أعضاء المكتب السياسي جميعاً يحملون أيضاً مسؤولياتهم. ***وكلما كان الأعضاء أكبر ونفوذهم أكبر، كانت مسؤولياتهم أكبر***.

بعد أسبوعين من اجتماع المركزية تدهور الوضع في المكتب السياسي

أكثر، وتأزم الوضع في المنظمات الرئيسية، ففي حلب كانت بداية انقسام قبل اجتماع المركزية، واستمر بعده، وأصبح انفصالاً كاملاً، والرفيقان خالد ويوسف لم يكونا بعيدين عن هذا الانقسام في حلب.

وفي دمشق الوضع كان هادئاً، كان يوجد صراع تكتلي بين أقلية وأكثرية، غير أن جميع الهيئات كانت موحدة. **الصديق**[28] كان عندنا في أواخر نيسان، وتحدثنا معه عن خطورة الوضع، ورجوناه تعجيل استقبال الرفاق لنا، وفهمنا منه أنه يوجد استعداد لاستقبال الوفد في أواخر أيار وأوائل حزيران. بعد سفر **الصديق**، الرفيق خالد دفع الوضع في دمشق للتوتر بالتعاون مع بعض الرفاق في المنطقية والمكتب السياسي، وأصرّ على إنجاز الانتخابات حتى نهاية أيار.

اقترحت بحث قضية حلب، لأنه يوجد انقسام، ورفضوا اقتراحي. وحينما احتدمت الخلافات في دمشق، اقترحت: ***إما أن تجري الانتخابات بروح جماعية وحسب اللائحة الانتخابية، أو توقف الانتخابات مؤقتاً***. اقترح الرفيق رمو في نفس الاجتماع عدم البدء بالانتخابات ضمن دمشق في مثل هذا الوضع، وأعلن أنه سيكون ضد أي طرف يبدأ الانتخابات.

وفي 11 أيار وجهت إلى دانيال رسالة، وهذه نسخة عنها لكم، وأهم شيء هو الفقرة الأخيرة حيث يطرح تساؤل: "لماذا تبدؤون الانتخابات هكذا، ونحن مختلفون هذا الاختلاف، وفي الوقت الذي نعرف نحن أعضاء المكتب السياسي أنه سيجري ***بحث جدي جداً أواخر أيار وأوائل حزيران***، وننتظر أن تكون له نتائج إيجابية حاسمة لمصلحة الحزب ووحدته". ورفضوا اقتراحي، وبدؤوا بأخذ قرارات بالأكثرية. وكان واضحاً، وعندي قناعة عميقة، بأن الرفاق يخرقون اللائحة الانتخابية، وأصبح الوضع دقيقاً وصعباً، ولا يمكن السكوت على ما يجري، وخاصةً عندما يكون واحد من عشرة يرى خلال سنوات وسنوات بأن الآخرين، الذين هم أقدم منه وأكبر منه، يخرقون النظام الداخلي، ويقومون بأعمال خطيرة جداً، وعندما تصبح هذه الأعمال مدرسة في الحزب، وتصبح التكتلات الوسيلة في قيادة

---

28) المقصود بالصديق، ممثل قيادة الحزب الشيوعي السوفييتي، الذي نقل حينذاك إلى قيادة الحزب الشيوعي السوري ضرورة العمل على تفادي وقوع أزمة حزبية تنظيمية.

الحزب، وتحل الأساليب الكواليسية والجانبية محل الأساليب اللينينية من قبل أكبر الرفاق في المكتب السياسي، ***من قبل قمة القيادة***، ويجري ذلك خلال سنوات وسنوات، ولا تحترم الهيئات.

قيل هنا أن المكتب السياسي معطل منذ سنتين أو شهرين! أعتقد أن المكتب السياسي معطل منذ سنوات، واللجنة المركزية معطلة وتجتمع مرة أو مرتين. مثلاً، قرار المركزية الأخير يقول إنها يجب أن تجتمع كل شهر أو شهرين، وهي منذ ستة شهور لم تجتمع. لست أنا الذي عطل اجتماع اللجنة المركزية خلال ستة أشهر. من جهتي بدأت أقترح الاجتماع بعد كانون الأول بشهرين، وأجابني الرفيق خالد: ماذا سنقول للمركزية!

هكذا تُعطّل الهيئات...

خضوع الأقلية للأكثرية يؤخذ به عندما يخدم المبدأ كتلة معينة، ويترك عندما لا يخدمها. ***في الحزب يجب تطبيق المبادئ في جميع الظروف***.

<u>الثانية</u>: قرار المركزية في كانون الأول تحدث عن صراع الكتل في الحزب، ويوجد حالياً بالحزب أربعة أطراف:

1- طرف الرفيق يوسف، وهو موجود في المكتب السياسي واللجنة المركزية وبعض اللجان المنطقية.

2- طرف مراد، ومع الأسف وبصراحة شيوعية أقول بوجودي في طرف، وهو موجود في المركزية وفي عدد هام من المنظمات المنطقية، وبضمنها منظمة دمشق.

3- طرف الرفيق خالد، الذي شكل تكتلاً جديداً أسماه "قوات الردع" أوائل عام 1977 لمقاومة الرفيق يوسف والرفيق مراد؟! وكان هذا تكتلاً جديداً وانقساماً جديداً.

4- طرف الرفاق الثلاثة، ولا أدري ربما ظهير بقي أكثر استقلالية من دانيال وإبراهيم.

هذه هي الأطراف.

<u>الثالثة</u>: أخيراً إن ***أساليب القيادة في قمة القيادة بالحزب*** إما أن تؤدي إلى رص وحدة الحزب، وتسهل إزالة الخلافات إذا نشأت، وتتغلب على الخلافات وتزيل الحساسيات من بين الرفاق، وإما لا... ***هناك أساليب قيادية توحد الحزب، وخاصة المكتب السياسي واللجنة المركزية، وتمنع***

نشوء تكتلات، وهي الأساليب اللينينية. وهناك أساليب تنشر التكتلات والخلافات بين أعضاء القيادة وفي الحزب، وهي أساليب غير لينينية.

مع الأسف نعيش في ظلّ أساليب قيادية غير لينينية منذ زمن بعيد وحتى الآن".

قبيل منعطف قاس

في السادس والعشرين من تشرين الثاني عام 1979 وجّه ثمانية من أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري رسالة إلى الأمين العام خالد بكداش وإلى أعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزية، حملت الرسالة عنوان "من أجل تعزيز وحدة الحزب الشيوعي وعقد مؤتمره الخامس على أسس مبدئية"، وقد تمحورت حول قضيتين أساسيتين في سياسة وعمل اللجنة المركزية والحزب: الوضع السوري الداخلي والعلاقة مع الحلفاء، مؤتمر الحزب والتحضير له.

وإذ تسجل هذه الرسالة أن جميع الوطنيين والتقدميين في سورية أحسّوا بالأخطار الداخلية الخارجية، التي تُهدد وطنهم ودوره الوطني التاريخي (نمو البرجوازية الطفيلية ونشاط الإخوان المسلمين الإرهابي بدعم من الإمبريالية الأمريكية والرجعية العربية). وكان طبيعياً في هذا الوضع أن يكثُر الحديث بين الجماهير الشعبية، وفي صفوف المثقفين، عن التغيير المطلوب من أجل مجابهة وإحباط هذه الأخطار. وكان مهماً، ولا شك، أن تجتمع القيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية، وأن تصدر بيانها المعروف[29]، وهو البيان التي استقبلته الجماهير الشعبية باهتمام.

وبعد أن تستعرض الرسالة المضامين الجوهرية الأساسية للبيان، تسجل أسفها لأن وجه الحزب المستقل ظهر في هذه المناسبة الجديّة دون المستوى المطلوب، وجاءت مواقفه متخلفة عن الرأي العام الشعبي، وعما طرحته حتى الصحافة الرسمية وبعض المسؤولين في الحكم نفسه من نقد ونقد ذاتي، مما أبرز جواً من العزلة يحيط بالحزب الشيوعي السوري،

---

[29] بيان القيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية، بصفتها أعلى هيئة سياسية دستورياً في الجمهورية العربية السورية، والصادر بعد اجتماعات مطوّلة أواخر أيلول 1979.

وتخلفاً عن المبادرة للنقد، يستند إلى مواقف تبريرية، جرّ الحزب إليها رفاق نافذين في القيادة.

وتسجّل الرسالة وجود تحريفات، وصفتها باليمينية، تتناول التعاون مع حزب البعث على قاعدة تأييد الإيجابيات دون النقد البنّاء للسلبيات، فبقيت سياسة الحزب تسير على رجل واحدة عرجاء هي تأييد الإيجابيات، رغم تزايد السلبيات (بشكل ينذر بأخطار شتى)، كما اعترف بذلك بيان الجبهة الوطنية التقدميّة ذاته، حتى وصل الأمر إلى حدّ تجميل الوضع وتبرير الانحراف، وظلّ النقد البناء يتقلص ويتلاشى، حتى غدا محصوراً بعرض بعض المطالب الشعبية في جريدة الحزب وبعض المناقشات في مجلس الشعب. وتؤكد الرسالة، أنه كان ينبغي بدل ذلك التوفيق الخلّاق بين جانبي السياسة المبدئية للحزب: التأييد والنقد، وذلك بزيادة النشاط المستقل للحزب في تبني مطالب الجماهير الواسعة، والدفاع عن الحريات الديمقراطية... ولو أن الحزب سار في هذا الطريق، لكان نفوذه ووزنه في صفوف الجماهير أكبر بما لا يقاس، ولكان بإمكانه أن يلعب دوراً أكبر في منع التدهور العام، وأن يجابه بقدرة وفعالية أكثر النشاط الرجعي المتزايد في البلاد. ولكن أصحاب النهج ذي الطابع اليميني في قيادة الحزب، ظلوا يضغطون على المنظمات والكادرات، التي تدافع عن سياسة الحزب وتطالب بالتقيد بوثائقه، وأخذوا يوجهون إليها الاتهامات الباطلة، التي كانت تحاول خنق الانتقاد ونشر الإرهاب الفكري في المنظمات القاعدية للحزب.

وركزت الرسالة على أهمية وحدة الحزب الشيوعي السوري وتماسك منظماته، داعية إلى ضرورة عقد المؤتمر الخامس للحزب، بعد أن جرى تأجيله بقرار من اللجنة المركزية لمدة عام. وبعد أن مضى شهران على الموعد المحدد له بعد تأجيله، وتوضح الرسالة أن تأجيل المؤتمر يجري في ظلّ تعطيل عمل الهيئات القيادية، وتزوير الانتخابات، وشقّ المنظمات الحزبية، وتصفية أقسام منها، وإخراج ألوف الأعضاء من الحزب، وفرض القيادات الموالية للاتجاه اليميني على المنظمات. وتتساءل الرسالة: "أ ليس الهدف من وراء ذلك هو شقّ الحزب، وتصفية أغلبيته،

والوصول إلى مؤتمر معيّن لا يمثّل الحزب، ولا يعبّر عن إرادته، وإنما يضمّ الموالين للاتجاه اليميني في الحزب، لكي يقرّ خطه السياسي اليميني نهائياً، ويكرّس سيطرته الكاملة على قيادة الحزب، ويسمّي ذلك: وحدة الحزب الشيوعي السوري؟".

وإذ تُعدّد الرسالة سلسلة المواقف، التي أقدمت عليها القيادة الحزبية: كإفشاء الأسرار الحزبية، وتغذية الأعمال الإنقسامية والتصفوية، وفرز منظمات الحزب إلى ملتزمين وغير ملتزمين، وإجراء انتخابات دون تقيد باللائحة الداخلية، وإقامة منظمات موازية، ... وتحميل مسؤولية ذلك كله للكتلة اليمينية داخل المكتب السياسي؛ حدّدت ما تعتقد أنه الخطّة اللازمة لإخراج الحزب من مأزقه، وإنقاذه من خطر الإنقسام بالمطالب التالية:

أولاً: إلغاء كل القرارات المخالفة للنظام الداخلي واللائحة الانتخابية.

ثانياً: إعلان وقف تداول كلمة الرفيق خالد بكداش[30].

ثالثاً: التحضير للمؤتمر الخامس للحزب الشيوعي السوري من خلال التقيد بوثائق الحزب وقراراته التنظيمية.

رابعاً: تأليف لجنة خاصة من بين أعضاء اللجنة المركزية، في ضوء واقع الحزب، وعن طريق التشاور والتعاون والاتفاق، تشرف على الإعداد للمؤتمر وعقده، تتخذ قراراتها بالإجماع، وتستند في قراراتها بشكل كامل وعملي على وثائق الحزب الأساسية.

خامساً: وضع حلول مبدئية لإعادة الوحدة إلى المنظمات المقسومة في

---

30) وهي الرسالة التي تضمنت موقف خالد بكداش أمين عام الحزب الشيوعي حينذاك، الموقف الذي عرضه أمام لقاء وفدي قيادتي الحزب الشيوعي السوري والحزب الشيوعي السوفييتي أوائل حزيران 1979 في موسكو. هذا الموقف، الذي عُدّ سياسة رسميّة للحزب الشيوعي السوري، موقف يركّز على إيجابيات السياسة السورية الخارجية ضد الإمبريالية الأمريكية، وضد التطبيع مع العدو الصهيوني، ... ويرى أن المسألة الأساسية، المهمة الرئيسة الآن هي النضال ضد الإمبريالية، وخصوصاً الإمبريالية الأمريكية ورأس حربتها الصهيونية.

وإذ يسجل بكداش في حديثه عن الوضع الداخلي ملاحظات قاسية تتعلق بالرأسمالية الطفيلية والمضاربة بالأراضي (وما أشبه اليوم بالأمس- **معن**) ودور الوسطاء والسماسرة، إلا أنه يستنتج: "***لو انطلقنا في تحديد سياستنا من الوضع الداخلي، لكنا حتماً في المعارضة***"، ولكنه يستدرك: "الشيء الرئيس هو: هل اتجاه الضربة الرئيسية يجب أن يكون ضدّ الهيمنة الأمريكية، أم ضدّ حكم البعث؟ هذه هي المسألة الكبرى، وتلك هي سياسة حزبنا، وهي تنعكس جيداً في القرارات والبيانات".

دمشق وحمص وحلب والطبقة واللاذقية، وإلغاء كل النتائج التي ترتبت على العمليات *"الإنتخابية"* الأخيرة، التي جرت في دمشق وحمص واللاذقية، وبضمنها قرارات التجميد والفصل، وإنجاز الانتخابات المنطقية حسب اللائحة الانتخابية نصاً وروحاً.

ارتبط الخلاف الناشئ المتجدد حول سياسات الحزب بقرارات تنظيمية عديدة، تكررت تفاصيلها في كل حدث من هذا النوع[31]، مما أدى إلى تفاقم الأمور وتصاعدها ، فعَمِلَ المكتب السياسي جاهداً لتصفية الخلاف قبل عقد المؤتمر الخامس، مع الإسراع في استعمال كل صلاحياته التنظيمية لفصل المعترضين على سياسته، ولو وصل الأمر إلى أبعد مدى.

وفي ضوء طبيعة الصراع التنظيمية هذه، سارت الأمور واقعياً باتجاه دفع المعارضين قسراً خارج الحزب، بحيث لم يبق أمامهم خيار ما إلا إعلان الإنشقاق، وهذا ما حصل لاحقاً للأسف.



في اجتماع كادر منظمة موسكو للحزب الشيوعي السوري 1975، من اليمين: إبراهيم قندور، دانيال نعمة، مراد يوسف، خالد بكداش قوطرش، يوسف الفيصل.

[31] وتشمل هذه القرارات: التجميد عن العمل الحزبي، الفصل من الهيئات المنتخبة ومن عضوية الحزب، حلّ لجان حزبية منتخبة (لمعارضتها المركز في وجهات النظر)، حل وفصل منظمات بكاملها، كما جرى مع منظمتي الحزب الشيوعي في جبل العرب (السويداء) والجولان (القنيطرة).

خطوة إلى الأمام... خطى متتابعة نحو نور الوحدة

في البدء... نظرة تقويمية إلى الذات

بعد مرور سنوات على ما حدث، وفي خضم حوار جاد من أجل وحدة الحزب الشيوعي السوري بين فصائله، التي أصبحت ثلاثاً في بداية عام 1987، يجري مراد يوسف تقييماً وتحليلاً لما جرى[32] ضمن الحركة الشيوعية السورية منذ العام 1979، وللتطورات الداخلية في سورية، إذ يعرض بعض تفصيلات المرحلة والتطورات الاجتماعية الحثيثة[33]، فيكتب:

"مع وجود اتفاق حول التقييم العام للمرحلة، التي تمرّ بها سورية من حيث أنها مرحلة تحرر وطني تندمج بمهام التقدّم الاجتماعي، فإن هناك خلافاً حول التقييم الدقيق والملموس للمرحلة الحالية:

إذ يُحدّد برنامج الحزب الشيوعي السوري الصادر عن المؤتمر الخامس عام 1980[34] تقييمه للمرحلة بقوله: "إن المرحلة الحالية، التي تمرّ منها سورية الآن، قد تداخلت فيها مهام الثورة الوطنية الديمقراطية بمهام بناء

---

[32] وجد هذا التقييم مكتوباً بخط يد مراد بين دفاتره، وهو كتب بصيغته ربيع العام 1987، وتضمنت مقالات **صوت الشعب**، الصادرة في تلك الفترة عن الحزب الشيوعي السوري - منظمات القاعدة، أجزاء رئيسة من مضمونه وفقراته.

[33] اعتمد تحليل مراد على التطورات السياسية والداخلية الاجتماعية والاقتصادية في سورية على الوثائق الحزبية الصادرة عن الفصائل الشيوعية المختلفة:

- برنامج الحزب الشيوعي السوري الصادر عن المؤتمر الخامس، دمشق، 1980.
- تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري أمام المؤتمر الخامس للحزب، دمشق، 1980.
- تقرير الرفيق خالد بكداش أمام مؤتمر الحزب الشيوعي السوري السادس، دمشق، 1986.
- تقرير الرفيق يوسف الفيصل أمام المؤتمر السادس للحزب الشيوعي السوري، دمشق، 1987.
- برنامج الحزب الشيوعي السوري - منظمات القاعدة، دمشق، 1982.
- تقرير القيادة المؤقتة للحزب الشيوعي السوري - منظمات القاعدة أمام المؤتمر الخامس، دمشق، نيسان 1982.
- التقرير الاقتصادي الصادر عن المؤتمر السادس للحزب الشيوعي السوري، دمشق، 1986.
- البيانات السياسية الصادرة عن الفصائل الشيوعية الثلاث في مؤتمراتها السادسة.
- البيان السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري - منظمات القاعدة حول "الأوضاع العالمية والعربية والداخلية"، **صوت الشعب**، العدد 14، أواخر أيار 1982.

[34] برنامج الحزب الشيوعي السوري. دمشق، 1980، ص 59.

وتوطيد المقدمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الضرورية للانتقال إلى مرحلة بناء الاشتراكية". ويضع هذا التحليل سورية في وضع متقدم من ناحية تطورها الاجتماعي التقدمي،... ويتضح ذلك أيضاً من مجمل تحاليل البرنامج.

أما البرنامج المقرّ في المؤتمر الخامس للحزب الشيوعي السوري - منظمات القاعدة[35] فيحدد المرحلة بالقول: "إن المرحلة الراهنة التي تمر بها البلاد هي مرحلة إنجاز الثورة الوطنية الديمقراطية، والتوجه نحو الاشتراكية". وتشير مجمل تحليلات البرنامج والوثائق الأخرى إلى أن المرحلة الاجتماعية من التطور لا تزال في بداياتها... وأن التطورات التقدمية السابقة قد تعرضت لانتكاسات خطيرة.

وربما يعود هذا الاختلاف في تحليل وتحديد المرحلة الراهنة إلى الاختلاف في تقييم التطورات الاجتماعية والاقتصادية السلبية، التي جرت في البلاد، وتأثيراتها على مجمل التطوّر العام وآفاق المرحلة. وهذا الخلاف يتقلّص جزئياً، إذا استندنا على تقارير المؤتمرات السادسة، وليس على البرامج.

كما وتبرز خلافات في تحليل جوانب تطوّر البنية الطبقية، واصطفاف الطبقات والفئات الاجتماعية، ودور بعض هاته الفئات وآفاقها، والطبيعة الطبقية للنظام في سورية وبعض سمات هذه الطبيعة وخصائصها:

يشمل هذا (الخلاف) تقييم جوانب مختلفة من تطوّر الطبقات والفئات الاجتماعية، بدءاً بالطبقة العاملة السورية، التي يَعُدُّ بعض الرفاق أن كل التطورات في البلاد، وبضمنها السلبية منها، تؤثّر وأثّرت إيجابياً على الطبقة العاملة ووعيها الطبقي والاجتماعي ونضجها[36].

في حين يَعُدُّ الرفاق الآخرون، في الفصيلين، أنّ التطورات السلبية الجارية في البلاد، لها أيضاً تأثيراتها السلبية على الطبقة العاملة، وليس كل شيء جيداً في هذا المجال.

---

[35] برنامج الحزب الشيوعي السوري - منظمات القاعدة، المؤتمر الخامس للحزب، دمشق، 1982، ص 36.

[36] خالد بكداش، تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري أمام المؤتمر السادس، دمشق، 1986، ص 64-65.

ويظهر خلاف حول تحديد الدور الذي تحتله البرجوازية الصغيرة في البلاد، وفي تطورها، إذ يميّز الرفاق في منظمات القاعدة بين البرجوازية الطفيلية والبرجوازية البيروقراطية، ويرفعون شعار تصفية البرجوازية الطفيلية، وسدّ منافذ الاغتناء البيروقراطي. بينما يقرن الرفاق الآخرون في الفصيلين بين هاتين البرجوازيتين، ويطالبون بتصفيتهما معاً.

وفي تحديد الطبيعة الطبقية للنظام في البلاد، يقول برنامج الحزب لعام 1980[37]: "إنّ نظام الحكم في سورية يعكس بشكل متفاوت المطامح المشتركة للطبقة العاملة والفلاحين وفئات واسعة من البرجوازية الصغيرة والفئات المتوسطة في المدينة والريف، وخاصة عدائها للإمبريالية والرجعية. وهو في سبيل الحصول على تأييد هذه الطبقات والفئات الاجتماعية يراعي مصالح كلّ منها، لكنه في الوقت نفسه يراعي مصالح فئات من المستثمرين، التي تتعارض مع مصلحة الطبقة العاملة والفلاحين الكادحين، مما يؤدي إلى الإساءة للتطوّر الاقتصادي ولأوضاع الجماهير الشعبية بشكل عام. إنّ تنوع الطبقات والفئات الاجتماعية، التي يحاول الحكم التوفيق بين مصالحها المختلفة، والمتناقضة أحياناً، يخلقان الإمكانية لتعرّض الوضع إلى نوعين من الانحرافات الخطيرة...". وهذا وصف لبعض سياسات وخصائص النظام، وليس تحديداً للطبقات والفئات الاجتماعية التي تُهيمن عليه.

وربّما يَعُدُّ الرفاق أن الهيمنة هي للبرجوازية الصغيرة، بل وحتى تحالفها مع أجزاء من الفئات المتوسطة، بينما يحدّد البرنامج المقرّ في المؤتمر الخامس للحزب الشيوعي السوري - منظمات القاعدة[38]:

"إنّ البرجوازية البيروقراطية الكبيرة هي الفئة الأساسية التي تهيمن على النظام، وتمتلك التأثير الحاسم عليه. وهذه البرجوازية لديها سمات ومواقف معادية للإمبريالية، تستند إلى مصالحها وتاريخها، إلا أنّها لا يمكن أن تكون قوة تقدمية...

ولـذلك فإن أيـة حلـول تقدمـية، أو تغييرات إيجابية جدية، فـي التطوّر

---

[37] مصدر سبق ذكره، دمشق، 1980، ص 71.

[38] مصدر سبق ذكره، دمشق، 1982، ص 28.

الاقتصادي والاجتماعي لا يمكن تحقيقها في ظل ميزان القوى الحالي في البلاد إلا استناداً إلى نضال الجماهير".

وينتج عن هذه الخلافات في تقييم التطورات الطبقية في البلاد اختلافات في بعض المواقف:

إن الشعارات الرئيسية في برنامج عام 1980 والوثائق الأخرى تتوجه لإحداث تغييرات وتطورات تقدمية إيجابية على أساس تدابير من فوق، مدعومة من الجماهير الشعبية - إذا صحّ التعبير.

أما برنامج العام 1982 والوثائق الأخرى للرفاق في منظمات القاعدة، فتطرح شعاراً رئيساً مضمونه: العمل والنضال لتحقيق انعطاف ديموقراطي تقدمي في حياة وتطوّر البلاد، يستند إلى نضال وتعاون الطبقة العاملة والفلاحين الفقراء والمثقفين الثوريين والجماهير الواسعة من البرجوازية الصغيرة والمتوسطة، وخاصة المنتجة منها، والقوى السياسية التي تمثلها، والموجودة داخل الجبهة الوطنية التقدمية والحكم وخارجهما. انعطاف يؤدي إلى تغيير ميزان القوى السياسي والاجتماعي في البلاد لمصلحة قوى التقدم، ويفتح الطريق أمام إنجاز مهام الثورة الوطنية الديموقراطية والسير في طريق التقدم الاجتماعي والتوجه نحو الاشتراكية". إن التطورات الإيجابية التقدمية في معالجة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية مرتبطة بالنضال الجماهيري من تحت مع دعمها من فوق، إذا صحّ التعبير أيضاً.

وهناك اختلاف حول تقييم بعض القوى الوطنية، واختلاف حول الجبهة الوطنية التقدمية ودورها وطرق تطويرها:

ففي حين يذهب برنامج الحزب لعام 1980 إلى المطالبة بتوطيد الجبهة الوطنية التقدمية، ويَعُدُّ أن تنفيذ ميثاق الجبهة كفيل بقيامها بدورها المطلوب وطنياً واجتماعياً. يرى الرفاق في منظمات القاعدة أن الجبهة يجب أن تقوم على أساس طبقي، وتشمل الطبقات والفئات الاجتماعية التي تجمعها مصالح التطور الوطني والاجتماعي التقدمي في المرحلة الحالية، وهي الطبقة العاملة والفلاحون الفقراء والبرجوازية الصغيرة والمتوسطة، وخاصة المنتجة منها. ولذلك يجب أن تضم كافة الممثلين السياسيين

والاجتماعيين والمهنيين لهذه الطبقات والفئات الاجتماعية، رغم الاختلافات القائمة بينها الآن، وهذه القوى موجودة داخل الجبهة الوطنية التقدمية وخارجها.

ويجب أن يستند عمل الجبهة على التفاعل والحوار الديموقراطي بين كل هذه القوى، للتغلب على بعض الخلافات القائمة بينها الآن، والوصول إلى برنامج وطني اجتماعي موحد يعبّر عن مصالحها المشتركة في هذه المرحلة. ويتطلب هذا تطوراً واسعاً للجبهة الوطنية التقدمية الحالية وأساليب عملها.

وهناك بعض الاختلافات حول فهم قضية التبعية للسوق الرأسمالية العالمية.

هذه أهم الخلافات الأساسية الموجودة بين الفصائل الثلاث، استعرضناها بسرعة دون الدخول في تفاصيلها وأبعادها. وتنبغي ملاحظة أنه **يوجد تقارب في كثير من الشعارات والسياسات المطروحة** من الفصائل، **حتى في القضايا التي توجد حولها خلافات** في التحليل.

والمهم أنّه إذا جرت دراسة ومناقشة هذه الخلافات بشكل جدي ومعمَّق، فإنه يمكن التغلب عليها، أو إيجاد قواسم مشتركة حولها، استناداً إلى ما يجمع بين الفصائل الثلاثة من قضايا كثيرة متفق عليها".

في المؤتمر السادس للحزب عام 1987[39]

" الرفاق والرفيقات أعضاء مكتب رئاسة المؤتمر

الرفيقات والرفاق المندوبين

اسمحوا لي باسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري - منظمات القاعدة ومكتبها السياسي وجميع أعضاء حزبنا، وباسم رفاقي أعضاء الوفد، أن أخبركم تحية الشيوعيين للشيوعيين، وأن أتمنى لكم النجاح التام لإنجاز أعمال المؤتمر السادس لحزبكم الشيوعي السوري. ونشكر اللجنة

---

[39] بدعوة من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري (قيادة يوسف الفيصل)، حضر وفد من الحزب الشيوعي السوري - منظمات القاعدة الجلسة الافتتاحية للمؤتمر السادس المنعقد في الفترة 29-31 كانون الثاني 1987، وألقى فيها الرفيق أبو سامي هذه الكلمة، التي كانت خطوة أخرى نحو تقارب الفصائل الشيوعية - **معن**.

المركزيـــة لحزبكم، التي قررت دعوتنا لحضور الجلسة الافتتاحية لمؤتمركم وإلقاء كلمة من منبر المؤتمر.

ونَعُدُّ ذلك إسهاماً طيباً منها لخلق مناخات رفاقية جيدة بين الشيوعيين السوريين، وننظر إلى المستقبل بروح التفاؤل، الذي يخلقه لقاء اليوم، ونتمنى معكم من أعماق القلب أن نلتقي جميعاً بأقرب وقت ممكن في المؤتمر الموحد لجميع الشيوعيين السوريين.

غني عن القول، أيها الرفيقات والرفاق، بأن مهمات أي مؤتمر للشيوعيين، إنما تحددها الظروف التاريخية الملموسة التي ينعقد فيها.

ولا شك أنكم ستتخذون تلك القرارات اللازمة لزيادة فاعلية حزبكم في مجابهة ودحر التهديدات الإمبريالية والأطلسية والصهيونية الموجهة لبلادنا وقوى التحرر الوطني في البلدان العربية، والتي تستهدف بالدرجة الأولى، تغيير السياسة السورية المعادية لمشاريع فرض الهيمنة الإمبريالية الأمريكية والتوسعية الإسرائيلية على البلدان العربية، وإزالة العقبة الرئيسية، التي تشكلها سورية في وجه هذه المشاريع بمواقفها الوطنية وعلاقاتها الوثيقة مع الاتحاد السوفييتي وسائر البلدان الاشتراكية الصديقة.

ولا شك أنكم ستهتمون كذلك بزيادة فاعلية حزبكم في النضال، الذي تخوضه الطبقة العاملة السورية وجماهير الفلاحين والمثقفون الثوريون والقوى الوطنية التقدمية الموجودة داخل الحكم والجبهة وخارجهما، من أجل التغلب على الأزمة الاقتصادية والاجتماعية المتفاقمة، ومكافحة الغلاء الفاحش للمواد الحياتية الضرورية من غذاء ودواء ومسكن وملبس، ولوضع حد حاسم لنشاط البرجوازية الطفيلية وضرب مواقعها الاقتصادية والاجتماعية، ولوضع حد كذلك للاغتناء غير المشروع على حساب قوت الشعب وموارد الدولة، الذي تمارسه البرجوازية البيروقراطية.

إننا نقدر جيداً سعيكم من أجل وضع شعارات ومهمات ملموسة وأكثر دقة وعمقاً تجاه كافة المهمات الطبقية والوطنية والأممية، التي يواجهها الشيوعيون السوريون.

وقد واجهنا هذه المهمة نفسها في المؤتمر السادس، الذي عقدناه في حزيران من العام 1986. وأكدنا في هذا المؤتمر عدداً من الشعارات

والمهمات الأساسية، وفي مقدمتها: النضال من أجل أجراء انعطاف ديمقراطي تقدمي في حياة بلادنا وتطورها.

ونرى بأن النضال من أجل مثل هذا الانعطاف يملك إمكانات واسعة، فيما إذا تضافرت جهود جميع القوى الوطنية التقدمية الموجودة فعلاً داخل الحكم وخارجه، واستندت إلى نهوض ودعم الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين والمثقفين الثوريين، وأعارت انتباهاً أكثر لحماية وتوسيع الهامش الديمقراطي الموجود في البلاد والنشر، وإشاعة الحريات الديمقراطية على نطاق واسع للجماهير الشعبية والوطنيين التقدميين، وللإفراج عن المعتقلين منهم، وفيما إذا ركزت نضالها بشكل خاص على تعرية وفضح النشاط الخطير، الذي تقوم به البرجوازية الطفيلية، وعلى ضرورة تصفية مواقعها التي تشغلها على صعيد المجتمع وفي داخل مؤسسات الدولة.

وأعار مؤتمرنا السادس انتباهاً خاصاً لدور الشيوعيين السوريين في هذا النضال، ولكيفية زيادة وتطوير فاعليتهم فيه، وعلاقة ذلك بوحدتهم.

وبظني، أيها الرفاق والرفيقات، أن الكثيرين منكم ينتظرون الآن ويرغبون بأن يسمعوا من وفد الحزب الشيوعي السوري - منظمات القاعدة رأي أشقائهم ورفاقهم في هذا الفصيل حول وحدة الشيوعيين، وأراني ملزماً أن ألبي هذه الرغبة الصادقة والمشروعة بالقدر الذي يسمح به الوقت هنا.

نود أيها الرفيقات والرفاق أن يكون واضحاً عندكم أن وحدة الحزب كانت هاجساً عندنا في كل الأوقات، سابقاً ولاحقاً، وظلت في مقدمة اهتماماتنا منذ تكريس الانفصال بيننا وبينكم في عام 1980، وأصبح توحيد الشيوعيين السوريين في حزب ماركسي لينيني أممي، في حزب شيوعي كفاحي متلاحم الصفوف، هدفاً ثابتاً وأساسياً عندنا في القواعد والقيادات.

وينبثق التزامنا بهذه الوحدة، بالدرجة الأولى، من مبادئ الماركسية اللينينية والأممية البروليتارية التي نلتزم بها، وهي تؤكد بداية أن يكون الشيوعيون السوريون كلهم موحدين في حزب شيوعي طليعي يمتلك المقومات الضرورية لقيادة نضالات الطبقة العاملة السورية في سبيل

التقدم الاجتماعي والاشتراكية.

وإن أمانتنا لقضية الطبقة العاملة ومبادئنا الأممية، ولالتزامنا كفصيل من الحركة الشيوعية العالمية التي يقف في مقدمتها الحزب الشيوعي السوفييتي، تلزمنا العمل الدائم لإعادة الوحدة إلى الشيوعيين السوريين جميعاً.

وتنبثق هذه الضرورة، أي ضرورة الالتزام بوحدة الشيوعيين، ثانياً من مصالح النضال الوطني، الذي يخوضه شعبنا لإحباط مؤامرات الإمبريالية والصهيونية، ولتحرير مرتفعات الجولان من الاحتلال الإسرائيلي، والإسهام النشيط في النضال لتحرير الأراضي التي تحتلها إسرائيل في الجنوب اللبناني منذ عام 1982، وفي استعادة الحقوق الوطنية للشعب العربي الفلسطيني، وفي مقدمتها: حقه بالعودة وتقرير المصير وإقامة دولته المستقلة على تراب وطنه.

وتكتسب هذه الضرورة أهمية استثنائية في الظروف الحالية التي تواجه فيها سورية وقوى التحرر الوطني تصعيداً خطيراً للهجوم الإمبريالي الصهيوني والرجعي، وفي الوقت نفسه تتعرض الجماهير الشعبية الكادحة لأعباء اقتصادية واجتماعية وحياتية مرهقة وقاسية.

وثالثاً، فإن الشيوعيين السوريين، الذين عملوا دائماً لوحدة كل القوى الوطنية التقدمية مطالبون اليوم بأن يوحدوا صفوفهم، ويعيدوا الوحدة إلى حزبهم بالذات، لكي يستطيعوا الإسهام بصورة جدية في تحقيق وترسيخ وحدة القوى الوطنية التقدمية. ولنكن صريحين أيها الرفاق: إن دعوتنا لوحدة القوى الوطنية التقدمية فقدت الكثير من بريقها وتأثيرها نتيجة الانقسامات التي وقعنا فيها نحن الشيوعيين السوريين. ومن أجل إعادة قوة الجذب والانتشار لهذه الدعوة، علينا جميعاً أن نعمل بإخلاص لإعادة الوحدة إلى صفوفنا.

أيها الرفيقات والرفاق! إننا ننطلق في التعامل مع المهمة النبيلة لإعادة الوحدة إلى الشيوعيين السوريين من هذه الضرورات المبدئية، وكذلك من تجربتنا التي تكدست عبر الخلافات داخل الحزب الواحد، ومن مرارة الانقسامات التي وقعت منذ مطلع السبعينيات حتى اليوم، والتي أدت

عملياً، شئنا ذلك أم أبينا، إلى تعددية تنظيمية للشيوعيين السوريين، وإلى ظهور أحزاب أو فصائل شيوعية أساسية في البلاد، لا يستطيع أحد أن ينكر وجودها ونشاطها ودورها.

إن خطتنا لتوحيد الشيوعيين السوريين موضوعة عندنا منذ المؤتمر الخامس عام 1982 ومعروفة بعنوان **"إلى الوحدة عبر الحوار الرفاقي والأعمال المشتركة"**[40]، وعبرنا عنها في العديد من وثائق المؤتمرين

---

[40] في مقالة بعنوان **"إلى الوحدة عبر الحوار والعمل المشترك"** كتبها مراد يوسف بمناسبة الذكرى الحادية والستين لتأسيس الحزب الشيوعي السوري، طرح الحزب الشيوعي السوري - منظمات القاعدة أمام الفصيلين الشيوعيين حينذاك خطة واضحة تهدف إلى توحيد جميع الشيوعيين، ومعهما مئات وآلاف الشيوعيين غير المنتمين إلى أي تنظيم، وإعادة بناء الحزب الشيوعي السوري الموحد على أساس الماركسية اللينينية والأممية البروليتارية. وتدعو الخطة إلى:

1) العمل على إزالة كل مظاهر الجفاء والعداء والتحارب بين جميع الشيوعيين السوريين على اختلاف انتماءاتهم التنظيمية ومواقعهم الحالية، والبدء بإجراء حوار رفاقي ودي بينهم جميعاً وعلى مختلف المستويات حول كل القضايا التي تواجه الشيوعيين والطبقة العاملة وجماهير الشعب والبلاد، وتنظيم هذا الحوار تنظيماً جدياً في المستويات القيادية.

2) القيام بأعمال مشتركة ونضالات موحدة في الدفاع عن مصالح الطبقة العاملة والجماهير الكادحة، وفي الوقوف ضد مؤامرات الإمبريالية والصهيونية والرجعية، وفي النضال ضد البرجوازية الطفيلية ولسد منافذ الاغتناء البيروقراطي، ومن أجل نشر وإشاعة الحريات الديمقراطية ولحماية معامل قطاع الدولة من خطر التفريط بها وغير ذلك من المهام الوطنية والاجتماعية، ولرفع مستوى هذه الأعمال والنضالات المشتركة وتوسيعها وتعميقها، بحيث تشمل كل الميادين وكل المستويات.

3) من خلال الحوار الرفاقي، الذي تبحث فيه كل القضايا والأعمال والنضالات المشتركة سيجري التقارب والتعاون بين الشيوعيين الحقيقيين والمخلصين، الذين يتمسكون بمصالح الطبقة العاملة وأهدافها، والمصممين على النضال من أجل هذه المصالح والأهداف، وستتكون وتنضج ظروف وعوامل الوحدة بين الشيوعيين، وإعادة بناء الحزب الشيوعي السوري الموحد على أسس الماركسية اللينينية والأممية البروليتارية.

وإذ تؤكد المقالة: أن الأعمال المشتركة والموحدة هي التي ستوجد أفضل المناخات للحوار الواعي ولإحداث التقارب والاندماج والاتحاد المطلوب بين الشيوعيين، وأن أوسع الجماهير الشعبية والوطنيين التقدميين يهمهم بالدرجة الأولى ما يقدمه لهم الشيوعيون من مواقف وأعمال ونشاطات، وليس انتماؤهم إلى هذا الفصيل أو ذاك، فإن الأهداف المرجوة من الحوار والأعمال المشتركة تتلخص في: "تكوين وإيجاد الظروف والشروط اللازمة لإعادة توحيد الشيوعيين في الحزب الموحد وعلى أسس مبدئية، بحيث يكون حزباً من طراز جديد، بكل المعنى اللينيني للكلمة، أي حزباً قادراً على السير حقاً وفعلاً في طليعة الطبقة العاملة، حزباً جماهيرياً ثورياً يجمع بين القول والفعل". كما تختم المقالة بأنه "صار ضرورياً أن تجري مثل هذه العملية، لكي يمكن التوصل إلى حزب شيوعي حقيقي، واضح السمات ونقي الصفوف، دون التفريط بأي شيوعي ملتزم بمبادئه وراغب بإخلاص في وضع قواه وجهده لخدمة قضية الحزب. إن وحدة الشيوعيين السوريين هي قضية مبدئية كبيرة، وسيتابع حزبنا، منظمات القاعدة، نضاله من أجل تحقيقها بإصرار وثبات، وهو واثق من أن جميع

الخامس والسادس، وفي عدة أعداد من **صوت الشعب** الجريدة المركزية عندنا، وفي النداء الذي وجهه المؤتمر السادس في حزيران 1986.

وحاولنا دائماً أن نطبق، وما زلنا نحاول تطبيق هذه الخطة في نشاطنا العملي، ولم يمنعنا ذلك ولا يمنعنا من الاستماع بانتباه لأي اقتراح آخر ولأية خطة أخرى، ومن الأخذ بها إذا وجدناها مناسبة للهدف الذي يطمح له الشيوعيون السوريون من عملية التوحيد.

وبهذه الروحية ناقشنا مطولاً الاقتراح، الذي عرضته قيادتكم علينا عشية توجهكم إلى هذا المؤتمر. وتضمن الاقتراح المذكور عودة الرفاق الذين انتخبوا للهيئات القيادية في المؤتمر الرابع عام 1974 إلى مراكزهم.

وقيم المكتب السياسي لحزبنا هذا الاقتراح تقييماً إيجابياً، ورأى فيه رغبة جدية عند الرفاق، أعني الرفاق في قيادة حزبكم لتحقيق خطوة توحيدية للشيوعيين في هذا المؤتمر، بيد أنه لا يلبي الأهداف العميقة التي يتوخاها الشيوعيون من عملية التوحيد، وهو التوصل إلى الحزب الشيوعي الكفاحي الطليعي المتلاحم، وذلك لعدة أسباب أهمها:

1) إن الاقتراح لا يحيط بخصائص الانقسام القائم وبالعوامل التي أدت إليه، والاستفادة من دروس الماضي من أجل المستقبل.

2) لأننا نرى بأن الدخول إلى مؤتمر موحد للفصائل الشيوعية يجب أن تسبقه مناقشة مسائل البرنامج السياسي والنظام الداخلي، وبينها مسائل جدية عديدة توجد حولها حالياً وجهات نظر متباينة، وهي تدخل كأساس ضمن الأسباب التي أدت إلى الانقسامات.

3) بما أن الانقسامات شملت جميع أعضاء الحزب من القيادات إلى القواعد، بحيث لم يبق شيوعي منظم إلا واتخذ موقفاً مع هذا الاتجاه أو ذاك، فلا بد أن يتاح المجال للمنظمات القاعدية وكوادرها وأعضائها لكي تشارك بنشاط في صنع عملية التوحيد إلى جانب القيادات، التي لا

الشيوعيين المخلصين لقضية حزبهم وطبقتهم العاملة وشعبهم سيجدون الطريق الصحيحة نحو الوحدة، ونحو إعادة بناء الحزب الشيوعي السوري الموحد". **صوت الشعب**، العدد 41، دمشق، أوائل كانون الأول 1985.

بد أن يكون لها بصورة طبيعية دور أساسي ومبادر.

4) من الضروري جداً، وهذا مطلب أساسي، أن تنطلق خطواتنا التوحيدية، ومنذ البداية، من حوار جدي تشترك فيه كل الفصائل الشيوعية الأساسية، لكي يتم عبر النقاش الجماعي التركيز على العمل لإزالة حالة الانقسام كلياً، ولإزالة التعددية التنظيمية بكل أشكالها ومستوياتها، والتوصل إلى توحيد كل الشيوعيين السوريين في حزب شيوعي واحد ووحيد في البلاد.

مع العلم بأن مطلبنا هذا بشمولية الحوار منذ البدء، لا ينفي إمكانية أن تنضج الظروف، **وعبر الحوار الشامل**، للاندماج بين فصيلين، ونحن لا نعارض ولن نعارض مثل هذا الاندماج، بشرط أن تكون قد استنفذت قبل ذلك، أي: قبل اندماج الفصيلين، كل الجهود الممكنة لتوحيد الجميع، وأن لا يضر هذا التوحيد الجزئي التوحيد الكامل والشامل، ولا يكون موجهاً لعزل أو نبذ فصيل آخر، وأن يظل الباب مفتوحاً من المتحدين أمام الذين لم ينضموا إلى الوحدة بعد، وأن يستمر الحوار والعمل المشترك معهم بهدف التوصل لاحقاً إلى وحدة الجميع في حزب واحد.

وعلى أساس ذلك كله، فقد اقترحنا على اللجنة المركزية لحزبكم تشكيل هيئة حوار للتنسيق بين الفصائل الشيوعية وتوحيدها في حزب واحد، وأن يتمثل في هذه الهيئة كل من: الحزب الشيوعي السوري بقيادة الرفيق خالد بكداش، الحزب الشيوعي السوري بقيادة الرفيق يوسف الفيصل، الحزب الشيوعي السوري - منظمات القاعدة.

وهي الفصائل الشيوعية الأساسية المنظمة، التي يحمل كل منها مقومات وصفات حزب شيوعي ماركسي لينيني أممي.

وكنا نرى من المفيد في السابق أن يتمثل في هيئة الحوار هذه مجموعة الرفاق من حركة اتحاد الشيوعيين، وقد قبل هؤلاء الرفاق الانضمام إلى مؤتمركم، ونحن نأمل بأن تكون خطوتهم هذه مفيدة من أجل كل الشيوعيين السوريين.

وما هي مهمة هيئة الحوار هذه؟

تتحدد مهمة هذه الهيئة بمناقشة القضايا الفكرية والسياسية والتنظيمية

والعملية، التي يلزم بحثها لإعادة الوحدة الكاملة إلى حزب الشيوعيين السوريين على أسس مبدئية، وهذه هي مهمتها الرئيسية.

وإلى جانب ذلك، إلى جانب هذه المهمة الرئيسية، ومع سير البحث في عملية التوحيد، ومنذ بدء الهيئة عملها حتى إنجاز التوحيد، يمكن - وهذا مفيد جداً- أن تصوغ هيئة الحوار توصيات لقيادات الفصائل، يؤدي تنفيذها من كل فصيل إلى تنسيق ما يمكن تنسيقه من مواقف، والقيام بما يمكن القيام به من أعمال مشتركة، ويهدف التنسيق والعمل المشترك هنا إلى رفع وتيرة تأثير مجموع الشيوعيين بفصائلهم على الحياة العامة وتطوراتها من جهة، ومن جهة أخرى يساعد ذلك على استعادة الثقة بصورة متبادلة بين الفصائل في المستويات القاعدية والقيادية، ومن جهة ثالثة يؤدي هذا العمل المشترك إلى التقارب والاندماج العمليين تمهيداً للوحدة الكاملة، التي تأتي تتويجاً للحوارات والأعمال المشتركة.

وحالما يتم الاتفاق في هيئة الحوار حول القضايا الأساسية، يمكن عقد مجلس وطني لاتخاذ التوصيات اللازمة، وتتم من هذا المجلس الوطني، الدعوة والتحضير لمؤتمر استثنائي يتألف من مندوبي الفصائل، وينجز فيه توحيدها في حزب شيوعي واحد.

وهذا العمل العظيم والنبيل، الذي يزيل آثار الانقسامات التي وقعت خلال ما يقرب من عشرين عاماً، يمكن إنجازه في وقت غير طويل، بل وقصير نسبياً بالقدر الذي يتوفر فيه التصميم على الوحدة من جميع الأطراف. وبطبيعة الحال، فإن مثل هذا التوحيد الشامل لا يمكن إنجازه بجهود طرف واحد فقط، بل لا بد من تضافر جهود الجميع.

وبهذه المناسبة نود أن نقول أمامكم أيها الرفاق والرفيقات، بأن النداء الذي وجهه الرفيق خالد بكداش في 18 من الشهر الجاري حول وحدة الشيوعيين، والذي أقره الاجتماع الموسع للجنة المركزية لدى الحزب الشيوعي الشقيق، فتح منافذ جديدة للتفاؤل في العمل من أجل إعادة الوحدة إلى صفوفنا الشيوعية، ويجب التعامل بروح إيجابية وبناءة مع هذا النداء.

كما نرى الشيء نفسه في العلاقة الرفاقية الحسنة التي نشأت بينكم وبيننا، والتي مهدت لهذا اللقاء الشيوعي الذي نعيشه معكم الآن.

ونسمح لأنفسنا أن نتمنى لمؤتمركم النجاح في اتخاذ القرارات والتوصيات لتدعيم هذه البادرات الطيبة وتطويرها من أجل البدء بالخروج من أجواء التجارب والقطيعة والجفاء بين الشيوعيين، ولاسيما بينكم وبين الفصيل الشيوعي الذي يقف على رأسه الرفيق خالد بكداش، وأن نتعاون جميعاً للارتقاء بالعلاقات فيما بيننا إلى مستوى النقاش الموضوعي العلمي الهادئ للمسائل الفكرية والسياسية والتنظيمية.

إننا سنعمل جاهدين لكي نرسخ ونطور العلاقات الحسنة التي نشأت بيننا وبينكم، وسنعمل بالمستوى نفسه لكي نرسّخ ونطوّر العلاقات الحسنة التي نشأت بيننا وبين الفصيل الشيوعي الذي يقوده الرفيق خالد بكداش، ونكرّس هذه العلاقات الحسنة كلها للسير الحثيث والمتسارع نحو إعادة بناء الحزب الشيوعي السوري الموحَّد.

نتمنى لكم مرة أخرى النجاح في مؤتمركم باتجاه تقوية حزبكم، فكل قوة تكتسبونها، على أساس تعميق مواقفكم الكفاحية، وطرق تعاملكم مع القضايا الطبقية والوطنية والأممية المختلفة، هي قوة لنا أيضاً، وقوة لكل الشيوعيين المخلصين لانتصار بلادنا في معركتها الوطنية، ولانتصار الطبقة العاملة السورية وكل القوى التقدمية والثورية في نضالها من أجل التقدم الاجتماعي والاشتراكية.

عاشت وحدة الشيوعيين السوريين وعاش نضالهم في سبيل إعادة بناء الحزب الشيوعي السوري الموحد ...".

خواطر في زمن الحوار... من أجل الوحدة[41]

"... إن الانقسامات إنما هي إحدى نتائج الأزمة، وإن إعادة الوحدة للحزب تحتاج إلى إعادة بناء كاملة تتناول حياته الداخلية، ومناهجه، وكامل أساليب عمله وطرق نشاطه، دون أن يعني ذلك تخطئة كل السياسات والأساليب والممارسات السابقة أو الحالية.

---

[41] كتب مراد هذه الخواطر في العام 1988، وهي مقدمات أساسية وجدت كمخطوطة بين أوراقه، ولم نصل إلى كامل المخطوطة بخط أبي سامي، وقد عرضت مقالات عدة في جريدة **صوت الشعب** لسان حال اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري - منظمات القاعدة مضمون هذه الأفكار خلال فترة التفاوض من أجل وحدة الفصائل الشيوعية الثلاث في نهاية العقد التاسع من القرن العشرين المنصرم - **معن**.

... فأين نقف اليوم؟ وما هي آفاق المرحلة القادمة؟ وما هي القضايا التي تواجهها عملية وحدة الشيوعيين السوريين؟

إنها أسئلة كبيرة تحتاج إلى حوار واسع وعلني، ونأمل أن نفتتح هذا الحوار، الذي لا يستطيع إلا أن يشير إلى بعض المسائل (وسبق أن تناولنا وتناول غيرنا جوانب من هذه المسائل في الأدبيات المتداولة)[42]، ونتابع هنا مناقشة بعض المسائل، ونحن نرى مفيداً متابعة هذا الحوار العلني بين الشيوعيين وتعميق الروح النقدية الموضوعية والرفاقية فيه.

الحوار الرفاقي ضروري، لأن الساحة السورية تضم عدداً من الفصائل التي تُعلِن تبني الماركسية اللينينية، ولها برامجها ومناهجها المختلفة.

والفصائل الشيوعية الثلاثة، التي يجري بينها الحوار، لديها أرضية فكرية وسياسية وحزبية أساسية مشتركة... لكن لكل منها برنامجه ونظامه الداخلي، اللذين أقرهما في مؤتمراته، ويسترشد بهما في نشاطه.

ومن البديهي أن الحزب الواحد يحتاج إلى برنامج سياسي واحد ونظام داخلي واحد، يضعان الأساس لوحدته التنظيمية، ولا بد من الاتفاق مسبقاً على أهم أفكارهما. ولا نفهم من ذلك بأن البرنامج الموحد يجب أن يكون حلاً وسطاً بين البرامج، بل لا بد أن يتضمن ما هو متقدم، وينطبق على الظروف الواقعية لدى الفصائل الثلاثة، بحيث يكون متقدماً على البرامج الحالية لهم، وكذلك أن يتضمن النظام الداخلي الموحد مفهوماً متقدماً لممارسة المركزية الديمقراطية ولتعزيز الديموقراطية الحزبية، ويكون هذا جزءاً أساسياً من السعي اللازم لإكساب عملية التوحيد محتوى تجديدياً، ولربط إقامة الحزب الموحَّد، منذ البداية، بعملية التقدم والتطور.

لذلك كان الحوار ضرورياً في عملية التوحيد، كما أن الحوار ضروري لإيجاد وترسيخ تقاليد الحوار الديموقراطي في حزبنا وحركتنا، فلم يسبق أن جرى مثل هذا الحوار بين أصحاب الاتجاهات المختلفة بهدف وصولها إلى مفاهيم ومواقف مشتركة... بل كان يجري بينها صراع

---

[42] كتب مراد حينذاك: "ويأخذ كل من الفصائل الثلاثة بأحد هذه الاتجاهات، ويتعامل مع قضايا التوحيد بموجبه، ويعكسها في وثائقه وبرامجه وممارسته".

بروحية متعادية وبأساليب تكتلية وكواليسية تهدف إلى رفض الآراء المخالفة وتصفية أصحابها من الحزب...

المسألة الثانية هي: كيف ولماذا نتناول تاريخ الحزب؟

لقد كان الحديث عن تاريخ الحزب، وخاصة الأخطاء التي وقع فيها، موضع جدل دائماً، فعَدَّ البعض ذلك ماساً به وإساءة له، غير أن أي حزب جدي لا بد وأن يدرس تاريخه، ليحدد ما نجح وما فشل في تحقيقه من برامجه وشعاراته، وما أخطأ فيه، وأسباب ذلك كله. وأن يخرج الحزب من ذلك باستنتاجات وممارسات تُكسِب الحزب المزيد من الفعالية والتأثير، وتجلب له احترام الآخرين. ولنكن موضوعيين، ودون أن يعني ذلك تبرير الأخطاء، أو إغماض العين عنها أو عن أوجه القصور والعوامل الذاتية، التي طبعت العديد من المواقف. ينبغي الاعتراف بأن مبررات الأخطاء كانت عديدة، وأهمها: القوالب والمفاهيم التي كانت سائدة في الحركة الشيوعية العالمية، ومواقف القوى السياسية الأخرى، سواء اليسارية منها أو اليمينية. إن سياسات الماضي هي في آخر تحليل، كانت تعبيراً عن مستوى الوعي العام عندنا حينذاك في المجتمع، ولدى الناس الذين صاروا شيوعيين وقياديين من أبناء هذا المجتمع. نناقشها الآن غالباً على أساس وعينا الحالي، وبعد اتضاح مسار الحياة والتطور، وينبغي أن يكون ذلك واضحاً، لأن هدفنا من مناقشتها وتقييمها هو شق طريق المستقبل حسب ما نستشفه استناداً إلى تجربة الماضي وتحليل ظروف وقوى الحاضر، وحسب تطور وعينا الحالي.

فدراسة الماضي ضرورية للحزب من أجل تقدمه وتطوره الحالي وفي المستقبل.

... مسألة أخرى مرتبطة، هي قضية النضال المشترك بين الشيوعيين:

إن أوضاع البلاد، وتدهور شروط حياة الجماهير الكادحة، وضرورات رفع كفاحية الجماهير في دفاعها عن مصالحها، وزيادة دورها في النضال الوطني المعادي للإمبريالية والصهيونية والرجعية، ونضالها من أجل نشر وإشاعة الديمقراطية في البلاد، تتطلب أن يزيد الشيوعيون نشاطهم وفعاليتهم بين الجماهير، وأن يكونوا معاً متوحدين في النضال من أجل

مصالح الجماهير.

وقد ***أثبتت الفترة الماضية أن وحدة الشيوعيين لا يمكن تحقيقها من خلال الحوارات وحدها***، أو من خلال النقاشات النظرية والسياسية وحدها، ***وأن النضال المشترك بين الجماهير ومعها يشكل وسيلة أساسية بين الشيوعيين لاستعادة الثقة فيما بينهم*** ودفع الحوار النظري والسياسي لنتائجه المطلوبة، ***ومن أجل تحسين تعاونهم مع القوى الوطنية والتقدمية الأخرى في البلاد، ومن أجل معالجة الأزمة الاقتصادية والاجتماعية باتجاه تقدمي، ورفع دور جماهير الطبقة العاملة والفلاحين والمثقفين الثوريين في النضال الوطني*** المعادي للإمبريالية والصهيونية والرجعية.

وأخيراً، هل يمكننا أن نتحد؟ وهل نستطيع حقاً تحقيق وحدة الشيوعيين السوريين وإعادة بناء حزبهم في الأفق المنظور والقريب نسبياً؟ هل يمكننا أن نتحد ونعيد بناء حزبنا الشيوعي السوري الموحَّد؟ إن الإجابة إيجابياً على هذا السؤال يتوقف على ثلاث قضايا أساسية:

1- السياسية منها: إن الأرضية السياسية المشتركة بين الفصائل الثلاثة هي أرضية جيدة وواسعة، وتصلح أساساً للوحدة إذا استُكملت بالتوصل إلى برنامج مشترك في المسائل الكبرى، وبضمنها المسائل التي حولها خلاف حالياً، وبرأيي أنه توجد إمكانية لتحقيق تقارب ومواقف مشتركة في معظم المسائل، على أساس ما تطرحه الأطراف ذاتها في وثائقها وأدبياتها من سياسات ومواقف.

وتبقى هنا مسائل أخرى يجب أن يتم الاتفاق على طرق معالجتها ومناقشتها في المستقبل، من خلال إجراء حوار واسع ومستفيض حولها. وستبقى في الحزب الموحَّد خلافات حول بعض المسائل يستمر النقاش حولها قصيراً أو طويلاً إلى أن يحسمها الزمن، كما يمكن أن تظهر خلافات جديدة أخرى نتيجة ما تطرحه الحياة من جديد، وينبغي أن يكون ذلك طبيعياً.

2- الثقة المتبادلة: إن الثقة قضية أساسية بالنسبة إلى حزب يخوض يومياً النضال لحل المهمات والمعضلات التي تواجهه، وفي النضال ضد القوى الرجعية والإمبريالية.

مع الأسف فقد مرّت سنوات طويلة كان فيها الصراع والتحارب بين الشيوعيين شديداً، حتى أن البعض منهم كان يَعُدُّ الشيوعيين الآخرين أشد خطراً من القوى الرجعية، وما تزال تطرح حتى الآن، رغم جميع التطورات الإيجابية التي تمّت في الفترة الأخيرة أفكار تبرر استمرار العداء والتحارب وتغذيتهما، ونحن لا نقصد هنا النضال والصراع الفكـــري الذي يستمر، ومن الطبيعي أن يستمر، بين الاجتهادات والتيارات المختلفة حول العديد من المسائل، والذي يجب أن ينحصر في الجبهة الفكرية، وأن يعتمد وسائل الحوار الرفاقي والإقناع الديمقراطي وحدهما.

إن إزالة مشاعر الريبة والحذر، وتعزيز الثقة المتبادلة مسألة أساسية، وهي تتطلب أن نتعامل بقلوب مفتوحة،...

3- والحلقة الهامة في دفع عملية الثقة إلى الأمام هي النضال المشترك بين الجماهير، وفي كل الميادين، حيث يكون الشيوعيون معاً في كل مكان. إننا نحتاج حياة حزبية داخلية تتضمّن آليات علمية وعملية، بحيث تحتوي كل التيارات والاتجاهات واختلافات الرأي التي كانت موجودة في الماضي، وكذلك الآراء الجديدة التي ستثيرها التطورات والحياة".



في رئاسة المؤتمر السابع (1991) مراد يوسف، يوسف الفيصل، نبيه ارشيدات.

وحدة صنعها الكفاح

بعد مرور أكثر من عقد من الزمان على الانفصال التنظيمي الثاني بين فصائل الحزب الشيوعي السوري، وفي خضم مخاضات عدة أتى المؤتمر السادس للحزب الشيوعي السوري في كانون الثاني 1987 ليكون فاتحة توحيد فصيلين شيوعيين في حزب واحد، هذا التوحيد ترافق مع تقارب واضح بين الفصائل الشيوعية السورية في خطى متتالية نحو وحدة كفاحية للمرتبطين بقضايا وهموم كادحي الوطن، وحدة لقوى التقدم والديمقراطية الحقة المدافعة عن حقوق المستغلين والمناضلة ضد الإمبريالية والصهيونية وفي سبيل تحرير الأراضي العربية المحتلة.

إعلان الوحدة[43]

"عقدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري واللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري - منظمات القاعدة في 12 تموز 1991 اجتماعاً مشتركاً ساهم فيه أعضاء لجنتي الرقابة المركزية في الحزبين، وقرر الاجتماع ما يلي:

1) توحيد الحزبين في حزب واحد يستمر على حمل الاسم التاريخي لحزب الشيوعيين السوريين، وهو: الحزب الشيوعي السوري.

2) يتم التوحيد على أساس صياغة مشروع الاتجاهات السياسية والفكرية والمهام التي يناضل الشيوعيون السوريون من أجلها في المرحلة الراهنة ومشروع النظام الداخلي، بالانطلاق من المشاريع المعدة لدى كل من الحزبين، وعرضهما على منظمات الحزب لمناقشتهما، تمهيداً لإقرارهما في المؤتمر السابع الموحد.

3) ينجز التوحيد بين الحزبين في المؤتمر السابع الموحَّد، الذي ينبغي عقده خلال مدة أقصاها نهاية هذا العام، والذي سيتألف من مجموع المندوبين الممثلين لكل من الحزبين والمنتخبين وفقاً للائحة الانتخابية

---

[43] إعلان الوحدة بين الحزب الشيوعي السوري والحزب الشيوعي السوري - منظمات القاعدة. دمشق، **نضال الشعب**، ملحق العدد 452، أواسط تموز 1991، 8 صفحات.

لدى كل منهما.

وتجري أعمال التحضير للمؤتمر السابع الموحد بإشراف لجنة التنسيق المشتركة، ويجري عقد اجتماعات مشتركة للهيئات القيادية، ويستمر كل من الحزبين في نشاطه العام المنفرد حتى المؤتمر، آخذاً بالحسبان الاتجاهات العامة، التي تتقرر على نحو مشترك، ويعرض اتفاق الوحدة على المؤتمر السابع الموحد في بدء أعمال لإقراره.

4) يتم دمج وتوحيد المنظمات واللجان المنطقية والفرعية، حسب وجودها، بعد إنجاز المؤتمر السابع الموحد، على أن تعقد مؤتمراتها بصورة عادية وفق النظام الداخلي بعد إنهاء الدمج خلال ستة شهور.

5) يعلن الاجتماع المشترك حرص قيادتي الحزبين على إنجاز المؤتمر السابع الموحد في مناخ ديمقراطي واسع ومسؤول، وبمشاركة نشيطة من مندوبي وممثلي المنظمات، وأن يقترن العمل التوحيدي بطابع ديمقراطي وتجديدي ملموس في أنماط التفكير وأساليب العمل وفي تركيب الهيئات الجديدة وفي إشاعة الديمقراطية والعدالة والإنسانية، وأن يحترم تعدد الآراء في إطار وحدة الإرادة والعمل، ووحدة التوجه الفكري لدى أعضاء الحزب وهيئاته ومنظماته، بِعَدِّها شرطاً لا غنى عنه لتعزيز فعاليته ونشاطه.

6) يَعُدُّ الحزبان أن عملية التوحيد هذه مع أهميتها النوعية والانعطافية، لا تنهي حالة الانقسام في صفوف الشيوعيين السوريين، ويبقى العمل لتحقيق وحدة جميع الشيوعيين في حزب واحد مهمة شاخصة أمامهم.

لقد اتخذ قرار التوحيد في مرحلة هامة من حياة البلاد ومن حياة الشعب السوري، وهذا التوحيد هو تكريس لإرادة جماهير الشيوعيين ووفاءً لشهداء الحزب وتضحيات الألوف من أعضائه وأصدقائه، وهو يتلاقى مع رغبة القوى الوطنية والتقدمية ومع حاجات التطور السياسي والاجتماعي والديمقراطي في البلاد ومهمات النضال الوطني ضد الإمبريالية والصهيونية والتطلعات المشروعة إلى مستقبل أفضل لدى العمال والفلاحين والمثقفين وجميع الكادحين.

يتطلع الاجتماع المشترك إلى أن يكرس المؤتمر الموحد القادم، ويطور أبرز المعالم الأساسية المضيئة في برامج وممارسات الشيوعيين السوريين تاريخياً وراهناً،...[44]".

وقد خلص الاجتماع المشترك للجنتين المركزيتين للفصيلين الشيوعيين في ختام الوثيقة الصادرة عنه إلى ندائه التالي:

"... أيها الشيوعيون السوريون!

نعلن، نحن أعضاء القيادتين المجتمعتين اليوم، أننا خلال عملنا في الاثني عشر عاماً الماضية كحزبين منفصلين، لم ننس أبداً أننا جميعاً ننتمي إلى حزب واحد هو الحزب الشيوعي السوري، الذي سنحتفل قريباً بالذكرى السابعة والستين لتأسيسه. وحملنا دوماً الاعتزاز بهذا الانتماء لما في تاريخ حزبنا من أعمال مضيئة وتضحيات بطولية في النضال ضد الاحتلال الاستعماري وضد الإمبريالية والصهيونية وضد الظلم والقهر وضد التخلف الاجتماعي والاقتصادي، من أجل مصلحة الشعب الكادح وحرية الوطن ومن أجل الديموقراطية والعدالة الاجتماعية وفي سبيل الاشتراكية.

ولم يمنعنا هذا الاعتزاز من إدراك ما شاب مسيرتنا من عثرات وأخطاء ومظاهر تقصير في العمل أو في الرؤية، ونحن جميعاً نتحمل مسؤوليتها.

إن إدراكنا للنواقص، يضع أمامنا مهمة السير إلى أمام متزودين بكل ما في ماضينا وحاضرنا من رؤية صائبة وعمل جيّد، وعاملين على

---

44) وتتضمن التوجهات التي تعكس هذه المعالم:
أولاً: تعزيز الهوية الوطنية للحزب الشيوعي السوري. ثانياً: توطيد سياسة التحالفات وتعزيز دور الجبهة الوطنية التقدمية. ثالثاً: السمة الطبقية والشعبية والديموقراطية للحزب. رابعاً: القضية القومية على أسس ديموقراطية تعزز النضال المشترك ضد الإمبريالية والصهيونية. خامساً: تطوير موقف الحزب من الدين والإيمان والتعاون مع القوى المتدينة، التي تعتمد أساليب الحوار الديمقراطي والسلام الوطني. سادساً: النظر الى المتغيرات العالمية بشعور عميق من المسوولية، وقوفاً الى جانب قيم وقوى الحرية والسلام والديمقراطية. سابعاً: النظر الى مبادرة البيروسترويكا، التي صدرت عن الاتحاد السوفييتي بعقل منفتح وبروح البحث العلمي الهادئ، لأنها تشكل ظاهرة موضوعية عالمية ومحلية. ثامناً: الاستمرار على الاسترشاد بالمنهج الماركسي اللينيني كدليل في العمل والتحليل، والتزود بكل ما هو ديمقراطي وانساني وتقدمي في التراث العربي والعالمي.

التحرر من الرؤى والأساليب الخاطئة، ونتطلع إلى التعاون مع كل قوى الخير والتقدم.

لقد كانت سنوات الانفصال بيننا مُرَّة، ولكنها لم تكن خالية من الاجتهاد والعطاء، وأهم عطاءاتها هو إدراكنا العميق لأهمية الوحدة وعودتنا إلى التلاقي والحوار وإعادة الوحدة إلى حزبنا. وإذا كان الخطأ فرقنا وقسمنا، فإن الصواب يجمعنا ويوحدنا.

أيها الشيوعيون السوريون أينما كان موقعكم التنظيمي!

إن هذه الوحدة هي منكم ولكم، وهي تلبية لإرادتكم الجماعية، فصونوها وعززوها، وتابعوا طريق الوحدة الرحب، طريق التطور والتجديد.

إن الحزب الشيوعي السوري الموحد، قوة ليس فقط للشيوعيين وأصدقائهم، وإنما لكل القوى الوطنية والتقدمية والديمقراطية، وكل القوى القومية المناضلة ضد الإمبريالية والصهيونية، وللطبقة العاملة وجماهير الفلاحين، وللمرأة المناضلة في سبيل حقوقها، وللمثقفين أصحاب الكلمة الحرة، وللشباب السائرين نحو مشارق القرن الجديد... وسنناضل ليكون الحزب الشيوعي السوري قوّة توحيد للصفوف والقوى، قوّة تقدّم وديمقراطية".

تقرير أمام الاجتماع المشترك[45]

"... مؤتمرنا القادم يجب أن ينبثق منه حزب شيوعي جديد، حزب متجدد وموحد، حزب فيه تعددية آراء، لكن أصحابها جميعاً مصممون وحريصون على أن يعيشوا معاً، ويعملوا معاً في الحزب الموحد.

حزبنا الموحّد القادم يجب أن يكون قادراً على أخذ القرار بسرعة وروية في الوقت المناسب، بسرعة دون تسرع، وبروية دون تخلف.

ويجب أن يكون قادراً على التحرك السريع والسريع جداً أحياناً، لتنفيذ

---

[45] وهو التقرير الذي ألقاه مراد يوسف، تحضيراً للمؤتمر السابع الموحد، أمام الاجتماع المشترك للجنتين المركزيتين في الحزب الشيوعي السوري والحزب الشيوعي السوري - منظمات القاعدة، بصفته أميناً أول للجنة المركزية، ونعرض هنا لفقرات أساسية منه – **المُعِدُّ**.

القرار المتخذ، وقد ورد شيء من ذلك في "إعلان الوحدة" حيث جاء فيه:

"يعلن الاجتماع المشترك حرص قيادتي الحزبين على إنجاز المؤتمر السابع الموحد في مناخ ديمقراطي واسع ومسؤول، وبمشاركة نشيطة من قبل مندوبي وممثلي المنظمات، وأن يقترن العمل التوحيدي بطابع ديمقراطي وتجديدي ملموس في أنماط التفكير وأساليب العمل وفي تركيب الهيئات الجديدة وفي إشاعة الديمقراطية والعدالة والإنسانية، وأن يحترم تعدد الآراء في إطار وحدة الإرادة والعمل، ووحدة التوجه الفكري، لدى أعضاء الحزب وهيئاته ومنظماته، بوصفها شرطاً لا غنى عنه لتعزيز فعاليته ونشاطه".

يتوجب أن يكون للحزب موقف سريع من القضايا والمسائل التي تواجهه ... إن الحياة لا تنتظر، ولن تنتظر في المستقبل، خصوصاً في المرحلة الجديدة التي دخلها العالم.

... ولا أعني بالموقف إدانة هذا أو ذاك، ولا يوجد وهم بأننا قادرون أو كنا قادرين أن نؤثر في مجرى الأحداث، فهذا غير وارد. وما أقصده من الموقف هو أن نبين فيه هل نحن مع تجدد الحياة ومواكبتها، أم مع المراوحة والجمود؟

والقصد من الموقف ثانياً: كيف نحن في حزبنا وبلدنا بالذات يجب أن نستفيد من أحداث بعيدة عنا، لكنها تمسنا في الصميم...

المهم: الحزب الموحد القادم نريده أن يكون قادراً على السرعة في أخذ الموقف المناسب، وعلى سرعة التحرك لتنفيذه، وإلا سنتخلف وندفع الثمن.

بهذا الاجتماع ندخل الفترة الحاسمة من التحضير للمؤتمر، وعلينا في هذه الفترة أن نوجه كل طاقاتنا لإنجاز هذا العمل الكبير والمهم.

المؤتمر السابع الموحد للحزب حدث هام وكبير بالفعل في حياة ومسيرة الشيوعيين السوريين، نريده أن يكون كذلك، وأن يكون مهماً في حياة شعبنا وبلدنا، وبقدر ما يكون مهماً في حياة شعبنا يكون مهماً في حياة الشيوعيين السوريين.

أما لأية درجة سننجح في ذلك؟ فالجواب عليه بيدنا نحن - هؤلاء

الشيوعيين من الفصيلين - ولاسيما في يد الحاضرين هذا الاجتماع.

وهذا ما ختمنا به اجتماعنا المشترك في تموز، الذي اتخذنا فيه قرار الوحدة، وقررنا عقد المؤتمر السابع الموحد.

في أواسط آب، وقبل الأحداث السوفييتية الأخيرة، وجهنا رسالة إلى اللجان المنطقية عن سير العمل والمهمات الشاخصة أمام الحزب، وتناولنا فيها مسائل تنظيمية عن دور اللجنتين المركزيتين بعَدّهما الجهة العليا للإشراف على تحضير المؤتمر، وعن دور المكتبين السياسيين بعَدّهما اللجنة المكلفة بالتحضير للمؤتمر، والسكرتارية مكتب المتابعة "اليومية"، التي انتخبها أو شكلها الاجتماع المشترك للمكتبين السياسيين.

ومطالبة اللجان المنطقية بمواكبة أعمال التحضير، مطالبتها في كل محافظة ومنطقة بتشكيل مكتب موحد للعمل التحضيري، وإنهاء مناقشة المشاريع، وإرسال نتائجها إلى المركز حتى منتصف أيلول.

وقلنا في الرسالة ما يلي:

"نلفت نظركم إلى أهمية اعتماد الرفاق جميعاً أثناء مناقشة المشروعين على ***خصوصيات المرحلة***، التي ينعقد فيها المؤتمر السابع الموحد نتيجة التغيرات العميقة التي حدثت وتحدث في العالم، وخصوصاً في الحركة الشيوعية العالمية، والضرورة القصوى إلى أن ننظر إلى المسائل الكبيرة (الفكرية الإيديولوجية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكذلك المسائل التنظيمية المرتبطة بالحياة الداخلية للحزب، وبعلاقته مع الجماهير ومختلف قطاعات المجتمع في بلادنا، ولمسائل التحالفات وغيرها)... نقول ضرورة النظر في هذه المسائل بعقول باحثة ومنفتحة ومتأملة في الأوضاع الجديدة، وبروح التطلع إلى المستقبل بموضوعية وثقة، ومع الأخذ بالحسبان ***أن مؤتمرنا ينعقد في مرحلة انتقالية متحركة*** جداً، ***ولا يجوز فيها أن نقف جامدين*** عند المسلمات والأفكار القديمة كما هي، ولكن دون قطيعة عنها، ودون رهبة من المستقبل، وآخذين أيضاً بالحسبان احتمالات ***التغيرات المقبلة***، وكيف علينا أن نواجهها ونتعامل معها ومع ما حدث من تغيرات ***بروح كفاحية مقدامة وبعقل علمي وموضوعي وواقعي***، هادفين من ذلك كله إلى السعي ***لتغيير أنفسنا*** إلى الأفضل،

ولتغيير واقعنا أيضاً إلى الأفضل بهداوة وثقة.

... وهكذا حسمنا - أعني في اللجنة التحضيرية للمؤتمر- علنية المؤتمر[46]، مستندين إلى موافقتكم، التي سبق وعبرتم عنها في الاجتماع المشترك في منتصف تموز.

وهذا قرار كبير ومسؤول نعتقد أننا اتخذناه برويّة وببحث جدي وجماعي.

... علنية مؤتمرنا اليوم تحمل معاني دقيقة وكثيرة وجديدة، وطبيعي أن يدور حولها جدل وآراء مختلفة داخل الحزب وخارجه، مثلما يحدث أمام كل خطوة شرعية جديدة.

وستطرح الآن لدى أعضاء الحزب تساؤلات حول إيجابيات أو سلبيات علنية المؤتمر من جوانب فكرية وسياسية وتنظيمية.

سيتساءل كثيرون: أ ليس في هذا منحى يميني جديد في سياسة الحزب؟ أ ليس في هذا مراهنة على ما تصفه بالهامش الديمقراطي ومبالغة بحدوده؟ أ لن يؤدي هذا إلى تسليم بالوضع الحالي للجهة الوطنية التقدمية، التي يوجد العديد من النواقص والمآخذ في عملها؟ أ لن يفسح هذا مجالات أوسع أمام الانتقادات التي توجهها أوساط شعبية وجماهيرية وسياسية عديدة إلى الحزب، وتتهمه بالتفريط باستقلاليته عبر مبالغته بدور وأهمية التعاون القائم وبدور الجبهة الوطنية التقدمية؟ ألا يؤدي هذا إلى كشف كوادر الحزب أمام أجهزة الأمن، ويعرضهم لخطر مختلف أشكال الضغوط والمحاذير؟!

هذه التساؤلات وغيرها جدية، ولا يجوز الاستخفاف بها، وهي لم تكن غائبة عن فكرنا، لكننا لم نعطها الغلبة في اتخاذ القرار، بل أعطينا الأرجحية والغلبة للعوامل الأخرى الإيجابية، والتي منها:

---

[46] كان المؤتمر السابع الموحد للحزب الشيوعي السوري أواسط تشرين الأول عام 1991، المؤتمر الثاني العلني في تاريخ الحركة الشيوعية السورية، إذ إن المؤتمر الثاني للحزب الشيوعي السوري اللبناني، الذي انعقد بين 30 كانون أول 1943 و1 كانون ثاني 1944 كان علنياً أيضاً.

وبطبيعة الحال، فقد عُقد المؤتمر السابع في ظروف مختلفة جداً، فبينه وبين المؤتمر الثاني ما يقرب من نصف قرن مليء وغني جداً بالأحداث التاريخية العميقة والشمولية. هذا ما قيمه به مراد يوسف في تقريره المذكور.

1) إن الحزب منذ منتصف الستينيات تدرّج في العلنية، ووصل بأساليب نشاطه السياسية والجماهيرية وحتى التنظيمية إلى مستوى واسع من العلنية، ولاسيما منذ تأسيس الجبهة الوطنية التقدمية عام 1972، وصار الحزب من الناحية العملية حزباً علنياً، وصارت كوادره معروفة إلى حد كبير.

2) إن الهامش الديمقراطي الموجود في البلاد هامش حقيقي وثابت، وربما لا نخطئ إذا قلنا إنه صار من ثوابت النظام منذ الحركة التصحيحية عام 1970 وتأسيس الجبهة.

ورغم محدودية هذا الهامش الديمقراطي بالمقارنة مع الديمقراطية اللازمة، التي نطالب بها ونعمل لها، ***فهو أفسح ويفسح المجال أمام حزبنا*** وعدد من الأحزاب الوطنية والتقدمية الأخرى ***لممارسة النشاطات وتوسيعها.***

وعندنا تقدير بأننا - نحن الشيوعيين - وغيرنا من القوى الوطنية التقدمية، ***لم نملأ المساحات التي يتيحها هذا الهامش الديمقراطي، رغم ضيق حدوده*** عن المطلوب، وذلك بسبب قصورنا نحن من النواحي الفكرية والسياسية والعملية، وبسبب وجود أوجه ضعف في الكفاءات وروح المبادرة والجرأة والعمل الإيجابي الخلاق.

3) استقراء مجمل الأوضاع الداخلية في البلاد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، يقود إلى ترجيح الاستنتاج بأن اتجاه الحكم لن يكون نحو تقليص وإلغاء هذا الهامش الديمقراطي، بل نحو توسيعه، ولو أن ذلك يمكن أن يجري بالتدريج، وربما لا نخطئ إذا عَدَدْنا موافقة القيادة القطرية لحزب البعث على علنية مؤتمرنا مؤشراً على واقعية هذا الاستنتاج.

4) واضح تماماً أن الديمقراطية هي الصنو الأكبر للتغييرات العميقة الجارية في أنحاء مختلفة من العالم بدرجات وأشكال مختلفة[47]. ورغم الطابع العالمي لهذه التحولات الديمقراطية، إلا أن أسبابها العميقة تكمن

---

[47] وُضع هذا التحليل في ظلّ التغيرات العميقة والجذرية، التي جرت وكانت ما تزال تجري في البلدان الاشتراكية سابقاً، تغيرات تناولت الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية العامة وطرائق

في داخل كل بلد، والظروف الخاصة بكل بلد هي التي تتحكم في تحديد طرائق ومستويات ودرجات التحول الديمقراطي.

وأن التغيرات العميقة والجذرية، التي جرت وما تزال تجري في البلدان الاشتراكية سابقاً، تتناول الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية العامة وطرائق نشاط الأحزاب، ولاسيما الأحزاب الشيوعية.

وتتطلب هذه التغيرات إجراء تغييرات أساسية في بنى الأحزاب الشيوعية، وفي مناهجها السياسية، وطرائق نشاطها الجماهيري والسياسي.

لقد صرنا ملزمين أمام التغيرات الموضوعية والتاريخية الجارية أمام عيوننا، أن نوفق بروح خلاقة بين أوسع انفتاح على الناس، على الجماهير، على مختلف قطاعات المجتمع من جهة، وبين المحافظة على ما هو جوهري وأصيل ومتطور، وقابل للتحرك والتقدم إلى أمام في منطلقاتنا الفكرية والإيديولوجية، وفي أساليب عملنا، ومطالبون أيضاً باستعادة ما يوصف بالروح الرومانسية الثورية المتلائمة مع ظروف الحضارة الجديدة.

وهذه المعادلة (بين الرومانسية الثورية والحضارة الجديدة) صعبة، لكنها هامة جداً، ولا بد أن نكتسبها ونتقنها، إذا أردنا أن يكون لنا دور طليعي في تطور بلدنا ومجتمعنا. وإذا تخلفنا عن ذلك، لا يحق لنا أن نلوم الحياة ولا الآخرين، بل علينا أن نلوم أنفسنا قبل كل شيء.

في ضوء ذلك كله، نحن جميعاً مطالبون الآن أن نتقن عقد المؤتمر السابع الموحد المفتوح لحزبنا بصورة جيدة من كل الجوانب.

وهذا عمل جديد علينا جميعاً، ولم نتعود عليه، فلنسأل أنفسنا: هل نحن قادرون على هذا، أم عاجزون؟!

علينا، مرة أخرى أقول علينا نحن المجتمعين، هنا يتوقف الجواب.

نحن هنا قادة الحزب، قادة المنظمات، ولا أظن أي واحد منا يجوز، أو يريد أن يقول، أو يفكر أنه غير قادر، فلنتقدم إلى هذا العمل برصانة

نشاط الأحزاب، ولاسيما الأحزاب الشيوعية. ورأى مراد أن هذه التغيرات تتطلب إجراء تغييرات أساسية في بنى الأحزاب الشيوعية، وفي مناهجها السياسية، وطرائق نشاطها الجماهيري والسياسي.

وحكمة، بجرأة ومسؤولية، لنتقدم إلى إنجاز مؤتمرنا بهذه الروحية... ونعتقد أننا نفعل الصواب، ثم نترك للمستقبل، لما بعد سنة أو سنتين، وربما للمؤتمر الثامن، تقييم ما فعلناه في هذا المنعطف الذي نعيشه.

وقد اتخذت اللجنة التحضيرية وتتخذ كل التدابير والتوجيهات التنظيمية والعملية اللازمة، وحددت الزمان والمكان، وبرنامج العمل منذ الآن وحتى نهاية المؤتمر، ويلزم معرفة البرنامج والجدول الزمني لعمل المؤتمر واستيعابهما جيداً وتنفيذهما بروح جماعية.

... إن المؤتمر السابع الموحد، كما سبق ووصفناه، هو مؤتمر عادي من جوانبه الأساسية والكبرى، وله الجانب الاستثنائي المحدود الذي اقتضته العملية التوحيدية الهامة جداً، وحداثة ممارستنا لمؤتمر علني لأول مرة في حياتنا.

ونحن مع سيادة المؤتمر بكل معنى الكلمة، والمؤتمر ليس جسماً ضبابياً، إنه جسم إنساني اجتماعي مؤلف من أفراد مناضلين واعين ومسؤولين، وهم الذين يشكلون بمجموع أعمالهم المؤتمر، ويحققون نتائجه بإرادتهم الحرة والمسؤولة.

ونريد للرفاق المندوبين أن يمارسوا حقهم كاملاً بالتعبير من آرائهم وأفكارهم بحرية، ولا حاجة تدعو لحجب أفكارنا وآرائنا أو شيء منها بسبب علنية المؤتمر، لأن سياستنا نفسها واضحة وعلنية، وأفكارنا واضحة وعلنية، ولنا سياسة واحدة ووحيدة بالقول والعمل، وهي معروضة في البلاد للمناقشة علناً، داخل الحزب وخارجه، في مشاريع الوثائق التي سيبحثها المؤتمر ويقرها.

ونحن مع أوسع ديمقراطية في المؤتمر، والديمقراطية ذاتها عمل مسؤول بكل معنى الكلمة، ولعل أصعب ما في الديمقراطية ممارستها التي تتطلب المعرفة والكفاءة والجهد.

وسيمكننا في المؤتمر أن نقول كل ما نريد قوله، ولكن بزمن محدد وعبارات مكثفة، وبلغة سياسية متوازنة وجدية، وأن نبدأ التخلص من طريقة الشروحات والإنشاءات المطوَّلة واللهجة الخطابية التي تعودنا عليها جميعنا.

إن مؤتمرنا السابع الموحد سيكون حدثاً هاماً بالفعل في حياتنا، ...

... نحن متمسكون بخيط النور الشيوعي، الذي تمثله بالأساس أفكار ماركس وأنجلز ولينين، والذي يمثله تحديداً وتخصيصاً نهجهم، نمط تفكيرهم ونمط تعاملهم مع الحياة، التي تظل "الشجرة دائمة الاخضرار".

ما أروع أن يقرر مؤتمرنا السابع الموحد موقفاً نيّراً ومتوازناً وهادئاً تجاه الأحداث الانعطافية العاصفة.

يجب، أيها الرفاق، أن نعطي الجواب من مؤتمرنا: نعم، نحن - هؤلاء الشيوعيين السوريين - نواصل الدرب، نواصله ليس بقوة الدفع الاستمرارية، بل مع الاغتناء والتجديد اللذين اكتسبتهما، ويجب أن تكتسبهما طريقة رؤيتنا للحياة مع هذه الانعطافات، وقد حدد التقرير الذي ناقشناه وقررناه البارحة هذا الاستنتاج، وهام جداً أن يناقش المؤتمر هذا الاستنتاج ويدققه ويعمقه.

وأظن أن رؤيتنا الشيوعية الجديدة والمتجددة للحياة ستكون في مقدمة الولادات الواعدة للعمل التوحيدي الكبير، الذي نوغل بخطانا لإنجازه".

مؤتمر صحفي في بيروت

في أعقاب إقرار الاجتماع المشترك للجنتين المركزيتين للحزبين الشيوعيين وثائق الوحدة وأسسها في اجتماع 12 تموز 1991، نشطت قيادتا الحزبين السائرين نحو الوحدة الكاملة للتعريف بإعلان الوحدة، وعقد ممثلا لجنة التنسيق المشتركة مراد يوسف (الأمين الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري - منظمات القاعدة) ودانيال نعمة (عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوري) مؤتمراً صحفياً في دار نقابة الصحافة اللبنانية بحضور مميز لصحفيين ورجال إعلام لبنانيين وعرب[48].

وتحدث الرفيق مراد يوسف في هذا المؤتمر عن الخطوات التي تمت

---

[48] حضر المؤتمر الصحفي إضافة إلى ممثلي الصحافة ووكالات الأنباء كلاً من نديم عبد الصمد (نائب الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني) ويوسف مرتضى (عضو المكتب السياسي)، ويوسف خطّار الحلو ووليد الطيبي (عضوا مجلس نقابة الصحافيين اللبنانيين) وسلطان سليمان (أمين عام اتحاد الشباب الديمقراطي اللبناني). **نضال الشعب**، العدد 453، دمشق، أواخر تموز 1991.

للوصول إلى الوحدة بين الحزبين الشقيقين، وقال:

"كان هناك لجنة حوار تتألف من ممثلين للأحزاب الثلاثة، وقد تحاور الرفاق فيها طويلاً، ومؤخراً في آذار المنصرم توجه طرف الرفيق يوسف الفيصل برسالة إلى الرفيق خالد بكداش وإلينا تدعو إلى وقف المؤتمرات المستقلة، والعمل لمؤتمر واحد موحّد لجميع الأطراف، وكان جواب الرفيق خالد بكداش على التوجه سلبياً، وعقد مؤتمره المستقل، بينما نحن رأينا الجدية في هذه المبادرة، وسرنا إلى ملاقاتها، وها نحن قد توصلنا إلى اتفاق حول الوحدة، وصغنا إعلاناً للوحدة.

طبعاً، إن الخطوة التي حققناها هي خطوة متواضعة، ولكنها في الوقت ذاته هامة. وأهميتها تعود إلى الظروف التي تمت فيها: إلى الظروف الداخلية والعربية، وإلى ظروف الحركة الشيوعية العالمية، ففي زمن الانقسامات يأتي هذا العمل التوحيدي، ليخلق كما قال البعض بارقة أمل، وليحدث نوعاً من الانعطاف في اتجاه توحيد القوى".

ثم تحدّث عن إعلان الوحدة، فقال:

"إن هذا الإعلان هو الآن بين أيديكم، وستطلعون عليه بروية، ومع ذلك لا بد من لفت الانتباه إلى أهم النقاط الواردة في هذا الإعلان:

أولاً: في هذا الإعلان تأكيد على أن الحزب سيستمر في حمله لاسمه التاريخي، أي اسم الحزب الشيوعي السوري.

ثانياً: إن التوحيد يتم على أساس صياغة مشروع الاتجاهات السياسية والفكرية والمهام التي يناضل الشيوعيون السوريون من أجلها في المرحلة الراهنة ومشروع النظام الداخلي، والتي ستوضع بالانطلاق من المشاريع المعدة لدى كل من الحزبين وعرضهما على منظماتهما لمناقشتهما تمهيداً لإقرارهما في المؤتمر السابع الموحد.

ثم استعرض أهم الأفكار الواردة في الإعلان:

أولاً: إن الحزب الموحد مصمم على تعزيز هويته الوطنية، والنضال في سبيل تحرير الجولان ودعم النظام الوطني والجهود الهادفة إلى رفع القدرات الدفاعية لبلادنا والتصدي للنهج العدواني للإمبريالية الأمريكية وللتوسعية الإسرائيلية.

ثانياً: إن الحزب سيعمل لتوطيد سياسة التحالفات وتعزيز دور الجبهة

الوطنية وتطوير التعاون مع حزب البعث العربي الاشتراكي وسائر الأحزاب المكونة للجبهة، وتوسيعه ليشمل جميع القوى الوطنية والتقدمية في البلاد.

ثالثاً: إن الحزب سيعمل أكثر لتعزيز سيمائه الطبقية والشعبية والديمقراطية.

وأشار الرفيق مراد هنا خصوصاً إلى القضايا المعاشية للمواطنين، وإلى ضرورة توسيع وتعميق الحريات الديمقراطية، وحماية حقوق المواطن وكرامته، ورفع الأحكام العرفية، والإفراج عن المعتقلين السياسيين.

كما أشار الرفيق مراد إلى ضرورة الاهتمام الجدي بقضايا النساء والشباب.

رابعاً: ضرورة الاهتمام بالقضية القومية، قضية الوحدة العربية، والتضامن العربي المعادي للإمبريالية والصهيونية، وبقضايا الحركة القومية الكردية وحقوق الأقليات القومية[49].

---

[49] ضمن الوثائق المتاحة مما خطه يراع مراد يوسف أثناء التحضير للمؤتمر السابع الموحد للحزب الشيوعي السوري عام 1991 وتحت عنوان "عدد من المسائل التي تحتاج إلى أخذ توجهات وقرارات بشأنها في المؤتمر السابع" يكتب أبو سامي حول القضايا القومية: "ليس من شعب في العالم إلا وله قوميته، له انتماؤه القومي الذي يتمثّل خصوصاً في لغته وثقافته وتاريخه. وكما توجد دول متعددة القوميات من الأمم توجد كذلك أمم وقوميات متنوعة في عدة دول.

وبلادنا تجمع بين الحالتين: فاكثرية الشعب السوري تنتمي الى الامة العربية والقومية العربية وتجمعها مع الشعوب الأخرى الانتماء القومي العربي بكل ما يحمله هذا الإنتماء من خصائص ومشاعر ومصالح وفي مقدمتها التضامن العربي والتعاون العربي والطموح من أجل الوحدة العربية. ونحن الشيوعيون السوريون معنيون بكل معنى الكلمة بالنضال من اجل هذه المصالح والأهداف وان نكون في مقدمة المناضلين من أجلها.

كما يعيش على أرض بلادنا ودولتنا شعوب وقوميات اخرى كالأكراد والارمن والشراكس والسريان والتركمان وغيرهم. نحن ننظر إلى هذه الشعوب والأقليات القومية كجزء مكون لشعبنا السوري يجمعها مع الشعب العربي - الأكثرية – تاريخ مشترك وثقافات وحضارات مشتركة ووحدة الأرض والمصير، ونحن الشيوعيون السوريون معنيون بتمتع أبناء هاته القوميات بكامل حقوق المواطنة، وبضمان عدم تعرّضهم لأي شكل من أشكال التمييز والاضطهاد بسبب انتمائهم القومي، وتمتعهم بحقوقهم الثقافية والقومية وفي انتظامهم حسب إرادتهم الحرّة في جمعيات وروابط وتنظيمات سياسية في إطار الوحدة الوطنية وتعميق علاقات الأخوّة في النضال من اجل المصالح الاقتصادية والاجتماعية والديمقراطية الموحدة للشعب السوري كله ومن أجل مساهمته النشطة في التضامن العربي والوحدة العربية.

ونحن في الوقت ذاته نعارض وننتقد نزعات التعصب القومي والميول الانعزالية بين أبناء الأقليات القومية في سوريا. إن تحقق المصالح الحيوية العميقة لأبناء هاته القوميات مرهون بمدى مساهمتها

ولفت الرفيق مراد يوسف الانتباه إلى الأهمية التي يوليها الإعلام لتطوير موقف الحزب من الدين والمتدينين، وإلى ما يجمع الشيوعيين مع جماهير المؤمنين من قيم إنسانية[50].

كما تطرق إلى المتغيرات العالمية، والموقف من مبادرة البريسترويكا التاريخية، وإلى الأسس والعوامل الموضوعية لمقولة التفكير السياسي الجديد.

ثم أكد أن إعلان الوحدة يركز على الاسترشاد بالمنهج الماركسي

في النضال من أجل المصالح الحيوية لمجموع الشعب السوري، وفي مقدمتها النضال الوطني ضد الإمبريالية والصهيونية ومن أجل الديمقراطية والعدالة الاجتماعية.

إن ما نحتاج إليه من تغيير في موقفنا من المسائل القومية يدور في إطار تعميق فهمنا لها، والتحرر من بعض المفاهيم أو الأمزجة التي نشأت عند كثيرين منا، والتي كانت توحي بشكل خاطئ وكأنما يوجد تعارض بين الاشتراكية والقومية (القومية كانتماء واعتزاز بهذا الانتماء)، والتي كانت تؤدي في الممارسة أحياناً إلى الاستخفاف بالمشاعر والخصائص القومية وعدم الإدراك العميق لعمق أبعادها في وجدان الناس وفي تكوينهم الإيديولوجي والنفسي.

يجب أن نكون، كشيوعيين وديمقراطيين، أكثر استيعاباً للخصائص القومية وأكثر احتراماً للمشاعر القومية، وأكثر إقداماً في النضال من أجل المصالح القومية، وأن نكون على يقين بأن هذا ليس فقط لا يتعارض مع النضال في سبيل الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والاشتراكية، بل يتفق ويتلازم مع هذا النضال.

[50] في وثيقة "عدد من المسائل التي تحتاج إلى أخذ توجهات وقرارات بشأنها في المؤتمر السابع" يكتب مراد حول موقف الشيوعيين من الدين: "لقد لعب الدين في بلادنا وفي العالم دوراً تاريخياً في تكوين بنية الإنسان النفسية والفكرية. وتملك الأفكار الدينية جذوراً عميقة في حياة الشعوب، وتشكل أوسع القطاعات الشعبية من جماهير المؤمنين الذين يمتزج الإيمان عندهم بطموحاتهم إلى القيم والمثل العظيمة للحرية والمساواة، وإلى العدالة الاجتماعية ورفض الظلم والاضطهاد والاستثمار.

ويمكن للدين أن يساعد على تحقيق هذه الطموحات بقدر ما يتفاعل العاملون تحت لوائه وباسمه مع معطيات العصر الروحية والمادية التي ينبغي توظيفها لسعادة الإنسان وتقدم المجتمع، وليس عن طريق الدعوات التي تنشط لها بعض التيارات الدينية السلفية التي تريد بناء الحاضر على صيغة الماضي وتنشر التعصب الديني والمذهبي. وتستخدم أساليب العنف لأغراض سياسية وذلك على أرضية تردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والمعاشية للجماهير الشعبية، أرضية يعززها ضعف فعالية الأنظمة العربية في تحقيق التنمية والتقدم، العدالة والديمقراطية، مواجهة الإمبريالية والخطر الصهيوني. إن هذه الفئات تجعل الدين وسيلة لخداع الجماهير البسيطة، وستاراً تُخفي وراءه مصالحها الطبقية، وطموحها للقفز إلى السلطة ودفع البلاد على طريق المغامرة السياسية، وتعيد مسار التطور الاجتماعي مئات السنين خلفاً مستغلة الدين لأهداف أخرى معاكسة تماماً للمصالح الوطنية والشعبية.

طبعاً هناك قوى ناهضة ضد مظاهر الزيف الاجتماعي والتردي الأخلاقي، وتكافح من أجل العدالة وسيادة القيم الروحية الإيمانية، وتناضل واعية من أجل التغيير الديمقراطي مساهمة في النضال ضد الإمبريالية والصهيونية.

من هنا تبرز أهمية العمل مع جماهير المؤمنين: مسلمين ومسيحيين وغيرهم، واحترام تقاليدهم ومعتقداتهم الدينية، والتعامل بإيجابية وانفتاح على الشخصيات والأوساط الدينية المتنورة، والعمل على أساس القواسم المشتركة التي تجمع الشيوعيين والوطنيين الآخرين وخصوصاً بين جماهير المتدينين.

اللينيني بوصفه دليلاً في العمل والتحليل والتزود بكل ما هو ديمقراطي وإنساني وتقدمي في التراث العربي والعالمي، كما أكد أن الاشتراكية هي خيارنا وهدف نضالنا.

ثم تحدث الرفيق مراد عن مرحلة الانقسام وآثارها الضارة، وقال:

"ولكننا جميعاً لم ننس طوال تلك الفترة أننا ننتمي إلى حزب واحد هو الحزب الشيوعي السوري، كما قال: إننا ونحن نعمل لنوطد خطوتنا التوحيدية هذه، سنعمل من أجل استكمال وحدة جميع الشيوعيين السوريين، التي تظل مهمة شاخصة أمامنا جميعاً، وبهذا الهدف سنواصل علاقاتنا وحواراتنا الرفاقية الطيبة مع الحزب الشيوعي السوري (قيادة الرفيق خالد بكداش).

وإن الوحدة التي نتقدم لإنجازها الآن، هي استجابة لإرادة جماهير الحزب والشيوعيين، ووفاء لشهداء الحزب وتضحيات الألوف من أعضائه وأصدقائه، وهي تستجيب لمتطلبات الوضع الداخلي والعربي والأوضاع الدولية".

من أجل الوطن والديموقراطية والعدالة الاجتماعية

في الحادي عشر من تشرين الأول عام 1991 اعتلى مراد يوسف سدة أول مؤتمر علني للحزب الشيوعي السوري، مؤتمر يحضره أكثر من 300 مندوب منتخب من منظمات فصيلين شيوعيين، التقيا على وحدة تنظيمية وفكرية بعد عمل مشترك دؤوب وحوار تفاعلي أوصل إلى هاته النتيجة.

وإذ رحب الرفيق أبو سامي بضيوف المؤتمر وأعضائه المراقبين، وممثلي القوى السياسية المختلفة والمثقفين وأصدقاء الحزب، وشكرهم باسم اللجنتين المركزيتين للحزبين المتوحدين على تلبيتهم الدعوة لحضور المؤتمر، أشار إلى عناوين أهم الموضوعات التي دارت حولها أعمال التحضير للمؤتمر، والتي سيجري بحثها فيه، لتحديد الملامح الجديدة التي سيضيفها المؤتمر السابع الموحَّد على موقف الحزب الشيوعي السوري وتوجهاته.

وقال: "إننا نريد للمؤتمر السابع الموحَّد أن يوقد مشعلاً، ولو متواضعاً، على دروب التطور لوطننا وشعبنا في هذه الفترة، التي تتسم آفاقها بغير قليل من الغموض والاهتزاز.

نريد لمؤتمرنا أن يعطي جواباً شافياً، قدر ما نستطيع، على العديد من التساؤلات، التي يطرحها الناس علينا داخل البلد وخارجه.

ولعل أول ما يتبادر السؤال عنه: ما الذي جمع هؤلاء الشيوعيين في هذين الفصيلين بعد فراق، وبعد نقد متبادل، وبعد انفصال خيِّل لكثيرين أن لا تلاقي بعده؟

هموم الوطن، أيها الأخوة والرفاق، هي التي جمعتنا أكثر من أي سبب آخر، هموم الشعب الكادح المنتج، الذي يركض وراء لقمة عيشه وعياله، حاملاً في الوقت نفسه هموم وطنه، هي التي جمعتنا من جديد".

وتابع: "لقد وجدنا في كلا الفصيلين، بعد الاختبار، أن عطاءنا ونحن منقسمون صار أقل وأضعف، وأن إعادة توحيد قوانا ستمكننا، ويجب أن تمكننا، من زيادة اسهامنا في حمل الأعباء لتحقيق أماني شعبنا ومصالح وطننا، فتوحدنا".

وأشار إلى ارتباط حاضر الوطن ومستقبله بالأجيال الشابة، التي يتعرض أكثرها لخطر الاغتراب عن تاريخ الشعب وهمومه تحت ضغط الحياة المعاصرة والأنماط الاستهلاكية الهاجمة من الغرب الاستهلاكي، وتحدّث عن المهمة الكبرى الماثلة أمام الحزب، والمتمثلة في جعل مهام حاضر الوطن ومستقبله يمتزجان مع تاريخه في كل لا يتجزأ، ليتحول إلى هاجس سائد في هذا القطاع الشاب.

وتساءل: "كيف نزرع هذا الهاجس الوطني والشعبي والتضامني في عقول الشباب وقلوبهم، ليتحول إلى عمل خلاق يبدع في زرع الحقول، واستخراج الثروات من باطن الأرض، وإدارة المعامل والمصانع، وفي مواكبة الصيرورة العاصفة للثورة العلمية التقنية الزاحفة من حضارة القرن الواحد والعشرين؟

من هنا، وضعنا بين أولويات وحدتنا مهمة تعميق الهوية والروح الوطنية للحزب، ليس من شعور بالنقص في هويتنا الوطنية، فليس عندنا

شيء من ذلك، وإنما لاعتقادنا بأن كل حزب جديّ مطالبٌ، لا سيما في هذا الزمن الصعب، أن يهتم أول ما يهتم بزرع حب الوطن في عقول شبابه، وبإشاعة حب الشعب الكادح والمنتج في صفوفهم، وبتنمية روح التضحية وإذابة "الأنا" الفردية في التفاني من أجل الشعب الكادح، الذي تمتزج لقمة عيشه مع أعلى مشاعر حب الوطن.

وانطلاقاً من هذا الهم الشعبي والوطني، وحدتنا أيضاً هموم الأمة العربية مترابطة مع هموم شعوب المنطقة، التي يجمعنا معها التاريخ المشترك والنضال المشترك والمصير المشترك، مثل الشعب الكردي وشعوب تركيا وإيران".

وقال: "اسمحوا لنا أن نعلن بأننا رغم أوجه المعاناة الحياتية اليومية في أمسنا ويومنا، وربما في غدنا، أننا سنواصل النضال في الصفوف الأمامية لجميع المناضلين والمقاتلين دفاعاً عن كل حبة من تراب الوطن في جنوبه وشماله وشرقه وغربه. إن كل حفنة تراب من مرتفعات الجولان، وكل صخرة من صخوره السمراء، وكل شجرة بلوط وزيتون، هي غالية علينا، وجزء من كينونتنا. ولن يهدأ لنا بال، حتى يتحرر هذا الجزء الوطني الحبيب من تحت أقدام الغزاة، وحتى يستعيد الشعب الفلسطيني وطنه، ويسترجع الشعب اللبناني كامل جنوبه".

... وأشار إلى أن المتغيرات العالمية "كما حفزتنا على الوحدة، حفزتنا كذلك على العمل لتطوير حزبنا وتجديده"، وتابع يقول:

"ولم نشعر بأننا فقدنا البوصلة، وبالعكس، نشعر بأن البوصلة الماركسية غدت، وتغدو، مصقولة ودقيقة أكثر من السابق.

ولم نر في المتغيرات السوفييتية وغيرها انهياراً للاشتراكية، كما يروّج منظرو الرأسمالية، وإنما تحمل بجوهرها هدف تجديد الاشتراكية وتصحيحها، وتدقيق وتطوير المفاهيم عنها، وعن طرق الانتقال إليها.

وإن أهم الأفكار أو الخواطر التي تراودنا من النقاشات الدائرة حول انعكاسات السياسات السوفييتية الجديدة علينا تتمحور على مسألة الدروس التي علينا أن نتعلمها نحن، بوصفنا مناضلين وطنيين، من هذه المتغيرات العاصفة بالعالم، وهي:

أن نلتفت إلى أنفسنا وأحزابنا وشعوبنا وأوطاننا أكثر وأكثر مما فعلنا في السابق، وأن نتحرر من الاتكال على غيرنا، ومن نزعة التملص من مسؤولياتنا نحن عن قضايانا، وتحميلها على غيرنا.

نقول هذا، ودون الذهاب لبعيد، عن أنفسنا نحن الشيوعيين السوريين بالذات، فقد انتشرت في صفوفنا نزعات من الاتكالية على الغير، وأدت بنا إلى هدر الكثير من إمكاناتنا. ونحن بحاجة الآن إلى أن نتحرر من ذلك، ونتعلم، ونتقن كيف نستخدم طاقاتنا وأين نوظفها، وأن نعمّق باستمرار روحنا الوطنية الكفاحية، وأن نعمّق اندماجنا بجماهير شعبنا الكادح، ونوسّع معارفنا عن بلدنا في كل المجالات.

وقد كنا مفيدين لشعبنا وبلدنا، ويجب أن نكون أكثر إفادة وعطاء لهما الآن وفي المستقبل".

وبعد أن تناول الرفيق مراد يوسف بعض السمات الجديدة - النظرية والتنظيمية - التي سيكتسبها الحزب الشيوعي السوري من خلال المؤتمر السابع الموحَّد، ختم كلمة الافتتاح بقوله:

"نتقدم إلى مؤتمرنا لنعلن فيه: نعم، نحن هؤلاء الشيوعيين السوريين، نواصل درب نضالنا، الذي سبق واخترناه، متوجهين إلى جماهير شعبنا، ومتعاونين بصورة خاصة مع حلفائنا في الجبهة الوطنية التقدمية، ومنفتحين أيضاً على جميع القوى الخيِّرة المستعدَّة للتحاور والتعاون، وفق معايير السلمية والديمقراطية، من أجل تحقيق القواسم والأهداف المشتركة، وفي سبيل تقدم وطننا وازدهاره".

خواطر ... على هامش الذكرى السبعين[51]

"*من يتخلى عن أحلامه يخسر حياته*" - قول مأثور

الحلم الخالد

وصف أحد الكتّاب الغربيين لينين، بعد حوار معه، إبان تأسيس الجمهورية السوفييتية بـ"حالم الكريملين".

---

[51] نشرت جريدة **نضال الشعب** هذه الخواطر على جزئين، الأول في عددها 497 الصادر بتاريخ 12 تموز 1994، والثاني في العدد 498 بتاريخ 8 آب 1994.

ولا يمكن النسيان بأن "أحلام" لينين تلك، تجسدت لاحقاً، في الدولة الاتحادية السوفييتية العظمى، التي أحدثت أعمق انعطاف في تاريخ البشرية في القرن العشرين على طريق الحرية والعدالة والمساواة، بحيث لا يمكن للانهيار المأساوي، الذي تعرضت له في السنوات الأخيرة، أن يمحو من ذاكرة الشعوب، ولا من تاريخها، حقيقة هذا الانعطاف، الذي تحولت منجزاته التقدمية الفعلية إلى قوة محفزة في النضال المستمر لبناء عالم العدالة الجديد.

ونحن مستمرون مع "أحلام" لينين وماركس وأنجلز، ومع أحلام كل المفكرين والمناضلين الثوريين، الذين عاشوا وجاؤوا بعدهم.

مستمرون مع حلم آلاف الملايين من الناس الطيبين، الذين يكرهون الظلم والقهر والاستبداد، ويطمحون إلى بناء عالم جديد، ترفرف عليه رايات الحرية والعدالة والمساواة، حيث ترتبط الشعوب والبلدان فيما بينها بعلاقات ديمقراطية من التعاون المتكافئ.

وفي الذكرى السبعين لتأسيس حزبنا الشيوعي السوري، ينتعش "حلمنا" ليجدد فينا الإرادة لشحذ قوانا وتوطيد وحدتنا الوطنية في مواجهة التحديات.

عن الماضي... والمستقبل!

في هذه الأيام، التي نحتفل فيها بالذكرى السبعين لتأسيس حزب الشيوعيين السوريين، نجد أنفسنا، غالباً، مشدودين إلى استذكار الماضي وأحداثه الكبيرة والمواقف التي اتخذها الحزب، ونصوّب أو نخطّئ هذا الموقف أو ذاك.

وهذا، بتصوري، مفهوم ومفيد، بشرط ألا يشغلنا عن الحاضر، وأن لا نوغل فيه إلا بالقدر وبالهدف، الذي يدفعنا إلى تركيز الهمم على صياغة مواقفنا وممارساتنا تجاه الأحداث والتحديات المحيطة بنا.

وقد وضعت حول مسيرة حزبنا في العقود الماضية، وما تزال توضع تقويمات مختلفة من شيوعيين وغير شيوعيين، وتغلب على بعضها الرؤية الزاهية، وعلى بعضها الآخر نظرة رمادية، أو قاتمة، بل سوداوية أحياناً.

ومهم في هذا المجال أن يحرص الباحث على المنهجية العلمية في بحثه، والموضوعية في رأيه، والتواضع في حكمه. ***وأن ينطلق، ليس فقط من منظورات الحاضر، وإنما أيضاً***، وعلى نحو خاص، ***من الظروف التاريخية الملموسة التي أحاطت بالمواقف والممارسات الماضية، ومن مستويات الوعي والخبرة التي كانت موجودة***، ومن طبيعة التناقضات والصراعات التي في غمارها مارس الشيوعيون نشاطهم.

وسيجد الباحث، في هذه الحالة، في تاريخ الشيوعيين السوريين صفحات كثيرة مشرقة من الأعمال والتضحيات المكرسة لخدمة الأهداف الوطنية والقومية والاجتماعية التي نهضوا لها، وسيتلمس الكثير من البصمات التقدمية العميقة، التي تركوها على التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري. كما سيعثر، بكل تأكيد على العديد من الأعمال التي تستحق الانتقاد، ولاسيما (حسب تقديري) في الخطط التنظيمية للحزب، وفي حياته الداخلية التي سادت فيها الإرادة الفردية والمركزية الشديدة، وافتقرت الحياة الحزبية إلى الديمقراطية والعدالة والروح الإنسانية، إضافة إلى الإقلال من دور الديمقراطية السياسية في عملية التطوّر الاجتماعي.

ولا يفيدنا في هذا المجال أن نلقي المسؤولية فيما يُحتمَل أننا أخطأنا فيه على الحركة الشيوعية العالمية، أو على النموذج السوفييتي، وما إلى ذلك. ولاسيما أن صفوف الشيوعيين السوريين ذاتها تعرَّفت على شيوعيين ديمقراطيين حقيقيين، وفي مقدمتهم الشهيد الخالد الذكر فرج الله الحلو.

وربما ***لا نقع في الخطأ إذا تطلعنا إلى رفاقنا من المثقفين الشباب بالأمل في أن يتوجهوا بالاهتمام في تراث الحزب نحو استكشاف ونشر الميول الديمقراطية والإنسانية الماركسية واللينينية العميقة. التي وجدت في مسيرة حزبنا***، كما في الكثير من الأحزاب الشيوعية، ***لكنها غُلبت على أمرها أمام قوة النزعات الفردية والبيروقراطية***.

ورغم ذلك فقد أورثنا أجيال من المناضلين الشيوعيين حزباً يملك تراثاً كفاحيا، حزباً حمل على الدوام هموم الوطن وشعبه الكادح.

ووجودنا اليوم في الساحة الوطنية والعربية حزباً شيوعياً سورياً، وما يكمن في صفوفنا من إمكانات طيبة، إنما هو من صنع عشرات الألوف من خيرة أبناء الوطن وبناته، وفي مقدمتهم أولئك الذين بادروا عام 1924 إلى تأسيس الحزب، وحددوا الطريق للذين ساروا من بعدهم جيلاً بعد جيل طوال العقود السبعة الماضية تحت راية الحزب، راية الاشتراكية والشيوعية، مكافحين بلا هوادة في سبيل الحرية للوطن وإعماره وازدهاره، ومن أجل الخبز والعدالة والكرامة للمواطن.

وبفضل نضالاتهم وتضحياتهم وصمودهم أمام شتى ألوان العذاب والإرهاب، امتدت جذور الحزب عميقاً في أرض الوطن، واكتسب ثقة قطاعات لا يُستهان بها من جماهير الشعب، وعزز موقعه المُعترَف به في صفوف الحركة الوطنية السورية والعربية، وساهم إلى جانب الأحزاب الوطنية التقدمية الأخرى في تشكيل الجبهة الوطنية التقدمية.

بين التعددية والوحدة

مع إطلالة الذكرى السبعين لتأسيس حزب الشيوعيين السوريين، لا بدّ أن يتساءل كل شيوعي سوري أينما كان موقعه: وإلى متى هذه التعددية الحزبية؟ إلى متى هذا الانقسام إلى حزبين؟ أما من وسيلة للتقارب والتعاون وللحوار المباشر بحثاً عن طريق للوحدة؟!

يبدو لي أن لا أحد يستطيع إعطاء الجواب الآن.

فالعلاقات بيننا وبين الحزب الشيوعي - قيادة الرفيق خالد بكداش تتسم بالبرود، وأكاد أقول: بما يشبه القطيعة. والحوارات الرفاقية المنظمة، التي أقلعت بين ممثلي الأحزاب الثلاثة مطلع عام 1988، انتهت مع انعقاد المؤتمر السابع الموحّد في تشرين الأول عام 1991، الذي اندمج من خلاله الحزب الشيوعي السوري والحزب الشيوعي السوري - منظمات القاعدة في حزب واحد. وليس خافياً أن مظاهر الحماس للتوحيد، التي كانت سائدة عند الجميع حتى عشية المؤتمر السابع الموحَّد، غابت عن التداول بعده، ولا أحد يستطيع أن يحدد الأسباب.

ربما تكمن الأسباب في رسوبات الخلافات التي قادت إلى الانقسام، أو إنها تكمن في اختلاف المواقف، التي نشأت تجاه الهزة التي عصفت بالحزب الشيوعي السوفييتي وبالأحزاب الشيوعية في بلدان أوروبا الشرقية.

وقد يعدُّ البعض التعددية عندنا امتداداً للتعددية الحزبية التي نشأت في تلك البلدان، حيث غدت التعددية أمراً واقعاً ومعترفاً به، بعد أن كانت قبل التغيُّرات مرفوضة رفضاً قاطعاً.

ومهما يكن السبب، فلا شيء يسوّغ أن تسود حالة الجفاء الراهنة في ما بين حزبينا التوأمين.

فرغم وجود بعض الخلافات الفكرية، وحتى السياسية أحياناً، تجاه هذا الحدث أو ذاك، فإن القواسم المشتركة الفكرية والسياسية والعملية ما تزال لها الغلبة. وهي تتجلى خصوصاً في مجالات النضال الوطني وضد الإمبريالية والصهيونية، وفي الدفاع عن السياسة الوطنية السورية وعن الموقف السوري الراسخ في مفاوضات التسوية السلمية للنزاع العربي الإسرائيلي، وفي العمل من أجل توطيد دور الجبهة الوطنية التقدمية وتطويرها، ومن أجل توسيع الديمقراطية والدفاع عن المصالح الحيوية للجماهير الشعبية، ولتقوية الاقتصاد الوطني وفي سبيل التضامن العربي،... وغير ذلك من المفاصل السياسية الأساسية لكلا الحزبين.

ألا تصلح هذه القواسم المشتركة الكبيرة مصدراً لإنشاء علاقات رفاقية دافئة ومتسامحة، وأساساً لحوارات جدية ترمي إلى تطوير هذه العلاقات؟!

وإذا وجدت تقديرات جدية بصعوبة تحقيق الوحدة في المرحلة الراهنة، فما المانع من إعادة تنظيم الحوار الرفاقي المباشر، وتشكيل لجنة دائمة من ممثلي الحزبين تجتمع دورياً لتبادل الرأي والتشاور وتنسيق المواقف والإقدام على نشاطات فكرية أو سياسية أو جماهيرية مشتركة؟ ومنها مثلاً في الوقت الحالي التوجه نحو إقامة الاحتفالات، كلها أو بعضها، بالذكرى السبعين لتأسيس الحزب، هذه الذكرى الغالية التي تظللنا جميعاً، ولا تخص طرفاً دون آخر، بل هي ذكرى تهم كل الشيوعيين السوريين المنظمين منهم هنا وهناك وغير المنظمين، أم أن العلاقة يجب أن تتأسس

على مبدأ: إما الوحدة أو القطيعة؟!

يمكن التصور بأننا إذا انطلقنا بالدرجة الأولى من همومنا المشتركة، من هموم شعبنا وبلدنا، ووضعنا نصب أعيننا مسألة: كيف نكون جميعنا نافعين لبلدنا أكثر، فلا بدّ أن نجد ما نعمله سوياً، ولو تمثّل في أعمال بسيطة ونشاطات متواضعة. ولا شك أن الاحتفالات بالذكرى السبعين، التي يقدم عليها الحزبان في هذه الأيام، تشكل مناسبة استثنائية لإشاعة أجواء رفاقية حميمة، وللتلاقي بين الرفاق من كلا الفصيلين بعقول منفتحة وقلوب دافئة، وللالتفاف حول القواسم والأهداف الكبيرة المشتركة.

المؤتمر الثامن... تعزيز للوحدة عبر الحوار والعمل المشترك[52]

... يحق لنا أن نرى في المؤتمر الثامن حدثاً مهماً، ليس في حياة حزبنا وحده، وإنما في حياة الشيوعيين جميعاً. ومن واجبنا أن نقف أمامه، كما جاء في تقويم المكتب السياسي، محاولين فهم هذا الإنجاز بأكثر ما يمكن من الدقة والموضوعية، وبما يخدم عمل الحزب ونشاطه اللاحق... والعقل الجماعي للجنة المركزية هو الذي يستطيع التوصل إلى الفهم المطلوب. إن أعمال التحضير التي سبقت المؤتمر وحفل الافتتاح، والوثائق التي كانت موضع نقاش، ومداخلات وفود المنظمات ومندوبيهم، وما تحلوا به من وعي وانضباط وممارسات ديمقراطية معقولة، هي التي صنعت هذا الحدث.

---

[52] في اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري يومي 23 و24 كانون الثاني 1997 عبّر أعضائها عن آرائهم وملاحظاتهم في أعمال المؤتمر الثامن للحزب، المؤتمر المنعقد خلال الفترة بين 20 و23 تشرين الثاني من العام 1996، وقد تمحور النقاش حول تقويم المؤتمر الذي أصدره المكتب السياسي للحزب في كانون الأول 1996، وعلى تقرير الرفيق مراد يوسف عن نتائج المؤتمر ومهامه المقدم أمام الاجتماع. وتداول أعضاء الهيئات القيادية للحزب مواد غير قليلة منذ نهايته وحتى اجتماع اللجنة المركزية المذكور، غير أن التقرير المقدم أمام الاجتماع يتمحور حول أهم نتائج المؤتمر، ويحدد مهام العمل اللاحق، ومعالم الأساليب الصحيحة التي تجدر ممارستها من أعضاء الحزب وهيئاته، مستفيدين من إيجابيات وسلبيات المؤتمر المنجز (كما ورد في مقدمة الرفيق أبي سامي في فاتحة التقرير).

وقد نشرت **نضال الشعب** عرضاً مختصراً لأهم أفكار التقرير في العدد 537 بتاريخ 24 شباط 1997، ص 6-7.

ويكمن وراء ذلك كله الجهود المخلصة، التي بذلها مئات الشيوعيين أعضاء الحزب منذ بدأت أعمال التحضير في منظماتهم القاعدية، فالفضل الرئيسي في هذا الإنجاز يعود للحزب بكل قطاعاته ومنظماته وهيئاته (القاعدية منها والقيادية). وحدد التقرير بعض النتائج المعنوية والسياسية الهامة للمؤتمر، وما تفرضه على الحزب من مسؤوليات مستقبلية، فقال:

أولاً: شكّل الحضور الواسع الذي تمثّل في حفل الافتتاح تظاهرة سياسية كبيرة أعلنت من دمشق عن تضامنها القوي مع سورية وسائر الشعوب العربية المناضلة، ضد فرض الهيمنة الأمريكية والعدوانية التوسعية الإسرائيلية.

وحينما نعتز بهذا العمل الذي أنجزناه، يجدر بنا أن نفكر بالمسؤولية عن تطوير حزبنا، ليكون جاهزاً في المستقبل أيضاً، وقادراً على تنظيم مثل هذا النشاط بمستويات أفضل وأكثر دقة وفاعلية، وأن لا يبقى هذا العمل مجرد حدث عابر قمنا به في مناسبة معينة، ونُعِدُّ هذا واحداً من المهمات، التي وضعها المؤتمر أمامنا للمستقبل.

ثانياً: دلت المشاركة العربية والأجنبية، المتقدمة عن السابق في هذه التظاهرة، على أن الحركة التضامنية الأممية تستعيد بالتدريج تقاليدها الكفاحية ضد الإمبريالية العالمية والصهيونية، وفي سبيل المصالح العادلة للشعوب والأمم، وأنها حركة موضوعية ومرشحة للتقدم والانتشار. وأن علينا أن نعزز موقع حزبنا وشعبنا في هذه الحركة باستمرار، ولاسيما أن شعبنا ووطننا يمثّلان لدى هذه الأوساط العربية والعالمية واحداً من المواقع المتقدمة لهذه الحركة، وأن حزبنا يحظى بتقدير إيجابي لدى القوى التي لبت دعوته، وشاركت في مؤتمره بحماسة، وعادت إلى ديارها حاملة معها مشاعر طيبة تجاه شعبنا وحزبنا.

وهذا يجب أن يحفّزنا على تعميق شعورنا بالمسؤولية لتقوية هذه المشاعر.

ثالثا: داخلياً دلَّ الحضور، الذي تمثلت فيه تقريباً كل القوى الوطنية في البلد، وفي مقدمتها وفد قيادة حزب البعث العربي الاشتراكي ووفود قيادات أحزاب الجبهة، وممثلون لأوساط وطنية مستقلة ولرجال دين

متنورين، وممثلو التنظيمات النقابية، وممثلون مرموقون للثقافة والفكر والأدب والفن والإبداع، ولجمهور من الشيوعيين غير المنظمين وأنصارهم، وبينهم عدد غير قليل من النساء من مختلف الأعمار ومن الشباب، دلّ هذا على أن حزبنا يرسّخ وجوده المفيد في الحياة السياسية، وعلى التطور الديمقراطي والتقدمي في البلاد.

وأكد المؤتمر أن الشيوعيين السوريين مستمرون على حمل الراية الكفاحية في هذا الوطن، جنباً إلى جنب مع كل القوى الوطنية. وعزز المؤتمر أمل جمهور واسع من الشيوعيين وأنصارهم في التوصل إلى وجود حزب شيوعي حقيقي، يقنعهم بالسير مناضلين معاً، ويدعم جهود توحيد الشيوعيين السوريين في حزب موحد.

وتحدَّث التقرير عن الوثائق السياسية التي أقرَّها المؤتمر الثامن، فقال:

في المجال السياسي

كان من المآخذ على المؤتمر السابع الموحَّد أنه لم يضع برنامجاً سياسياً للحزب، لكن الحزب تلافى هذا النقص، وأقرَّ في المجلس الوطني الوثيقة البرنامجية، وكرَّس المؤتمر الثامن عملياً هذه الوثيقة، التي اتخذت صفة البرنامج للمرحلة الحالية. وهكذا حقَّق المؤتمر واحداً من أهم مقومات الحزب.

ولا حاجة لتكرار شرح مضامين هذا البرنامج، إنما يفيد التذكير فقط بعدد من المواصفات، التي يستحق بها اعتماده برنامجاً سياسياً للشيوعيين في مختلف مجالات نشاطهم، ومنها:

آ- أنه يتناول بالتحليل والاستنتاج والتوجه كل القضايا المتعلقة بالوضع الداخلي في البلاد، السياسية منها والاقتصادية والاجتماعية والمعاشية، ويوضّح مواقف الحزب في الوحدة الوطنية والجبهة والتحالفات، وفي قضايا التنمية الاقتصادية وضرورة تلازمها مع التنمية الاجتماعية، وفي المسألة الديمقراطية وتحديث القوانين. كما يتناول القضايا المتعلقة بالوضع العربي عبر تشابكاتها مع الأوضاع الداخلية، وفي مقدمتها ما يتعلق بسيرورة النزاع العربي الإسرائيلي ومسألة التسوية السلمية، والمفاوضات العربية الإسرائيلية، والشروط الضرورية لاستعادة

الحقوق الوطنية والعربية المشروعة، وإقامة السلام العادل والشامل في المنطقة. وكذلك ما يتعلق بمسائل التكامل الاقتصادي العربي، والتنمية والمياه والبيئة، والتضامن العربي، والتوجه للوحدة العربية وغيرها.

كما يتناول الأوضاع العالمية المستجدة بعد تفكك الاتحاد السوفييتي وبروز نزعات فرض الهيمنة الأمريكية على العالم، وبضمنها منطقتنا، والدور الإسرائيلي المرسوم في ذلك، وطرق مجابهتها وإحباطها وغير ذلك.

ب- ينصُّ البرنامج كذلك على الأسس النظرية، التي يعتمده االحزب بصيغة محددة تقول: "بأن الحزب يسترشد بصورة خلاقة بالماركسية اللينينية ومنهجها المادي الجدلي التاريخي، وبمنجزات العلم، وبكل ما هو تقدمي في الفكر العربي والإنساني".

ج- ومن أهم ما يميز برنامجنا هذا عن برامج الحزب السابقة، أنه شكّل بالكثير من محتواه قاسماً مشتركاً مع العديد من الأحزاب والقوى الوطنية والأوساط الثقافية والاجتماعية في البلاد نتيجة المناقشات الحية، التي حظيت بها هذه الوثيقة في مختلف أنحاء الوطن، الأمر الذي عزّز موقفنا بوصفنا مساهمين فعالين وصادقين في توطيد الوحدة الوطنية وتوسيعها، انطلاقاً من الجبهة الوطنية التقدمية، التي تشكل النواة الأساسية للوحدة الوطنية.

د- من النتائج المهمة، التي حققها المؤتمر الثامن كذلك، تكريسه مستوى متقدماً من اتساع التفهم لنهج الحزب السياسي لدى جمهور أعضاء الحزب وأنصاره والمتعاطفين معه.

إن مناقشة تقرير اللجنة المركزية، وإقراره من بين أعمال المؤتمر الثامن الهامة، وهو حصيلة عمل جماعي. ويتضمن التقرير شرحاً مسهباً لنشاط الحزب بين المؤتمرين وللوثيقة البرنامجية وسياسة الحزب في الظروف الراهنة.

في العلاقة بين السياسي والتنظيمي

وأشار التقرير هنا إلى وجود خلل ما، بين النهج السياسي والفكري العام للحزب المنصوص عليه في وثائق مؤتمراته، وهو نهج يتصف

بالتوازن والتكامل، وبين أدائه العملي والتنظيمي، الذي يتسم بالركود. ودعا إلى تعميق البحث لتحديد العوامل البنيوية أو الخارجية الكامنة وراء هذه الظاهرة، بهدف الارتقاء بمستويات الأداء العملي والتنظيمي إلى المستوى المتناسب مع النهج السياسي العام للحزب، ومع الموقع الإيجابي الذي يشغله في الحياة السياسية.

ورأى التقرير أن يشغل هذا البحث موقعه بين المواضيع الهامة، التي يمكن أن تتناولها الحوارات، التي يلزم استئنافها بعد المؤتمر.

في النظام الداخلي

وتحدَّث التقرير بعد ذلك عن النظام الداخلي، الذي أقرَّه المؤتمر، مشيراً إلى بعض المسائل التنظيمية، التي كانت موضع نقاش في المؤتمر وقبله، فقال:

1- ظهرت مع أعمال التحضير للمؤتمر آراء متباينة حول بعض المسائل الأساسية في النظام الداخلي، في مقدمتها النقاشات الساخنة حول مبدأ المركزية الديمقراطية: بين آراء متمسكة به، وأخرى رافضة له، إضافة إلى مسائل عديدة أخرى.

وكان من الطبيعي أن يأخذ المندوبون في المؤتمر مسؤوليتهم في الوصول إلى إقرار الصيغ الملائمة للحزبين، وذلك عبر المناقشة الديمقراطية وعرض الآراء المختلفة. وبعد ذلك أقرّ المؤتمر النظام الداخلي كله بعد مناقشة الكثير من مواده، وتم ذلك بالتصويت عليها .

وهكذا امتلك الحزب نظاماً داخلياً مقرّاً من الهيئة العليا للحزب، التي هي عقله الجماعي، واكتسب النظام الداخلي صفة المرجعية الوثائقية المعتمدة، والملزمة لكل أعضاء الحزب وهيئاته بلا استثناء.

ولا يعني هذا كما جاء في تقويم المكتب السياسي: "أن يتعامل الحزب مع النظام الداخلي بوصفه نصوصاً جامدة، بل منظومة من القواعد، التي تهدف إلى تحسين تنظيم حياة الحزب الداخلية، مع الأخذ بالحسبان روحية القواعد التنظيمية وجوهرها، وارتباطها بالواقع الذي يعيشه الحزب، وبالمهام التي تبرز أمامه ويعمل لتحقيقها بصورة سليمة".

2-إن الصيغة التي أقرَّها المؤتمر حول فهم للمركزية الديمقراطية

جاءت ملبية لحاجة الحزب، ولاختياره الممارسة الديمقراطية وتوسيعها باستمرار من جهة، وللحاجة إلى ضمان وحدة الإرادة والفعل والمستوى الضروري من الانضباط، الذي لا يمكن أن يستغني عنه الحزب، ولوجود مركز قيادي واحد من جهة أخرى.

وفي هذه الصيغة، لا يجري التأكيد فقط على وجود انتخاب الهيئات القيادية والمسؤولين في كل المستويات بطريقة ديمقراطية، وإنما التأكيد أيضاً على وجوب أن تعمل هذه الهيئات بطريقة ديمقراطية، وليس بالطرق الأمرية والإدارية والفردية وما شابهها من الأساليب، التي تأكد خطؤها وضررها.

3- أخذ النظام الداخلي باتجاه تعزيز الدور التشريعي والتوجيهي للجنة المركزية، وحافظ لدرجة ما على دورها التنفيذي كذلك، ونصَّ على انتخاب الأمين العام والمكتب السياسي كل سنتين، بعد أن كان يجري هذا فقط بعد كل مؤتمر، ونصَّ على حق المركزية بحجب الثقة عن الأمين العام والمكتب السياسي كله أو بعض أعضائه، وعلى حقها بانتخاب نائب للأمين العام أو أكثر، حين ترى ضرورة لذلك.

وفي الوقت نفسه، عزّز الدور التنفيذي للمكتب السياسي، وذلك بإعطائه صلاحية تشكيل مكتب الأمانة (السكرتاريا) من بين أعضائه فقط، بعد أن كانت هذه الهيئة تنتخب من اللجنة المركزية، وهذه الصيغة الجديدة يمكن أن تتيح للمكتب السياسي سرعة الحركة وديناميكية الفعل.

4- في النظام الداخلي ميل واضح لتقوية دور لجنة الرقابة المركزية والتفتيش المالي، وتوسيع لصلاحياتها ومسؤولياتها في حسن وسلامة أداء الهيئات كلها، وبضمنها الهيئات المركزية، ولقيامها بواجباتها ولسلامة العلاقة فيما بين الهيئات، والحرص على الممارسة الديمقراطية في الحياة الداخلية، ولمراقبة الشؤون المالية في الحزب.

5- يجري تأكيد ممارسة الديمقراطية وتوسيعها باستمرار في مواد كثيرة من النظام الداخلي، ويبرز ذلك خصوصاً في الأخذ بمبدأ تنوع الآراء في إطار وحدة الإرادة والعمل، وتعزيز الوحدة عبر الحوار

الرفاقي بين الآراء المتنوعة، وضمان حرية التعبير عن الرأي والرأي الآخر، وحق الأقلية في التعبير عن رأيها وإيصاله إلى الحزب عبر وسائل النشر الحزبية وفق الأصول الحزبية.

6- كرّس النظام الداخلي التطبيق العملي للبطاقة الحزبية، وحصر حق الترشيح والانتخاب والتصويت لحامليها فقط ممن يحضرون اجتماعات الهيئات العامة والمؤتمرات الحزبية.

7- وأخذ بأسلوب الفرق الموسعة واجتماع الهيئات العامة لها وللمنظمات الفرعية، واستحدث مفهوم (الشيوعي المؤازر)، آخذاً بالحسبان وجود أعداد كثيرة من الشيوعيين المخلصين، الذين يشاركون في نشاطات الحزب ويؤازرونه، ولكن لا يلائمهم حضور الاجتماعات والالتزام التنظيمي الكامل.

وفي المحصلة، فإن النظام الداخلي وثيقة تنظيمية أساسية ومُقرّة من أعلى هيئة في الحزب، وهذا أمر هام، غير أن الأهم من ذلك استخدامها من الجميع لتحسين أجواء الحياة الداخلية للحزب وتحسين أدائه.

في انتخاب الهيئات القيادية

كانت النقطة الأخيرة في جدول عمل المؤتمر هي انتخاب أعضاء اللجنة المركزية ولجنة المراقبة والتفتيش المالي، وأنجز المؤتمر هذه النقطة بهدوء وسلام، رغم المناقشات الساخنة نسبياً، التي سبقت الموافقة على اقتراحات هيئة الرئاسة والمتعلقة بالأصول الإجرائية للعملية الانتخابية.

وأظهرت الانتخابات عموماً (كما جاء في تقويم المكتب السياسي) "شعور الرفاق العالي بالمسؤولية، وأشارت النتائج إلى أن الحزب يطور ممارساته الديمقراطية باستمرار، رغم بعض الظواهر المؤسفة، التي يمكن أن تفسَّر بهذا الشكل أو ذاك".

وبعد المؤتمر بادرت اللجنة المركزية إلى عقد اجتماعها الأول، وانتخبت الرفيق يوسف الفيصل أميناً عاماً، بما يشبه الإجماع، وانتخبت خمسة عشر رفيقاً بالأكثرية من بين 19 مرشحاً لعضوية المكتب السياسي، كما انتخبت لجنة المراقبة رئيساً لها الرفيق نبيه جلاحج

وأعضاء مكتبها، وجرى ذلك بالتصويت السري.

وهكذا خرج الحزب من مؤتمره الثامن موحداً، كما دخله، وأسقط توقعات المتربصين، الذين كانوا يتمنون لمؤتمرنا الفشل، بينما استقبلت الأوساط الشريفة في الوطن وخارجه بارتياح هذا العمل الحزبي والسياسي الناجح.

نتائج أخرى هامة

إن الحوارات العلنية، التي نفذها الحزب قبل المؤتمر، والتي انعكس الكثير منها في نشرة **"الحوار"**، ومن ثم الحوارات التي دارت في المؤتمر عبر المداخلات المكتوبة والمناقشات الشفهية، الهادئة منها والساخنة، ومن ثم نجاح المؤتمر في اتخاذ القرارات المناسبة حول كل النقاط التي تضمنها جدول العمل، وانتهاء المؤتمر بسلام، يُعَدُّ هذا كله سمة إيجابية وجديدة مميزة لحزبنا.

لقد بدأنا نرسخ خيارنا السير على الطريق الديمقراطي الصحيح، وبدأنا نتعود العيش موحدين والعمل موحدين عبر الحق المضمون بممارسة تنوُّع الآراء، وبدأنا نتعلم كيف نختلف ونحن موحدون، وكيف نقوي وحدتنا عبر التنوع والاختلاف والحوار، وهذه المفاهيم أساسية في الممارسة الديمقراطية.

لقد أثبت مؤتمرنا (كما جاء في تقويم المكتب السياسي): "أن السلبيات، التي يمكن أن تظهر أثناء مسيرة الديمقراطية في حياة الحزب، لا يجوز حلها بالعودة إلى أساليب العمل السلبية السابقة، أي بالنكوص عن مسيرة الديمقراطية، وإنما عن طريق الإصرار على النهج الديمقراطي مع الحفاظ على وحدة الإرادة والعمل، وبتأكيد استمرار تطوير الحزب وتجديده".

في المهمات

إن المهام الأساسية الشاخصة أمامنا الآن يمكن تصوُّرها في التالي:

1- تحسين العمل التنظيمي في كل الهيئات والمنظمات، وإشاعة مناخات التعاون والتلاحم والوحدة، وتجاوز أية آثار غير مريحة نشأت هنا أو هناك كلياً.

إن تحسين أدائنا في الهيئات القيادية العليا شرط ضروري لاستنهاض الشيوعيين إلى الأعمال الملموسة.

2- إن مبدأ الحوار الرفاقي في إطار الوحدة، ومن أجل توطيدها، يجب أن نستمر في تطبيقه، ويمكن أن يدور الحوار حول العديد من الموضوعات الفكرية والتنظيمية، مثل تلك الموضوعات المذكورة في الصفحة الأخيرة من تقويم المكتب السياسي، وكذلك المواضيع النوعية التي يقترحها مشروع خطة العمل لاجتماعات اللجنة المركزية.

3- بعد تحديد المكاتب ومسؤوليها وقوامها، يلزم أن يبادر كلٌّ منها إلى وضع خطة عمل سنوي تكون واقعية وملموسة، والعمل المنظم لتنفيذها.

4- التعجيل بإصدار وثائق المؤتمر، وتنظيم حملة لدراستها والاستفادة منها في النشاط العملي، واستكمال المكتب السياسي لجولته التي بدأها في المنظمات.

5- إننا مطالبون في المركز والمحافظات بتتبع دقيق للتطورات السياسية، وبتحسين وتنظيم لقاءاتنا مع ممثلي حزب البعث وسائر أحزاب الجبهة وغيرهم من الوطنيين، وضمناً إيجاد آليات عمل تفاعلية وتحسين علاقاتنا بالأوساط الاجتماعية والثقافية والإبداعية والفعاليات الاقتصادية والأوساط والشخصيات الدينية ذات الميول المنفتحة وغيرهم.

6- كل ذلك لا يجوز أن يشغلنا عن تعميق وتوسيع علاقاتنا مع جماهير العمال والفلاحين والمثقفين ونقاباتهم وجمعياتهم، والاهتمام بمطالبهم ومصالحهم، ولا عن التفكير الجدي بوضع برامج مطلبية ملموسة في نطاق كل محافظة ومنطقة وقرية حسب وجودنا وإمكاناتنا، وفي وضع برنامج مطلبي واقعي وملموس في المركز.

هذا بالإضافة إلى المهمات المتعلقة بالإعلام والنشر، والمالية، وغير ذلك من المهمات القطاعية.

الجلاء ... ملهم صمود شعبنا وانتصاره[53]

... نحن حين نحتفل بهذا اليوم فليس فقط لنعبّر عن فرحنا به، واعتزازنا بالاستقلال الوطني الذي نتمتّع به، وإنما كي نغني الذاكرة الوطنية الكفاحية لدى الأجيال الشابة، ولنمسح عن ذاكرتنا النضالية، نحن المخضرمين، ما يكون قد علق بها من غبش. ويجدر بنا أن نتساءل اليوم: ترى، كيف سيحتفل شعبنا بالعيد المئوي للجلاء في عام 2046؟

لا شك أن كثيراً من الحاضرين هنا سيشاركون في الاحتفالات المئوية.

نتوجه خصوصاً إلى الأجيال الناشئة والأكثر فتوة وشباباً، وندعوهم أن يعملوا متعاونين، كي تكون مئوية الجلاء جميلة، ورائعة، وغنية بالديمقراطية والعدالة الاجتماعية، وبغيرها من القيم الرفيعة التي توفر لأبناء الوطن التمتع بإنسانيتهم المبدعة الخلاقة، وكي يكون وطننا منارة مشعة بكل ما فيه الخير لأناسه ولكل الناس الطيبين في العالم.

إن الجلاء هو عيد أعيادنا الوطنية. هو العيد الأكبر والأعز للوطن والشعب كله، ففي مثل هذا اليوم من نيسان عام 1946 انتزع شعبنا استقلاله من السيطرة الأجنبية واستبدادها، مبرهناً بذلك على أن كل احتلال إلى زوال، وكل سيطرة أجنبية إلى اندثار، متى ما توفرت لتحقيق ذلك إرادة كفاحية للشعب وقواه الوطنية، كما عبّر عنه أبو القاسم الشابي بقوله:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة ... فلا بدّ أن يستجيب القدر
ولا بـدّ لليل أن ينجلي ... ولا بدَّ للقيد أن ينكسر

وقد توفرت هذه الإرادة لجماهير شعبنا وثواره الشجعان وقادته البواسل، فخاضوا غمار الكفاح موحدي الإرادة والهدف، فتمكنوا من هزم

---

[53] كلمة الحزب الشيوعي السوري في المهرجان الجماهيري الواسع، الذي أقامه الحزب الشيوعي السوري في الذكرى الخمسين لجلاء القوات الأجنبية عن سورية يوم 17 نيسان 1996 في موقع جباتا الخشب، وضم مئات الشيوعيين وأصدقائهم. **نضال الشعب**، العدد 526، دمشق، 25 أيار 1996.

المحتلين وطرد المستعمرين وتحرير الوطن. إننا ننحني لشهداء الوطن جميعاً، المجهولين منهم والمعروفين، وفي مقدمتهم شهيد الشهداء يوسف العظمة، وزير الدفاع في أول حكومة وطنية تشكلت في سورية عام 1920 إثر اندحار المحتلين العثمانيين وقبيل احتلال المستعمرين الفرنسيين، فألهب باستشهاده الواعي والجريء شعلة الحرية في قلوب الناس، وعزّز صلابة الوطنيين، فواصلوا الثورة والكفاح حتى تحقق النصر[54]، من أمثال: الشيخ صالح العلي وابراهيم هنانو وسلطان باشا الأطرش وسعيد العاص وعبد الرحمن الشهبندر وأحمد مريود وغيرهم الكثيرين...

المجد والخلود لأرواح الشهداء وذكراهم الطيبة، وتهانينا القلبية الحارة للأحياء من المجاهدين، متمنين لهم الصحة وطول العمر.

ويثير فينا هذا المكان، الذي نجتمع فيه اليوم مشاعر وجدانية مؤثرة، فقد كانت هذه البلدة، جباتا الخشب، التي نحن في حرشها وبجوارها، موئلاً للثوار، ومنطلقاً لغاراتهم على القوات الاستعمارية. وقدّمت هذه البلدة، مثل بلدات عديدة أخرى في هذه المحافظة، الكثير من أبنائها للثورة، وفي مقدّمتهم الشهيد أحمد مريود، الذي كان من القادة البارزين للثورة، وخاض معاركها ضد الفرنسيين هنا في الجولان وفي جنوب لبنان وحوران وفي أماكن أخرى، إلى أن استشهد مع كوكبة من رفاقه في معركة شرسة ضد القوات الفرنسية المهاجمة على تلة قريبة من هنا في 30 أيار عام 1926.

---

[54] تحدّث مراد عن نضالات الشعب السوري بقومياته المختلفة، بكادحيه عمالاً وفلاحين ومثقفين... في أكثر من مكان ومناسبة، خلال كل تاريخ الدولة السورية الحديث، ففي كلمته أمام حضور احتفال اللجنة المنطقية في محافظة الحسكة بالذكرى الـ 75 لتأسيس الحزب الشيوعي السوري يوم 29 تشرين الأول 1999، قال مخاطباً الحضور: "... أتوجه من خلالكم، ومعكم إلى جماهير العمال والفلاحين وكل المنتجين والمثقفين، الذين بكدهم وعرقهم يوفرون لبلادنا الكثير مما تحتاجه من موارد استراتيجية،... والذين يساهمون بنشاط في رص صفوف شعبنا وتعزيز وحدته الوطنية، في مواجهة التحديات الخارجية، ومهمات بناء الوطن وسعادة الشعب وتقدمه، ويواصلون اليوم التقاليد العريقة، التي توارثوها في إحباط مكائد المستعمرين الفرنسيين في بياندور عام 1921 وفي عامودا عام 1937، حيث وقف سكانهما جميعهم صفاً واحداً دفاعاً عن حرية الوطن ووحدة ترابه الوطني.

وهم يشكلون اليوم درعاً قوياً تتكسر عليه، وستتكسر باستمرار، كل محاولة يمكن أن تظهر من الطامعين الجدد للمساس بأية ذرة من تراب الوطن وحدوده الوطنية المقدسة،...".

وتشتعل فينا مشاعل الغضب الوطني المقدس من استمرار الاحتلال الإسرائيلي للأجزاء العزيزة من هذه المرتفعات، ولاسيّما في هذا اليوم، حيث تضطر جموعنا المحتشدة في عين التينة المحررة على حافة الوادي من هذه الجهة للاحتفال بعيد الجلاء مع أهلنا، الذين يتجمعون هناك على الطرف المقابل في مجدل شمس المحتلة، وتفصل بين الجمعين الأسلاك الشائكة والألغام والقوات الإسرائيلية المزروعة في الوادي، الذي صنع منه المحتلون حدوداً مصطنعة بين هذا الجزء الحبيب وأهله وبين شعبه ووطنهم الأم. ويتوهم المحتلون أنهم قادرون أن يستمروا في احتلالهم، الذي لا أفق له ولا مستقبل، حسب يقيننا العميق، وقول شاعرنا القرنفلي:

كلما همّ فاتح أو غزانا ضاع في السهل، واستطالت ذرانا

نعم إن ذرا وطننا عالية لا تُطال، وأبية لا تُهزم، وأهلنا في الأراضي المحتلة صامدون كجبل الشيخ، لم يهنوا، ولا يهنون مهما شدّد الصهاينة طغيانهم، ومهما مدّدوا العمر لاحتلالهم، وسنستعيد حتماً هذا الجزء المنتزع إلى وطننا الأم. وليس أهلنا هناك هم الخائفين من المستقبل، إنما المحتلون الغاصبون هم الهلعون، وهم المتفجرون غيظاً وحنقاً، ولأنهم لم يستطيعوا، ولن يستطيعوا، تطويع شعب عريق بتراثه الحضاري ووعيه وتقاليده النضالية، معتز بانتمائه القومي ومتشبث بترابه الوطني.

نعم هذا غيظهم يتفجر من صمود أهلنا في الجولان المحتل، ومن استمرار مقاومة الجماهير الفلسطينية في الضفة والقطاع، رغم كل التدابير الفاشية والعنصرية التي استخدموها هناك، غيظهم من استمرار نضال حتى الفلسطينيين العرب، الذين حوّلوهم إلى أقلية في الأراضي المحتلة عام 1948، لكنهم لم يفلحوا في تغيير هويتهم الوطنية الفلسطينية وثقافتهم العربية الأصلية، رغم شتى ألوان القمع والاضطهاد والتمييز العنصري.

وهذا غيظهم من صمود الشعب اللبناني وإصراره على تحرير أرضه في الجنوب المقاوم، وعلى انسحاب القوات الإسرائيلية منها وفق قرارات الشرعية الدولية.

وهذه الحرب الوحشية التي تنفذها القوات الإسرائيلية منذ ستة أيام ضد الشعب اللبناني ليست دليل قوة حقيقية، بقدر ما هي دليل ضعف الثقة

بالنفس، دليل الخوف من المستقبل.

إن الوحشية المنقطعة النظير، التي تمارسها الحكومة الإسرائيلية في لبنان، لا يمكن أن تصدر عن حكومة تملك الحد الأدنى من القيم الأخلاقية والحضارية في احترام الشعوب الأخرى، أو احترام الرأي العام العالمي، أو الشرعية الدولية، أو الرغبة في سلام مع شعوب الأمة العربية وإنما هي تعبير عن أطماع وحشية في السيطرة بالأساليب الفاشية والنازية على الآخرين، الذين يرفضون سيطرتها بصورة مطلقة.

إن هذه العربدة الصهيونية الوحشية في لبنان الشقيق، تُعبِّر كذلك خصوصاً عن الغيظ من صمود شعبنا وبلادنا، من إصرار سورية على استعادة حقوقها الوطنية، التي اعترفت بها الشرعية الدولية، ويؤيدها الرأي العام العالمي، والتي يجب على إسرائيل تنفيذها وفق الأسس التي اتُفِق عليها في مدريد، وتريد إسرائيل إلغاء تلك الأسس أو حرفها عن مضمونها، لفرض تسوية هزيلة وتخاذلية على سورية ولبنان، وفتح كل الأبواب أمام الهيمنة الأمريكية الإسرائيلية على العرب، وهو هدف يستحيل على حكام إسرائيل تحقيقه.

واضح أن حكام إسرائيل لم يكن بمقدورهم أن يشنوا هذه الحرب الهمجية ضد لبنان، ولا أن يراوغوا في مفاوضات السلام، ويحرفوها عن أسسها التي وضِعَت في مدريد، لولا الدعم التي قدمته وتقدمه الولايات المتحدة الأميركية، متجاوزة ومتنكرة لدورها، الذي ادعته كراعية أساسية للعملية السلمية وكوسيط نزيه. وتتحمل الحكومة الأميركية مسؤولية كبرى عن كل الانتهاكات الوحشية من حكام إسرائيل في لبنان، كما في فلسطين، وعن مراوغاتهم في المفاوضات مع سورية.

إن حكام أمريكا يستطيعون في الوضع العالمي الراهن أن يشنوا مباشرة، أو بالواسطة، حروباً وحشية ضد الشعوب والبلدان المقاومة لهيمنتهم، وأن يحاصروها اقتصادياً ويجوعوها، لكنهم لا يقدرون، ولن يقدروا على فرض هيمنتهم عليها، ولن يستمر هذا الوضع العالمي المتحرك، الذي تبدو فيه أمريكا حالياً كأنها سيدة العالم.

ومع ذلك يحزننا أن نقول: إنه لا إسرائيل، ولا أمريكا، كانتا قادرتين

على هذه الانتهاكات الفظة للحقوق العربية المشروعة، والمعترف بها دولياً، لولا هذا الوضع العربي المتردي جداً، والذي غدا فيه التضامن العربي، حتى بدرجاته الدنيا، مطلباً عسير المنال.

ورغم كل الأوضاع القائمة والخطيرة والمأساوية التي نشهدها ونعيشها في هذه الأوقات، ورغم حملات الضغط المتنوعة على بلادنا، ومناورات حصارها من هنا وهناك، فإننا متسلحون بروح الصمود العميقة في صفوف شعبنا، ونتطلع إلى المستقبل دون قنوط.

إن حزبنا الشيوعي السوري يشجب بغضب الحرب الوحشية، التي تشنها القوات الإسرائيلية، ويستنكر المواقف الأمريكية المشجعة لإسرائيل. ويُعَبّر عن تضامنه العميق مع الشعب اللبناني الشقيق، ويدعم البيان الذي أذاعته اللجنة الشعبية السورية العليا للتضامن مع لبنان.

ويؤكد حزبنا مساندته الكاملة للسياسة الوطنية السورية المبدئية، ويدعو جميع القوى الوطنية والتقدمية وجماهير الشعب إلى اليقظة والحذر من دسائس الإمبريالية والصهيونية والرجعية العربية، وإلى توطيد الوحدة الوطنية وتعزيز دور الجبهة الوطنية التقدمية، كما يدعو حزبنا إلى الاعتماد أكثر فأكثر على الجماهير الشعبية الواسعة، وإطلاق طاقاتها النضالية وتحسين أوضاعها المعاشية وتعزيز الديمقراطية لتقوية وتدعيم صمود شعبنا... هذا الصمود الذي يُشكّل السد المنيع أمام المؤامرات كلها".

الشهداء باقون في ذاكرة الوطن[55]

"إنني أموت فداء الأمة العربية، غير خائف ولا وجل، فليسقط الخونة وليحي العرب". هذا آخر ما هتف به الشهيد عمر حمد عند وضع حبل المشنقة في رقبته في السادس من أيار عام 1916.

وردد هتافات مماثلة رفاقه، الذين أعدموا معه في بيروت، والآخرون الذين أعدموا في دمشق.

لقد استقبل شهداء السادس من أيار الموت شنقاً بشجاعة، بعد خوضهم

[55] شهداء السادس من أيار في ذاكرة الوطن. **نضال الشعب**، العدد 510، دمشق، 4 أيار 1995.

نضالات شاقة مكرّسين حياتهم لتحقيق استقلال وتحرير أمتهم، وأشعلوا بذلك واحدة من أولى المنارات الخالدة في تاريخ العرب الحديث، ما تزال تضيء طريق التطور الشاق لحركة التحرر الوطني والقومي العربية، ومن هنا يحتفظ الاحتفال بذكرى أولئك الشهداء بأهمية على مدار السنين.

وأمامي الآن صفحتان مصورتان عن مجلة **"الأنوار"** اللبنانية الصادرة في 15 أيار عام 1922، مكرستان لهذه الذكرى في سنتها السادسة. وفي إحدى الصفحتين صورة ضوئية للشهداء السبعة، الذين شنقوا في ساحة المرجة بدمشق، التي سُمّيَت فيما بعد ساحة الشهداء، وهم: **رشدي الشمعة**، الأمير **سليم الجزائري**، **رفيق رزق سلوم**، **شفيق المؤيد**، **عبد الوهاب الإنكليزي**، **شكري العسلي**، **عبد الحميد الزهراوي**. وكتب تحت الصورة بخط كبير: شهداء الوطن، ثم ثلاثة أبيات للشاعر حليم دموس يقول فيها:

في كل عام أرى الذكرى تَمثُلُ لي	أحبةً لنواهمِ مدمعي سالا
أراهُمُ حين ساروا نحو مشنقةٍ	واستقبلوا الموت أحراراً وأبطالا
فهل أقمنا لهم عيداً يخلدهم	وهل نصبنا لهم في الحي تمثالا؟

ونشرت المجلة فيما تبقى من الصفحتين فقرات تشيد بالشهادة، واقتراحات صادرة من جهات صحفية وشعبية تدعو إلى تخليد ذكراهم، ونشر مآثرهم بين الجماهير.

وقد شنق العثمانيون في اليوم ذاته في الساحة المركزية في بيروت، التي حملت فيما بعد كذلك اسم ساحة الشهداء، أربعة عشر آخرين من القادة والمناضلين القوميين العرب، وهم: **سعيد عقل**، **بترو باولي**، **عبد الغني العريسي**، **عمر حمد**، **توفيق البساط**، **أحمد طبارة**، **محمد الشنقيطي**، **أمين لطفي الحافظ**، الأمير **عمر الجزائري**، **عارف الشهابي**، **سيف الدين الخطيب**، **علي الحاج عمر**، **جلال البخاري**.

ونُفذت هذه الإعدامات الجماعية في بيروت ودمشق تنفيذاً للأحكام الجائرة، التي أصدرتها المحكمة العرفية العسكرية التركية، وبأمر من أحمد جمال باشا والي الشام، الذي لقبه العرب بالسفاح لما ارتكبه من مظالم ومجازر أثناء ولايته في سنوات الحرب العالمية الأولى.

وأحدثت الإعدامات ردات فعل واسعة وغاضبة بين جماهير الشعب وعند جميع القوميين العرب، وعند الشريف حسين حاكم الحجاز، الذي كان من بين من توسطوا لدى الوالي لوقف تنفيذ الأحكام، ولاسيّما أن هذه الإعدامات لم تكن الأولى، فقد أُعدم بنفس الطريقة في العشرين من آب عام 1915 كوكبة أخرى من قادة وزعماء وشخصيات الحركة القومية العربية وهم: **عبد الكريم الخيل، صالح حيدر، مسلّم عابدين، نايف تللو، محمود محمصاني، محمد محمصاني، نور الدين القاضي، علي الأرمنازي، عبد القادر الخرسا، محمود العجم** و**سليم الأحمد**.

غير أن ردود الفعل الغاضبة لم توقف حملة التنكيل الحاقدة، التي كان ينفذها الحاكم التركي العثماني السفاح، الذي كان مصمماً على تنفيذ سياسة سلطة الاتحاديين في الآستانة، الهادفة إلى القضاء على الحركة الوطنية القومية العربية المتصاعدة في سبيل الاستقلال والحرية، فتوالت الأحكام العرفية بالإعدام أو السجن المؤبد أو النفي ضد عدد كبير من القادة والزعماء العرب، ومنهم: **فارس نمر، شبلي شميل، خليل مطران، عبد الرحمن الشهبندر، شكري القوتلي، فارس الخوري، شكري الأيوبي، عزيز المصري** وكثيرون غيرهم، لكنها لم تُنفذ غالباً بسبب عدم تمكن السلطات العثمانية من القبض عليهم، أو لتهدئة مؤقتة للحملة الاحتجاجية العارمة، التي انتشرت في الرأي العام العربي، ولشعور السلطات بأنها بدأت تفقد آخر الخيوط، التي بقيت لها مع بعض العناصر العربية.

ويرى بعض المؤرخين أن عدد الذين شنقوا، وحكموا بالإعدام أو بالسجن حتى أواسط عام 1916، بلغ أكثر من 800 شخصية من نشطاء الحركة العربية التحررية، ومن رؤساء وأعضاء الجمعيات والأحزاب، التي بدؤوا بتأسيسها منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى أيام الحرب العالمية الأولى. وكان بينهم، إضافة إلى المدنيين من المثقفين العاملين في مختلف المهن، عدد كبير من الضباط العرب، الذين كانوا يخدمون الجيش التركي وقوات الدرك ومشاركين سريين نشيطين في الحركة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن عدداً كبيراً منهم ممن بقي على قيد الحياة، ساهموا بفعالية فيما بعد في الثورات الوطنية، التي نشبت في سورية وفلسطين

والعراق، وفي تأسيس الجيوش العربية الفتية.

بعض المعاني الكبيرة للسادس من أيار

لقد زرع شهداء أيار بدمائهم الزكية الكثير من البذور الخيرة في تراب الوطن، ومنها: عشق الوطن والجاهزية الذاتية للتضحية في سبيله، والوحدة الوطنية التي تجسدت في وحدتهم الكفاحية على اختلاف انتماءاتهم الدينية والمذهبية، وتعدد مناهلهم الفكرية ومدارسهم السياسية، وتنوع أوساطهم الاجتماعية والمحلية.

وجسّد الشهداء عبر ممارساتهم العملية التطور النوعي، الذي حدث في حركة التحرر الوطني والقومي العربي، بانتقالها من الأهداف الإصلاحية والاستقلالية والقومية المحدودة في إطار الدولة العثمانية إلى الأهداف الاستقلالية التامة والناجزة، والمتحررة من أية سيطرة أجنبية أو نفوذ أجنبي، وإقامة دولة عربية واحدة على أساس ذلك.

وبرز هذا الاتجاه وسماته الكفاحية في الحركة القومية العربية بعد إعدامات أيار، واشتدّ بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية وإنهاء الحرب العالمية، حينما اصطدمت الحركة مباشرة مع الأوضاع الاستعمارية الأنجلوفرنسية والصهيونية، التي كشّرت عن أنيابها.

وتجلت هذه الأمور مثلاً، في موقف حكومة الدفاع الوطني العربية بدمشق، ولدى وزير دفاعها الشهيد **يوسف العظمة**، حينما خاض معركة ميسلون، وهو يعلم مسبقاً أنها خاسرة عسكرياً، لكنها ضرورية روحياً ومعنوياً من منظور حركة التاريخ والصراع بين الحق الوطني والباطل الاستعماري. وكان حدسه صادقاً، فقد تصدّت الجماهير للغزاة الجدد، وانتقلت الفصائل المسلحة، التي قاتلت المحتلين العثمانيين، إلى مقارعة الغزاة الفرنسيين، وتنامت هذه الفصائل، واشتدّت فعالياتها، ثم وحّدت قواها وقياداتها، واختارت سلطان باشا الأطرش قائداً عاماً لها، وأعلنت الثورة الوطنية السورية الكبرى، التي استمرت بين عامَيْ 1925 و1927. وبعد فشلها، استمرّت المقاومة بأساليب أخرى متنوعة، وصولاً إلى انتفاضة أيار عام 1945، وتحقيق الجلاء في نيسان 1946.

بين أيار 1916 ونيسان 1946 ثلاثون عاماً، لم يستطع المستعمرون

أثناءها، الأتراك ثم الفرنسيون، أن يناموا ملء جفونهم ليلة واحدة في سورية.

روحنا الكفاحية أمام تحديات الحاضر والمستقبل

إذا كانت دمشق قد استقطبت إلى حد كبير الحركة الوطنية والقومية التحررية في زمن تناميها في مطلع القرن العشرين، فهي نفسها تقف اليوم في مركز القطب لهذه الحركة في نهايات القرن، إذ تشغل اليوم أيضاً الموقع الأمامي المتقدم بين سائر العواصم العربية الشقيقة في الصراع الشاق والمعقد الدائر مع أوساط الإمبريالية والصهيونية لكسب معركة السلام الشامل والعادل الحقيقي في المنطقة، وللإسهام في نضال الشعوب لإضفاء قيم الديمقراطية والعدالة واحترام حق الشعوب في تقرير مصيرها وحقوق الإنسان في بنية النظام العالمي الجديد الذي يتكوّن.

ويستند شعبنا في موقفه هذا على عوامل اقتصادية واجتماعية ودفاعية هامة، وعلى الشرعية الدولية، وعلى وحدة وطنية صلبة، وسياسة وطنية وعربية حكيمة وحازمة لدى قيادته السياسية. إن هذا الطابع الكفاحي لشعبنا، يرسّخ عندنا الاعتزاز بانتمائنا الوطني، دون أي انتقاص من تاريخ ودور الشعوب الأخرى، وفي مقدمتها الشعوب العربية الشقيقة.

ويدفعنا هذا الشعور، نحن المتقدمين في السن والمخضرمين، إلى رصد مدى سريانه في الأجيال الناشئة والفتية، في ظروف التحديات التي تواجهنا في هذا الزمن الصعب على صعيد العالم كله، حين تتنامى الأنانية الفردية والعصبيات الدينية والطائفية والقبلية والقومية في كثير من أنحاء العالم، وحين تنتشر أوبئة الاستهلاك ومافيات المخدرات والثقافات المشوهة للإنسان والمتنافية مع قيم الحياة الإنسانية، والمصدَّرة إلى بلدان العالم الثالث من الغرب الصناعي خصوصاً.

وفي هذه الأوضاع، من واجبنا أن نولي اهتماماً خاصاً بتنوير وإغناء الذاكرة التاريخية الوطنية للأجيال الناشئة والفتية، وتنمية روحها الكفاحية الواعية. ويمكن هنا أن نتساءل مثلاً: ترى إلى أية درجة يتلمسون تاريخ شعبهم وسير أبطاله، ويقيّمون تضحيات الآباء والأجداد، وكيف ينظرون إلى حاضره ويتطلعون لمستقبله؟

وفي هذا الإطار، يمكن أن نتساءل مثلاً: كيف نقوم بعملية التثقيف والتنوير عن شهداء 6 أيار، ومعركة ميسلون، والثورة السورية الكبرى، ومعركة الجلاء، وحرب تشرين الوطنية... إلخ؟

هل يحقق، كما ينبغي، ما نقوم به في هذه المناسبات من مراسم احتفالية محدودة ومحدَّدة ومكررة بالأساليب والمستويات ذاتها كل عام، أم توجد إمكانات أرحب لأشكال وأساليب ومضامين تنويرية أخرى تحفزّ أوسع جماهير الشباب على معرفة تراث وطنهم الكفاحي، وتنمّي عندهم الحب والتقدير لأبطاله وشهدائه والاقتداء في حياته بمآثرهم؟

أعتقد أن مناقشة هذه المسائل وإيجاد الأجوبة المناسبة وتطبيقها في الحياة، لا يتحقق إلا بأعمال جماعية في صفوف القوى والأحزاب الوطنية ورجال الثقافة والتربية. وكلما تقدمنا في هذا المجال أفضل، سنكون أكثر وفاء لشهداء الوطن وأكثر احتفالاً بذكراهم.

فرج الله الحلو كبير شهداء الشيوعيين السوريين واللبنانيين[56] عن سيرته وذاكرتنا

كلما جاء ذكر فرج الله الحلو في مجالسنا، أو عبرت ذكراه في خاطري، يعاودني الأسى على رحيله القسري المبكر وهو في أوج عطائه، وقبل أن يتسنى لحزبنا أن يتعلّم الكثير من سماته القيادية التي كان الحزب يحتاجها ولا يزال.

بدأ تعرّفي على شهيدنا الكبير بعد استشهاده، حينما تسربت إلينا داخل السجن في شهر تموز من عام 1959 معلومات عن اعتقاله وتعذيبه حتى قضى نحبه. وغمر الحزن الغاضب جميع الرفاق، وخصوصاً أولئك الذين كانوا يعرفونه وعملوا معه في مواقع مختلفة وظروف مختلفة ... . حدّثنا الرفاق عن بساطته ووداعته وطيبته، وعن مناقشته بصبر وهدوء لنشاطاتهم الحزبية وآرائهم فيها واقتراحاتهم، وعن انتباهه لاهتماماتهم

[56] كتبها مراد عام 1999 في سياق الاحتفالات بالذكرى الـ 75 لتأسيس حزب الشيوعيين في سورية ولبنان، وبمناسبة الذكرى الأربعين لاستشهاد فرج الله الحلو تحت التعذيب في معتقلات مخابرات دولة الوحدة، في محاولة بدء عمل جديّ لتعريف الشيوعيين في البلدين على حياة وأعمال فرج الله الحلو كمصدر للتنوير والتثقيف بالسمات الضرورية للمناضلين والقياديين الشيوعيين.

الثقافية، ولحياتهم وهمومهم الشخصية والعائلية، وعن ثقافته الجيدة وفكره العميق، وعن جَلَدِهِ في العمل وصلابته في الملمات ... وغير ذلك من الصفات النبيلة التي يحظى حاملها بحب واحترام الناس، وكان هذا واضحاً في أحاديث جميع الرفاق الذين يعرفونه، الأمر الذي دلّنا على أن هذه المشاعر مكونة عندهم من السابق، وليست وليدة فاجعة اعتقاله واستشهاده فقط، فتنامت تلك المشاعر عندنا وسكنت جوانحنا نحن الذين لم يكن من نصيبنا التعرّف عليه في حياته.

وقد تعمّقت هذه المشاعر عندي في ما بعد بقدر ما تسنى لي الاطلاع على سيرة حياته وعلى ما كتبه أو كُتِبَ عنه، حتى شغل موقعه الدائم في ذاكرتي كإنسان رائع وقائد شيوعي ديمقراطي وإنساني أصيل، مشبع بروح وطنية وعروبية كفاحية واعية.

لمحة عن حياة فرج الله الحلو

1906– 1929 طفولة شاقة وفتوة متعطشة للمعرفة. وُلد فرج الله عام 1906 في عائلة فلاحين فقراء، في قرية **حصرايل** من قضاء جبيل في جبل لبنان. وكان والده وشقيقه الأكبر وأبناء عمومته، يعملون محاصصين في مزرعة تابعة لدير قرية **معاد**.

كان السكان يعانون شظف العيش ومظالم الاحتلال العثماني. واضطر الكثير للهجرة، ومنهم والدة فرج الله التي هاجرت مع ولدها طانيوس إلى أمريكا عام 1908.

ولم يطُل الوقت حتى التحق بهما شقيقه فيّاض وأخته خزون مع زوجها، بعد وفاة والده في أولى سنوات الحرب العالمية. وبقي فرج الله وحيداً مع شقيقه غالب في القرية يواجهان قساوة العيش التي اشتدت في أتون الحرب. ولا سيما بعد أن انقطعت عنهما المساعدات المالية التي كانت تصلهما من الأهل المغتربين.

عاش فرج الله طفولة شاقة جداً لا سيما في سنوات الحرب 1914-1918، ثم شهد في سنيه المبكرة انكسار آمال الناس في الحرية وفي حياة أفضل مع زوال الاحتلال العثماني، إذ وجدوا أنفسهم تحت نير احتلال أجنبي جديد، ولم يتسنّ له الالتحاق بالمدارس إلا عام 1920، وبعد جهد

جهيد. حيث حصل على مستوى من التعليم الابتدائي في المدارس الأهلية الموجودة في القرى المجاورة، حتى انتهي إلى مدرسة **دير ميفوق** التابعة للرهبة المارونية[57]، لكنه تركها بعد ثلاثة أشهر، نتيجة فقره، ولعدم انسجامه مع نظام الدير القاسي والظالم.

بعد انقطاعه عن المدارس، اشتغل معلماً فترة، ثم في مصلحة المساحة وفي مهن أخرى، باحثاً، في الوقت نفسه، عن وسيلة يتابع بها دراسته، حتى أمكنه عام 1929 أن يتّفق مع **الكلية الإنجيلية** في حمص على أن يقوم هو بتدريس اللغة العربية في صفوفها الابتدائية مقابل سكنه وطعامه ودراسته، وحصل فيها خلال عامين على شهادة البكالوريا- القسم الأول، ثم انتقل عام 1931 إلى دمشق بهدف أن يُكمِل القسم الثاني من الباكلوريا في المدرسة الأرثوذكسية (**الآسيّة**).

فرج الله يجد طريقه إلى الحزب الشيوعي في حمص. أثناء وجوده في حمص اندمج فرج الله في الحركة الثقافية والسياسية، وتصادق مع كثير من مثقفيها، وبخاصة مع ناصر الدين حدّة القائد الشيوعي الذي كان يُدرّس في الكلية الإنجيلية، واطّلع على الأدبيات الماركسية ونشاطات الحزب الشيوعي، ووجد عبر ذلك طريقه الذي كان يبحث عنه[58] فانتسب إلى الحزب الشيوعي عام 1931، حيث تعرّف على خالد بكداش.

ومنذ هذا التاريخ اندمج فرج الله بكل كيانه في الملحمة الكفاحية التي كان حزب الشيوعيين السوريين واللبنانيين يقتحمها.

وانخرط فرج الله الحلو في هذه الملحمة متنقلاً، حيثما اقتضى الأمر، بين حمص وجبل لبنان وبيروت ودمشق، كقيادي شيوعي نشيط مع ناصر الدين حدة وخالد بكداش ورشاد عيسى ونقولا شاوي وآخرين من الشباب الطليعيين الذين رفدوا الحزب بزخم جديد. عام 1933 أرسله رفاقه إلى

---

[57] يروي يوسف خطار الحلو (1910-1996 نقابي وصحافي وباحث اقتصادي شيوعي لبناني معروف) ابن عم فرجاً وصديق طفولته ودراسته ورفيق عمره: أنه كان الأول في دراسته ومرجعاً لزملائه في حلّ مشاكلهم الحياتية والدراسية، وكان موضع ثقة التلاميذ والمعلمين، واحترامهم.

[58] إلى هذا المنعطف في حياته، يُشير فرج الله بقوله: "عندما قرأت أول قصة عن حياة لينين ونضاله، تسارعت دقات قلبي، وفهمت أية طريق عليّ أن أختار. لقد فهمت أمراً رئيساً، وهو أنّ ضبط النفس، والصبر، ورباطة الجأش التي تميّز بها لينين هي صفات ضرورية للمناضل".

موسكو للاطلاع والدراسة الماركسية، وعاد منها، وألف كتاباً بعنوان: **"إنسانية جديدة تبني عالماً جديداً"**.

بعد عودته مباشرة عام 1934 قاد على رأس منظمة بلاد جبيل، مع يوسف خطار الحلو حملة مطلبية في عشرين قرية فلاحية. ثم توجّه إلى حلب وعمل على توطيد منظمة الحزب فيها، وعاد إلى دمشق عام 1935، وانتُخب عضواً في اللجنة المركزية وفي هيئتها القيادية التي قامت بمساهمة فعالة في الإضراب الستيني المشهور في دمشق، وعلى أثرها اعتقلته السلطات الفرنسية وأبعدته مخفوراً إلى لبنان.

في العام 1937، بعد عودة خالد بكداش من موسكو عقد الحزب اجتماعاً موسعاً للجنة المركزية، شارك فيه ممثلون عن منظمات الحزب في المدن والمناطق السورية واللبنانية، وعرض فيه خالد بكداش التقرير السياسي وفرج الله التقرير التنظيمي بعنوان: **"الحزب الشيوعي قوته في تنظيمه الديمقراطي وقيادته الديمقراطية"**[59]. وانتخب الاجتماع أعضاء للقيادة المركزية الرفاق: فرج الله الحلو، رشاد عيسى، نقولا شاوي، أرتين مادويان. بالإضافة إلى الرفيق خالد بكداش أميناً عاماً للحزب.

بعد احتلال ألمانيا النازية لفرنسا في عام 1939، وضعت السلطات الفرنسية الاستعمارية في سورية ولبنان نفسها تحت إمرة حكومة الخيانة التي شكلها المارشال بيتان في باريس، وشنّت السلطات الاستعمارية الفيشية حملة بوليسية على الأحزاب والنقابات، واعتقلت حوالي مائتي شيوعي بينهم فرج الله الحلو ونقولا شاوي ورشاد عيسى، وحكمتهم بالسجن خمس سنوات قضوا منها إثنين وعشرين شهراً حتى تمّ الإفراج عنهم بعد دخول قوات "فرنسا الحرّة" الديغولية مع القوات الإنجليزية إلى سورية ولبنان، وشهدت البلاد حالة انفراج نسبي وعاد الحزب الشيوعي إلى نشاطه العلني.

في المؤتمر الثاني للحزب. عقد الحزب الشيوعي السوري- اللبناني مؤتمره الثاني على نحو علني في بيروت أيام 31 كانون الأول 1943

---

59) هي "وثيقة هامة لما فيها من أفكار عميقة وجيدة في الحياة الحزبية الداخلية وقضايا التنظيم وسمات المناضل الشيوعي والقادة وغير ذلك من الأفكار التنظيمية المفيدة حتى يومنا" - مراد.

و1-2 كانون الثاني 1944. وقدّم خالد بكداش التقرير عن نشاط الحزب وسياسته، وفرج الله الحلو التقرير التنظيمي، وتعاون نقولا شاوي ورشاد عيسى على عرض مشروع "الميثاق الوطني" وإدارة مناقشته وإقراره.

وانتخب المؤتمر أعضاء اللجنة المركزية المشتركة للحزب في سورية ولبنان، وقرّر تشكيل لجنة مركزية لقيادة الحزب في سورية برئاسة خالد بكداش، ولجنة مركزية للحزب في لبنان برئاسة فرج الله الحلو، وأن يكون خالد بكداش أميناً عاماً للجنة المركزية المشتركة[60].

شكّل المؤتمر قوة دفع كبيرة للحزب وللحركة السياسية الوطنية، وساهم في تكوين وحدة جماهيرية ناضلت ببسالة ضد المؤامرات الاستعمارية والصهيونية التي اشتدت مع نهايات الحرب العالمية أعوام 1944-1945، وتركّز نضالها حول مطلب الجلاء التام والاستقلال الناجز، الذي تحقق لسورية في 17 نيسان 1946 وللبنان في 31 كانون الأول من العام نفسه. واستُقبل الحدثان العظيمان من شعوب الأمة العربية بفرح شامل، وارتفعت شعارات الوحدة الوطنية والتضامن العربي ضد الاستعمار والصهيونية.

في عام 1947 حضر فرج الله الحلو، ممثلاً للحزب الشيوعي اللبناني، وخالد بكداش، ممثلاً للحزب الشيوعي السوري، مؤتمر الحزب الشيوعي البريطاني في لندن، وعرضا أمام حشد واسع من ممثلي الرأي العام العالمي القضايا العربية العادلة، وفي مقدمتها حق الشعب العربي

---

60) يكتب مراد في هامش الوثيقة: "اتُخذ هذا القرار لمعالجة إشكالية ثنائية الحزبين في حزب واحد، التي برزت بعد أن أفرز التطوّر في ظل الاستعمار الفرنسي حالة كيانين أو دولتين لكل منهما حدودها ومؤسساتها التشريعية والتنفيذية، بخلاف ما كانت عليه الأوضاع حين تأسيس الحزب عام 1924. غير أن القرار لم يُنفّذ عملياً. وكذلك القرار الواضح بالاستقلال التام لكل من الحزبين الذي اتُخذ عام 1958، فقد استمرّ الشيوعيون السوريون واللبنانيون من الناحية العملية ينشطون كحزب واحد بقيادة واحدة حتى عام 1964، حين قرّر الرفاق اللبنانيون الاستقلال بين الحزبين. وكان معهم الحقّ كله لأن الثنائية غدت متناقضة مع الواقع وعقبة كبيرة أمام تطوّر كل من الحزبين. وحقّ علينا نحن الشيوعيين السوريين أن نذكّر للشيوعيين اللبنانيين بعرفان الجميل التضحيات الكبيرة والمساعدات الرفاقية التي قدّموها، والتي يبرز في مقدمتها ويرمز إليها نضال فرج الله الحلو في دمشق واستشهاده فيها. إذ كان شهيدنا يحب الشام حباً جماً، ويعتبر – مثله مثل سائر الرفاق اللبنانيين – الساحة السورية محورية في سيرورة حركة التحرر الوطني العربية عموماً، والمشرقية على نحو خاص.

الفلسطيني في نيل حريته وبناء دولته الوطنية المستقلّة، وفضحا المؤامرة الكبرى التي كانت تُحاك ضدّ فلسطين والعرب، ونظّم الحزب لهما استقبالات حافلة في لبنان وسورية.

وفي الانتخابات النيابية الأولى بعد الاستقلال التي جرت في البلدين في العام 1947 نفسه، كان الرفيقان في مقدمة مرشحي الحزبين: خالد بكداش عن دائرة دمشق، وفرج الله الحلو عن دائرة جبل لبنان، وحصلا على نسبة عالية من الأصوات، غير أن عمليات التزوير الفاضحة حالت دون وصولهما إلى المجلس النيابي في الجمهوريتين العربيتين المستقلتين. وعقّب فرج الله في جريدة الحزب **"صوت الشعب"** على ما جرى بمقالات انتقادية منها مقالة بعنوان: **"هل يدري المزوّرون ما جنوا على لبنان وعلى قضية الشعوب العربية؟"**.

في نكبة فلسطين

لم يدم فرح الشعوب العربية باستقلال سورية ولبنان طويلاً، فقد شهدت أواخر العام 1947 انفجار المؤامرة الكبرى على فلسطين والأمة العربية، التي حبكتها الدوائر الإمبريالية الأنجلوأمريكية والصهيونية بإتقان، ونفذتها بمشاركة حكومات الملوك والباشاوات في الأردن ومصر والعراق والأوساط الرجعية العربية، وأدّت إلى نكبة فلسطين وقيام دولة إسرائيل وإلى تشريد الشعب العربي الفلسطيني وحرمانه من إقامة دولته المستقلة على ترابه الوطني.

فبعد مناقشات طويلة أصدرت الهيئة العامة للأمم المتحدة توصية إلى مجلس الأمن بتاريخ 29 تشرينالثاني 1947 تقضي بتقسيم فلسطين إلى دولة يهودية ودولة عربية عاصمتها القدس. وقد صوّت الاتحاد السوفياتي مع التوصية باعتبارها أفضل القرارات السيئة التي كان يمكن أن تصدر لإجلاء الجيوش البريطانية عن فلسطين، ضمن موازين القوى التي كانت سائدة في المنطقة والعالم.

غير أن أركان المؤامرة الخارجية والعربية كانت مهيئة لاستخدام موافقة الاتحاد السوفياتي على القرار، كذريعة لشن حملات مسعورة على الاتحاد السوفياتي وعلى الشيوعيين العرب، ولإحداث شروخ بين

الجماهير العربية وقواها الوطنية، بهدف تمرير المؤامرة إلى أقصى أبعادها.

ففي اليوم التالي لصدور القرار، هاجمة مجموعات محرّضة بقيادة "الأخوان المسلمين" وعناصر من أجهزة السلطة الأمنية مكتب الحزب الشيوعي السوري في دمشق، واستُشهِد المناضل الشيوعي الشجاع عضو اللجنة المركزية حسين عاقو، وهو يدافع عن المكتب وعن رفاقه. وشنت السلطات حملة إعلامية وبوليسية مسعورة ضد الحزب الشيوعي والاتحاد السوفياتي، وجرت تدابير مماثلة في لبنان.

كانت أهداف ومجريات المؤامرة واضحة للحزب الشيوعي، وسبق أن تنبأ بها وفضحها وحذّر منها مراراً، وعرض طوال السنوات السابقة برنامجاً نضالياً واضحاً لحل قضية فلسطين، يعتمد إلغاء الانتداب البريطاني وجلاء جيوشه، واستقلال فلسطين وإقامة دولة فلسطينية دستورية ديمقراطية يعيش فيها العرب واليهود، ووقف الهجرة اليهودية، ورفض التقسيم.

واجه الحزب الشيوعي الحملة ضدّه بشجاعة وفضح المتآمرين، ودافع عن الاتحاد السوفياتي كصديق وحليف ثابت للعرب، معتبراً أن موافقته على قرار التقسيم لن تُغيّر من موقفه الداعم للعرب، وحذّر من خطر الوقوع في فخ معاداة السوفييت والشيوعية، وبيّن أن قضية فلسطين دخلت بعد القرار في ظروف نضالية جديدة تتطلّب اليقظة والوحدة الوطنية والتضامن العربي.

وكان هذا الاتجاه الذي اتخذته قيادة الحزب سليماً من حيث الأساس وجزئياً. وكان فرج الله الحلو موافقاً عليه، لكنه رأى أن يتضمّن موقف الحزب نقداً علنياً لقرار التقسيم ذاته لأنه مجحف بحقوق فلسطين والعرب، وبهذا يكون الموقف منسجماً مع نهج الحزب الذي كان معارضاً لمشروع التقسيم، وكان الأخذ بهذا الرأي يدعم موقف الحزب. غير أن النزعة الفردية وغير الديمقراطية السائدة في القيادة رفضت رأيه، واتخذت من موقفه ذريعة لتنحيته عن مسؤولياته القيادية كرئيس للحزب الشيوعي اللبناني، وفرضت على فرج الله كتابة نقد ذاتي عُرِف في ما بعد بـ **"رسالة**

سالم[61]". وقد تعامل فرج الله الحلو مع هذا الأسلوب الخاطئ والغبن الواضح بحقه، بشعور عال من المسؤولية تجاه وحدة القيادة ومصلحة الحزب، وتابع عطاءه الإنساني الشيوعي المبدع في الميادين التي كُلِّف بها طوال السنوات الصعبة اللاحقة بهدوئه المعهود ورباطة جأشه وثقته بنفسه.

1948-1954 تعتيم على الدور القيادي لفرج الله. في الأعوام الممتدة منذ 1948 وحتى 1954، عمل الحزب الشيوعي في سورية ولبنان، في ظروف سرية شاقة غالباً، وخاض نضالات باسلة ضد النشاطات الإمبريالية، وصمد أمام شتى الحملات التنكيلية من قبل السلطات اليمينية والديكتاتوريات العسكرية، وساهم بنصيب مهم في تنوير جماهير الشعب واستنهاضها إلى المقاومة والكفاح من أجل حماية السيادة الوطنية وتحقيق الحريات السياسية والحياة الدستورية الديمقراطية.

وفي هذه السنوات، كُلِّف فرج الله بالعمل في إدارة شؤون الترجمة والنشر، والإشراف على مطابع الحزب. فترجم عدداً من الأدبيات الماركسية، وترأس دائرة الترجمة للمجلة العالمية: **"في سبيل سلم دائم، في سبيل ديمقراطية شعبية"**، وساهم في تحرير صحافة الحزب دون توقيع، ملبياً في الوقت نفسه أية مهمة سياسية أو تنظيمية، وساعد على تخفيف وطأة العمل السري عن الحزب، مستفيداً من علاقته الوثيقة مع **"المؤتمر الوطني اللبناني"** الذي كان فرج الله من أعضائه المؤسسين، ومع **"مكتب فلسطين الدائم"** و**"اتحاد الأحزاب لمكافحة الصهيونية"**، ومن روابطه الطيبة مع المثقفين اللبنانيين والسوريين.

في عام 1949 تزوج فرج الله من ابنة خاله فرجيني الحلو، ورزقا ثلاث بنات، بشرى ونجوى وندى[62].

---

[61] **"سالم"** كان الاسم الحزبي السري لفرج الحلو.

[62] عاشت السيدة فيرجيني الحلو نهاية القرن العشرين مع ابنتيها نجوى وندى في عشيت – قضاء جبيل، نجوى طبيبة متخصصة بالتخدير عملت في مشافي زغرتا وجبيل؛ أما ندى فدرّست تاريخ الفن في الجامعة اللبنانية. وكبرى بنات فرج الله بشرى عملت طبيبة متخصصة بأمراض العيون وجراحتها في مدينة حمص التي عاشت فيها قبل العام 2011 مع زوجها الدكتور ممدوح مسوح وولديهما.

1954-1959 مرة أخرى في مركز قيادة الحزب في دمشق. تعتبر السنوات الممتدة من شباط 1954 حتى منتصف عام 1959 من أهم الفترات الحافلة بأحداث كبرى وتطورات نوعية في سيرورة حركة التحرر الوطني العربية.

فمع زوال حكم الشيشكلي تحت ضغط المعارضة السياسية –المدنية والعسكرية والشعبية، انفتحت أمام سورية آفاق رحبة لتطوّر دستوري ديمقراطي برلماني، ولمجابهة التهديدات العدوانية الإسرائيلية والإمبريالية نقلت قيادة الحزب الشيوعي مركزها من بيروت إلى دمشق، وانتقل إليها فرج الله الحلو وعدد من القادة اللبنانيين الآخرين ليعملوا مع خالد بكداش وسائر الأعضاء السوريين في قيادة الحزب. وجرت انتخابات برلمانية تميّزت بمستوى متقدّم من النزاهة، وبنشاط كبير لمختلف الأحزاب والقوى السياسية المتعددة التي عادت إلى العلنية. ونجح إلى المجلس النيابي العتيد ممثلون لمختلف التيارات وفي مقدمتها حزب البعث العربي الاشتراكي والحزب الشيوعي والحزب الوطني والعديد من الشخصيات الوطنية المستقلة ومن رجال الدين. وأُطلقت الحريات السياسية والصحافية، وأصدر الحزب الشيوعي السوري جريدة "النور" اليومية التي تولى فرج الله رئاسة تحريرها منذ صدورها عام 1954 حتى إغلاقها في أواخر كانون الأول 1958[63].

وتشكلت في إطار المجلس النيابي نواة للوحدة الوطنية باسم **"التجمع القومي"** الذي تألف من ممثلي حزب البعث والحزب الشيوعي والحزب الوطني وعدد من النواب الوطنيين المستقلين، وأقام التجمع نوعاً من التعاون مع الشخصيات الوطنية القومية والتقدمية في قيادة الجيش العربي السوري. وامتد نشاط "التجمّع القومي" إلى الشارع السوري مستنهضاً بأساليب ديمقراطية، حركة شعبية جماهيرية واسعة وفعّالة شارك فيها العمال والفلاحون والمثقفون والطلاب والشباب والنساء وأوساط من

---

[63] يروي الرفاق الذين عملوا معه في تلك السنوات أنه كان يرافق الجريدة يومياً بدءاً من تخطيطها وتحريرها حتى طباعتها في مطبعة الوفاء (التي كانت ملكاً للحزب) والكائنة في الطريق الواصل بين باب توما وباب السلام. ولا يغادر المطبعة غالباً حتى الفجر حين يطمئن على إنجاز طباعتها بالتمام.

الرأسمالية الوطنية.

وتشكلت على أساس ذلك حكومة وحدة وطنية انتهجت سياسات وطنية وعربية ودولية مقاومة لكل المؤامرات الاستعمارية والصهيونية، ومنفتحة على البلدان العربية المتحررة وفي مقدمتها جمهورية مصر العربية برئاسة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، التي دخلت بدورها، الساحة العربية بزخم وطني وعربي تحرري قوي، ولاسيما بعد تأميم قناة السويس والصمود البطولي ضد العدوان الثلاثي عام 1956 والبدء ببناء السد العالي في أسوان بمساعدة سوفياتية.

وبادرت الحكومتان السورية والمصرية إلى إقامة علاقات تعاون اقتصادي وعسكري واسع مع الاتحاد السوفياتي كجزء أساس من استعداداتهما لمجابهة التهديدات المتصاعدة، وقد استقطب البلدان بسياساتهما الوطنية والعربية والخارجية، ليس حماس الجماهير الشعبية في البلدين فحسب، وإنما حماس جماهير الشعب في سائر الدول العربية، واحتلت حركة التحرر العربية موقعاً أساسياً بين حركات التحرر في مختلف أنحاء العالم. أدى ذلك إلى تحوّل شعار الوحدة العربية إلى شعار يملك ملموسيته في التقارب الكبير بين سورية ومصر. فدعا المجلس النيابي السوري عام 1956 في اجتماعه مع وفد كبير من مجلس الأمة المصري حكومتي البلدين إلى اتخاذ التدابير من أجل تحقيق الاتحاد الفيدرالي.

وكان طبيعياً أن تظهر آراء واقتراحات متعددة حول الشكل الأمثل الذي يمكن أن يتحقق به الاتحاد. وتراوحت الآراء بين الدعوة إلى وحدة اندماجية كاملة، وبين اتحاد فيدرالي يعتمد النظم الديمقراطية البرلمانية، ويأخذ الظروف الموضوعية في كلا البلدين بعين الاعتبار.

كان الحزب الشيوعي السوري المشارك النشيط في المفاوضات، في مقدمة الداعين إلى الأخذ بطريقة الاتحاد الفيدرالي. وجاء في القرار الصادر عن اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سورية ولبنان، المنعقد في أيام 11 و 12 و13 كانون الثاني 1958: "**إن تحقيق الاتحاد بين مصر وسورية أصبح أمراً ممكناً، وقابلاً للتحقيق بعد أن تحرر**

القطران من سيطرة الاستعمار ونفوذه، وسلك كل منهما سياسة وطنية مستقلة تحررية. هذا هو العامل الأساسي الذي فتح الطريق لتحقيق اتحادهما ...".

ثم دعا القرار إلى: "درس أشكال الاتحاد من جميع النواحي والزوايا، بحيث يقوم على أسس متينة واقعية تأخذ بالاعتبار الظروف الموضوعية في كل بلد وتعمل على التوفيق والتنسيق بينها، لسد كل ثغرة يمكن أن ينفذ منها أعداء الاتحاد للعمل على وضع العصي في عجلاته".

وتسارعت الأحداث فأُعلِنت الوحدة المصرية-السورية في 22 شباط 1958، وقامت الجمهورية العربية المتحدة برئاسة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، واتخذت الوحدة شكل وحدة اندماجية.

واستقبلت جماهير الشعب الوحدة بحماس منقطع النظير، وأيدتها الأحزاب السياسية بما فيها الحزب الشيوعي الذي شارك في كل النشاطات والمفاوضات التوحيدية التي جرت بموقف إيجابي بناء، غير أن هذا لم يمنعه من إبداء تحفظه على بعض الأساليب غير الديمقراطية التي رافقت عملية التوحيد، وفي مقدمتها اشتراط حل الأحزاب السياسية السورية وإغلاق صحفها ومكاتبها ومنع نشاطها، وعبّر بتحفظه عن قلقه الجديّ من تعرّض المكتسبات السياسية والديمقراطية والاجتماعية في سورية للخطر وما سيولّده ذلك من خيبة شعبية.

وأصدر الحزب بياناً ضمّنه عدداً من الاقتراحات الهادفة لتلافي الثغرات عُرف **بالبنود الثلاثة عشرة**. غير أن الأمور سارت باتجاه خطير. فمنذ 25 كانون الأول 1958 وفي أوائل 1959 بدأت السلطات حملة إعلامية بوليسية شديدة وشاملة ضد الحزب الشيوعي بذريعة معارضته للوحدة وتحت شعارات تقول: "إن المعركة مع الاستعمار انتهت، وبدأت مع الشيوعية المحلية".

وامتلأت السجون بالشيوعيين والمتعاطفين معهم، ثم امتدّت الحملة بالتدريج لتشمل الكثير من أعضاء الأحزاب الوحدوية الأخرى، وألقت بظلال رمادية باردة على الحماس العارم الذي استقبلت به الجماهير إعلان الوحدة، ثم أدّت إلى تفريغ الساحة من معظم القوى الوحدوية.

في تلك الظروف الصعبة وبعد "سفر" خالد بكداش وانتقال الحزب إلى العمل السري، تولى فرج الله قيادة نشاط الحزب متنقلاً بين دمشق وبيروت في ظروف سرية شديدة، وواصل برصانته المعهودة وشجاعته ترميم المنظمات التي تتعرّض للانهيار تحت الضربات المتلاحقة، إلى أن اختطفته المباحث من شوارع دمشق في 25 حزيران 1959 وأخضعته لتعذيب وحشي حتى قضى نحبه، ولجأ الجلادون إلى التخلّص من جثته بوسائل عديمة الإنسانية لإخفاء آثار الجريمة.

كان فرج الله شخصية شيوعية لبنانية-سورية بارزة ومعروفة في أوساط واسعة من البلدان العربية وفي العالم. ومع انتشار خبر اعتقاله تشكلت لجنة للدفاع عنه، وقامت حملة عربية وعالمية تطالب به. لكن الحكومة لم تعلن عن مصيره إلا في حزيران 1961.

وفي العام 1962 جرت في دمشق محاكمة لمنفذي تعذيبه وتصفيته جسدياً وصدرت أحكام بالسجن على بعضهم.

ذكراه خالدة في القلوب

في سياق احتفالات الحزب الشيوعي اللبناني بالذكرى الخمسية لتأسيسه نظّم في 19 تشرين الأول عام 1974 احتفالاً تأبينياً في بيت فرج الله في حصرايل، وأزيح فيه الستار عن تمثال من البرونز لفرج الله تخليداً لذكراه.

وافتتح الاحتفال يوسف خطار الحلو بكلمة قال فيها: "لقد حرصت يا أبا فيّاض على توطيد وتعميق أسس وجه لبنان العربي، واستشهادك هو الشهادة الحقّة على تفانيك في النضال من أجل قضية التحرر العربي، قضية التضامن العربي. أولست القائل - والقول أصبح مخلّداً على هذه اللوحة من تمثالك-: نريد أن يكون هذا الساحل منبت حركة وطنية جديدة أكثر وعياً، وأسلم محتوى، تمثّل مكاناً في الطليعة في الحركات الوطنية في الأقطار العربية".

وفي تقديمه لكتاب يحتوي مقالات وأبحاثاً مختارة لفرج الله صدر عام 1974، كتب كريم مروة قائلاً: "من قراءة العناوين الكبرى لهذه المقالات نستطيع أن ندرك شمولية النظرة الشيوعية عند القائد فرج الله الحلو، نظرة

تربط ربطاً ثورياً ديالكتيكياً بين ما هو وطني وقومي وأممي"، ثم أضاف مركزاً الانتباه على الصفات الإنسانية الرفيعة التي كان يتميّز بها الشهيد الكبير فقال: *"ولكن القيمة الأساسية لفرج الله الحلو أنه استطاع عبر مرحلة بكاملها، يرتبط فيها تاريخ حياته بتاريخ الحزب الشيوعي اللبناني والسوري، بتاريخ الحركة الوطنية اللبنانية والسورية*[64]*، أن يوحّد بين الرأي الذي يؤمن به والعقيدة التي يعتنقها، وبين السلوك العملي، وهو في هذا المجال نموذج تاريخي أصيل للقائد الشيوعي. والذي يعرف فرج الله الحلو عن كثب، يستطيع أن يرى في ملامحه، وفي حديثه، وفي كل تصرفاته، مزايا هذا النوع من القادة.*

لقد كان في علاقاته مع الشيوعيين، ومع كل الناس نموذجاً إنسانياً رائعاً. فإلى جانب ما كان يتحلى به من التواضع، كان يتحلى بالهدوء وقوة الأعصاب، والعمق، واحترام الذي يتحدث إليه. كان يعرف الاستماع إلى الآخرين، وكان يعرف كيف يجعل الآخرين ينصتون باحترام إلى ما يقوله.

لقد كان بالنسبة لكل الذين يعرفونه أخاً، ورفيقاً، وصديقاً، قبل أن يكون قائداً".

إن دراستنا لسيرة فرج الله الحلو ولأعماله تغني معارفنا في الكثير مما نحتاجه في الحاضر والمستقبل. وفي مقدمتها مسألتان أساسيتان:

أولاهما- الحاجة الماسة لإشاعة العلاقات الديمقراطية والإنسانية الحقيقية داخل الحزب، والتفاعل الحواري البنّاء بين أصحاب الآراء والاجتهادات الفكرية والتنظيمية المتنوعة في إطار الوحدة وتعزيز الوحدة العملية عبر التنوّع ونبذ أساليب القمع والتهميش لإلغاء الرأي الآخر.

وثانيتهما- الحاجة الماسة على صعيد الحركة الوطنية العامة لاعتماد الحوار الديمقراطي السلمي والعلني البنّاء، في ما بين الأحزاب، ونبذ

---

64) أضاف مراد كلمة "السوري" إلى عبارة "... بتاريخ الحزب الشيوعي اللبناني"، وكلمة "السورية" إلى عبارة "... بتاريخ الحركة الوطنية اللبنانية"، لأن هذا هو الواقع – كما قال-. وهو أمر يعتزّ به الشيوعيون السوريون مثل رفاقهم اللبنانيين. أما الأسباب التي اضطرت في حينها كريم مروة حين كتابته النص عام 1974 فمبررة لدى الشيوعيين السوريين ومفهومة تماماً. ويعتقد مراد أن تلك الأسباب لم تعد واردة حينها في نهاية القرن العشرين.

وسائل التناحر والعنف والعنف المضاد، وتوطيد الوحدة الوطنية على قاعدة القواسم المشتركة الكبرى التي تحقق المصالح الحيوية للشعب والوطن.

لتبق سيرة شهيدنا الكبير في الذاكرة قدوة محفزة لنا على تطوير حزبنا وتقوية دوره في حياة المجتمع.

فلسطين في القلب دوماً[65]

لا بد من مقدمة سريعة وموجزة للتاريخ لفهم تطورات القضية الفلسطينية عبر مراحلها المختلفة، والتي أدت بالتالي إلى قيام الكيان الصهيوني الإسرائيلي. هذا المشروع الاستعماري المصطنع، نشأ من خلال الأطماع الكولونيالية ومن ثم الإمبريالية الهادفة لبسط نفوذها على المنطقة العربية، ولنهب خيراتها واستعمالها رأس جسر لتنفيذ مصالحها المتنامية. ومن الحريّ أنه لولا الدعم والتبنّي الامبريالي لما حظي هذا المشروع بالخروج إلى قيد الحياة ولما حافظ على قوة استمراره.

ومع احتدام الصراع بين القوى الاستعمارية في بداية القرن التاسع عشر لوراثة تركة الإمبراطورية العثمانية المريضة، برزت فكرة توطين اليهود في فلسطين واستُعمِلَت في الصراعات الاستعمارية البريطانية والألمانية والفرنسية للسيطرة على مقدرات الشرق وثرواته، وتبلورت نتيجة لذلك إيديولوجيا المشروع الصهيوني التي أخذت تبرز في كتابات وأدبيات الحركة الصهيونية، التي تحوّلت تدريجياً إلى حركة منظمة ذات جذور تاريخية لتغطية النشاط الاستعماري، وأبرزوا تلك الإيديولوجيا كأنها مشروع قائم بذاته من خلال دوافع دينية وإنسانية لحلّ قضايا اضطهاد الأقليات اليهودية في أوروبا.

لقد أفلحت الإمبريالية البريطانية في استخدام الحركة الصهيونية ذريعة

65) ألقى مراد يوسف في ذكرى اغتصاب فلسطين الخمسين محاضرة في الندوة المنعقدة في المركز الثقافي العربي بدمشق يوم 30 أيار 1998، وعرض فيها قراءة سريعة في الوضع الراهن للقضية الفلسطينية ورؤيته الشيوعية لآفاق الصراع العربي الإسرائيلي. وارتكزت تلك المحاضرة على الدراسة التالية متعددة المصادر، دراسة مرتكزة على المفاهيم الماركسية للصيرورة التاريخية قام بها أبو سامي.

لمنافسة فرنسا، واستخدامها لتقسيم المنطقة والسيطرة عليها والاستئثار بخيراتها، وهذا ما أبرزه تقرير كامبل بنرمان، الذي كان رئيس وزراء بريطانيا عام 1905، ففي ذاك العام جمع بنرمان اخصائيين من مختلف الجامعات وطرح عليهم سؤالاً واحداً: ما هي الوسائل الكفيلة بتأخير سقوط الإمبراطورية البريطانية (كما سقطت إمبراطوريات الإغريق والرومان)؟ وبعد سنتين من البحث خلُص هؤلاء إلى وضع تقرير سُميَ تقرير كامبل بنرمان سنة 1907، وكان من أبرز نقاط ذلك التقرير ما يأتي:

1- إن منطقة شرقي البحر الأبيض المتوسط من أهم المناطق الاستراتيجية في العالم، ومن يسيطر على هذه المنطقة يستطيع التحكم بالعالم.

2- إن في هذه المنطقة شعباً واحداً له تاريخ واحد ولغة واحدة وثروات كبيرة غير متوافرة في أي منطقة أخرى، بمعنى أنه يملك كل مقومات القومية الواحدة.

3- يجب العمل بكل الإمكانات والطاقات على تفتيت هذا الشعب وتجزئته وتقسيمه لتسهل السيطرة عليه والتحكّم بمقدراته البشرية والمادية.

4- يجب العمل بكافة الإمكانات لفصل الجزء الآسيوي عن الجزء الإفريقي في المنطقة العربية عبر إيجاد حاجز بشري قوي وغريب حليف للاستعمار وعدو لسكان المنطقة.

وهكذا وُلدت "دولة الاحتلال الصهيوني" في فلسطين العربية بعد 40 عاماً على هذا التقرير، ولم تكن إتفاقية سايكس – بيكو 1916، ومن بعدها وعد بلفور سنة 1917 بإقامة "الوطن القومي اليهودي"، إلا أحد إفرازات هذا التقرير، وقد لخّص الصهيوني ماكس نورداو (أحد مؤسسي الحركة الصهيونية وزميل هرتسل) في الاحتفال الذي أقيم بعد صدور وعد بلفور حقيقة ودور الصهيونية في خدمة الإمبريالية البريطانية حين قال مخاطباً الساسة البريطانيين: "إننا نعرف ماذا تريدون منّا، تريدون منّا أن نحمي مواصلاتكم الإمبراطورية، إننا مستعدون لذلك، ولكن يجب إعطائنا القوة اللازمة". وهكذا تلاقت مصالح وأهداف الطرفين على أرض فلسطين: فبريطانيا وجدت في الحركة الصهيونية الجسر لتدعيم نفوذها في

المنطقة، في حين وجدت الصهيونية في بريطانيا الوسيلة للوصول إلى تحقيق تطلعاتها وغاياتها.

وبعد أفول الإمبراطورية البريطانية في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وبعد بروز الولايات المتحدة الأمريكية كقوة إمبريالية ناشئة ووارثة لها، أخذت هذه الدولة تلعب دوراً متزايداً في اتجاه وضع الحركة الصهيونية في خدمة أهدافها الاستعمارية، وفي منافسة واضحة مع أوروبا للاستيلاء على مناطق نفوذها السابقة في الشرق العربي، وخاصة بعد التحقق من احتوائه على مناطق نفطية غنية، مناطق تُعتبر من أكبر مكامن واحتياطيات النفط في العالم.

وهكذا أصبحت الحركة الصهيونية جزءاً من الاستراتيجية الأمريكية في الشرق الأوسط.

ومن الواضح أن الأهداف الاستعمارية القديمة والحديثة اصطدمت بالمصالح الحيوية لجماهير الأمّة العربية المتمثلة بتحقيق الأهداف القومية في الوحدة والاستقلال وتقرير المصير. وقد تشكّل في الوطن العربي قطبان متعارضان: حركة الجماهير العربية الطامحة إلى الوحدة والتحرر وإلى حياة كريمة جديدة من جهة؛ والدول الاستعمارية وأدواتها وركائزها في المنطقة من الجهة الأخرى. ولعل القاعدة الأساسية التي تمّ تطويرها بعناية (الكيان الصهيوني) كقاعدة متقدمة للتصدي لمصالح الأمّة العربية. وهكذا جُسّدت الصهيونية في الكيان الإسرائيلي، قاعدة استعمارية معادية للعرب، كياناً ينطوي في جوهره على حلّ المسألة اليهودية كما شرحتها القيادة الصهيونية انطلاقاً من الواقع الأوروبي في القرن التاسع عشر، وإذ جرى إطلاق صفة القومية على المسألة اليهودية يطمح واضعوها إلى بناء دولة "قومية يهودية" عبر الاستيطان العنصري وتشريد الجماهير الفلسطينية من أرضها ووطنها. والواقع أنّ المشكلة بأساسها زائفة، والجوهري في ذلك هو تشكيل إجماع يهودي حول الفكرة الصهيونية (على أساس قومي ذي إيديولوجيا دينية)، إجماع يضمن تدفق الهجرات اليهودية إلى فلسطين تحت راية (أرض بلا شعب وشعب لا أرض له). في حين كان اليهود منتشرين أساساً في القرن التاسع عشر، ولم يشكلوا

في فلسطين سوى 2% من مجموع سكانها العرب.

لقد تبلور مفهوم الصهيونية في أوساط بعض المفكرين والمهووسين الدينيين وخاصة مع تبلور الفكر المعادي لليهود في الغرب بسبب ظهور الدولة العلمانية في الدول الأوروبية التي همّشت اليهود كجماعة وظيفية، وأصبحت القوى اليهودية المنعزلة في غيتوهات/معازل تصطرع في ما بينها، وتبلور مفهوم غريب عن الحياة يرى أن القومية والعرق والشعب اليهودي والدين شيء واحد، وتحوّلت اليهودية من جماعة دينية إلى جماعة عرقية، نظرة تهدف إلى جمع شتات شعوب مختلفة تحمل في أعماقها تناقضات مختلفة، وفي محاولة لتطويع هذه الجموع في إطار واحد. وهذا المفهوم معاكس لوجهة نظر الماركسية التي ترى أن حل المسألة اليهودية هو بالاندماج والخروج من المعازل، والدخول مع الشعب في الوطن الواحد، اليهودي الفرنسي مع الشعب الفرنسي، واليهودي الألماني مع الشعب الألماني، ... الخ.

ولا تزال تواجه الصهيونية في هذا إشكالية علمية في تعريف اليهودي تهددها في عمقها.

وتُجمع الصهيونية على وجوب طرد الفلسطينيين من أرضهم، وتعتبر وجودهم أمراً عرضياً زائلاً، ولا بد من التخلص منهم بالطرق السلمية أو الإرهابية، ويصبح من حق الدولة الصهيونية أن تدافع عن نفسها ضد "إرهاب السكان الأصليين الذين يرفضون الإذعان للرؤية الصهيونية".

وقد تتفاوت مفاهيم السلام بين حزب صهيوني يميني وآخر صهيوني يساري، ولكن في التحليل العميق نجد أن مفهوم السلام لدى الأحزاب الصهيونية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار يُشير إلى مضمون جوهري واحد، فالتيّار العمالي يتبنى مقولة بن غوريون "إن العرب لا يفهمون سوى لغة القوة"، أما التيار الليكودي فيتبنى نظرية جابوتنسكي "الجدار الحديدي"، النظرية التي أكدها نتنياهو في كتابه **مكان تحت الشمس** في مفهومه عن "سلام الردع"، وقد تبدى ذلك في كل الترتيبات العسكرية الصهيونية ابتداء من أصغر الأسلحة شأناً وحتى الردع النووي، بغض النظر عن وجود بعض التيارات كحركة السلام الآن وحداش

وميريتس فهي تيارات عديمة التأثير في مجتمع مهووس عنصري فاشي النزعة منغلق على ذاته، مجتمع يخضع لشيزوفرينيا حاخامات موتورين ليس لديهم سوى لغة القتل والإرهاب واستباحة دم العربي والتشريد والاستيطان البديل من خلال عقدة "شعب الله المختار".

من كل ما تقدّم، وبالرغم من التبجح وإطلاق شعارات الاستقلالية والاعتماد على الذات ورفض التدخّل الأجنبي في الشؤون الداخلية لإسرائيل فإن ساستها يدركون بالعمق أن الدعم الغربي وبخاصة الأمريكي هو القادر أن يضمن لهم البقاء والاستمرار، وأن هذا الكيان هو أساساً دولة وظيفية أسست للاضطلاع بوظيفة جوهرية وهي الدفاع عن المصالح الإمبريالية، وأن الإمبريالية تبنت المشروع الصهيوني وضمنت له البقاء والاستمرار ليدافع عن مصالحها، ودون هذه الوظيفة لن يكون هناك دعم.

والعنصر الثابت الأساسي الذي لم ولن يهتز هو إدراك الصهاينة بأن الدعم الأمريكي أمر أساسي للبقاء والاستمرار وهو عنصر ثابت، إن النظرية الصهيونية بعمقها ليست الإيمان بالإله اليهودي وإنما نظرية البقاء للأقوى وقوة السلاح الأمريكي.

هذا ولن تدعنا متابعتنا لعرض الحقائق، على قسوتها ومرارتها، نتحول في هذه المناسبة إلى مهرجان تأبيني لضياع فلسطين وقيام إسرائيل وبلوغها الخمسين، يجب أن نكون في معرض محاسبة النفس عمّا فعلنا طوال نصف قرن: وهي محاولة للبحث عن الذات العربية، وفي تاريخ الشعوب سقطات، وقيام إسرائيل من أهمّ الكوارث التي نزلت بالأمة العربية بعد الحروب الصليبية الاستيطانية. يجب ألا نكابر، فنحن نعترف بأن التآمر والقوة الإمبريالية وراء نشوء هذا الكيان، ولكن يجب أن نحدد المسؤولية الكاملة والكامنة في ضعف وهشاشة النسيج العربي، وهزال الأنظمة وخيانة بعض الحكام كان وراء الكارثة، وحين نتبنى فكرة مسؤولية للعرب عمّا حدث يكون ذلك الخطوة الأولى للبحث والتفكير عن الحلول. ففي كل مرحلة من مراحل صراع الأمة العربية كانت تنتعش الأمال وسرعان ما نقع تحت رحمة إحباطات ونكبات، في عام 1918 كانت الآمال كبيرة بزوال الاستعمار العثماني وسرعان ما انتهى الأمر إلى

استعمار بريطاني وفرنسي ومشروع صهيوني خطير، وفي العام 1948 كانت هناك آمال عظام بدخول قوات سبعة بلدان عربية لتحطيم العصابات الصهيونية وإقامة دولة فلسطين العربية ولكن الأمر انتهى إلى إنشاء كيان صهيوني على 78% من أرض فلسطين، ولكن صدمة 1967 كانت الكارثة وبها تمّ اغتصاب القدس والضفة وغزة والجولان وسيناء.

نحن وبالمنظور القريب أمام مأزق حقيقي في حالة لا السلام فيها ممكن ولا الحرب فيها ممكنة في ضوء الواقع العربي الراهن. لقد فشلنا طوال 50 عاماً في إثبات حقّنا العادل، بينما كانت إسرائيل تحظى بالنجاح ومن ورائها قضية فاشلة وظالمة.

وراء قيام إسرائيل إرادة وتصميم ولدى الجانب العربي حالة مناقضة، فعندنا لا يكتمل القرار وعوامل تكوينه: الإرادة والمتابعة والتصميم.

كُثر يعتقدون أن معركتنا مع إسرائيل قبل كل شيء هي معركة حضارية. فإذا كان الأمر كذلك فكيف نقارع حضارة التسعينات والقرن الحادي والعشرين الزاحف إلينا بسرعة بالتخلف العلمي والتقني والتجزئة القومية وفقدان التضامن الفعّال وتدني الشعور بالمسؤولية تجاه المصير المُهدّد من الإمبريالية ومن الكيان الصهيوني الذي لا ينى يبني سياساته التوسعية على أساس مشروعه التوراتي من النيل إلى الفرات والهيمنة على مكامن النفط العربي في الخليج. هناك عجز عربي على مختلف المستويات سواء بالتعامل مع إسرائيل أم بمقاطعتها، فأين هي المقاطعة العربية؟ وإلام آلت إليه حالياً؟

إذا كان لنا سجل نتباهى به خلال نصف قرن فهو سجل الشهداء ما قبل اندلاع المقاومة وخلال العمل الفدائي في السبعينات وفي حرب تشرين المجيدة وفي صمود سورية وصمود أهلنا في الجولان وشلال الشهداء في جنوب لبنان، والأنصع من ذلك الانتفاضة الشعبية العارمة التي هبّت في وجه الصهاينة ونضال الشعب العربي الفلسطيني الذي يُسجّل ملحمة بطولية لا تنتهي.

لقد أمكن عقد معاهدات سلام عربية إسرائيلية، وربما تُعقد معاهدات أخرى، ولكن كل ما حدث وسيحدث سيبقى "سلام أنظمة"، لأن هذه

المعاهدات فشلت كلياً في تطبيع العلاقات بين شعوب الأمة العربية وإسرائيل، لقد قال الشعب العربي كلمته بصدق كامل وبصيرة متيقظة وبصورة تلقائية: إنها الرفض الشعبي العارم، ولذا ستبقى معاهدات السلام نصوصاً واتفاقات لا حياة فيها.

شئنا أم أبينا نحن في حالة حرب دائمة مع إسرائيل، وهي مستمرة رغم الهزائم والإنكسارات، ولقد تحمّلت المناعة العربية العديد من الخسائر النفسية والسياسية والعسكرية والحرب باقية والعرب باقون، أمّا إسرائيل فتبلغ النهاية عندما تخسر حرباً واحدة.

إن إسرائيل هي دولة ومشروع عنصري، إنها الدولة القائمة التي لا تنفك عن التوسع على حساب الأرض الفلسطينية والشعب الفلسطيني، وعلى حساب الشعوب العربية، وتُقيم المستوطنات الفاشية وتعمل باستمرار ضمن سياسة الترانسفير وهو تعبير كامل عن الكيان العنصري القائم على الإرهاب وتشريد الجماهير العربية، وينهمك الإسرائيليون في توسيع الاستيطان وتغيير معالم الأرض الفلسطينية، إنهم يحاولون تعميق حالة التطويق والاستعباد عبر تحويل الأراضي المحتلة إلى أرض إسرائيل مع غيتويات وجيوب فلسطينية معزولة مع محاولات التخلص من أكبر التجمعات من حيث الكثافة السكانية وهو قطاع غزة بفصله بمن فيه عن سائر الأراضي الفلسطينية[66].

إن إسرائيل مشروع للصهيونية العالمية المنتشرة في العالم، ومعقلها الولايات المتحدة الأمريكية، لذلك فإن مواجهة إسرائيل تقتضي مواجهة الدولة التوسعية ومن ورائها الصهيونية العالمية، إن المواجهة العربية مع إسرائيل هي أبعد من الحدود الجغرافية القائمة بل هي حدود المشروع الصهيوني العالمي ومن ورائه الولايات المتحدة الأمريكية.

والمعادلة باتت واضحة مع وجود نتنياهو رمز التطرّف ومن ورائه

---

[66] الترانسفير هنا هو الاستيطان القائم على طرد وترحيل السكان الأصليين. اذ صادرت دولة اسرائيل منذ توقيع إتفاق أوسلو خلال الفترة 1993 وحتى 1998 أكثر من 60 الف هكتار من اراضي الفلسطينيين في الضفة الغربية لصالح المستوطنات الكولونيالية، وفي قطاع غزة سيطر حوالي 5 الاف مستوطن على 40% من أراضي القطاع، مقابل 60% من الأراضي لاستعمالها من قبل أكثر من 900 ألف فلسطيني (حيث تبلغ حصة المستوطن الواحد أكثر من حصص 120 فلسطينياً).

حاخامات المجتمع العنصري الفاشي وغلاة المتشددين، التطرف الذي هو على استعداد للقيام بأي شيء باسم الأمن والدفاع عن كيان إسرائيل، وهو ماض في إيديولوجية تطرفية عنصرية سوف تُرهق المفاوض الفلسطيني وأي مفاوض عربي، وسوف لن تنته هذه المفاوضات كما عبّر عن ذلك الإرهابي شامير في مؤتمر مدريد.

إن معطيات المرحلة الحالية لا تسمح بأي استنتاج إيجابي باعتبار أن كل الأطراف تنعي عملية السلام بما في ذلك "الراعي الأمريكي"، ولا يشكّل ذلك إدانة قاطعة للسياسة الأمريكية ولدولة إسرائيل فحسب بل تعبيراً مأساوياً عن حالة العجز العربي الذي أدى إلى بناء الأوهام على الدور الأمريكي وإهمال بناء القوة العربية الذاتية القادرة وحدها على استرجاع الحقوق العربية والكرامة المهدورة.

إن إسرائيل ستبقى ذلك العنصر الغريب الذي يحاول زرع نفسه في المنطقة. ولكن الجسم العربي سيلفظ هذا العضو الغريب آجلاً أم عاجلاً لأنه يستحيل على إسرائيل مصادرة كل شيء: الشعب، والأرض، والأمن، والسلام؛ وستبقى تُقارَع ما لم تنسحب من الأراضي الفلسطينية أم من جنوب لبنان ... .

إن إسرائيل مشروع قد ينمو ولكن يبقى مهدداً بالتفجّر الداخلي شريطة أن يقابل بقوة عربية رادعة متماسكة، وإن هذا الكيان لا يتمزّق داخلياً إلا تحت وابل من ضغوط عربية فعّالة ومن خلال بلورة وصياغة مشروع قومي عربي نهضوي تحرري، وقيام حركة شعبية عربية واسعة لمقاومة المشروع الصهيوني سياسياً واقتصادياً وثقافياً وعسكرياً، علماً أن المعادلة العربية الرسمية معقدة إضافة إلى الأزمة العميقة التي تعيشها المجتمعات العربية.

إن هذه الحركة التحررية العربية يجب أن تتبلور مهما تواجه من صعاب ومعيقات، ولا يجوز الاستسلام لسطوة القوى الغاشمة الداعمة لإسرائيل وللمشروع الصهيوني، وهذا يتطلب تعاون مختلف القوى الخيّرة في الوطن العربي وإلا تعرضنا لمزيد من النكبات وأسوأ الاحتمالات.

وتشخص أمام هذه الحركة مهام ذات طيف واسع يمكن تحقيقها من

خلال ممارسة واسعة للديمقراطية الحقيقية في الوطن العربي، وبناء تضامن عربي فعّال باتجاه الوحدة العربية، وبنيان قوة ذاتية عربية متماسكة: إن قوة العرب هي موت لإسرائيل، يجب حشد الطاقات الشعبية للخروج من المأزق الراهن، يجب إذكاء روح النضال ومجابهة الغزو بالمقاومة التي تُعيد الحقوق الكاملة للأمة العربية.

حول القضية الكردية[67]

يكتب مراد في أحد دفاتره:

"اكتسبت مطالب الشعب الكردي تأييداً عالمياً واسعاً، لأنه شعب متميز يملك مقوماته في الأرض واللغة والتراث الثقافي، وهذه الحقيقة بحاجة إلى نضالات ومتابعة لدحض المواقف الشوفينية، التي تنفي وتُنكر وجود قضية قومية كردية وشعب كردي متمايز عن الشعوب الأخرى، التي يعيش معها في تركيا وإيران والعراق وسورية، وتعمل هذه الأوساط المعادية لحقوق الشعوب لصهر الشعب الكردي.

والقوى الثورية الوطنية كلها في هذه البلدان مطالبة بالاعتراف بالحقوق القومية للشعب الكردي، وبالنضال من أجل ممارسته لحقوقه المشروعة. ولا يبرر كون الشعب الكردي يعيش مع شعوب أخرى (تركية، أو عربية، أو فارسية،...) إنكار الحقوق القومية لهذا الشعب، كما لا تبرر وحدة الدين، التي تجمعه مع هذه الشعوب، هذا الإنكار".

ويتحدَّث مراد عن الحركة القومية الكردية بصفتها حركة تاريخية موضوعية، لأنها حركة شعب عريق مناضل في سبيل حقوقه العادلة والمشروعة، فيقول:

"ظهرت الحركة الكردية في القرن الحادي عشر على شكل حركات إقطاعية متمايزة، ونمت في ظل سيطرة الامبراطوريتين الفارسية ثم العثمانية على المنطقة، ومن خلال النزاعات التي كانت ناشبة بينهما، وظهرت تاريخياً عدد من الإمارات الإقطاعية الكردية، التي تمتّعت بنوع

---

[67] تناول مراد يوسف القضية الكردية في مناسبات عديدة، وتعرض هذه الفقرة المعدّة من قبل شقيق مراد تلخيصاً لبعض الأفكار المجموعة في بعض دفاتره بخط يده.

من الاستقلال الذاتي. وقد برزت هذه الحركة إلى الوجود كحركة قومية متبلورة مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، بالارتباط مع تفسُّخ العلاقات الإقطاعية القبلية القائمة على الزراعة والرعي، ونشوء بدايات العلاقات الرأسمالية في المجتمعات الكردية في المنطقة.

وتأثرت هذه الحركة في البداية بأفكار القومية البورجوازية الغربية، ثم بالحركتين القوميتين العربية والتركية، ونمت في النضال ضد الظلم والاضطهاد، الذي كانت تمثله السيطرة العثمانية، وترعرعت في خضمّ الصراع ضد الإقطاعية الكردية، التي ارتبطت امتيازاتها مع الإمبراطورية العثمانية. وفي ما بعد[68]، عشية وغداة الحرب العالمية الثانية، تأثرت الحركة القومية الكردية بالحركات الثورية، ولاسيَّما ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى.

ومما يعقّد قضية الشعب الكردي، أنه موزع أو مقسّم بين كيانات وحدود دولية، مثبّتة ويعترف بها المجتمع الدولي، وبالتالي فان الحركة القومية الكردية مجزأة حسب هذا الواقع. ووضع هذا ضرورة التوفيق بين الأهداف الوطنية في كل بلد وبين الأهداف القومية الكردية في مقدمة المعادلات الصعبة، التي ينبغي على الحركات القومية الكردية في كل من هذه البلدان أن تحلها بشكل صحيح.

فالقضية الأساسية، التي تواجه نضال الشعب الكردي الآن، وفي كل بلد من البلدان التي تضم داخل حدودها جزءاً من كردستان وشعبها، هي قضية النضال المشترك مع الشعب أو الشعوب التي يعيش وإياها ضمن إطار الدولة المعنية، العرب أو الأتراك أو الشعوب الإيرانية... وغيرهم، والنضال المشترك من أجل تحقيق التحرر الناجز والديمقراطية والتقدم الاجتماعي، الأمر الذي يخلق الأساس اللازم لحل القضية الكردية حلاً عادلاً على قاعدة الاعتراف بحق الشعب الكردي في تقرير مصيره بنفسه"، ثم يكتب في خاطرة له في بداية العقد الأول من القرن الحالي قائلاً:

---

68) يلاحظ نجدت أخي مراد في هامش له على أحد دفاتر مراد المخطوطة: "أراد مراد هنا الكتابة عن دور المثقفين الأكراد المدنيين والعسكريين، إلا أنه لم ينجز ذلك، كما يبدو، لسبب لم نعرفه".

"نود أن نقول للوطنيين والتقدميين الأكراد، نحن معكم أيها الأخوة والرفاق في عدد هام من المطالب الحيوية والمشروعة، الإنسانية والدستورية، التي تناضلون من أجلها: حق المواطنة الكاملة للمواطنين الأكراد السوريين والمساواة في الحقوق والواجبات. في وضع حدّ حاسم للتمييز الذي يحصل في عدد من الميادين. في الهوية والعمل والتنقل والانتماء إلى هذا أو ذاك من الأحزاب والفصائل ذات الخط الوطني والديمقراطي والتقدمي، سواء كانت تنظيمات كردية سورية أو عربية سورية. نحن معكم في بعث ثقافتكم القومية وفنونكم الشعبية ومعرفة لغتكم الأم إلى جانب اللغة العربية. نحن معكم في وضع هدف نضالي لممارسة شكل من الحقوق الإدارية في مناطق تجمع الجماهيرالكردية... في حق الدراسة والتعلم والتشغيل واستلام المسؤوليات، على اختلافها، حسب الكفاءات والجدارة. نحن معكم في نضالكم بأساليب ديمقراطية دستورية مع أشقائكم الأكراد في البلدان الأخرى، انطلاقاً من الانتماء الوطني السوري، وباتجاه يخدم الانتماء الوطني بالدرجة الأولى، وهو أمر لا يتناقض، بل يتفق، مع الروابط القومية التي تربط بين الأكراد في مختلف مناطق تواجدهم. ويخدم هذا أيضاً إيجاد وتوطيد أفضل العلاقات المتساوية والقائمة على المنفعة المتبادلة بين البلدان المتواجدين فيها، بما يخدم نضال هذه البلدان ضد الإمبريالية والصهيونية ومن أجل انتشار الديمقراطية في كل منها. لكننا لسنا معكم في إضعاف الروابط الوطنية والالتزامات الوطنية والديمقراطية والتقدمية، نتيجة نزعة قومية ضيقة.

إن التقارب بين أجزاء كردستان، وتطوير ذلك نحو إقامة كردستان موحدة ليس جريمة، ولكنه أمر بعيد يكمن في غياهب المستقبل، ويتوقف وجوده، أو عدمه، على درجة تطور النضال الوطني في المستقبل، وانتشار الديمقراطية والتقدم الاجتماعي في البلدان، التي تقع فيها أجزاء كردستان، وعلى تطور علاقات الانسجام بين تلك البلدان. في تركيا جزء من كردستان، وهي دولة أطلسية، وفيها حكم ديكتاتوري عسكري. العراق فيه أيضاً جزء من كردستان، وفيها حكم ديكتاتوري شوفيني، ويجب العمل كي تستقل هذه البلدان عن الإمبريالية وعن السوق الرأسمالية، وتوطد

استقلالها، وتشق طريقها التطوري الديمقراطي، وتسير نحو الاشتراكية. وبقدر ما يتحقق ذلك في كل من هذه البلدان، تسير مسألة العلاقات الكردية بين الأجزاء نحو الأفضل. إن وجود شكل من العلاقة الاتحادية بين أجزاء كردستان يتوقف، بالدرجة الأولى، على التطور المستقل لكل هاته البلدان أولاً، وعلى مستوى العلاقات التي يمكن أن تنشأ بين الأنظمة الحاكمة فيها. فمجال النضال الأساسي، من الناحيتين الوطنية والقومية الكردية، هو المجال الوطني. منه يجب أن ينطلق نضالكم، وفيه تصب التضحيات. لذا تكون المهمة الأساس، على المستوى الوطني السوري، الكفاح في سبيل حماية وتوطيد استقلال سورية، وحماية مكتسبات شعبها من الأخطار الإمبريالية والصهيونية المحدقة، وفي سبيل تطورها الديمقراطي".

الجولان - أديغيا وقضية وطن

"إذا بحثت عني يوماً يا صديقي فستجدني بين رفاق بافل"، هامش كتبه مراد يوسف في عام 1953 على الصفحة الأولى من رواية "الأم" لمكسيم غوركي، الرواية التي استعارها في حينه من صديقه عصمت ميرزا، والتي كانت حداً، بعده أرسى مراد خياراته مع شعب مولع بالحرية والعدالة الاجتماعية.

خيار مبنيٌّ على تراكم طويل لأفضل ما ميّز أبناء الجولان السوري عرباً وشراكس بتنوعه الديني والعشائري، خيار قائم على النبل الذي ميّز فرسان تلك الجبال الثلجية البعيدة، موطن الروح...

يكتب صديق مراد الشاعر فؤاد كحل في رسالة حميمة صيف عام 1990:

"الرفيق أبا سامي!

دمُ الجراح يحيط بنا...

وفرح الروح يلوح لنا من بعيد... هل سنصل من خلال الكفاح إلى ذلك الفرح الإنسانيّ الكبير، الذي ترفرف عليه طيور السلام؟ من المؤكد أن النضال يوصل إلى الحرية، النضال البشري بشكله الواسع، بشكله الواسع والشاسع...

والشعر أحد وروده وخناجره الهامة على ما أعتقد".

قد لا يعرف الكثيرون أن ما عُرف بالشراكس في سورية الطبيعية قد هُجّروا إليها أعقاب انتهاء الحرب القوقازية الثانية أواسط العقد السابع من القرن التاسع عشر، وأوطِنوا مواقع مختلفة من التراب السوري، أهمها الجولان، الذي كان قريباً بجغرافيته وبيئته الطبيعية من مواطن الأجداد التي نُزّحوا منها.

فبعد حروب متقطعة استمرت نحو مئة عام شنّت الإمبراطورية القيصرية الروسية حرب إبادة جماعية، حرب تهجير قسري ضد هذا الشعب الصغير المقدام. حرب لم يتعرض لمثلها شعب قبل أواسط القرن العشرين، باستثناء السكان الأصليين في أميركا الشمالية، والأرمن

والسريان في أراضي الإمبراطورية العثمانية. فقد جرت تصفية أكثر من نصف هذا الشعب، واقتلاعه من أرضه وترحيله، فلم يبقَ من قبيلة الشابسوغ مثلاً، وهي من أكبر القبائل الشركسية، في نهاية الحرب، إلا ما يزيد قليلاً عن ألف وخمسمئة. ولم يبق من شعب الوبيخ، إلا أفراد يُعَدُّون على الأصابع. وحتى الذين ظلوا في أرضهم، هُجّروا إلى مناطق أخرى. وفي طريق الهجرة، مات عشرات الألوف، حتى إن السفن كانت تهتدي بالجثث الطافية على الماء. وظلت بعض فئات هذا الشعب تتورع، رغم أنها شعوب ساحلية، عن أكل السمك، لأنه أكل من لحم أجدادهم.

وإذا كانت الإمبراطورية القيصرية الروسية هي التي هجّرتهم، فقد أجهزت الإمبراطورية العثمانية التركية على ما تبقى منهم، فشتتهم ووطّنتهم في مناطق الاحتكاك مع أعدائها حيث الحروب. وكان المثل السائد عند الأتراك، رغم ادعاء الأخوة في الدين: "الشركسي لا يساوي أكثر من خمس بارات". كما ساهمت بريطانيا العظمى أيضاً في مأساة شعوب القفقاس، على عادتها، بخداع الشراكسة ووعودها الفارغة لهم بالإمداد بالسلاح.

عودة العلاقة مع الوطن الأم - وطن الأجداد

في أواسط عام 1953 انتقلت أسرة مراد إلى دمشق وبدأت مرحلة جديدة من النشاط المجتمعي جمعت فيها مراداً مع مجموعة الشباب الشركسي التي لُقّبت في حينها، في أوساط المجتمع الشركسي، بالشباب الحمر، وهي إضافة إلى نشاطاتها السياسية والاجتماعية المنوّه عنها شكلت جمعية ثقافية مصغّرة شاركت في المناسبات المختلفة، كما شاركت في كافة نشاطات الجمعية الخيرية الشركسية التي كانت ساحة للصراعات والتجاذبات الفكرية والسياسية[69]. وقد لعب شباب هاته المجموعة النشطة

[69] يكتب نجدت تحقلخة: "دعمت سياسات الحكومات السورية في خمسينات القرن العشرين النهوض الوطني الديمقراطي من خلال ممارساتها الرافضة للدخول في الأحلاف الاستعمارية (التكتلات العسكرية لحلف الناتو، حلف بغداد، وغيره) وانتهجت سياسة وطنية مستقلة ساعدت على تطوّر حراك جماهيري سياسي على أسس انفتاح ديمقراطي بدأ من خلاله تطوّر علاقات صداقة مميزة

أدواراً مختلفة في الحياة السياسية السورية فانتسب كلاً من مراد وزاراموك ونجدت إلى الحزب الشيوعي، أما عبد الغني فأصبح عضواً في حزب البعث، في حين ظلّ كمال صديقاً لمراد وله مآخذ على الحزب الشيوعي من نواح قومية، وبقي الآخرون أصدقاء شخصيين لمراد وكذلك أصدقاء للحزب الشيوعي.

"مع انفتاح علاقات الصداقة مع الاتحاد السوفييتي، أواخر خمسينيات القرن العشرين، توفرت فرص زيارة بعض الشباب من مدنيين وعسكريين إليه بقصد الدراسة والتدرب، وكان أهمهم الضابط الوطني المرحوم مروان لوستان ذو الميول اليسارية، الذي يمكن عدّه الكشافة والرحالة الأول إلى القفقاس، لأن دورته التدريبية كانت في الأقاليم الشركسية"[70]. وقبل سفره، التقى مروان بمراد مستنصحاً وسائلاً عن كيفية الاستفادة من هذه الرحلة، فكان الجواب: "تعريف الشراكس هناك

ومتعددة المجالات مع الاتحاد السوفياتي. ولم تكن البيئة الشركسية انذاك بمنأى عن هذا، وكانت **الجمعية الخيرية الشركسية** إحدى ساحات التجاذبات الرئيسة".

وقد سعت حينها بعض الشخصيات التقليدية بهيئة الاتجاه السياسي التي كانت في قيادة الجمعية الخيرية الشركسية، وبعضهم معاد للشيوعية والفكر الماركسي، للاستفادة من من هذا الموقع العلني للجمعية لتحقيق أهدافها السياسية والفكرية، فأخذت تستقبل في مقر الجمعية شخصيات ذات أصول قفقازية (داغستانية وشيشانية وشركسية) مثل حفيد الإمام شامل الذي قدم من العربية السعودية، وفُسح له المجال واسعاً التحدث في عدة مناسبات حديث نضح بالعداء للشيوعية وضد حركات التحرر المناهضة للامبريالية والاستعمار؛ كما حضر وقتها من أوروبا الغربية إحدى الشخصيات الشركسية ممن ادعوا مشاركتهم في الحرب الأهلية الروسية ضد الجيش الأحمر، وعلل قدومه إلى سورية برغبته المشاركة في مؤتمر إسلامي كان منعقداً في دمشق، حيث طلب السماح له بإلقاء كلمة كممثل لمسلمي شمال القفقاز، الأمر الذي منعه رئيس المؤتمر قائلاً: "نحن لم ندعُ أحداً ليمثل مسلمي القفقاز"، ولكن سُمح له بتوزيع كلمته مكتوبة على الحضور. وقد قامت قيادة الجمعية الخيرية الشركسية بتوزيع تلك الكلمة في الوسط الشركسي. وقد قام مراد وزاراموك بعد التنسيق مع قيادة الحزب الشيوعي بنشر مقالة في جريدة **النور** توضح موقف مجموعة الشباب الحمر من هذه الشخصية ونشاطها تحت عنوان رئيس على الصفحة الأولى "شاب شركسي يفضح جاسوساً استعمارياً". وبعد تحريض واسع في الوسط الشركسي على كاتب المقالة زاراموك، قامت قيادة الجمعية بفصل الأخير في اجتماع متوتر، ... وقد ساهم هذا الأمر في تعزيز التغيرات في موازين القوى داخل قيادة الجمعية نحو توجهات أكثر انفتاحاً على المواقف الديمقراطية، حدث هذا تحت تأثير نشاط مجموعة الشباب الأحمر ومناصريهم، الذين برهنوا من خلال السمعة الطيبة والإخلاص في العمل والتنزه عن الترشح شخصياً على مواقعهم القيادية المؤثرة. وهكذا تحولت قيادة الجمعية عبر انتخابات ديمقراطية حرّة إلى عناصر أكثر انفتاحاً على قوى اليسار العلمانية ... ويذكر كثيرون نشاطات مميزة للجمعية لدى تولي رئاسة الجمعية من قبل كل من فوزي تسي وجلال أمين.

70) بين قوسين ترد كلمات مراد يوسف، التي وردت في أوراق مخطوطة احتفظت بها عائلته.

في الوطن الأم بأحوال بني جلدتهم هنا، وأن تجلب معك من هناك كل ما تراه مفيداً لتعريف الشراكس هنا عن أحوال بني جلدتهم هناك".

كانت المعلومات شحيحة لدى الجهتين: لدى من بقوا في أرضهم، ولدى من هُجّروا قسراً إثر انتهاء الحرب القوقازية عام 1863 تقريباً. واستمرت الحالة هذه حتى بعد ثورة أكتوبر 1917 بسبب الستار الحديدي، الذي فرضه الغرب الاستعماري على الدولة السوفييتية الوليدة، وبسبب السياسة الستالينية المنغلقة، التي استمرت حتّى بعد وفاته عام 1953. وقد كان انعقاد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي عام 1956 بداية انفتاح بلاد السوفييت، بقومياتها المتعددة، الواسع على العالم.

وبعد عودة مروان من دورته جالباً معه الكثير من الأدبيات الشركسية السوفيتية والمطبوعة بالأحرف السيريلية، قام صلاح جلاحج الخطاط والخبير بتلك الأحرف ومقابلاتها باللغة العربية بإعدادها وتمّ طبعها في كراريس، وقمنا بتوزيعها في الوسط الشركسي، وخاصة بين الشباب، فتعلّم الكثير منهم القراءة والكتابة بوساطتها، وبدؤوا بالتراسل مع الوطن الأم بها. واكتشف بعضهم أقاربه هناك، كما تعلّم الأغاني التي عاد بها مروان من هناك على أسطوانات وأشرطة.

ويقول مراد معلقاً على ما حدث: "شكلت هذه الوقائع زوادة جديدة لإقناع الشباب خاصة، أن الوطن الأم ما يزال مسكوناً في أكثر من مكان بالشراكسة، ويتمتعون بحكم ذاتي ولو محدود". كما يقول بعد هزيمة حزيران 1967 والنزوح الكبير من الجولان: "توسعت هذه العلاقات مع القفقاس بالتدريج، فجاءت وفود من هناك، من مسؤولين حزبيين وحكوميين وفنانين وشعراء، ومن الجنسين، وكلهم شراكسة بكل معنى الكلمة بملامحهم ولغتهم وتقاليدهم، إضافة إلى تمتعهم بثقافات ومعارف واسعة.

أدت هذه الوقائع الجديدة المتجددة إلى ما يشبه الإنعطاف في المفاهيم المغلوطة السائدة آنذاك في المجتمع الشركسي عن الشيوعية والشيوعيين، ولاسيّما في الوسط الشبابي الأكثر تنوراً".

ومن الجدير بالذكر أن مراداً لم يفوّت فرصة وجوده في موسكو أيام

الدراسة الحزبية عام 1962، فأقام علاقات طيبة مع العديد من القيادات الحزبية الرسمية والشعبية، ومع كتاب ومثقفين، كان لها الأثر الطيب في التمهيد لهذه العلاقات، إذ كانت الوفود القادمة من القفقاس تضمُّ العديد من هاته الشخصيات، التي تعرَّف إليها في زياراته لجبال الأجداد.

النزوح من الجولان وما بعده

أفرز النزوح الكبير من الجولان أعقاب الخامس من حزيران 1967 الكثير من المشاكل المعقدة للناس كتأمين المأوى والاحتياجات المعيشية لهذا العدد الكبير من النازحين، ومنها، بل على رأسها: تأمين فرص العمل للشباب، وكان للرفاق في منظمة الحزب في القنيطرة مساهمة فعالة في هذا المجال. وفي الوسط الشركسي، الذي هو موضوعنا، ساهم الكثيرون من نشطاء الجمعية الشركسية وغيرهم، لكن كان للضابط الوطني السابق فخري عمر، أحد قادة حركة 28 أيلول، ولشقيق مراد الأكبر عبد الوهاب (حبَّاب)، دور مميّز في تقديم الخدمات المذكورة، ولاسيَّما تأمين فرص العمل للشباب، ولم ينس الناس إلى الآن هذا الفضل. وقدَّم فخري عمر الكثير من المساعدات إلى الطلاب الموفدين للدراسة في الاتحاد السوفييتي، إذ كان مديراً لفرع شركة الطيران السوفييتية - أيرفلوت. وأصبح صديقاً صدوقاً للاتحاد السوفييتي، وتوفى في موسكو، ودفن في القفقاس بناء على وصيته، وقد ألقى مراد في حفل تأبينه بدمشق كلمة مؤثرة.

ومما أحب أن أذكره[71] أنه حدثت بين مراد وأخيه نجدت، المنتميان منذ أواسط الخمسينيات إلى الحزب الشيوعي، وبين أخيهما الأكبر حبَّاب خلافات سياسية وفكرية في بداية اختيارهما للطريق الشيوعي، لأن الأخ الأكبر كان على تماس وعمل دائم مع الكثير من المحافظين المعادين للفكر الشيوعي، غير أنه أخذ يتّعاون معهما بعد اكتشافه صدق أعمالها، وقد صرح آنذاك تصريحاً معبّراً جداً: "ما العمل؟ إن خيرة الشباب الشراكس

---

[71] والكلام هنا، وما يليه في هذا الفصل، يستند على مخطوطة نجدت تحقاخة شقيق مراد ورفيق دربه.

أصبحوا شيوعيين!".

وأيقظ النزوح، كما يقول مراد، مشاعر الحنين إلى الوطن الأم، والهجرة أو العودة إليه. وتعامل الوطنيون بمرونة مع هذه الظاهرة، التي اكتسبت طبيعة جماهيرية نسبياً، فقد كانت مسألة معقدة لأسباب كثيرة: منها اختلاف نظام الحكم والمجتمع والحياة هناك، في بلاد السوفييت الشركسية، عمّا هو في سورية، وصعوبة التأقلم الآني مع هذه التطورات والتغيرات. فعلى من يرغب في العودة أن يتعرَّف نمط الحياة هناك، قبل أن يحزم أمره. يُقصَد بذلك ألا تُصاب فكرة العودة، ذلك الحق المشروع لشعب تعرَّض لإبادة جماعية وتهجير قسري، بالانتكاس. وتبقى مسألة الهجرة الفردية سهلة نسبياً، إذ يمكن لهؤلاء العودة، إن لم ينسجموا مع المجتمع الجديد. أما الهجرة الجماعية، فهي أكثر تعقيداً، ولا يجوز الإقدام عليها إلا بعد معرفة عميقة للظروف القائمة في البلد المهاجر إليه، ولا يمكن أن تجري إلا بموافقة كلتا الدولتين السورية والسوفييتية.

ويبدو أنه حتى الهجرة العكسية الفردية لم تلق النجاح المأمول لأسباب ذاتية وموضوعية، وكان للعوامل الموضوعية منها الدور الرئيس في نجاح هذه التجربة - العودة إلى وطن الأجداد - أو فشلها ماضياً وحاضراً، وسيكون له هذا الدور مستقبلاً أيضاً، إذ لم تُحل القضية القومية وفق مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها، كما توضح الماركسية اللينينية، ووفق المبدأ اللينيني: "يجب علينا أن نحطم الماضي الدموي القذر، عندما كانت روسيا الرأسمالية تضطلع بدور الجلاد للشعوب الأخرى"، بل جرى حلُّ هذه القضايا بموجب المفاهيم الإدارية والبيروقراطية الاستبدادية الستالينية، وهو ما كان موضع خلاف إيديولوجي واجتماعي جدي بين لينين وستالين، وما يمثله كل واحد منهما.

ورغم ذلك كله، لا يجوز إغفال ما جرى إنجازه، كما يفعل البعض، الذين لا يرون في التجربة السوفييتية سوى استبداد ستالين وعواقب تلك المرحلة من التاريخ، فالشراكسة شأنهم شأن القوميات الصغيرة الأخرى في روسيا القيصرية عموماً، وفي منطقة القفقاس على وجه الخصوص، كانوا في طريقهم إلى الانقراض والذوبان في القومية المسيطرة، كما كتب

والد الشاعر الداغستاني الكبير رسول حمزاتوف، إلا أن مجتمعات وثقافة هاته القوميات أعيد إحياؤها بعد ثورة أكتوبر 1917، وحققت الكثير من الإنجازات، فأقيمت لهم مناطق حكم ذاتي، وإن كانت محدودة الصلاحيات جداً، كما فُتحت لهم آفاق الدراسة المجانية إلى أعلى المستويات، يتعلمون فيها إلى جانب الاختصاصات المختلفة لغاتهم القومية، مما أدى إلى ظهور أدباء وكتّاب وشعراء وعلماء مرموقين على مستوى الدولة الاتحادية، وترجمت الكثير من مؤلفات هؤلاء إلى لغات كثيرة داخل بلاد السوفييت وخارجها، وقد تبوأ العديد منهم مراكز هامة ومرموقة في الحياة الأدبية والثقافية والفنية والعلمية على مستوى الاتحاد السوفييتي. كما نشأت فرق فنية جابت العالم، وتطوّر الفن المسرحي على نحو ندرَ أن يصادف، عند شعب صغير العدد. وجرى إحياء الفولكلور الشركسي، الذي يوازي أحياناً الملحمة اليونانية، غير أن هذا التطور لم يصل إلى مناحي الحياة الأخرى، وخاصة الاقتصادية والاجتماعية العامة منها.

كتب مراد في أحد دفاتره تحت عنوان **"عن المجتمع الشركسي"** عن ضرورة عقلنة المشاعر القومية الشركسية، وإحلال المشاعر الأممية محلها: "لا يعني ذلك طبعاً ما يفهمه البعض، ويروّج له من أنه تخلٍّ عن المشاعر القومية، لأن الفهم الصحيح للأممية لا يتنافى مع مشاعر الإعتزاز القومي، بل هو متنافٍ مع التعصب القومي الأعمى الضار قبل كل شيء بالقوميات الصغيرة. ومن الضرورة ترسيخ الشعور الوطني والروح الوطنية الكفاحية عبر مشاركتنا البناءة والنشيطة في الحياة العامة للمجتمع الشركسي، ومكافحة بقايا تجليات التعصب القومي الشركسي الضار". وحول مفهوم حق تقرير المصير يتابع مراد: "إن التجسيد العمليّ لهذا المفهوم يتمثّل في حق الشركس أن يعرفوا لغتهم القومية، ويتعلموها بوسائلهم الأهلية المجتمعية الخاصة، وأن يمارسوا تقاليدهم الشعبية ويعرفوا تاريخهم وثقافتهم، مع مكافحة الميول الإنعزالية، التي هي مألوفة عند الأقليات القومية تجاه القضايا الوطنية الكبرى".

ولفهم المسألة القومية، الشركسية هنا، لا بُدَّ من التوضيح أن لاهتمامات مراد بالهموم والمشاكل القومية الشركسية، التي نشأ في بيئتها، مبرراتها.

وكانت منسجمة تماماً، وعلى الدوام، مع مفاهيمه الشيوعية الإنسانية، التي آمن بها، ولم يكن بينه وبينها تعارض البتة. وقد واجه الشيوعيون الشراكسة، ومنهم مراد ورفاقه، شأنهم شأن الشيوعيين الآخرين المنتمين إلى الأقليات، مشاكل ذات طبيعة خاصة تتلخص في قضايا الشعوب، التي ينتمون إليها إلى جانب المشكلات الوطنية العامة، وترتب عليهم ورفاقهم تفهُّمها، واتخاذ المواقف الصحيحة منها، وإعادة دمجها في سياق النضال الوطني العام.



مع عدد من قادة جمهورية كاباردينا بلكاريا الشركسية ذات الحكم الذاتي، عام 1975.

في حضرة النبل والفخار[72]

"هذه الذكرى لرجل مثل أبي نبيل يجب أن تكون وقفة لإحياء مُثُل

---

[72] كلمة مراد يوسف في تأبين الضابط المتقاعد فخري عمر. كتب نجدت تحقاخة يقول: "فخري عمر (أبو نبيل) هو أحد أركان حركة 28 أيلول 1961، وكان من أكثر الضباط السوريين تواضعاً وإنسانية. قد لا يوجد أحد في الجولان لا يكنُّ له الاحترام، وينحني إجلالاً لذكراه، نظراً لخدماته الجليلة التي قدّمها بكل تواضع في كل المجالات، ولاسيّما في تشغيل الشباب النازح، وتقديم المساعدات للطلبة الدارسين في الاتحاد السوفييتي. توفي في موسكو، ودفن في القفقاس بناء على وصيّته. جمعت هموم كثيرة العديد من أمثاله وأمثال عرفان لوستان وممدوح أباظة وغيرهم مع مراد ومجموعة أصدقائه، الذين وردت أسماؤهم في أكثر من مكان، هذه المجموعة التي كانت تلتقي في بيت صلاح جلاحج في الشعلان".

الرجولة والكرم، مُثل الوطنية والإنسانية، تلك المُثل العظيمة التي عاش فيها ولأجلها أبو نبيل. ولسنا هنا بصدد تعدادها، بل لاستذكار بعضها، فنحن نعيش اليوم مع ذكراه. تقودنا هذه الذكرى الحزينة والدافئة معاً إلى قريته في مرتفعات الجولان، التي انطلق منها إلى الحياة، فكان شديد التعلق بها. ونحن نعرف أن أكثر المثقفين في بلادنا يأتون من أمثال هذه القرى الفقيرة، أو من الأحياء الشعبية المزدحمة بالكادحين، ثم تُبعدنا أنماط الحياة الجديدة عنها، فأنماط معارفنا ومشاغلنا تنسينا مرابع طفولتنا اليائسة.

لم يكن أبو نبيل من هذا النوع، ظلّ طوال حياته يعدُّ قريته الفقيرة الوعرة أحبَّ بقاع العالم إليه، ويعدُّ أبنائها أقرب الناس إليه. ثم أذكر كيف نما حبُّه لقريته في أيام الشباب إلى حب أعظم، إلى حب لوطنه، فأصبح يحمل بين جنباته أقدس عواطف الحب للوطن وأحرَّها. كنا نلتقي أيام حرب عام 1967 وأيام حرب 1973. وكان، وهو الجنديُّ الذي أصبح بعيداً قسراً عن ساحات القتال، دائم التوتر والحركة، يتنقل بين دمشق وخطوط الجبهة ليتابع أخبار القتال عن كثب، وليقدِّم ما يستطيع، حتى ولو كان أبسط أشكال المساعدة في تحقيق النصر.

ومع الزمن قادته وطنيته العالية إلى احترام أصدقاء وطنه وحبهم، فغدا شديد التقدير للاتحاد السوفييتي، الذي وجد فيه، كما كل الوطنيين، الصديق الوفي والحليف الثابت.

حمل أبو نبيل من مرتفعات الجولان صفات إنسانية رائعة، فمن هوائها النقي اكتسب نقاء الضمير، ومن رياحها العاصفة الغضب المقدَّس على الظلم، ومن صخورها الصلدة قوة الشكيمة وصلابة العزيمة، ومن أعاليها وذراها عزَّة النفس. ولم يكن غريباً على رجل يحمل هاته الصفات أن يتحدى المرض، الذي داهمه منذ زمن غير قصير، ولم يكن غريباً أن يأبى الموت إلا واقفاً.

فتحية لشيخ الشباب في ذكرى أربعينه، وتحية لمرتفعات الجولان الأبيَّة التي خرج من ربوعها، وتحيَّة للجبال البعيدة الشامخة التي احتضنته إلى الأبد.

الباب الثالث

في قضايا التجديد والديموقراطية

ورقة عمل
لاعادة توحيد الشيوعيين السوريين
في حزب شيوعي موحد على اساس
الماركسية اللينينية والاممية البروليتارية

ان اعادة توحيد الشيوعيين السوريين في حزب ماركسي – لينيني – اممي ، في حزب شيوعي كفاحي متلاحم الصفوف ، تمثل [illegible] العمل لتحقيقه بصبر والحاح .

وتنبثق هذه الضرورة بالدرجة الاولى من مبادئ الماركسية – اللينينية والاممية البروليتارية التي نلتزم [illegible] على بدهية ان يكون الشيوعيون السوريون جميعا [illegible] الطبقة العاملة السورية موحدين في حزب شيوعي واحد ، [illegible] من اجل انجاز مهام الثورة الوطنية الديموقراطية على اساس التقدم الاجتماعي والتوجه نحو الاشتراكية وسائر الجماهير الشعبية الكادحة .

ان وجود الشيوعيين السوريين في حزب شيوعي قوي متلاحم الصفوف شرط ضروري لتحقيق وحدة الطبقة العاملة السورية وتعميق العملية الثورية في البلاد .

الحوار الوطني طريقنا إلى مجتمع متقدِّم عادل

في مناقشته لبعض الجوانب الاقتصادية والاجتماعية في بيان الحكومة السورية، بعد ثلاثة شهور من التغيير الوزاري، وفي ظروف اشتداد الأزمة الاقتصادية والاجتماعية في سورية عام 1988، وبعد استشهاده بفقرات واسعة من البيان الحكومي الذي قدّمه محمود الزعبي، رئيس الحكومة آنذاك، يكتب أبو سامي[73]، ويقول:

"لقد تمنت جماهير الشعب وكل القوى الاجتماعية المتضررة من الوضع الاقتصادي والمعاشي السيء، أن تأخذ هذه الوعود الطيبة طريقها إلى الواقع في الحياة العامة، غير أن مجرى الأمور في الشهور الثلاثة الماضية لم يحمل أيّ موشر على ذلك، وبالعكس، فقد استمر تدهور الأوضاع المعاشية ورفع الأسعار من الحكومة والقطاع الرأسمالي الخاص على حدٍّ سواء، وفقدان، أو ندرة، العديد من الأدوية والمواد التموينية وغيرها، وهبطت مجدداً القوة الشرائية لليرة السورية أمام القفزات الجديدة لسعر صرف الدولار في السوق الحرّة السوداء، وحدث ما حذر منه بعض أعضاء مجلس الشعب، الذين أيدوا توحيد سعر الصرف للدولار، بشرط أن لا يجري ذلك على حساب ذوي الدخل المحدود.

لقد تضاعفت معاناة الجماهير خلال هذه الفترة القصيرة أيضاً، وتوسع الخلل بين تكاليف الحياة ودخول المواطنين، ويصدق الاستنتاج نفسه على سير الأمور في ميدان الممارسة والإدارة في دوائر ومؤسسات الدولة...".

وإذ يؤكد مراد في مقالته هذه أن الوعود الحكومية بإزالة مظاهر الخلل الواضح في عمل المؤسسات الحكومية وبنيانها، هذا الخلل الذي يبرز خاصة في عدم احترام القانون، والتقصير وعدم المبادرة الناجمين بشكل رئيس عن ضعف الكفاءة الفنية والمسلكية، إلا أنه يؤكد أن هاته الوعود لم تأخذ طريقها إلى التطبيق في واقع الحياة، "واستمرت الممارسات

---

[73] **صوت الشعب**، العدد 56، دمشق، أوائل آذار 1988.

الروتينية والبيروقراطية والهدر والتسيب وغيره من الممارسات الضارة والخاطئة وغير القانونية، كما لم يلمس العاملون المخلصون في الدولة أية تبدلات تشجيعية ملموسة". ويصل في هذا إلى أن "الأمر كان واضحاً، فالأوساط الطفيلية والبيروقراطية، التي استفادت من هذه الممارسات ونشرتها على نطاق واسع، حريصة جداً على استمرارها، كي تحمي امتيازاتها، التي كدَّستها عبر نشر البيروقراطية والتسيُّب والهدر واللامبالاة وعدم احترام القانون في الإدارات، وعبر تطويق وإزاحة العاملين فيها بجدٍّ وشرف.

وتملك هذه الأوساط من النفوذ وحرية الحركة والتعاون فيما بينها على اختلاف مواقعها داخل المؤسسات الحكومية وخارجها، أكثر بكثير مما يملكه ذوو الإرادة الطيبة والحس السليم من العاملين فيها، رغم أن هؤلاء يشكلون العدد الأكبر، كما ذكر البيان. لكنهم في واقع الأمر مغلوبون على أمرهم، نتيجة ضيق الهامش الديمقراطي، و(فوشان) العناصر والأساليب الطفيلية والبيروقراطية على سطح المجتمع والمؤسسات، وغياب الدور الفاعل للوطنيين التقدميين".

وإذ يتكلم عن المعاناة المريرة للجماهير الشعبية يؤكد: "إن التعرف على معاناة الشعب لا يحتاج إلى جهد كبير، فالشعب يعاني قبل كل شيء وطأة الغلاء الفاحش والاختناقات التموينية، وضعف الإنتاج الزراعي والصناعي. ويعاني مظاهر الخلل الأخرى في مجال الممارسة والإدارة، التي عددها وشجبها بيان الحكومة، ويعاني ضيق الهامش الديمقراطي، الذي لا يتيح له أن يقول كلمته بصراحة، ولا يتيح له التصدي للممارسات الضارة والخاطئة، التي تحيط به في المعمل والدائرة والمؤسسة الاستهلاكية، ناهيك عما يشكله استمرار العمل بقانون الأحكام العرفية من ضغط على الحريات العامة للمواطنين".

وتؤكد المقالة تالياً "أن التطور الاقتصادي والاجتماعي في البلد قد اكتسب آلية خاصة أقوى من البيانات، وهي آلية غير ملائمة لهدف النهوض بالاقتصاد الوطني وتحسين أوضاع الجماهير الشعبية الكادحة، بينما تتناسب هذه الآلية بالدرجة الأولى مع مصالح وأهداف البرجوازية

التجارية، ولاسيّما الطفيلية منها، وبعض الفئات البيروقراطية المشاركة معها، وفي خضم هذه الآلية تلاشى، وما يزال يتلاشى الكثير من المحاولات الجدية، التي بذلت وتبذل من قوى الحكم وخارجه لتحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية،..."، لذا يصبح ضرورةً إعادة النظر في الآلية الاقتصادية والاجتماعية الفعّالة في البلد واتباع سياسة اقتصادية واجتماعية وإدارية مختلفة قادرة على تصحيح مسار الاقتصاد السوري، وفك ارتباطه وتقوية انفكاكه الضروري عن السوق الرأسمالية العالمية. سياسة تعمل على النهوض بالاقتصاد الوطني السوري لمصلحة الجماهير الكادحة والمنتجة أولاً، وهذا هدف واقعي يجب النضال من أجله، وهو ممكن التحقق تماماً "ضمن شرطين أساسيين:

- نشر وإشاعة الحريات الديمقراطية على نطاق واسع للجماهير وقواها الوطنية التقدمية.
- تأمين أوثق درجات التعاون بين كل القوى الوطنية التقدمية الموجودة في البلاد.

ويبين مراد "أن كل إضعاف لهذين الشرطين يؤدي إلى نمو وانتشار نشاطات العناصر والفئات الطفيلية والبيروقراطية وممارساتها، التي تلحق أفدح الأضرار بالاقتصاد الوطني عموماً، وقطاع الدولة على نحو خاص، كما يؤدي إلى إفقار جماهير الشعب وقهرها".

لذا أتت المطالبة بإحداث انفراج في السياسة الداخلية السورية ضمن أولويات التصحيح المطلوب، انفراج قوامه الرئيس:

أ. توسيع الهامش الديمقراطي الموجود في البلاد، ووقف الضغوط على الوطنيين التقدميين، والإفراج عن المعتقلين السياسيين، ومنع أشكال التمييز القومي، الذي تتعرض له الجماهير الشعبية الكردية.

ب. إلغاء قانون الأحكام العرفية، وإحالة مرتكبي الجرائم وأعمال التخريب إلى المحاكم، وتوسيع الحريات الديمقراطية للجماهير الشعبية ومنظماتها النقابية وأحزابها السياسية، وتحسين وتقوية عمل الجبهة الوطنية التقدمية، وتحقيق التعاون بين كل القوى الوطنية التقدمية الموجودة في الحكم والجبهة وخارجها".

الديموقراطية النقابية ... صيانة لحقوق العمال والوطن[74]

في أعقاب المؤتمرات النقابية العمالية في شباط 1989 قيّم مراد يوسف مداخلات النقابيين في المقالة الرئيسة لجريدة الحزب المركزية (صوت الشعب)، بعد الحديث عن الوضع الاقتصادي العام وعن قطاع الدولة، إذ كتب:

"وتميزت المداخلات بالغيرية الشديدة على الاقتصاد الوطني وبضرورة إنهاضه من كبوته، وقدّمت اقتراحات بناءة لهذه الغاية، وتمركزت خصوصاً على إظهار الخطر الجدي الذي يحيط بقطاع الدولة الاقتصادي، وحذرت من تزايد التآمر الخارجي عليه الصادر من الامبريالية، ومن التآمر الداخلي الذي تنفذه البرجوازية الطفيلية.

فهذه الشريحة البرجوازية الجشعة تغلغلت عبر أقنية وأساليب ملتوية إلى المعامل والشركات، وأوجدت لنفسها شبكة من العلاقات، ونشرت الروتين والبيروقراطية في الإدارات، وتستثمر ذلك لأهدافها الاحتكارية، ملحقة أفدح الأضرار بالمنتجين.

... وانتقد النقابيون الأساليب الفردية والفوقية المنتشرة عموماً عند الكثير من الإداريين وفي الإدارات، وتجاهلهم لرأي اللجان النقابية أو التفاهم عليها، وأشاروا لما يحدث من عرقلة للإنتاج وهدر نتيجة ذلك. وحذروا من أن استمرار هذه الأوضاع سيؤدي في النهاية إلى إهلاك قطاع الدولة وإنهاك الاقتصاد الوطني".

وإذ يقيّم أبو سامي المداخلات التي تتناول حياة ونشاط الهيئات النقابية، يبيّن وجود حالات متنوعة فيها، فمنها حالات إيجابية، إذ يجري تعاون جيّد بين النقابيين، وتُنظّم الاجتماعات، وتُدرس مطالب العمال، ويُدافع عنها أمام الإدارات، وهنا تُصان إلى حدّ ما حقوق العمال، ويبدو أن هذه الحالات قليلة. ومنها حالات سلبية، حيث يسود التسيُّب أو الروتين واللامبالاة، وتتحول الهيئات النقابية فيها إلى تابعة للإدارات والأجهزة، وتنعزل عن قواعدها العمالية، وتكاد هذه الحالات تكون هي السائدة. ثم

---

[74] مقتطفات من مقالة مراد يوسف: هموم الطبقة العاملة ومطالبها، **صوت الشعب** العدد 61، دمشق، أواسط آذار 1989.

يقول:

"أشار عدد من النقابيين إلى ضرورة إشاعة الديمقراطية في البلاد وفي النقابات، وعقّب بعض المسؤولين على هذا المطلب بأن الديمقراطية موجودة، وتمارس على نحو واسع، خصوصاً في النقابات. ويُفهم من هذا التعقيب وكأنما المقصود بالديمقراطية النقابية أن الفرصة تتاح نسبياً للنقابيين كي يتكلموا في الاجتماعات والمؤتمرات، دون أن يتعرضوا لقمع مباشر، وأن الهيئات النقابية تتجدد بطريق الانتخاب كل خمس سنوات. وما شابه ذلك من أشكال وأساليب تكوّن في الحقيقة الهامش الديمقراطي الموجود في البلاد وفي النقابات، لكنّها في الحقيقة أشكال محددة وغير كافية.

فالديمقراطية النقابية نظام متكامل أكثر اتساعاً وتنوعاً وحرية من الهامش الديمقراطي، الذي تمارس فيه الحرية العمالية في أطره المحدّدة المعروفة. والديمقراطية النقابية يجب أن تتيح لجماهير العمال أن تنتخب ممثليها بحرية واسعة، دون خوف من العقبات أو العقوبات، كما تتيح للنقابيين أن يعبّروا في الاجتماعات والمؤتمرات عن آرائهم كذلك، وأن يكون بمقدور التنظيم النقابي ممارسة أشكال الضغوط السلمية الجماهيرية على الإدارات لتحقيق مطالبها وحقوقها المشروعة.

وعلى سبيل المثال، فقد وضعت النقابات عبر اجتماعاتها ومؤتمراتها كثيراً من النقد على الممارسات الضارة في الإدارات، وحذرت مراراً من النتائج السلبية على الإنتاج والاقتصاد، وقدّمت دوماً اقتراحات بناءة لمعالجتها، وطالبت تكراراً بتحسين الأوضاع الاجتماعية والمعاشية للعمال، وبتعديل العديد من القوانين، مبيّنة ارتباط ذلك كله بحماية الاقتصاد الوطني ومؤسسات قطاع الدولة وزيادة الإنتاج وتحسينه. غير أنّ ذلك لم يتحقق، وبالعكس، استمرّت الأوضاع تتدهور في هذه المجالات المتعلقة بصميم الحياة الاقتصادية والإنتاجية من جهة، وأوضاع جماهير المنتجين من جهة ثانية، ولم يستطع التنظيم النقابي أن يفعل شيئاً ليحول دون ذلك.

ويعرف الجميع أن مؤتمر الإبداع الوطني عُقد في إطار الهامش

الديمقراطي ذاته، واتخذ توصيات وتوجهات حسنة بالفعل في المنظور الاقتصادي والاجتماعي والإداري المناسب للبلد، وها قد مضى أكثر من عام عليه، دون أن يظهر أي أثر من التنفيذ لاتجاهاته الأساسية، ولا ندري ماذا فعل ويفعل الاتحاد العام للنقابات، الذي نظم المؤتمر وقاده لتنفيذ توجهاته وتوصياته، التي وردت في التقرير العام وفي البيان الختامي للمؤتمر.

الديمقراطية النقابية لا بُدّ أن تشمل واجب وحقّ التنظيم النقابي بمتابعة تنفيذ قراراته ومطالبه، والنضال من أجلها، وواجبه وحقه في ممارسة الضغط الجماهيري السلمي على الجهات المسؤولة لدفعها إلى تلبية المطالب العمالية والنقابية، وإلزامها بحماية مصالح الطبقة العاملة.

ثم إن الديمقراطية النقابية إنما هي امتداد للحريات الديمقراطية، التي يجب أن تتجسّد في بلادنا بهوامش ومساحات ديمقراطية أوسع من الهامش الموجود حالياً. ومن هنا، فقد وضع حزبنا في مقدمة مطالبه وأهدافه: إحداث انفراج سياسي واسع، ونشر وإشاعة الحريات الديمقراطية في البلاد".

الانعطاف الديموقراطي التقدمي في البلاد مطلب جماهيري[75]

في معرض إجابة مراد يوسف عن سؤال صحفي: كيف تقيمون الوضع في سورية؟ في وثائقكم تؤكدون المسألة الديمقراطية، كيف توازنون بين تبنيّ مطالب الجماهير الاقتصادية والمطلب الديمقراطي العريض؟ يقول:

"... يمكن هنا أن نشير فقط باختصار شديد إلى بعض النقاط المتعلقة بتقييمنا للوضع في سورية، فأول ما يلاحظ في هذا المجال هو اشتداد وتفاقم الأخطار الإمبريالية والصهيونية والرجعية، التي تهدّد شعبنا ووطننا من الخارج والداخل.

---

[75] وهو مضمون تقييم الحزب الشيوعي السوري - منظمات القاعدة للوضع في سورية أوائل ثمانينيات القرن العشرين. وقد صدر في البلاغ الصادر عن المجلس الوطني للحزب في أوائل شباط عام 1981، وأعيد نشر القسم المتعلق بالوضع الداخلي في جريدة **صوت الشعب**، أوائل نيسان 1981.

ففي الخارج تنهال الأخطار من قوى معادية عديدة في رأسها الإمبريالية الأمريكية والأطلسية وحليفتها الصهيونية، وتنشط في خدمتها الرجعية العربية. وتفجير الوضع في لبنان مؤخراً جزء من هذه الأخطار وليس كلها بطبيعة الحال، رغم كل خطورته وحساسيته. ومن الطبيعي أنه ينبغي مجابهة جميع الأخطار الخارجية المعادية بحزم، وشعبنا عنده تقاليد عريقة في ذلك.

غير أننا **لسنا مخطئين إذا قدَّرنا أن الخطر الأشدَّ يأتي، ويمكن أن يأتي من الداخل، بسبب التبدلات التي طرأت على موازين القوى الطبقية والسياسية في البلاد**. فالطبقات والقوى الرجعية التقليدية انتعشت في السنوات الماضية، **ونمت واستشرت**، في الوقت نفسه **طبقات وقوى رجعية حديثة، وفي مقدمتها البرجوازية الطفيلية والبيروقراطية. بينما أضعف دور الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين والمثقفين الثوريين والأحزاب والقوى الوطنية التقدمية**، وهذا أدى ويؤدي إلى نشوء أزمة اقتصادية واجتماعية في البلاد، وتفاقم أزمة الغلاء والسكن، وتدهور أوضاع الجماهير الكادحة، في حين تكدِّس البرجوازية الطفيلية والبيروقراطية الثروات دون حساب، وتنشر في البلاد مظاهر المجتمع الاستهلاكي.

من هنا **فإن إعادة التوازن الاستراتيجي، الذي اختل مع العدو الإمبريالي الصهيوني** نتيجة صفقة كامب ديفيد وخيانة السادات وتواطؤ السعودية وغيرها من الرجعية العربية، إن إعادة التوازن هذه يجب أن **تشمل أيضاً وعلى نحو خاص الجبهة الداخلية، التي اختل فيها التوازن أيضاً بين الطبقات من حيث أوضاعها ومواقفها وقدرتها على الحركة والمبادرة**.

فالقدرات الاجتماعية والبشرية الكامنة في الطبقة العاملة السورية تشكل أساس ومقدمة الطاقات التي يملكها الوطن، إضافة إلى طبيعتها الثورية الحازمة وطنياً واجتماعياً.

غير أن **البرجوازية الطفيلية أصبحت تملك كامل الإمكانات لحرية**

الحركة والمبادرة، مما لا تملكها الطبقة العاملة الآن، وهذه الحالة الطبقية تشكل أزمة جدية في بلادنا، التي تواجه هجمة استعمارية صهيونية من أخطر الهجمات.

ومن هنا كان تأكيدنا دائماً على **الأهمية الملحة للانعطاف الديمقراطي التقدمي المتكامل والملموس، الذي يجب أن تناضل من أجله كل الجماهير الشعبية[76] وكل القوى الوطنية التقدمية، لكي تستطيع حماية الموقف الوطني الذي تتخذه سورية، وتعيد إليه محتواه الكفاحي الشعبي الديموقراطي** والتقدمي.

ولا بُدَّ للمرء أن يتساءل، وهو يرى الأخطار المحدقة ببلادنا وبالثورة الفلسطينية وبحركة التحرر الوطني العربية كلها، وبحكم الدور الهام الذي تشغله بلادنا بوصفها مركز المجابهة الأساسي، لا بُدَّ أن يتساءل: ترى هل هجمة الرجعية الداخلية، التي شكل تنظيم الإخوان المسلمين قوتها الصدامية في العام المنصرم هي آخر هجمة لها من هذا القبيل؟! ومع احتمال حدوث هجمة رجعية داخلية أخرى، فكيف ينبغي أن تكون المجابهة؟!

ينبغي أن تكون المجابهة بتدابير اقتصادية واجتماعية وسياسية متكاملة وملموسة لمصلحة الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين والمثقفين الثوريين وجميع الشغيلة والكادحين وجميع الوطنيين التقدميين، سواء كانوا داخل الجبهة والحكم أم خارجها، وفي سبيل هذا نحن نعمل ونناضل.

لقد قلنا في وثائقنا بأنه لا يوجد حاجز، أو فاصل، بين السياستين الخارجية والداخلية، وإنما هما مترابطتان ومتكاملتان، ولكلٍّ منهما تأثيرها على الأخرى إيجاباً أو سلباً. وفي ظروف بلادنا، فإن السياسة الوطنية

---

76) يكتب مراد في نهاية العقد التاسع من القرن العشرين: "والحوار ضروري لمجتمعنا وقواه الوطنية المختلفة، ولجمهور المثقفين، وهو ضروري لطبقتنا العاملة. فالطبقة العاملة السورية هي طبقة فتية لم تتكون بعد كطبقة بذاتها ولذاتها، كما يقول ماركس، فهي لم تستكمل بعد ملامحها الفكرية والسياسية، وإن تكوُّن الوعي الخاص بها سيحتاج إلى مناقشات وصراعات فكرية واسعة وعميقة، تنصهر فيها وتتلاقح وتتنابذ المفاهيم والأفكار والمواقف المختلفة داخل صفوفها بالارتباط مع الصراع الطبقي وتجربته ودروسه.

وإن الحوار الديمقراطي الواسع والعميق والموضوعي هو وحده الذي يُسهّل ويُسرّع تكوُّن هذا الوعي".

الحازمة ضد مخططات الإمبريالية الأمريكية الأطلسية والصهيونية والرجعية العربية والداخلية... كلها لا بُدَّ أن يكون لها محتوى اقتصادي واجتماعي تقدمي وطابع ديمقراطي واسع للجماهير الشعبية والوطنيين التقدميين، بالإضافة إلى علاقات التعاون والصداقة، التي ينبغي أن تكون أوثق ما تكون مع الاتحاد السوفييتي وسائر بلدان المنظومة الاشتراكية، وخصوصاً في ميدان التنسيق السياسي والتعاون الاقتصادي، والاستفادة من الإمكانات الكبرى التي تتيحها لبلادنا معاهدة الصداقة والتعاون المعقودة مع الاتحاد السوفييتي.

وهذا كله برأينا اتجاه سياسي وطني وتقدمي وديمقراطي متوازن.

ونحن في نهاية الأمر لسنا سوى واحدة من القوى الوطنية التقدمية في البلاد، وهذا هو رأينا واتجاهنا الذي نناضل من أجله، وليس عندنا تردد أو وهم بأن تحقيق هذا الاتجاه إنما يتم عبر النضال الشعبي الجماهيري وعبر نشاط القوى الوطنية التقدمية وتعاونها جميعاً، وجهودنا مكرسة للنضال في سبيل ذلك.

وكما يُرى، فليس هناك أي تعارض في مطالبنا وأهدافنا وشعاراتنا بين الموقف الوطني والتقدمي الاجتماعي والديمقراطية للشعب، وبالعكس إنها مطالب وأهداف متلازمة ومتكاملة ومتوازنة، الفصل بينها هو الذي يخل بالتوازن،...

إن الديمقراطية الواسعة للطبقة العاملة والفلاحين الفقراء والجماهير الشعبية عموماً هي التي تضمن استمرار هذه القوى النشيط في الحياة السياسية[77]، وهي القوى الاجتماعية التي تشكل أساس الصمود والسياسة الوطنية الحازمة المعادية للإمبريالية والرجعية".

---

[77] يتحدث مراد عن رؤيته لدور حزبه الشيوعي السوري في هذه الصيرورة قائلاً: "إننا نطمح لأن يكون الحزب الشيوعي السوري حاضناً ومدرسة طليعية لتكوُّن ونضوج وعي الطبقة العاملة، وليس فقط لتكوُّن وعي أعضائه فقط، وسيتمُّ ذلك من خلال الحوار الديمقراطي، الذي يتناول كلَّ المسائل، ويحقق انصهار الآراء والمواقف وانتصار ما هو ثوري وديمقراطي، وتعزيز وحدة الحزب وإغناء فكره وحياته، من خلال تطوُّر وعيه ووعي الطبقة نفسها".

رسالة اخبارية الى اللجان المنطقية للحزب الشيوعي
السوري - منظمات القاعدة

الرفاق الاعزاء
نرسل اليكم صورة عن الرسالة التي تقدم بها الرفاق الثلاثة
وحيد مصطفى واحمد عرب وحسين الشيخ الى قيادة الحزب
للاطلاع.
وقد استلمنا هذه الرسالة عن الرفيقين وحيد مصطفى
واحمد عرب اللذين حضرا بداية الاجتماع الدوري المشترك
للمكتب السياسي ومكتب السكرتاريا، واعلنا انهم - اي الرفاق
الثلاثة - قرروا قطع صلتهم بالحزب الشيوعي السوري - منظمات
القاعدة، ووضع انفسهم تحت تصرف الرفيق خالد بكداش،
منطلقين في ذلك من قناعتهم بالعمل لوحدة الشيوعيين السوريين.
واجابهما الرفيق ابو سامي باسم الاجتماع: بان هذا
قراركم انتم، ولكم الحق في ذلك، لأن الحزب، وكذلك
الفصيل، هو اتحاد طوعي للأفراد الذين يختارون الالتزام
به عن قناعة، والاستمرار الوجود والالتزام فيه، او الخروج منه،
او الانتقال الى حزب او فصيل آخر يقرره كل فرد باختياره
وحسب قناعاته.
ونحن لابد ان نشعر بالألم الآن لاننا نفترق هكذا
بعد ان عملنا معاً لسنوات طويلة، ولأنه كان الافضل لنا جميعاً
لو انكم اعلنتم هذا الموقف منذ البدايات، وهو ما اقترحناه عليكم
مراراً. لأن ذلك كان كفيلاً بان يوفر علينا الجهد
غير القليل الذي هدرناه في نوع من الجدل غير المبرر.
ونحن حريصون على استمرار العلاقات الرفاقية والانسانية الطيبة
بيننا. ونتمنى لكم التوفيق في الفصيل الشيوعي الشقيق الذي تذهبون اليه،
وان يكون وجودكم فيه عنصراً ايجابياً لمصلحة تقويته وتوطيده، ولمصلحة

الحفاظ على العلاقات الحسنة التي امكن تحقيقها بين
الشيوعيين السوريين جميعاً ، ولدفع عملية التقارب
والتعاون والتوحيد الى الامام على طرق صحيحة ومتقدمة .
ونحن واثقون اننا سنعود ونلتقي في صفوف
الحزب الشيوعي السوري الموحد الذي لابد أن نتوصل
اليه عاجلاً أم آجلاً .
وبعد توديع الرفيقين بحرارة وعفا درستها وتابع
الاجتماع جدول اعماله ، وقرر توجيه هذه الرسالة الإخبارية
الى اللجان المنطقية واطلاعها على رسالة الرفاق ومناقشتها
في الاجتماع القادم للجنة المركزية ، واتخاذ القرارات
المناسبة لمتابعة نشاطات الحزب السياسية والجماهيرية ،
واعمال التحضير للمؤتمر السابع ، والمسائل المطروحة في
مجال الحوارات الرفاقية مع الفصائل الشيوعية الشقيقة .
مع تحياتنا وتمنياتنا الطيبة .

عن الاجتماع المشترك
للمكتب السياسي ومكتب السكرتاريا
في ٢٧ / ١١ / ١٩٩٠

الامين الاول للجنة المركزية
مراد يوسف

خلال العام الأول للانقسام الحاصل في الحزب الشيوعي السوري عقب عقد المؤتمر الخامس عام 1980، وضمن إجابته على مجموعة من الأسئلة، التي تتناول بعض القضايا التي تهمّ الشيوعيين السوريين، وتبرز فيها توجهات الحزب الشيوعي السوري - منظمات القاعدة يجيب مراد

يوسف الأمين الأول للجنة المركزية على التساؤل حول الموقف من الفصائل الشيوعية الأخرى، فيبرز موقف مبدئي رائد لأبي سامي، إذ يقول:

" بيننا وبين ***"حركة اتحاد الشيوعيين"*** و***"حركة المناضلين في سبيل وحدة الحزب"*** علاقات طيبة قائمة على أساس الحوار الرفاقي والأعمال المشتركة، وقد أثمر هذا الحوار بياناً سياسياً حزبياً صدر عن الفصائل الثلاثة في أوائل كانون الثاني المنصرم، وهو بيان جيد، واستقبل بارتياح من الأوساط الشيوعية والتقدمية والجماهيرية.

ونحن نتابع ونطور هذه العلاقات الرفاقية، ونعمل على توسيعها، ليشمل الحزب الرسمي[78] أيضاً، ونبذل جهودنا في الوقت نفسه لتقوية حزبنا - منظمات القاعدة في جميع المجالات، وهما ، أي: الحوار وتقوية الحزب، يصبَّان في اتجاه واحد وهدف واحد بنظرنا، وهو: زيادة فعالية الشيوعيين السوريين في حياة البلاد، وإعادة بناء الحزب الشيوعي السوري الموحّد على أسس مبدئية راسخة، كي يمارس دوره الطليعي بصورة كاملة، بوصفه حزب الطبقة العاملة السورية، حزبها الماركسي اللينيني الكفاحي.

ونحن ننظر للمستقبل بتفاؤل، فالانقسام سيء، لكن الاستسلام له كارثة، ويجب البحث عن طريق العمل من أجل الوحدة من خلال الأعمال الحية والممارسة النشيطة.

إن الوضع الذي نشأ في أيار 1980 لم يتكون فجأة، ولا فقط من الصراعات التي استمرَّت في القيادة بعد المؤتمر الرابع عام 1974. إنه وضع تكوَّن تاريخياً كحصيلة لأزمة عميقة وقديمة في قيادة الحزب، ومن خلال رؤيتنا للواقع الذي نشأ ومعاناتنا الحزبية توصلنا إلى الاستنتاج بأن الانتقال من حالة الانقسام إلى حالة الحزب الواحد يحتاج إلى فترة انتقالية، يتم اجتيازها عبر الحوار الرفاقي والأعمال المشتركة بين الشيوعيين على

---

[78] وهو الفصيل الشيوعي، الذي استمر خالد بكداش في قيادته إلى حين حدوث انقسام عام 1986، إثر عقد خالد بكداش مؤتمره الخاص بجماعته خلافاً لإرادة كل المكتب السياسي ولأكثرية اللجنة المركزية الساحق آنذاك .

اختلاف تنظيماتهم، ويمكن أن تنجز خلالها خطوات تنظيمية توحيدية مدروسة، تؤدي في النهاية إلى إعادة الوحدة التامة للحزب. وذلك لا ينفي، ولا يجوز أن ينفي النضال الفكري الثابت ضد الآراء الانتهازية اليمينية منها و*اليسارية*.

لقد نجحنا حتى الآن، رغم قصر المدة، في إيجاد مناخ ودي بين أوساط واسعة من الشيوعيين، وتوصلنا إلى عمل سياسي وحزبي هام يشكل مشترك تمثل في البيان الذي أشرت إليه، وهو بيان ذو طابع توجيهي وتحليلي من الناحيتين السياسية والحزبية، ونحن نطمح إلى نشر هذا المناخ، ليشمل جميع الشيوعيين السوريين، الذين ينتسبون بالأساس إلى الحزب الشيوعي السوري بلا استثناء، ونحن نلمس تعاطفاً عميقاً مع هذا التوجه في قواعد الحزب، الذي يقوده (المكتب السياسي) نفسه".

مداخلة في المؤتمر السابع الموحّد[79]

"... ومن الطبيعي أن تتسم أفكار المندوبين بكثرة من التلاوين والاجتهادات، والتي سيحدد العقل الجماعي للمؤتمر عبر التفاعل بينها، بين مختلف الآراء، وحدة التوجُّه الفكري العام، والخطة السياسية والتنظيمية، ويرسّخ وحدة الإرادة والعمل.

ويستدعينا زخم المواضيع، التي تدور حولها اهتمامات المندوبين، أن نشير إلى المواضيع الأكثر أهمية، ومنها:

أولاً- تكريس الوحدة وترسيخها في الحزب الموحَّد، مع ضمان تعددية الرؤية فيه وفعاليته وحركته.

ويبرز التوفيق بين هذه الصفات في مقدمة مهام المؤتمر والحزب الذي سينبثق منه، وهي مهمة جدية وجديدة علينا، لأننا لم نمارسها، أو لم نتقن ممارستها في السابق.

ورغم أن الكثير منا يرددون في يومنا الإيمان بالديمقراطية وباحترام التعددية، غير أن الواحد منا، قليلاً ما يعرف التعامل معها بروح جماعية.

---

[79] هذه الفقرة جزء من مداخلة أبي سامي في المؤتمر السابع الموحّد للحزب الشيوعي السوري المنعقد عام 1991.

وقد عانينا في الماضي من قمع الرأي باسم الوحدة، ومن شرخ الوحدة... أيضاً باسم الوحدة. وهبط نشاط الشيوعيين نتيجة ذلك، ووقعت الانقسامات.

ثانياً- أن يقترن العمل التوحيدي في المؤتمر، وفي الحزب القادم الموحَّد، بعمل تجديدي ملموس في أنماط التفكير، وأساليب العمل، وفي تركيب الهيئات الجديدة، وإشاعة الديمقراطية والعدالة والإنسانية في حياتنا الداخلية.

وينبغي أن يكتسب هذا العمل التجديدي طابع الاستمرار والديمومة في الحزب ولدى جميع أعضائه. ويعني التجديد، في مقدمة ما يعنيه، تجديد أنفسنا وتحرير عقولنا من الجمود الفكري والعقائدي، وابتكار أساليب جديدة للعمل، وتنمية روح المبادرة والإبداع في صياغة القرارات وفي تنفيذها، والتحرر من الأساليب البيروقراطية والفردية، وأن نتعلّم ممارسة الموقف العادل والإنساني في التعامل مع الآخرين وتقييم عملهم.

ولا نبالغ إذا قلنا بأن الحزب القادم سيحتاج إلى جهود جماعية لإشاعة العدالة والإنسانية في صفوفه كلها، نتيجة غياب هاتين الصفتين في كثير من الحالات عن الحياة الحزبية، رغم كونهما صفتين أساسيتين جداً في النظرة الماركسية للحياة.

ثالثاً- أن نتعلم ونتقن عقد المؤتمر العلني، وهذه مهمة جديدة وجدية أمام حزبنا أيضاً، لأننا لم يسبق لنا أن مارسناها.

وعقد المؤتمر بصورة علنية وبحضور وفود من الأحزاب الوطنية التقدمية، وفي مقدمتهم وفود حزب البعث العربي الاشتراكي وأحزاب الجبهة، وممثلو الحكومة ووفود عن المنظمات الشعبية والجماهيرية والمهنية وعن أوساط المثقفين. وإلى جانبهم وفود وممثلون عن أحزاب شيوعية وعمالية وقومية تقدمية عربية وغير عربية، وأحزاب وحركات من البلدان العربية الشقيقة وبعض البلدان المجاورة. وهذا عمل جديد علينا تماماً، وجديٌّ تماماً.

ويمكن القول إننا في قيادتي الحزبين لم نتخذ القرار به بصورة اعتباطية أو متسرّعة، بل بروح المسؤولية والجدية، ومقدرين ما يفرضه

علينا من التزامات. وهذا ما حاولنا عمله، فوجدنا عوامل واقعية وجدية تدفعنا للإقدام على علنية المؤتمر، ومنها:

أ. أن الحزب منذ منتصف الستينيات تدرَّج في العلنية، ووصل بأساليب نشاطه السياسية والجماهيرية وحتى التنظيمية إلى مستوى واسع من العلنية، ولاسيَّما منذ تأسيس الجبهة الوطنية التقدمية عام 1972، وصار الحزب من الناحية العملية حزباً علنياً، وصارت كوادره معروفة إلى حد كبير.

ب. أن الهامش الديمقراطي الموجود في البلاد هامش حقيقي وثابت، وربما لا نخطئ إذا قلنا أنه صار من ثوابت النظام منذ تأسيس الجبهة.

ورغم محدودية هذا الهامش الديمقراطي بالمقارنة مع الديمقراطية الواسعة التي نطالب بها ونعمل لها، فهو أفسح ويفسح المجال أمام حزبنا وعدد من الأحزاب الوطنية والتقدمية الأخرى لممارسة النشاطات وتوسيعها.

وعندنا تقدير بأننا نحن الشيوعيين، وربما غيرنا أيضاً من القوى الوطنية التقدمية المكوِّنة للجبهة أو العاملة خارج أطرها، لم نملأ المساحات التي يتيحها هذا الهامش الديمقراطي، رغم ضيق حدوده عن المستويات المطلوبة، وذلك بسبب قصورنا نحن من النواحي الفكرية والسياسية والعملية، وبسبب أوجه ضعف في الكفاءات وروح المبادرة والجرأة والعمل الإيجابي السلمي والديمقراطي المسؤول والخلاق.

ت. استقراء مجمل الأوضاع الداخلية في البلاد، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، يقودنا إلى ترجيح الاستنتاج بأن اتجاه الحكم لن يكون نحو تقليص أو إلغاء هذا الهامش الديمقراطي، بل نحو توسيعه. ولو أن ذلك يمكن أن يجري بالتدريج والخطوات الملموسة، وربما لا نخطئ إذا عددنا موافقة السلطة على علنية مؤتمرنا مؤشراً ملموساً على واقعية هذا الاستنتاج.

وفي مثل هذا الوضع يكتسب إقدامنا على عقد المؤتمر بصورة علنية تجسيداً حياً للتعاون البنّاء القائم منذ سنوات طويلة بين حزبنا وحزب البعث والأحزاب المشاركة في الجبهة، كذلك وتجسيداً لنمط من التعددية

السياسية والحزبية القائمة في البلاد، وللعمل المشترك من أجل تثبيت الهامش الديمقراطي الموجود وتوطيده وتوسيعه وتعميقه، ولترسيخ التعددية السياسية والحزبية وتطويرها وقوننتها.

ث. واضح تماماً أن الديمقراطية هي العنوان الأكبر للتغيرات العميقة الجارية في أنحاء مختلفة من العالم بدرجات وأشكال مختلفة. والطابع العالمي لهذه التحولات الديمقراطية إنما هي حصيلة للنزوع المشروع إلى الديمقراطية الكامن والظاهر في كل بلد من بلدان العالم، وبضمن ذلك في بلدنا، والظروف الخاصة بكل بلد هي التي تتحكم طبعاً في تحديد طرائق التحول الديمقراطي ومستوياتها ودرجاتها فيه.

رابعاً- وحدة العالم رغم تناقضاته.

توصّل العمل التحضيري المشترك للحزبين إلى مقدّمات طيبة لهذا الموضوع، وجاء في "إعلان الوحدة" أن الاجتماع المشترك للمركزيتين "ينظر إلى المتغيرات بشعور عميق من المسؤولية، ويدرك أن البشرية قاطبة دخلت في السنوات الأخيرة عصراً جديداً غدا فيه شاخصاً لأول مرّة أمام الإنسان: مسألة أن يكون أو لا يكون! وأصبح التعاون بين الشعوب والأمم لصيانة الحياة على الكوكب الأرضي ودرء كوارث الفناء الجماعي، في مقدّمة الأوليات"، وأن "عالم اليوم يعيش حالة مخاض عسير من المجابهة، والحرب الباردة، والنزاعات الإقليمية المدمّرة، إلى التحاور والتفاهم والتعاون بين الدول والشعوب".

نريد لمندوبي منظماتنا إلى المؤتمر أن ينظروا إلى جملة هذه المتغيرات في هذه المرحلة الانتقالية المتحركة جداً بعقول باحثة ومنفتحة، وبروح التطلع إلى المستقبل بموضوعية وثقة،... بروح كفاحية مقدامة ورصانة علمية واقعية. وهادفين من ذلك إلى السعي، بالدرجة الأولى، إلى تغيير أنفسنا ومنظماتنا وحزبنا إلى الأفضل، وإلى الإسهام النشيط في تغيير واقع بلدنا إلى الأفضل بروية وثبات.

خامساً- وطبيعي أن يكون للمؤتمر موقف واضح من منطلقات الحزب النظرية والسياسية والعملية:

وفي هذا المجال تضمّنت المشاريع والأدبيات الصادرة خلال التحضير

للمؤتمر توجهات معقولة تصلح أساساً جيداً لما سيصدر عن المؤتمر نفسه.

حدَّد "إعلان الوحدة" مثلاً، "أن الحزب الشيوعي السوري، سيستمر على الاسترشاد بالمنهج الماركسي اللينيني دليلاً في العمل والتحليل، والتزود بكل ما هو ديمقراطي وإنساني وتقدمي في التراث العربي والعالمي، وفهم تأثيرات الثورة العلمية التكنيكية العاصفة على التطور الاجتماعي".

كما أكد الإعلان "أن الاشتراكية هي خيارنا وهدف نضالنا".

وهكذا يتقدم حزبانا إلى المؤتمر الموحَّد، محافظين على الهوية الشيوعية الماركسية واللينينية، ولكن ليس بقوة الاستمرار والتعصب، وإنما بروح التجدد والتجديد، بروح التخلي عما فات أوانه وتبين خطؤه، والأخذ بما أعطته وتعطيه "شجرة الحياة الدائمة الخضار" من ثمار.

ويتقدم حزبانا إلى الاندماج في حزب واحد تتعمق في صفوفه مشاعر الاعتزاز بالانتماء إلى هذا الوطن والمشاعر الوطنية الكفاحية، ويتعمق فيه أكثر وأكثر حب الوطن والشعب الكادح، وروح التضحية وإنكار الذات في سبيلهما.

أخيراً- إن المندوبين جميعاً سيكونون حريصين على الطابع الديمقراطي الواسع للمؤتمر، وعلى دوره بِعَدِّه الهيئة العليا في الحزب وعقله الجماعي.

والمؤتمر ليس جسماً ضبابياً، وإنما هو جسم إنساني اجتماعي مؤلف من أفراد مناضلين واعين ومسؤولين.

نريد لأنفسنا ولكل رفاقنا المندوبين أن نمارس حقنا كاملاً في التعبير عن آرائنا وأفكارنا بحرية، ولا حاجة تدعو إلى حجب أفكارنا وآرائنا بسبب علنية المؤتمر، أو لأي سبب آخر، فسياستنا واضحة وواحدة ووحيدة بالقول والفعل، وهي معروضة في البلاد للمناقشة علناً داخل الحزب وخارجه.

ونحن مع أوسع الديمقراطية في المؤتمر وخارجه. وممارسة الديمقراطية يجب أن تكون عملاً واعياً ومسؤولاً بكل معنى الكلمة، ولعلّ

أصعب ما في الديمقراطية ممارستها التي تتطلب المعرفة والجهد والكفاءة.

نتقدم إلى مؤتمرنا لنعلن فيه: نعم، نحن - هؤلاء الشيوعيين السوريين - نواصل درب نضالنا، الذي سبق واخترناه، متوجهين إلى جماهير شعبنا، ومتعاونين على نحو خاص مع حلفائنا، ومنفتحين أيضاً على جميع القوى الخيّرة المستعّدة للتحاور والتعاون، وفق المعايير السلمية والديمقراطية، من أجل تحقيق القواسم والأهداف المشتركة، وفي سبيل تقدم وطننا وازدهاره، وفي سبيل سعادة شعبنا.

عام بعد المؤتمر[80]

"... نلتقي معكم اليوم بمناسبة مرور عام واحد على المؤتمر السابع الموحّد للحزب الشيوعي السوري، وقد أردنا أن تكون هذه المناسبة مكرّسة، ليس فقط لتعميق الحوار داخل حزبنا نفسه وفي صفوف الشيوعيين السوريين جميعاً، وإنما كذلك في صفوف القوى الوطنية والتقدمية كلها، وفي أوساط الجماهير الشعبية، وكل القوى السليمة والخيّرة الكثيرة في بلادنا.

وتشجّعنا على المضيّ في تنفيذ هذا الرأي لأننا لمسنا منذ عقْدنا المؤتمر السابع على نحو علني، وجودَ مثل هذا الميل أيضاً لدى الأحزاب الأخرى المشاركة معنا في الجبهة الوطنية التقدمية.

... إننا نعطي أهمية كبيرة لإقامة حوارات ديمقراطية علنية بناءة بين جميع القوى السياسية التي تريد الخير وسلامة التطوّر لشعبنا ووطننا، ونعمل لكي تتواتر الحوارات، وأن تتنوع، وتتوسع أكثر وأكثر.

لأنه ليس أمامنا سوى هذا الحوار، كي نكتشف ونحدد أفضل السبل لمعالجة القضايا والمهام الكبيرة الشاخصة أمامنا، ولكي نوطد تعاوننا، ونوسع ونقوي القاعدة الشعبية لهذا التعاون...

... لقد أقرّ المؤتمر نظاماً داخلياً جديداً يقوم بالأساس على الأخذ بمبدأ المركزية الديمقراطية في تنظيم الحياة الداخلية للحزب، مع إضافات

---

[80] من كلمة مراد يوسف الملقاة في الندوة الجماهيرية في دير الزور بمناسبة مرور عام على انعقاد المؤتمر السابع الموحّد، 1992.

ملموسة تؤكد توسيع الديمقراطية وإشاعتها، واحترام الآراء المختلفة وإدارة النقاش بينها في إطار وحدة الإرادة والعمل والتوجه الفكري العام، واحترام رأي الأقلية، وإقرار أصول وضوابط إدارة النقاش العام... وغير ذلك مما يُعَدُّ بدايات لتطوير العلاقات الداخلية بالحزب وتجديد بنيته التنظيمية وأساليب عمله.

وبطبيعة الحال لم يكن المؤتمر قادراً على وضع حدّ لأزمة الحزب، لكنه وفّر إمكانات جيدة لتحقيق ذلك، ونرى أن الاستخدام العقلاني لهذه الإمكانات من أعضائه ومنظماته وهيئاته على كل المستويات، هو شرط ضروري لإعادة بناء الحزب وتطويره وتجديده في الظروف الانعطافية المعقدة، التي تعيشها الأحزاب والحركات الثورية كلها في هذا الزمن الصعب، ويشمل هذا الاستخدام الأمثل للإمكانات الميادين الإيديولوجية والسياسية والتنظيمية وأساليب العمل.

ويدخل في ذلك أيضاً مواصلة الجهود لاستكمال وحدة جميع الشيوعيين السوريين في حزب كفاحي عصري موحّد ومؤهّل لإشغال مواقع طليعية بأقواله وأفعاله معاً ببرامجه وممارساته.

كتابات عن المؤتمر[81]

إن تأثيرات المؤتمر السابع على نشاط الحزب في مجالات العمل السياسي والجماهيري، وفي صحافة الحزب وحركة منظماته، أظهرت جوانب إيجابية ملموسة، ولا أعتقد أن أياً من الفصيلين المتوحدين كان بمقدوره أن يمارسها لو عقد مؤتمره منفرداً، كما لم يكن بمقدور مجموع نشاطهما لو ظلا منقسمين أن يوازي حجم ما فعله الحزب الموحّد، غير أن هذه الإيجابيات لم تصل إلى المستوى، الذي كان متوقعاً قبل المؤتمر وأثنائه. وإذا شئنا تفسير ذلك، أو تبريره، فيمكن القول إن الحزب الموحّد لمّا يدخل بعد بكامل قوته في غمرة النشاط العام، واستهلك جزءاً غير قليل من جهده في عمليات التوحيد والاندماج، التي أجدني مضطراً للتكرار بأنها ذات طبيعة صيرورية وتحوُّلية، وليست مجرَّد اتخاذ قرار، ولا

---

[81] مجموعة أفكار كتبها مراد يوسف عام 1992، ووجدت بين أوراقه.

مجرّد الاجتماع في هيئة واحدة، ولا مجرد الانتماء إلى حزب واحد بدلاً من الانتماء إلى حزبين.

وبما أن تأثير المؤتمر المفترض على النشاط العام للحزب إنما يعني تجديد نشاط الحزب ذاته وتقويمه، ولأن الحزب هو أداة التنفيذ وأداة الفعل والتغيير، أجدني أميل إلى التوقف أكثر عند تأثيرات المؤتمر على الحياة الداخلية للحزب، فالبنية الداخلية للحزب ومدى سلامتها يحددان مدى نجاح الحزب في نشاطاته في مختلف مجالات الحياة. وعلى سبيل المثال، يمكن الجزم الآن، خصوصاً بعد المتغيرات النوعية في الحركة الشيوعية، بأن حزباً لا تُمارَس الديمقراطية في حياته الداخلية، لا يمكنه أن يعمل على نشرها في المجتمع. وحزباً لا تسود العلاقات الإنسانية في صفوفه، لا يستطيع فهم المصالح الإنسانية العميقة للجماهير. وحزباً لا تسود العدالة بين أعضائه، لا يستطيع النضال من أجل العدالة في المجتمع. وحزباً لا يثق أعضاؤه بعضهم ببعضهم الآخر، لا يمكنه أن يجذب ويطوّر مناضلين طليعيين تثق بهم الجماهير.

تميَّزت الشهور القليلة الماضية، التي جرى فيها التحضير للمؤتمر، وفترة المؤتمر ذاته، والشهور القليلة التي مرّت بعده مباشرة، بالحيوية في حركة المنظمات ونشاط أعضاء وكوادر الفصيلين المتوحدين، وظهر هذا واضحاً في اتساع عدد المشاركين في المؤتمرات التحضيرية للمؤتمر، وحيوية مشاركاتهم في المناقشات. وكانت هذه بوادر مشجِّعة على الاعتقاد بأن المؤتمر يشكّل رافعة جديّة لنهوض الشيوعيين السوريين من حالة الركود، التي انتشرت في أواخر الثمانينيات خصوصاً.

غير أن بوادر النهوض هذه بدأت تتلاشى في الشهور الأخيرة الماضية، لتعود حالة الركود، وظهر هذا في المؤتمرات الانتخابية، التي تناقص عدد المشاركين فيها تناقصاً ملموساً، كما افتقرت في حالات غير قليلة إلى الحيوية، ووضع فيها الكثير من التساؤلات المعبّرة عن نظرة غير متفائلة.

هنا يمكن الاستنتاج أن الحزب الموحَّد عاد يعيش حالة المراوحة، التي كانت في كل الفصائل أواخر الثمانينيات، والمراوحة في حزب سياسي

تعني التراجع، لأن الحياة دائبة الحركة.

لا شك أن تحديد وتحليل أسباب هذه الظاهرة تأتي بين أولويات البحث في الحزب، وفي مختلف هيئاته...

تبعاً لهذه الملاحظة، وتفسيراً لها، أميل إلى التقدير بأن تأثيرات المؤتمر على الحياة الداخلية للحزب ليست واحدة، بل متنوعة: إيجابية وسلبية، محفّزة ومحبطة. فيها ما هو متعلّق بالحيـــاة الداخلية ذاتها وبأساليب العمل التي ما تزال محدودة التطوُّر والتجدد، ومنها ما هو متعلّق بالسياسة العامة للحزب وطرائق نشاطه وممارساته.

ويستحقُّ الانتباه أيضاً أن ردَّ الفعل، الإيجابي منه أو السلبي، على المؤثرات المختلفة يشمل الرفاق جميعاً بغض النظر عن انتماءاتهم الفصائلية السابقة، الأمر الذي يدل على أن القاعدة الشيوعية الواسعة موحّدة (أو تكاد تكون موحّدة) حول مفهوم الحزب الشيوعي الذي تريده، وترضى بالانتماء إليه والعمل في صفوفه في هذه الظروف المأزومة المحيطة بالعمل الحزبي في البلاد.

الآن أُنجزت عملية التوحيد نهائياً كعمل تنظيمي، وبدأت عملية الاندماج في حزب واحد اندماجاً شاملاً في القواعد والقيادات العليا والوسيطة. وعملية الاندماج هذه عملية أخلاقية أولاً، ثم فكرية وسياسية وتنظيمية، وهي عملية صيرورية أرقى من التوحيد.

هذه العملية التي انطلقت على صعيد الهيئات المركزية، التي انتخبها المؤتمر، تدعمت الآن باقترابنا من إنجاز المؤتمرات القاعدية. وتترافق الصيرورة الحية لعمليات التوحيد والاندماج هذه مع تعرُّف الرفاق بعضهم على البعض الآخر بعد طول انفصال، ومع إعادة بناء الثقة المتبادلة، ومع الاحتكاك الجدلي بين أنماط التفكير وأساليب العمل، فقد انحسرت وتنحسر معها مشاعر الانتماءات (الفصائلية) السابقة، وحلّت وتحلُّ محلها مشاعر الانتماء إلى الحزب الواحد.

ومن خلال ممارسة النشاط العملي بأنواعه داخل التنظيم الحزبي وخارجه، تتبلور أنماط التفكير وأساليب العمل والمواقف من توجهات المؤتمر السابع الموحّد... إلخ، وعلى أساسها يحدث التمايز الفكري

والعملي بين الرفاق، وعلى أساسها يجري ما يمكن وصفه بالاصطفافات. وهذه عملية طبيعية وصحية تماماً، وتستحق الرعاية من الجميع في القيادات والقواعد على السواء، ولا أحد غير مسؤول عن ذلك.

إن الرعاية السليمة لهذه الصيرورة التطورية يجب أن تتجسد في التعامل معها بالعقل والحكمة، بديمقراطية علنية ومباشرة وإنسانية وبعيدة عن نزعة فرض الرأي الواحد بأساليب: الترغيب والترهيب، التقريب والإبعاد، التقديم والتهميش... وغير ذلك من الأساليب غير المستقيمة، التي مارسها كثير من قادة الأحزاب الشيوعية، وبرهنت الحياة كم كانت مجافية للجوهر الإنساني والديمقراطي في شيوعية ماركس، وكم كانت ضارة ومدمرة.

وفي تنفيذ قرارات المؤتمر السابع وتوجهاته في الحياة، لاحقاً ومستقبلاً، أراني ميالاً إلى التذكير بالاحتمالين اللذين أشرت إليهما: فكلاهما: التنفيذ الجيد وغير الجيد، الناجح والفاشل، موجودان في رحم المستقبل.

الاحتمال المستقبلي الجيد موجود، لأن الحزب تكمن في داخله قوى سليمة وجيدة، والظروف الداخلية والخارجية، رغم كل قتامتها، لا تحول بل تستحث الناس الطيبين على النهوض لمجابهة التحديات الكبرى، الداخلية والخارجية، التي يواجهها الوطن. والمؤتمر أتاح لنا جميعاً فرصة ثمينة، كي نعمل على استنهاض الجماهير الواسعة إلى النضال لمثل هذا النهوض والاستنهاض، فإن فعلنا ذلك، وواصلنا النضال لتحويل توجهات المؤتمر إلى واقع، حصدنا الاحتمال الجيّد، ودخل المؤتمر السابع الموحَد في تاريخنا كقوة انعطافية ملهمة وموجِّهة، وإلا حصدنا الاحتمال الآخر، وتحوَّل المؤتمر إلى مجرّد ذكرى طيبة عشناها بعض الوقت.

عن التعددية والحوار...[82]

انطلاقاً من الاعتزاز بالانتماء إلى هذا التاريخ ومن الثقة بصحة النظرية العلمية، التي اعتمدها الحزب منذ تأسيسه، قرَّر المؤتمر السابع

---

[82] خواطر نشرت في جريدة **نضال الشعب**، العدد 497، دمشق، 12 تموز 1994.

الموحد متابعة طريقنا الشيوعي في العمل من أجل مصالح الشعب والوطن، والاستمرار بحمل الاسم ذاته، ومواصلة الاعتماد على منهج الديالكتيك المادي الماركسي والفهم المادي للتاريخ، والاسترشاد بأفكار ماركس وأنجلز ولينين، إضافة إلى كل ما هو تقدمي وديمقراطي في التراث العربي والعالمي، والاهتمام باستيعاب مؤثرات الثورة العلمية التقنية في عمليات التطور الاجتماعي المعاصر.

وكانت هناك، بطبيعة الحال، آراء ورؤى أخرى حول مفهوم الحزب، ونظريته، وتسميته، وأشكال بنائه، وأساليب تنظيمه وعمله، وبرامجه وأهدافه، وشعاراته... وغيرها من المسائل، التي أثارتها المتغيرات العميقة الجارية في العالم المعاصر، والتي كان أخطرها في هذه المرحلة تفكك الاتحاد السوفييتي.

وتستمرُّ في صفوف الحزب الحوارات، التي بدأت حول الكثير من هذه المسائل منذ ما قبل المؤتمر السابع الموحَّد، وتنعكس فيها إلى حدٍّ كبير التيارات الفكرية، التي برزت في الأحزاب الشيوعية وفي أوساط المثقفين والباحثين المهتمين بالتغيرات العالمية العميقة.

ويلزمنا النظر إلى هذا المناخ من الحوار الديمقراطي بين الآراء المتعدِّدة في الحزب كظاهرة إيجابية ومعبِّرة عن واقع موجود، يجسِّد طموح الشيوعيين إلى تطوير أنفسهم وحزبهم.

ويمكن القول إننا بدأنا نتعوّد على هذا المناخ الجديد بشيء من الصعوبة، وبدأنا نكتسب خبرات جديدة حول التعامل والتحاور بين الآراء المتعددة، وتعايشها، وتفاعلها في الحزب الواحد[83]. وأخذت الممارسة الديمقراطية في الحياة الحزبية تسعى إلى إثبات وجودها واستمرارها، ولا تجري هذه العملية دون كبوات وهفوات، حتى من المتحمسين لها، إذ ما

---

[83] جاء في تقويم المكتب السياسي لنتائج المؤتمر الثامن للحزب: "إن السلبيات، التي يمكن أن تظهر أثناء مسيرة الديمقراطية في حياة الحزب، لا يجوز حلها بالعودة إلى أساليب العمل السلبية السابقة، أي بالنكوص عن الديمقراطية، وإنما عن طريق الإصرار على النهج الديمقراطي مع الحفاظ على وحدة الإرادة والعمل، وبتأكيد استمرار تطوير الحزب وتجديده". اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري الموحد، دمشق، 23 و24 كانون الثاني 1997.

زلنا نمارس الديمقراطية غالباً بعقلية بيروقراطية، ونمارس العمل الجماعي بروح فردية.

ولا شك أننا بحاجة إلى المزيد من الوقت والمزيد من جهود جماعية، لتحديد بعض الأصول والمعايير الضرورية لإدارة الحوار وتعيين مواضيعه ووسائله، وذلك عبر الممارسة المستمرة والمتطوّرة للديمقراطية في الحياة الحزبية، كي تتغلغل في أنماط سلوكنا وتقديرنا.

وربما يصح القول إننا نحتاج في هذه المرحلة الانتقالية خصوصاً إلى شيء من الحذر، كي لا نقع في خطأ فهم الديمقراطية بأنها التحرر من كل شكل من أشكال الانضباط الواعي والطوعي والمسؤول بالقرارات والتوجهات المتخذة ديمقراطياً وبالهيئات المنتخبة ديمقراطياً.

لقد حقق الحزب شوطاً لا بأس به من التطوُّر في ضوء توجهات المؤتمر السابع الموحَّد، رغم أنها لم تصل إلى مستوى الآمال التي عُلّقت عليه. ويمكن للجهود الجماعية، التي يُفترض توظيفها منذ الآن للاحتفالات بالذكرى السبعين والمؤتمرات الحزبية المحلية والمجلس الوطني، أن تكون تمهيداً جيِّداً وطيِّباً لبدء أعمال التحضير للمؤتمر الثامن، الذي سيحل موعده أواخر العام 1995 القادم.

ويمكننا أن نتطلع إلى أن نجعل المؤتمر الثامن، بأعماله ووثائقه، محطة متقدمة وغنية في حياة الحزب وتطوُّره، وتحسين نشاطاته العملية، وترسيخ تعاونه مع الأحزاب الوطنية التقدمية الشقيقة في الجبهة الوطنية التقدمية.

حزب متجدد دوماً[84]

... لقد وقع الحزب خلال مسيرته في أخطاء متنوعة، سواء في حياته الداخلية وبنائه التنظيمي، أم في بعض مواقفه التي مالت تارة نحو اليمين وتارة نحو اليسار.

---

[84] مقتطفات من كلمة مراد يوسف في الاحتفال بالذكرى الخامسة والسبعين لتأسيس الحزب الشيوعي السوري، الذي أقامته اللجنة المنطقية للحزب في الجزيرة، الحسكة، 29 تشرين الأول 1999.

وفي كل الظروف، تميّز الشيوعيون بروح كفاحية وجهادية عالية، مكنتهم من الصمود والاستمرار والتطوُّر، رغم الحملات الإعلامية والقمعية الشديدة، التي كثيراً ما تعرَّضوا لها.

نحن شيوعيي اليوم، ورثة هذا التاريخ، نعتزُّ بما سجله الحزب من صفحات مشرقة وإسهامات إيجابية عميقة في تطوُّر بلادنا، ولا نتملّص من أخطائنا وإخفاقاتنا، كما نعتزُّ بكلِّ الإسهامات الكفاحية الكثيرة لسائر القوى والأحزاب والشخصيات الوطنية والتقدمية الأخرى. إننا نتابع مسيرتنا اليوم، محاولين الاستفادة من خبراتنا وخبرات الأحزاب الوطنية الشقيقة، ومن خبرات النموذج الاشتراكي العالمي، الذي غاب عن الساحة الدولية، لكن آثاره الإيجابية باقية لا تزول.

لقد حافظ حزبنا على انتمائه الفكري للماركسية اللينينية، وقرَّر منذ مؤتمره السابع الموحَّد عام 1991، وفي المجلس الوطني عام 1995، وفي المؤتمر الثامن عام 1996، الاسترشاد بالماركسية اللينينية، ولاسيَّما بمنهجها المادي الجدلي والتاريخي، الذي يشكّل أساسها الجوهري، وبالمنجزات العلمية الحديثة، وبكل ما هو تقدمي في الفكر العربي والعالمي.

ونحن نسير منذ المؤتمر السابع الموحَّد على طريق تطوير حزبنا وتجديده فكراً وتنظيماً وممارسة، وحققنا جملة من الخطوات المتقدمة دون جمود أو قطيعة مع الجذور وقفز في المجهول.

لقد نجحنا في إحداث نقلة في مسيرة الحزب من مسلسل الانقسامات إلى التوحيد، وفي صياغة منظومة داخلية لحياة الحزب، وفق فهم متطور للمركزية الديمقراطية، قوامه التوسيع المستمرُّ للديمقراطية الحزبية في النظرية والممارسة، وفي الإقرار بمشروعية التنوُّع في إطار وحدة الحزب، وتعزيز الوحدة والانضباط عبر التنوُّع الموضوعيّ.

وحققنا تقدماً في الانفتاح على أوسع جماهير الشعب وقواه الطبقية الفاعلة، وفي ترسيخ علاقات التحالف والتعاون وخصوصاً مع القوى الحليفة في الجبهة الوطنية التقدمية.

ونحن منفتحون على علاقات الحوار الأخوي البنّاء مع كل من يرغب

فيها من الأوساط، التي تكرّس جهودها لمصلحة الشعب والوطن، دونما اعتبار لوجود فروقات أو خلافات معها في الانتماءات والاجتهادات الفكرية.

نعمل كي نكون حزباً مسؤولاً حقاً وفعلاً أمام الشعب والوطن، وكي يمارس ممثلونا واجبهم على أفضل وجه حيثما يوجدون، ولتوسيع الممارسة الديمقراطية في هذه المؤسسات وفي المجتمع وإدارات الدولة، ولتحديث القوانين، التي أصبح العديد منها معيقاً للتطوُّر، ولإيجاد حلول عادلة لما يوجد أو يبرز من مشكلات في المجتمع، ومنها إيجاد حلّ عادل لمشكلة الإحصاء السكاني الخاص بالجزيرة.

إننا نلحظ، وقد نكون مصيبين إلى هذا الحدّ أو ذاك، بأن العالم عشية القرن الواحد والعشرين، تتنامى فيه القوى الساعية إلى عولمة ديمقراطية عادلة وسلمية وإنسانية، تقوم عبر حوار الثقافات والحضارات المكونة تاريخياً، ومنها الحضارة العربية الإسلامية، وعبر تأسيس العلاقات بين الشعوب والدول على قواعد سلمية متكافئة، تعيد الاعتبار إلى هيئة الأمم المتحدة ومواثيقها الهامة، التي هي ثروة تشريعية عالمية وغنية، ساهمت في صياغتها شعوب العالم، ولتحرير هذه المرجعية الكونية، وأعني الأمم المتحدة، من ألاعيب الولايات المتحدة الأمريكية والرأسمالية الإمبريالية متعددة الجنسيات وهيمنتها.

وربما نكون مصيبين، إذا اعتقدنا بأن الخبرات العالمية، ومنها وربما في مقدمتها خبرات النموذج الاشتراكي العالمي، بإيجابياتها وسلبياته التي كدّسها في السبعين عاماً من وجوده، تشكّل مصدراً غنياً، كي تتقن الشعوب وقواها الثورية إدارة الصراعات المعقدة، التي سيشهدها القرن الواحد والعشرون القادم، تلك الصراعات التي ستدور على الساحة العالمية بين قوى الهيمنة والاستبداد من جهة، وقوى الحرية والديمقراطية والعدالة، التي لا بُدّ أن يشغل شعبنا وأمتنا موقعاً فاعلاً في صفوفها. ونحن واثقون بأن النصر في النهاية سيكون لقوى السلام والحرية، لقوى الديمقراطية والتقدُّم والاشتراكية.

حزب ديمقراطي فعلاً[85]

في الحريات الديمقراطية الحزبية

يكتب مراد يوسف في أحد دفاتره:

"الحزب ليس جسماً جامداً، بل جسم إنساني اجتماعي حيوي جداً. الحزب هم الناس... وتحديداً: الناس الشيوعيين... الناس الذين يحملون قيم الحرية والعدالة والمساواة... مشبعون بها، ويُفترض فيهم أن يكونوا كذلك،... ومن أجل نشرها في المجتمعات جاؤوا إلى الحزب، الذي يُعدُّونه حامل راية هذه القيم".

وفي مكان آخر يؤكد أبو سامي أن "الحزب ليس هدفاً بحدّ ذاته، إنه هدف بقدر ما يبرهن بالفعل عن كونه أداة فاعلة كفاحية لتغيير المجتمع وتطوُّره وازدهاره.

والحزب يتعرَّض للانحسار والتفكك والتحلل والزوال، إذا فقد القدرة على قيامه بدوره كأداة للتغيير الاجتماعي والتغيير الديمقراطي".

ولهذا يعود مراد إلى القول بأن "الشيوعية لا معنى لها إذا فُرِّغت من مضمونها الإنساني، من معناها الجوهري، وهو: إزالة مظاهر وأسباب الظلم عن كاهل الإنسان، وبناء ظروف يمارس فيها الإنسان كامل إنسانيته".

ويَعُدُّ مراد أن الحزب الشيوعي يجب، ويستطيع، أن يرتفع بحركته ونضاله إلى مستوى تنفيذ قرارات مؤتمراته وتوجهاته، ويزيد في أدائه تفعيلاً وارتقاء، وإلا كانت قرارات المؤتمرات هذه أكبر من قدرة الحزب على تطبيقها، بفعل عدم التهيؤ التنظيمي وتأثير مستوى الخبرة والتفاعل بين المنظمات، إضافة إلى استمرار آثار الموروث من أساليب التفكير والعمل.

---

[85] يتحدث مراد يوسف في خواطر عدة عن علاقة الحزب بالمجتمع الذي يخرج منه، وقد وردت هذه الخواطر في أوراق متفرقة له يعود تاريخها إلى العقدين الأخيرين من القرن العشرين، وأبرزها ما جاء في مسودات لمقالات متفرقة بعيد المجلس الوطني للحزب عام 1995. وترد الفقرات المأخوذة من أوراق مراد بين قوسي اقتباس، في حين يعتمد الفصل كاملاً على مخطوطاته - **معن**.

لذا يجب أن يكون مؤتمر الحزب الشيوعي "خطوة ملموسة لتغيير مسار الحزب من الانقسام إلى الوحدة، من أمراض الماضي وقيوده وكوابحه إلى عافية المستقبل وآفاقه الأرحب، وليضمن تواصل أجيال المناضلين خلال انتقالهم من سلطة الفرد أو النخبة إلى سلطة الجماعة الديمقراطية في سعيهم نحو تأسيس حزب ماركسي لينيني عصري متجدد، بل دائم التجدد.

والتجديد لا يعني القفز إلى المجهول، التجديد عملية مستمرة متواصلة وشمولية في كل قطاعات الحزب: التجديد الإيديولوجي لا يعني التخلي، ولا الإلغاء ولا الإدانة، التجديد الإيديولوجي هو من صلب إيديولوجيتنا، فالماركسية علم، والعلم متجدد وضد الجمود. والتجديد في رسم السياسة العامة وتطوير الموروث من السياسة الكلاسيكية للحزب، وليس رفضها وإنما تطويرها. والتجديد في الممارسة، التجديد في تطابق الفعل مع القول، تطابق الممارسة مع البرامج والوثائق.

ما هو المطلوب منا؟

المطلوب متنوّع، وأهمه رفع سوية عمل المؤسسة من خلال تحسين آلية عمل قيادتها الرئيسة، تطوير وتحسين أساليب عمل المكتب السياسي ووضعها تحت المجهر... إما نبرر الثقة فنتقدَّم، أو نفشل وننحسر".

الديمقراطية والأقليات الحزبية

يقول مراد إحدى أوراقه "... وتبقى أهم المسائل وأكبرها هي مسألة الديمقراطية، التي تمسُّ بأبعادها معظم المسائل الأخرى، وخاصة فيما يتعلق بالحياة الداخلية للحزب، إذ ترتبط قضية الديمقراطية بقضية الثورة والتقدُّم ارتباطاً لا ينفصل.

وكان لينين يقول: (إن أولى واجبات الطبقة العاملة وحزبها الطليعي، هي الدفاع عن المطالب الديمقراطية لجميع فئات السكان).

وكان مطلب الحريات الديمقراطية أساسياً في مختلف مراحل نضال الحزب، وقدَّم الشهداء في سبيلها. ومع ذلك، لا يمكن تصوُّر وجود حزب يكون مناضلاً جدِّياً في سبيل الديمقراطية، إذا لم يكن هو نفسه حزباً

ديمقراطياً يتمتع أعضاؤه بأهمّ حقوقهم الديمقراطية في حياتهم الحزبية الداخلية.

لقد ساد في حزبنا، كما في أكثرية أحزاب الحركة الشيوعية، فهم المركزية الديموقراطية على أنها جمع حسابي بين حقوق المركز - القيادة وحقوق الأعضاء - القواعد، تتغير نسبته حسب الظروف، وكانت الأفضلية المطلقة دائماً لحقوق القيادة.

وهذا بعيد جداً عمّا قصده لينين بالمركزية الديمقراطية، فالمركزية عند لينين هي تعبير عن الوحدة والانسجام في فكر ونشاط الحزب، الذي يتحقق من خلال وحدة البرنامج ووجود نظام داخلي واحد، يحدد حقوقاً وواجبات واحدة لجميع أعضاء الحزب، ومن خلال مؤتمر الحزب الذي يضع البرنامج والنظام الداخلي، ويحدد خطة الحزب، ويحاسب أعضاء قيادته، وينتخب هيئاته القيادية، وهي نشاطات تتكوُن كلها ديمقراطياً من خلال مشاركة الأعضاء، فالمركزية نفسها تتكوّن ديمقراطياً من الناحيتين الفكرية والتنظيمية.

والديمقراطية الحزبية هي نظام متكامل يهدف إلى إشراك جميع أعضاء الحزب في تقرير مواقفه الأساسية ومصائره، وإلى تطوير وعي الأعضاء ومشاركتهم من خلال حوارهم الديمقراطي[86]، واحترام حق كل عضو في إبداء رأيه، وممارسة النقد واختيار مسؤوليه وقادته [87]، وتنظيم حوار وصراع الآراء في المؤتمرات والمجالس الحزبية والاجتماعات،

---

[86] يقول أبو سامي: "لقد أصبح ضرورياً إشراك المنظمات والقواعد في عملية الحوار عن طريق جعله علنياً، وعن طريق عقد الندوات والاجتماعات المشتركة لمناقشة القضايا الأساسية، وإحداث تفاعل حي بين المنظمات المختلفة... يفتح الطريق لتوضيح المسائل وتسهيل عملية التقارب والتفاعل...".

[87] يتحدث أبو سامي عن هذا، فيقول: "إن العملية الانتخابية للهيئات المسؤولة والقيادية في الحزب تعني اختيار أولئك الرفاق، الذين سيكلفون بالمهمات الصعبة الشاقة، وليس اختيار رفاق لإعطائهم امتيازات وجاهية أو شرفية، والمرشحون الذين يحصلون على ثقة مؤتمراتهم يجب أن يرتفع عندهم الشعور بالمسؤولية، وأن يحفزهم ذلك على استحثاث قدراتهم وكفاءاتهم، ووضعها بالكامل لأداء المهمات التي اختيروا لها، لا أن يولد عندهم ذلك مشاعر الذاتية والاستعلاء والنظر إلى أنفسهم كأناس متميزين عن الآخرين.

والرفاق الذين يمكن أن تُحجب عنهم الأصوات، أو لا يحصلون على الثقة، يجب أن يفهموا ذلك على أنه نقد عملي لجوانب ضعف عندهم، وعليهم أن يتقبلوا هذا الشكل من النقد بروح رفاقية طيبة، ولا يجوز أن يعدّوا ذلك انتقاصاً من أشخاصهم وعضويتهم في الحزب، ولا إغفالاً لكفاءاتهم

وفي الصحافة الحزبية، وعلى أساس احترام الآراء المخالفة وحقّ أصحابها في التعبير والدفاع عنها، بمن فيهم من يمثلون أقلية في ظرف معين.

إن وجود هذه الديمقراطية الحقيقية المبدعة، التي ترفع الوعي والمشاركة الجماعية هي الضمانة الأساسية لتطوُّر الحزب، بحيث يحافظ على موقعه الطليعي وعلى متابعة القيام بواجباته ومهماته في هذا العالم المتغيِّر المتبدِّل...

إن ذلك أيضاً يمكن أن يؤهل الحزب للمساهمة بدوره المتواضع في تطوُّر نظريتنا الماركسية اللينينية على أساس استيعاب التجربة التاريخية لبلادنا ولحركات التحرر الوطنية وحركات النضال ضد الإمبريالية.

إن ضمان الديمقراطية الحزبية، وضمان ممارسة الحوار الديمقراطي في صفوف الحزب، يرتبط بنقلة هامة أخرى، وهي التأكيد على حق الأقلية في التعبير عن رأيها والدفاع عنه، وبضمن ذلك حقها في أن تتحول إلى أكثرية عبر الوسائل والأصول الحزبية.

إن هذا المبدأ أساسي جداً في تنظيم صراع الآراء وتطوُّر الحزب، ولإيجاد آلية خاصة لتقبُّل الجديد في الحزب، وعرقلة التكتلات والصراعات التكتلية، ففي الطبيعة والمجتمع والفكر، وكذلك في الحزب، تكون السيطرة والسيادة في زمن معين لأوضاع معينة ولأفكار معينة غالباً، قَبِلت من الأكثرية، فأصبحت سائدة... ثم تظهر الأفكار الجديدة، بما فيها التي تحمل بذور التطوُّر مثل البراعم فتية صغيرة متفرقة، غير أنها يمكن أن تُسحق، وترمى جانباً مثل النباتات البرية، التي تنمو وسط زرع الفلاح، إذا لم تجر مساعدتها وفحصها وإتاحة الفرصة لنموُّها... وإن وجود نظام في الحزب يسمح بمناقشة الآراء الجديدة، وتلك التي يمكن أن تتكون حولها أقلية في كثير من الحالات، يعني وجود نظام يسهِّل تطوُّر الحزب الدائم إلى الأمام بطرائق صحية وسليمة.

وعموماً فإن الديمقراطية الحزبية نفسها، التي محتواها الأساسي هو

وإخلاصهم أو إنكاراً لفضائلهم. وفي كلّ الأحوال، فإن العضوية في الحزب بنظر الشيوعي تبقى هي الأساس، وينظر لها بعدِّها أعلى شرف يحصل عليه الإنسان".

كيف نجعل الشيوعيين، أعضاء الحزب بأكثريتهم، يساهمون في صنع القرارات المصيرية، وكيف يتحولون من خلال ذلك إلى قادة جماهيريين وسياسيين. هذه الديموقراطية نفسها بحاجة إلى تطوير دائم وممارسة فعلية ومسؤولة وأشكال حضارية جديدة تسهّل لها التعبير عن ذاتها وممارستها، وتحقيق ذلك هو واجب الشيوعيين أنفسهم، إذا كانوا يريدون لحركتهم وحزبهم التطوُّر والتجدد الدائم.

حماسة لتأسيس الحزب على الحوار والآراء المتنوعة[88]

مع صدور ملحق **الحوار** بدأت تتزايد المقالات المرسلة للنشر وفي أربع شهور صدر منها ستة أعداد، حرّر فيها ما يقرب من مئة رفيق أكثرهم من قواعد الحزب، وتناولوا فيها مختلف قضايا الحزب المفصلية، ولا سيما القضايا الداخلية، بآراء متنوعة ومن جوانب متعددة، ومن عدد **الحوار** إلى لاحقه كانت نوعية التناول تكتسب نفساً جديداً أكثر رصانة في لغة الحوار مما دعا هيئة التحرير إلى زيادة عدد صفحاتها من أربع إلى ثمان، ودعت الرفيق الدكتور نبيه ارشيدات وهو واحد من أبرز الشيوعيين الذين رافقوا مسيرة الحزب منذ أواسط الأربعينات حتى اليوم ومن أكثرهم جماهيرية بين الشيوعيين والكثير من الوطنيين والتقدميين دفعته أن يكتب مقالة بعنوان "هذا الحوار لا يقل أهمية عن المؤتمر".

---

88) تقييم مراد يوسف للحوارات الجارية عبر نشرة **الحوار** التي صدرت كملحق لـ **نضال الشعب** تحضيراً للمؤتمر الثامن للحزب الشيوعي السوري.

يكتب نجدت يوسف أخو مراد ورفيق دربه في هذا المجال: "يبرز هذا الجانب من سيرة مراد وتجربته قابليته على الارتقاء الدائم نحو الأفضل في الفكر والسياسة والتطبيق، ومواصفاته الشخصية التي قد يكون الأميز فيها استشفافه للأصح والممكن، وهي الميزة النادرة التي أكسبته الاستعداد والقدرة على إعادة النظر بكل جرأة بآراء كان يراها صائبة في وقت مضى، وذلك حين تلقى الممارسة العملية عليها ظلال شك؛ ومثل هذه المواقف تتطلب الشجاعة والإخلاص وإنكار الذات ... والمرونة الجمّة في التطبيق. ولتوفر هذه الصفات سوياً التأثير الحاسم في إبراز الصفات القيادية للعاملين في الشأن العام خاصة بالنسبة للمناضلين السياسيين المرتبطين بالفكر الماركسي". ويدلي نجدت هنا بشهادة بالغة الأهمية، إذ يقول: "لقد لمست لدى مراد هذه الصفات من خلال معايشتي له كأخ ورفيق درب وعمل، برز هذا خصوصاً في الفترات الأخيرة من حياته الثرة، ومن خلال مدوناته الخاطفة وممارساته العملية مطبقاً هذه المراجعات النقدية ،الحاسمة أحياناً،في علاقاته مع الآخر المختلف رأياً وممارسة حياتية؛ وبرز هذا جلياً في مطالعاته الدائمة الدؤوبة ليس فقط ضمن المراجع الكلاسيكية الماركسية، بل وعبر مرجعيات يختلف معها ايديولوجياً وسياسياً". وفي هذا كان مراد دوماً باحثاً عن الحقيقة وإنسانية الإنسان – المعد.

إن تعددية الآراء المتنوعة والطرائق المتنوعة في تناول مواضيع بذاتها وملاحظة ما بينها من تعارضات وتقاطعات وتفسيرات ومبررات، تساءلت في البداية: ترى ألم يكن في العقود الماضية مثل هذا التنوع موجوداً؟ وبدا لي الجواب حازماً. نعم كان موجوداً، وكان طبيعياً جداً أن يكون، لأن هذا التنوّع من طبيعة الحياة في المجتمع والطبيعة وفي الجماعة والعائلة وفي الإنسان والفرد ذاته.

تنوّع الآراء كان موجوداً دائماً في الحزب غير أنه كان ممنوعاً، وكان مكبوتاً غير الرأي الذي ترتاح له القيادة وتتبناه. كانوا يتعرضون للكبت والقمع والتطفيش أو الطرد بحجة وحدة الحزب وحمايته كبؤبؤة العين. والقهر والقمع لم يؤد إلى وحدة الحزب وإلى تطويره وتقويته وإنما إلى التراجع والركود والإنقسام تلو الإنقسام.

لم أملك نفسي من التساؤل: ترى لو كان هذا النمط متبعاً منذ عقود، ألم يكن حزبنا أكثر صحة وعافية وتقدماً وعطاء وإلفة؟ وعزّيت نفسي: حسناً، لم نفعل ذلك ماضياً، فلنحافظ عليه ولنطوّره ونتقنه حاضراً ومستقبلاً كي نكتسب عافية جديدة ولنكون أكثر نفعاً لشعبنا ولأنفسنا.

إن الانتقال الذي حققه الحزب من "اللا اعتراف" بتنوّع الآراء إلى الاعتراف به وتعلّمه عبر الممارسة يعتبر واحداً من أهم السمات/الشروط التجديدية للشيوعية السورية التي تستحق أن يرعاها الشيوعيون السوريون بكل جدية، فلتكن لغة الحوار، لغة التحاور الديمقراطي الودي الرصين والموضوعي والمتواضع والاحترام المتبادل والاختلاف المتفاعل من أجل الأفضل من أجل الرأي الأكثر اقتراباً من الحقيقة، لتكن هذه اللقاءات الحوارية الفاعلة المتفاعلة اللغة الوحيدة السائدة في الحزب، وهذه قضيتنا جميعاً. فلننتصر لهذه الإرادة. لا نستطيع أن نرسّخ وحدة حزبنا وأن تتلاحم صفوفنا إذا لم نعرف كيف نختلف ونحن موحدين. لا نستطيع أن نقنع الآخرين بمصداقيتنا في الديمقراطية والوحدة الوطنية إذا لم نكن نحن أنفسنا موحدين رغم تنوّع آرائنا، لقد مشينا على صعيد الحزب بشكل عام شوطاً لا بأس به. وبدأنا نتعلّم كيفية إيجاد القرارات التوافقية ذات القواسم المشتركة حين اللزوم، متوخين أن تكون مفيدة للنهج العام للحزب المقرر

في مؤتمره، وهذا لم يحدث دون عثرات وأخطاء تنظيمية وسياسية نتيجة وقوعنا أحياناً في الفردية والبيروقراطية والمركزية الشديدة، وبدانا نتعلّم الإصغاء لبعضنا البعض دون توتر مهما تباينت الآراء وتصادمت، وأتصوّر بأن هذا يُعتبر تحركاً مقبولاً في الاتجاه السليم إلى الأمام في منظور الوضع التاريخي الملموس للحزب وللحركة الشيوعية والثورية السورية والعربية في الظروف الراهنة. ويُعدّ هذا حسب اعتقادي في صميم العمل لإشاعة الديمقراطية في الحزب تستحق رعاية ووصاية من قبل الجميع. غير أن ما حققناه ليس كافياً، ولا زلنا في أوّل الطريق ليتحوّل حزبنا إلى واحة خضراء ويانعة في ربوع الوطن، واحة للوطنية الكفاحية الصادقة وللديمقراطية المسؤولة، واحة تفيض بعقول منفتحة وقلوب دافئة تجاه كل القوى الخيّرة في أرجاء الوطن الحبيب. إننا بحاجة لبناء وتطوير حياة حزبية داخلية جذابة، يشعر كل شيوعي ينتمي إليها أنّه يوجد في أسرة موحدة ومتضامنة ومتآخية غنية بالأفكار والعطاء الروحي والسياسي وأنه يساهم بدوره في إغناء عمل الحزب وإثرائه بعقله ونشاطه فيكون الحزب مدرسة للحوار والنضال والعمل المشترك للآلاف والآلاف من الشيوعيين في سبيل قضايا الشعب والوطن.

الشرعية الحزبية

ويرى مراد أن للمسألة الديمقراطية جانباً آخر تثيره، وهو جانب لا علاقة ظاهرية له بالديمقراطية، لكن يجب التوقف عنده والنظر إليه كأحد الجوانب الخفيّة والرئيسة للديمقراطية في مجتمع وحزب، وهي: قضية الشرعية والصراع من أجلها، فيقول:

"يعترف الجميع بأن الشرعية الثورية هي اعتراف الجماهير بالحزب المعني، والتفافها حوله. هذا هو الأساس في الشرعية.

ولكنه، غالباً يجري في الوقت نفسه سعي حثيث، بل وصراع، من أجل اكتساب الشرعية الأخرى، الشرعية الرسمية، أو الشرعية من (*فوق*)، إذا صحّ التعبير، وهي اعتراف الحركة الشيوعية العالمية والقوى الوطنية في البلاد.

وقد ألحق الصراع حول الشرعية وفق هذا المفهوم، وبالطريقة التي جرى ويجري بها في بلادنا، أضراراً بقضية الحزب والعمل من أجل وحدة الشيوعيين السوريين، وبقضية العمل والنضال المشترك فيما بينهم.

في هذه الظروف، التي تتسم بالتعددية التنظيمية، ونحن لا نلوم كلا الفريقين من الرفاق، الذين يسعون للحصول وحدهم على الاعتراف الخارجي والداخلي الرسمي، فإن هذا الاعتراف يُقدِّم للفصائل المُعتَرَف بها مساعدات سياسية ومعنوية كبيرة، وميِّزات كثيرة لا تُقدَّر. وعلى كل حال، إننا لا نطرح هذه المسألة لمجرّد ضيقنا من الوضع القائم، بل لما تلحقه قضية الصراع حول الشرعية من إضرار بالجميع.

وأملنا بأن يجري الصراع، في هذا المجال أيضاً، بطرق ديمقراطية[89]، وأن يجري تجنب ما يسيء إلى الحركة الشيوعية وإلى القوى الوطنية في البلاد على السواء".

التنوع ومشروعيته

يكتب مراد في دفاتره: "التنوع كان موجوداً دائماً، حتّى حينما كانت الوثائق تؤكد الوحدة الصوانية، وكانت تخفي القمع الممارس ضد الرأي الآخر، وتُرهب من يمكن أن يفكر أو أن يُصرِّح بما يفكر فيه.

كلنا نتحدث عن ضرورة تقوية الحزب وتطويره وتجديده... لكننا كثيراً ما تغيب عنا بعض الشروط الضرورية لتحقيق ذلك، منها وفي مقدمتها: إيجاد مناخات راسخة في الحياة الداخلية، تتسم بارتياح المنتظمين في الحزب، بارتياح الناس الذين اختاروا طواعية الانتماء إليه والتضحية في صفوفه، بارتياحهم لصحة ما اختاروه، وبارتياحهم لأنهم في داخله يعيشون دون خوف، دون قهر، دون إرهاب...

---

89) ويكتب مراد في أحد دفاتره:

"كيف نطوّر حزبنا إلى حزب ديمقراطي إنساني حقيقي قولاً وفعلاً، إلى حزب يَشعُّ في أرجاء الوطن بقيم الوطنية الحقّة والديمقراطية والإنسانية؟ كيف نطوّر حزبنا إلى حزب مندمج قولاً وفعلاً بجماهير الشعب التي تعيش حالة من القهر المادي والمعنوي وتنهض معها من اللامبالاة إلى المبادرة؟ وكيف نساهم في تحويل جمهورنا من متفرّج إلى مشارك، إلى جمهور فاعل؟ كيف نحد من النزعات نحو العشائرية والقبلية والعائلية لتنحى إلى نزوح نحو العمل السياسي والحزبي والنقابي المؤثّر؟"

قطعنا شوطاً لا بأس به من التعايش بين أصحاب الآراء المتنوعة، بل وحتى بين رموز وممثلي المدارس، التي نشأت تدريجياً في داخل الحزب، ثم تعرّضت للانفصالات القسرية، ثم اقتنعت بخطل الانفصال وبإمكان التعايش وفائدته، فتوحدت.

والآن وصلنا إلى المرحلة، التي علينا فيها ليس فقط التعايش، وإنما ترسيخ مفهوم التعايش، وتكوين أصوله، ووضع لوائحه لتحويل التعايش إلى قاعدة لا رجعة عنها، وتحويله إلى تفاعل حيّ إنساني وحضاري، وتطويره كي يغدو وسيلة فعّالة لتقوية الحزب (حقيقة لا كلاماً)، ولتطويره وتجديده وانتشاره (أيضاً حقيقة لا كلاماً)، ولرصّ صفوفه وتلاحمها (كذلك حقيقة وواقعاً، لا إرضاء للذات، وتمويهاً لكوامن غير مريحة)".

وفي هذا يكتب أبا سامي قبيل المؤتمر الثامن للحزب: "في المؤتمر السابع الموحّد، ومن ثم في المجلي الوطني، امتلك الحزب برنامجاً سياسياً مناسباً مع مستلزمات عمله الوطني والقومي والاجتماعي، برنامجاً سياسياً مؤسساً على قاعدة من التوجه الفكري والنظري العام القابل للتطوير بروية وعمق ورصانة دون جمود، دون تسرّع، بحيث لم يبق في طريق الحزب عقبة فكرية سياسية شديدة تمنعه من التقدّم إلى الأمام عمقاً واتساعاً قوة وانتشاراً. العقبة الكأداء التي تحول دون تحرّك الحزب للأمام تتجسّد في الميدان التنظيمي وفي الميدان العملي التطبيقي والتنفيذي لبرنامجه تبينت، ولا سيما في الأعوام المنصرمة منذ المؤتمر السابع الموحد. إن الخلل في الحزب يكمن في الفجوة بين بين سياسته وفكره من جهة، وبين أدوات فعله وحركته من جهة أخرى، بكلمة، إن الخلل يكمن في منهجه التنظيمي التنفيذي الذي لا يزال أسير الجمود والبيروقراطية[90]؛ وحركته العملية تفتقر إلى المنهجية في التواصل والترابط والتتابع، إلى المنهجية

---

90) يكتب مراد في مكان آخر: "بقدر ما يكون عمل المكتب السياسي جيداً، متكاملاً، مصداقياً ... بقدر ما ينعكس ذلك على المركزية، وعلى هيئاتها، وعلى مجموع الحزب. تستطيع الهيئتان أن تكونا رافعتين لعمل الحزب وتطوّره، أو كابحتين ومعرقلتين. أوجه التقصير في الحزب يجب البحث عن أساسها في عمل هاتين الهيئتين، وهما تحملان المسؤولية عن القصور قبل غيرهما".

المشبعة بروح المبادرة المتناسقة والواقعية والمتنورة لجمهور الشيوعيين المتواجدين في كل أو معظم قطاعات العمل والإنتاج والخدمات والثقافة والإبداع".

تجربة الحزب الشيوعي السوري - منظمات القاعدة[91]

فايز جلاحج

مرّت سورية في بداية سبعينات القرن العشرين بتطورات إيجابية هامة، بدأت بتنفيذ مشاريع تنموية وصناعية كبيرة، كسد الفرات الذي اجتذب آلاف العاملين من جميع أحاء البلاد للعمل فيه بأجور مجزية، وكان الأمر كذلك في المشاريع الكبيرة الأخرى: لاستصلاح الأراضي وخطوط نقل الطاقة. وزادت نسبة نمو الاقتصاد الوطني عن 8% سنوياً، كما ارتفعت أجور العاملين في القطاعين العام والخاص.

وتحسن المناخ السياسي في البلاد بعد تشكيل الجبهة الوطنية التقدمية، وفي أعقاب حرب السادس من تشرين الأول، ونتيجة لأجواء الانفراج السياسي والاستقرار التي سادت البلاد.

ولكن الأمور بدأت تسير في منحى تراجعي منذ أواخر السبعينات، إذ انخفضت أسعار النفط، وتراجعت تحويلات السوريين العاملين في الخارج، وتخلّف الأداء الا لأسباب كثيرة، وارتفعت أسعار المواد الأساسية، وأصبحت الجماهير الواسعة تعاني من ضائقة اقتصادية شديدة.

زاد الأمر سوءاً انتشار الفساد في بعض الدوائر الحكومية ومؤسسات

---

[91] كتب فايز جلاحج يوم السبت 3 آذار 2018 حول هذا الفصل: "هي دراسة مكثفة عن حزب منظمات القاعدة وظروف نشأته وما مثله من قيم وما قدّمه للحركة. ولا شك أن هذه الدراسة ينقصها الكثير من المعلومات، خاصة في مجالات النشاط الجماهيري والتجارب العملية، ... وغيرها".

ويتابع فايز في مقدّمة صغيرة ارتأينا وضعها هنا (المعدان - معن ونجدت):

"وقد رأيت مع عدد من الرفاق والأصدقاء والأهل إضافة هذا الموضوع الهام، عرض وتقييم تجربة الحزب الشيوعي السوري – منظمات القاعدة. إن الإحاطة بحياة ونضال الرفيق مراد يوسف ودوره ودور رفاقه الآخرين مع مئات الكادرات الحزبية الشابة وآلاف المناضلين في الدفاع عن الدور التقدمي للحزب في حياة البلاد، والنضال لتعزيز هذا الدور في ظروف صعبة ومعقدة، لن يكتمل دون الحديث عن هذه التجربة التي استمرت أكثر من عشر سنوات. وانعكس تأثيرها في الحزب الموحد، وأصبحت جزءاً من تاريخ الحركة الشيوعية في بلادنا لا يمكن المرور عبره دون التعرّف على ظروف نشوئها وتطورها وتقييم دورها وأدائها وما قدمته للحركة الشيوعية الوطنية بشكل موضوعي.

وهذه الدراسة السريعة تلقي الضوء على بعض جوانب نشاط وعمل التنظيم التي اعتبرتها هامة وتمثل عطاء جديداً. لكن هذا الموضوع يحتاج دراسة معمقة تستند إلى الوثائق ويشارك فيها أصحاب الاختصاص وشهود المرحلة".

الدولة، واتساع تهريب البضائع عبر اتجاهي الحدود، الأمر الذي حرم خزينة الدولة من عوائد الرسوم الجمركية، وحمّل تهريب المواد المدعومة حكومياً كامحروقات خزينة الدولة أعباء إضافية. فكان التهريب أساس النهب الواسع للدولة.

ورغم قيام قيادة الدولة والحزب الحاكم بإصدار قرارات خاصة، وتقديم مبادرات مختلفة، واتخاذ بعض الإجراءات العملية، فإنها لم تنجح في القضاء على الفساد، أو الحد منه جدياً، بل وجاءت النتائج محدودة التأثير.

في الوقت ذاته خاضت الحكومة معركة شرسة ضد حركة الأخوان المسلمين وحلفائها من القوى الرجعية الدينية، والتي ارتكبت جرائم إرهابية عبر اغتيال شخصيات ثقافية وعلمية وسياسية، ومن خلال القيام بتفجيرات إرهابية طالت المواطنين ومقدرات الدولة وبناها، سعياً وراء الوصول إلى السلطة من خلال إشعال حرب طائفية في البلاد.

وقد تلقت هذه القوى دعماً معنوياً ومادياً وإعلامياً من المخابرات المركزية الأمريكية ومن بعض الدول الخليجية، وبشكل خاص من السعودية إضافة إلى العراق والأردن. واشتدت وتوسعت الأعمال الإرهابية في الداخل السوري بعد توقيع اتفاقية كامب ديفيد في أيلول 1978.

وأدى هذا الصراع الطويل الأمد والمتنامي إلى توسيع عديد الأجهزة الأمنية وازدياد قوتها ونفوذها وصلاحياتها، وانعكست نتائج ذلك مباشرة على مؤسسات الدولة والمجتمع والمواطنين.

في هذه الظروف الصعبة والمعقدة في البلاد تطوّر الخلاف الداخلي في الحزب الشيوعي السوري وظهر إلى العلن على خلفية الرأيين المختلفين في المنحى والمنهج الذي اعتبر الأفرقاء الحزبيين ضرورة اتباعهما في السياسة الداخلية.

وقف الرفيق خالد بكداش في قيادة الفريق الأول الذي ضمّ ثمانية من أعضاء المكتب السياسي وأكثرية أعضاء اللجنة المركزية. وقد ارتأى هؤلاء الرفاق أن سياسة الحزب في هذه المرحلة يجب أن تتصف بالاعتدال الشديد وأن تنحى نحو تهدئة الوضع المتفجر ما أمكن، كما نحت

باتجاه تجنب الحزب النقد الحاد للسلبيات البيّنة في آليات العمل الحكومي وانعكاساتها الشعبية أو تخفيف شكلها الصادم. حيث لا بد أن يكون الهدف السياسي الرئيس هو الحفاظ على الوضع السياسي الاجتماعي دون تدهوره في المجهول، إذ أن سورية حكومة وشعباً تقف في حالة دفاع عن النفس في وجه الهجمة الإرهابية الوحشية والتآمر الأمريكي الصهيوني الذي دعمته بعض الدول العربية. وقد رأى هذا الفريق أن الطرف الحزبي الآخر يعرّض بمواقفه المتطرفة التعاون مع حزب البعث وباقي أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية للخطر.

وقاد الفريق الثاني الرفيق مراد يوسف، بعد صدور قرار فصله من المكتب السياسي، وضمّ ثمانية من أعضاء اللجنة المركزية، وأكثرية الكوادر والقواعد في عدد من المنظمات الحزبية، بينها منظمة دمشق العاصمة، وحشد في قواعد الحزب في معظم المنظمات. وأكد هذا الفريق في أدبياته الصادرة حرصه الشديد على الجبهة الوطنية التقدمية، وإرادته تطوير عملها وزيادة دورها في حياة البلاد. ورأى أن مواجهة الأخطار التي تتعرّض لها سورية تتطلب الاعتماد على جميع القوى الوطنية على اختلاف اتجاهاتها، وعلى الحركة الجماهيرية الشعبية التي تقودها نقابات العمال والفلاحين، والمنظمات المهنية الأخرى، وجماهير المثقفين من ناحية. كما أكد أن الصراع ضد قوى الإرهاب والتطرف الديني هو صراع وجودي من جهة أخرى.

إن قوى الشر التي يمثلها الإرهاب الديني وما شابهه، لا بد من مجابهتها بالتعاون بين جميع القوى الخيرة التي يمتلكها الشعب السوري. ورغم الدور الحاسم والأساسي الذي تقوم به القوات المسلحة بتشعباتها في هذه المواجهة، إلا أن إلحاق الهزيمة النهائية بها يمرّ عبر صراع فكري أخلاقي وإنساني تساهم فيه قوى الشعب كلها. يتطلب ذلك من الحكومة اهتماماً جدياً واسعاً بمطالب الشعب الأساسية، وتأمين احتياجاته، وتوفير الظروف والشروط التي تتيح لجميع القوى الوطنية الإمكانيات اللازمة للتعبير عن إرادتها، والقيام بواجبها في الدفاع عن الوطن ومستقبل أبنائه.

ومن اللافت أن بيان القيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية في أيلول

1979 عبّر عن هذا الموقف بوضوح.

أخذ الفريق الثاني على الطرف الآخر عدم تنفيذه للسياسة الحزبية المقرّة في المؤتمرات، السياسة القائمة على مبادئ ثلاث:

- تعزيز التعاون بين أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية وتطويره؛
- الدفاع عن مصالح الجماهير الشعبية؛
- الحفاظ على وجه الحزب المستقل.

وأكد أن حصر العمل انطلاقاً من مبدأ التعاون فقط يؤدي إلى انعزال الحزب عن جماهيره، وتراجع قواه وعديد أنصاره وانحسار دوره في حياة البلاد، وسيؤول كذلك إلى إضعاف نشاط القوى الشعبية وتأثيرها في السياسة الوطنية العامة للدولة.

تعمق الخلاف في الحزب رغم قرارات اجتماع اللجنة المركزية في كانون الأول 1978، القرارات التي أكّدت على ضرورة حماية وحدة الحزب ومعالجة الخلافات عن طريق الحوار والتفاهم، ورغم نصائح الرفاق السوفيات التي ذهبت في الاتجاه ذاته.

بدا هذا في استمرار المكتب السياسي في إصدار قرارات اعتُبِرَت مخالفة للنظام الداخلي للحزب أدّت إلى فصل عدد من أعضاء اللجنة المركزية وجمّدت عمل منظمات عدّة، ... وسواها.

أدّى انسداد آفاق الحل العقلاني للحفاظ على وحدة الحزب إلى دفع الأمور نحو الانقسام التنظيمي، الأمر الذي نفذته القيادة الحزبية عن طريق عقد اجتماعات انتخاب مندوبي المؤتمر الخامس بمن حضر، وغيرها من إجراءات دفعت منظمات كاملة وأعداد كبيرة من الرفاق خارج التنظيم الحزبي.

قاد الرفاق الثمانية أعضاء اللجنة المركزية المفصولين المنظمات والرفاق الذين تعرضوا لهذه الإجراءات متجاوبين في ذلك مع إرادة منظمات القاعدة. وعُقِد اجتماع لممثلي هذه المنظمات في تشرين الأول 1980، انُتخِبَت فيه قيادة مؤقتة، وتقرر إصدار جريدة مركزية تكون ناطقة باسم التنظيم هي "صوت الشعب". وبذلك ظهر في الحياة السياسية حزب تحت اسم "الحزب الشيوعي السوري- منظمات القاعدة".

عقد الحزب الوليد في شهر شباط 1981 مجلساً وطنياً ضمّ مندوبين منتخبين في اجتماعات الكادر الأساسي يمثلون منظماته في كافة المحافظات، وأقرّ المجلس "التقرير السياسي والتنظيمي" و"الاتجاهات الأساسية لمشروع البرنامج" و"النظام الداخلي" و"اللائحة الانتخابية" واعتُبرت هذه الوثائق من الأعمال التحضيرية للمؤتمر القادم.

عُقِد المؤتمر الخامس في نيسان عام 1982 ليستكمل الحزب جميع مقوماته ومؤسساته، وانتخب لجنة مركزية ومكتباً سياسياً كما انتخب الرفيق مراد يوسف أميناً أول للجنة المركزية، وأقرّ وثائقه التي أُعِدّت مشاريعها في المجلس الوطني، وقدّم نفسه أمام جماهيره في سورية حزباً شيوعياً يناضل من أجل تقدّم وتطور ورفاه الشعب السوري. وقد أعلن منذ مجلسه الوطني أنه ليس حزباً شيوعياً جديداً، وأنه يُقدّر ويحترم التاريخ النضالي للحزب ودور المؤسسين والقادة الكبار، وهو يوافق على وثائق المؤتمر الرابع، وسيواصل السياسات الاستراتيجية المقرّة وتقاليده المبدئية والثورية ويعمل على تطويرها وتجذيرها[92].

جاءت تجربة الحزب الشيوعي السوري- منظمات القاعدة فريدة معبرة عن ارتفاع مستوى الوعي وروح المسؤولية لدى الكوادر والقواعد الحزبية، وامتلاكها الشجاعة والقوة للدفاع عن قناعاتها وفهمها لدور الحزب في حياة البلاد، وضرورة رفع مستوى نشاطه بينالجماهير الشعبية ودفاعه عن مطالبها ومصالحها الأساسي، وتطوير بنيته وبنائه الداخلي، وتوسيع الديمقراطية الحزبية في صفوفه بشكل جدّي.

وقد برهن الحزب منذ البداية عن صدقه وإخلاصه للمواقف والأفكار والقيم التي يدافع عنها.

---

[92] يكتب الرفيق عبد الرحمن الأسعد في شباط 2018 متذكراً، "في افتتاح مؤتمر السويداء لمنظمات القاعدة قال مراد: نحن لم نسع الى هذا المؤتمر بل أجبرنا عليه من قبل بضع قادة الحزب، سنعمل كل ما نستطيعه لإعادة الوحدة بين الشيوعيين السوريين على أسس مبدأية، وكان يكنّ أعظم الاحترام لكل قادة الحزب وتضحياتهم رغم أنه انتقدهم في عدد من المواقف، ولم ينف عنهم أبداً صفة الرفاقية ... وقال في ذلك المؤتمر: كان أمامنا طريقان، إما مؤتمر يسمونه انقسامياً، وهو ليس كذلك؛ وإما أن نترك الاف الشيوعيين المخلصين يتشردون ويبتعدون عن النضال السياسي. لو توفرت الديمقراطية في داخل الحزب لما حدث أي انقسام في صفوفه، ولا يمكن وضع أسس صحيحة لإعادة الوحدة للحزب إلا عبر الحوار والأعمال المشتركة".

ففي الحياة الحزبية الداخلية أقرّ المؤتمر نظاماً داخلياً يؤكد قبوله تعدد الآراء في إطار وحدة الإرادة والعمل، واحترامه الرأي الآخر ومنحه حقّه في التعبير عن مواقفه ليكون هذا كله مبدأ تنظيمياً أساسياً. وجعل الحوار الداخلي الرفاقي الأداة الوحيدة في مناقشة واتخاذ القرارات في ما يتعلق بمواقف الحزب وسياساته، وفي مجمل حياته الداخلية. ظهر هذا من خلال توسيع الديمقراطية في انتخاب مندوبي المؤتمرات والقيادات الحزبية، ووضع ضوابط لدور القيادات وعلاقتها بالهيئات الحزبية، وتحديد مدّة شغل المراكز القيادية، ... وغيرها من القضايا. لتكون العلاقات الحزبية قائمة على الاحترام المتبادل والعدالة الإنسانية والحوار الواعي. ينطلق في هذا كله من أن حزباً لا يتمتع بديمقراطية فعلية في حياته الداخلية لا يمكن أن يكون مناضلاً جدّياً في سبيلها من أجل شعبه.

وكان البرنامج السياسي الذي أقرّه المؤتمر الخامس شاملاً ومتطوراً وفيه مواقف هامة كثيرة: إذ تضمّن تحليلاً معمقاً للمرحلة التي تمرّ فيها سورية، مؤكداً أنها "مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية والتوجه نحو الاشتراكية"، وهذه المرحلة لا تزال في بداياتها، وتواجه مهمة الدفاع عن الوطن وحماية استقلاله وصدّ الهجمة الامبريالية المستمرة، وتحرير الجولان المحتل من العدو الصهيوني وإلحاق الهزيمة بالرجعية المعتمدة الإرهاب وسيلة سياسية؛ مع الأهمية الأساس لمتابعة العمل لاستكمال بناء الدولة الوطنية الديمقراطية المعاصرة، وتوطيد التنمية والتطوّر الاقتصادي والاجتماعي، ولرفع مستوى معيشة جماهير الشعب، ومستوى الثقافة والوعي العام والمساواة التامة للنساء في كافة المجالات.

وأشار البرنامج إلى "أن البرجوازية البروقراطية الكبيرة هي الفئة الأساسية المهيمنة على النظام وتمتلك التأثير الحاسم عليه، وهذه البرجوازية، ورغم سمات ومواقف لها معادية للإمبريالية تستند إلى تاريخها ومصالحها، لا يمكن أن تكون تقدمية".

أما الشعار الرئيسي الذي اقترحه البرنامج فيدعو إلى "العمل والنضال لتحقيق انعطاف ديمقراطي تقدمي في حياة البلاد وتطوّرها، يتند إلى تعاون العمال والفلاحين الفقراء والمثقفين الثوريين والجماهير الواسعة من

البرجوازية الصغيرة والمتوسطة والقوى السياسية التي تمثلها والموجودة داخل الجبهة الوطنية التقدمية والحكم وخارجهما". انعطاف يؤدي إلى تغيير موازين القوى السياسية والاجتماعية لمصلحة قوى التقدم، ويُعزّز تلاحمها وصمودها ضد الهجمة الإمبريالية والرجعية، ويفتح الطريق أمام إنجاز مهام الثورة الوطنية الديمقراطية، والتوجه نحو الاشتراكية"[93].

ودعا البرنامج السياسي كذلك إلى تقوية الجبهة الداخلية من خلال توسيع الانفتاح نحو الجماهير وقواها الشعبية والقوى الوطنية الأخرى التي تجمعها مع الجبهة قواسم مشتركة أساسية في الدفاع عن استقلال البلاد ورفض التدخلات الإمبريالية في شؤون البلاد، والطموح لتحقيق التنمية العادلة والتطور الاقتصادي والاجتماعي. كما اقترح البرنامج معالجة المشاكل والقضايا بالغة الأهمية وذات التأثير في حياة سوريا ومستقبلها، مثل موضوع الإحصاء السكاني لعام 1962 في محافظة الحسكة، والذي يجب تجاوز تأثيراته السلبية الخطيرة من خلال إعادة الجنسية السورية إلى جميع المواطنين، والكرد خصوصاً، الذين فقدوها بنتاجه؛ ... وقضايا أخرى.

وفي وحدة الشيوعيين السوريين انطلق الحزب منذ البداية من فكرة بديهية بأنه ينتمي إلى الحركة الشيوعية وإلى الحزب الشيوعي السوري، ويتبنى الماركسية- اللينينية نظرية وفلسفة مع اعترافه بضرورة تطوّرها حسب التغيرات العالمية والمفاهيم المعاصرة، ومن قناعته بأن الممارسة العملية لا بد وأن تنطلق من ظروف كل بلد وتكوينه ومستوى تطوره في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

وإذ يعتبر الحزب نفسه جزءاً من الشيوعيين السوريين فإنه لا يمكن أن يدخل في صراع وتناحر مع أي فصيل شيوعي آخر، ويعمل في هذا على

---

93) كتب الرفيق زهدي داوود في كانون الثاني 2018 متذكراً: "استند الرفيق مراد على الواقع الموضوعي خلال أزمة الحزب في سبعينات القرن العشرين، وانطلق بالاستناد إلى أن المنطق العلمي المترافق مع مقدمات صحيحة يقود إلى نتائج متطابقة مع الواقع. وقد استخلص أنه لا يمكن الانتقال إلى انعطاف ديمقراطي تقدمي في حياة البلاد دون إفساح المجال واسعاً للحريات السياسية، ولا يمكن حل القضايا السياسية والثقافية والاجتماعية. ولطالما ردد في اللقاءات الحزبية: أيها الرفاق، على المرء مواجهة الواقع مهما كان مرّاً واجداً الحلول المناسبة من أزماته".

تغليب لغة الحوار الرفاقي والعلاقات الودية العادلة والتعاون بين جميع الشيوعيين.

لذا كانت إعادة وحدة الحزب الشيوعي السوري الهاجس الأكبر للرفيق مراد يوسف ورفاقه[94]، حيث وضع المؤتمر الخامس عام 1982 خطة لذلك تحت العنوان "إلى الوحدة عبر الحوار الرفاقي والأعمال المشتركة".

وبدأت العلاقات تتحسن تدريجياً بين الرفاق في الأحزاب الثلاثة، وأطلق الرفيق خالد بكداش نداء لوحدة الشيوعيين رحب به الحزب، وتشكّلت لجنة ثلاثية للحوار اجتمعت بتواتر. أما أولى الخطوات الجدّية لتحقيق الوحدة فأتت بمبادرة الحزب الذي يقوده الرفيق يوسف الفيصل إلى دعوة الرفيق مراد يوسف مع وفد من الحزب لحضور الجلسة الافتتاحية للمؤتمر السادس للحزب في 29 كانون الثاني 1987.

ثم تتابعت الخطوات عبر تشكيل لجان حوار ناقشت النظام الداخلي وبرنامج الحزب وغيرها، وكانت مواقف الحزبين المتطورة خلال الفترة السابقة قد تقاربت في مختلف المجالات، وخاصة فيما يتعلق بالديمقراطية الحزبية الداخلية، وهي الحلقة الحاسمة التي تحمي وحدة الحزب.

توّج هذا الجهد الهام في المؤتمر السابع في 11 تشرين الأول 1991، بإعلان الوحدة في الحزب الشيوعي السوري الموحد. ومما يؤسف له أن الحزب الشيوعي الذي قاده الرفيق خالد بكداش رفض المشاركة في هذا العمل الوطني الكبير.

قاد الرفيق مراد يوسف الحزب الشيوعي السوري- منظمات القاعدة من تاريخ تأسيسه في تشرين الأول عام 1980، وحتى قيام الوحدة وتأسيس الحزب الشيوعي السوري الموحد. وقام بذلك بكفاءة وسلاسة

---

[94] يكتب زهدي داوود في 2018: "بعد تأسيس الحزب الشيوعي السوري- منظمات القاعدة طُرح شعار وحدة الشيوعيين السوريين بمختلف فصائلهم عبر الحوار والأعمال المشتركة، وقد التزم آلاف الشيوعيون بهذا النهج ليس لمصالح أو امتيازات مرجوة، وإنما سعياً لخلاص سورية والحزب من تلك الأزمات والتحديات التى كانت تواجه البلاد وقواها الوطنية داخلياً وخارجياً. لقد وجه الرفيق مراد رفاقه الشيوعيين، خلال لقاءاته مع قواعد الحزب وفي المؤتمرات المنطقية لمنظمة الجزيرة، بأهمية وحدة الشيوعيين السوريين لبنة أساس في النضال من أجل تحسين الأوضاع الاقتصادية والمعاشية للجماهير الشعبية، وزيادة دور الحزب الشيوعي، وصولاً إلى إحداث انعطاف ديمقراطي حقيقى في حياة البلاد".

متحملاً عبئاً كبيراً في العمل الحزبي، إذ كتب مقالات افتتاحية جريدة "صوت الشعب"، وترأس اجتماعات اللجنة المركزية ومكتبها السياسي، وحضر اجتماعات للجان المنطقية وللمنظمات القاعدية، وخطب في المناسبات الوطنية وفي المهرجانات التي نظمها الحزب، واستقبل رفاقاً من مختلف المنظمات، مجتمعاً مع ممثلي الأحزاب الأخرى دون أن يبدي أي مظهر للتعب أو الشكوى. أضفى في ذلك، وفي كل عمل قام به، من روحه السمحة الديمقراطية وإنسانيته، الدفء والمودة والاهتمام مستمعاً لآراء الآخرين باحترام وتفهم. واستمر في ذلك في الحزب الشيوعي السوري الموحد، وعلى نطاق أوسع.

عشية المؤتمر العاشر للحزب، أعلن أنه لن يترشح لعضوية اللجنة المركزية، مؤكداً ضرورة إتاحة المجال لقادة جدد، ولم يستجب للضغوط التي مورست لبقائه في القيادة الحزبية، معتبراً أن عضويته الحزبية هي الأساس، وأنه سيقوم بكل واجباته المترتبة على ذلك، مقدماً في هذا مثالاً حيّاً عن الوفاء للقيم التي دافع عنها طوال حياته.

الباب الرابع

في ذكراك[95]

[95] يتضمن هذا الباب شهادات أشخاص كُثر ممن عرفوا مراد يوسف، نشطوا وعملوا معه في فترات مفصلية من حياة الوطن السوري ونضالات كادحيه. كلمات ألقيت في تأبينه... أحرف من نور تُبرز ألق مسيرة أبي سامي الكادح، الصاعد إلى نور نضال طويل من صلب عائلة مكافحة من كادحي هذا الوطن السوري - معن.

خواطر[96]

(1)

هذا الوطن أحببته وأحبه وسأحبه أبداً... هذا الوطن غال عليّ وحبيب لي، وأغلى وأحب بقعة فيه هي مرتفعات الجولان[97]، وأغلى وأحب الناس لي هم بسطاؤه وكادحوه الطيبون المعطاؤون والبواسل. ومن خلال هذا الوطن، أحب العالم كله وجمالاته وبسطاءه وأناسه البواسل المقاتلين في سبيل الحرية والعدالة.

أتساءل: ترى هل استحق أن يغطى تابوت جنازتي براية الوطن السوري؟ ويحفزني قول الشاعر الفلسطيني معين بسيسو[98]:

برايةِ الشعبِ يكسوكَ الرفاقُ إذا عَريْتَ، فامْشِ بثوبٍ بالدماءِ نَديٍّ

... أرغب إلى رفاقي وأصدقائي وأهلي أن يحققوا لي هذه الرغبة، إذا وجدوها معقولة، أي أن يغطى جثمان جنازتي بالعلم السوري.

(2)

أحب الحياة وأكره الموت، لكني لا أرضى لنفسي حياة ذليلة أطأطئ فيها رأسي، وأزيح فيها ناظري عن المواجهة.

---

[96] كتب مراد مجموعة الخواطر هذه وصية له قبل 11 حزيران 1997، خلال مرضه الشديد حينذاك. وقد كتب رفيق دربه يوسف الفيصل على هامشها عند قراءته لها: "أرى أن تُنشر كما هي"، وقد عدّدناها مفتاحاً لفهم القارئ لآراء المعاصرين وأصدقاء المسيرة في أبي سامي - **المُعِدُّ**.

[97] كتب أبو سامي مراد يوسف في 9 تشرين ثاني 1994 بعنوان "خواطر زرقاء سماوية" يتغزّل بجولانه:

"يا حفنة من تراب الجولان! يا ملء كفّي من رمالك الزرقاء الغامقة! يا صخوراً تختزن التاريخ في مرتفعات البريقة وبير عجم ومجدل شمس! يا أشجار السنديان والبلوط والزعبوب الخشنة كأيدي الفلاحين الكادحين! يا مرملتنا العجيبة على مشارف القنيطرة في يمين الطريق الذاهب الى فلسطين عبر جسر بنات يعقوب! أيتها المروج الربيعية الفواحة بالأزاهير بعد عواصف الشتاءات القاسية المرعدة! كم وكم أشتاق اليك، وأتمنى ان أزورك، وأستعيد بعضاً من أحلى ذكرياتي الطفولية! كم أشتاق اليك بين الفينة والفينة...

لا تحرميني من أحضانك الأبدية، حينما يتوقف هذا القلب عن الخفقان".

[98] من قصيدة يخاطب فيها أمّه أيام نضاله من أجل حرية شعبه الفلسطيني (هامش كتبه مراد).

نعم أكره الموت، وقد كرهته وأنا طفل حين اختطف عمتي الحبيبة "حبيبة"، ثم اختطف مني وأنا رجل والدي ونانا الباسلة وأخي الأكبر، ثم أخي الأصغر، ثم شقيقتي نظمية، وأخيراً شقيقتي خيرية بكر أسرتنا وأمي الثانية، كما اختطف مني العديد من أعز رفاقي وأصدقائي.

أكره الموت، لكني لا أخافه، وأعجب كيف صار عمري 64، وهو أمر لم أكن أتوقعه أبداً.

لا أخاف الموت. أخاف العجز عن الموت، حين يصبح الموت رحمة لي وللآخرين من أحبابي.

أكره الحياة حين تصبح حياتي عذاباً لأحبابي ومثار شفقة لغيرهم، أو مثار شماتة لضعفاء النفس.

أشد ما أكرهه، أو أرتعب منه، أن أوجد في حالة ميؤوسة وعاجزاً عن التصرف بحياتي وموتي.

أحب أن أموت ماشياً مناضلاً متحركاً بإرادتي...

وإذا صدف أن فقدت القدرة على هذا التصرف، أرجو، وأوصي بكل الرجاء والحزم والإلحاح، أن يسهلوا لي موتي، لا أن يمددوا ولا لحظة واحدة بحياتي الميتة. وسأظل أشكرهم في هذه الحالة، وأحمدهم في الحياة الآخرة، إذا اكتشفت أن هناك حياة آخرة بأي شكل كان.

(3)

من تراب الجولان جئت إلى الحياة، وأوصي أن يدفن جسدي هناك في مرتفعات الجولان.

ابن الجولان وعاشق الجولان وعاشق الوطن... رحل!
القائد الشيوعي مراد يوسف في ذمة الخلود[99]

المناضل المبدئي الصلب، والقائد الشيوعي ذو السمات الإنسانية الرفيعة، فارق الحياة بعد أن ترك بصمة مميزة في ساحة النشاط السياسي في البلاد، وفي درب النضال الشيوعي الإنساني، الذي كرّس حياته كلها له مناضلاً لا تلين له قناة على مدى أكثر من خمسين عاماً، وقائداً شيوعياً منفتح الذهن، مستمعاً بانتباه، محاوراً باحترام. الوطن والشعب هما قضيته الأولى وهاجسه الأكبر. وبقدر ما كان تحرير الجزء المحتل من أرض الوطن أولية، كانت الحريات الديمقراطية لجماهير الشعب وقواها الوطنية والتقدمية كذلك أولية، ومعها حقوق الناس في العيش الحر الكريم، تتجدل هذه القضايا كلها وتتضافر في وعيه وحديثه وسلوكه وفي مواقف حزبه.

الرجل الطيب المتواضع البسيط المعطاء النبيل، المترفع عن ترف الدنيا وإغراءاتها، والمندفع للدفاع عن قضايا البسطاء والفقراء وحقوقهم، والذي سمّى ابنه (جولان)، ليظل الجولان مسقط رأسه، وليظل تحرير الجولان حاضراً في كل لحظة من وقته وتفكيره وتفاصيل حياته...

رحل مراد يوسف (أبو سامي)...

وقد ودّع المئات من الشيوعيين السوريين من العاصمة دمشق ومن المحافظات، يوم السبت الماضي، القائد الشيوعي مراد يوسف، الذي فارق الحياة يوم الجمعة، إلى مثواه الأخير في مقبرة الشركس بالكسوة الشرقية. وجرى تشييع جنازة الفقيد، التي لفت بالعلم السوري حسب وصيته، من دمشق إلى الكسوة بالسيارات... شارك في التشييع وفود تمثل الحزب الشيوعي الأردني، وحشد من الرفاق من منظمات الحزب في المحافظات والجبهتين الديمقراطية والشعبية لتحرير فلسطين والحزب الشيوعي السوري، وتيار قاسيون، وشخصيات ثقافية وفكرية ونقابية...

---

[99] النور، السنة السابعة، العدد 322، الأربعاء 5 آذار 2008.

مراد وأحزان الأيام الأخيرة

نجدت تحقاخة

كم كان محقاً كاتبنا الكبير حنا مينة حين قال: إن الناس، الذين يقدمون للمجتمع بتفانٍ وتواضع، يُفضّل تكريمهم قبل مغادرتهم الحياة، وليس بعد. وقد ينطبق ذلك على مراد، وعلى الكثيرين من الذين قصدهم كاتبنا الكبير. وكم كان حسناً لو أن المقابلات، التي أجراها الرفيق خالد نعمة مع مراد، قد نشرت في حياته. وكان أحسن وأفيد، لو أن الرفيق خالد نعمة استطاع استكمال ما كان عند مراد من ذكريات أو أوراق غير شخصية، كما سمى المرحوم المناضل الشيوعي الكبير نبيه رشيدات مذكراته وتجاربه، لأن هذا القسم، الذي لم يتمّ استكماله، كان هو الأهم، لأنها تتعلق بالأمور السياسية والفكرية والتنظيمية. ولم يتم ذلك بسبب سفر مراد إلى عند ابنه سامي في الخليج، وبعد أن ساءت صحة مراد، لم يعد ذلك ممكناً. ويبقى التكريم، حتى بعد المغادرة، أفضل من عدم التكريم، علماً أن الغاية من هذا الكتاب ليس التكريم بحد ذاته، بل الأهم أن يكون في هذا الكتاب بعض الفائدة المبتغاة للشباب، وخاصةً المقدمون على درب النضال الوطني والاجتماعي، لما فيه من مثل ثورية وأخلاقية محفزة جديرة بالاقتداء، إذ كان مراد منذ بداية وعيه وشبابه حاملاً هموم الناس المعذبين في الأرض، ومضحياً من أجلهم على مبدأ ماركس قبل أن يقرأه (إذا كنت تريد أن تكون تافهاً، فأدر ظهرك لهموم الناس).

وكما في حياته العامة، كانت علاقات مراد العائلية والأهلية والشخصية، كان الإنسان المنسجم في ممارساته، بين ما يؤمن به من أفكار تقدمية وإنسانية كشيوعي وبين ما يمارسه في كل مجال علاقاته. وكان رغم ضيق وقته حريصاً جداً أن يشارك في الأمور المنزلية، سواء في جلب الحاجيات أم في المطبخ من طبخ وجلي وتحضير للمائدة ومن ترتيب للمنزل، حتى بعد أن اشتدت عليه الآلام والأوجاع، كما يُعبّر فيما كتبه في أحد دفاتره: "صرتُ، خصوصاً في الشهور الأخيرة، محاصراً

بالغم والهم أكثر من السابق، بدءاً من أبسط الأمور اليومية الاعتيادية في البيت، حيث صارت هذه الأمور المنزلية التافهة، لكن الضرورية، التي لا بُدَّ منها، ولا مفر من أن يؤديها أحدنا نحن الاثنين: حياة وأنا، المنعزلين إلى حدٍّ كبيرٍ عن العالم، والمحبوسين في المنزل الصغير المزدحم بالأغراض منذ أكثر من ثلاثة أعوام. "منزلٌ لا تدخله الشمس، ولا إطلالة لديه"، أي منذ بدأ المرض الانضغاطي اللعين، الذي لا يتركك تستريح، ويرافقك كالظل. حياة وأنا، سواء بسواء، نتعكز أحدنا على الآخر في الأمور التافهة هذه: ماذا نأكل؟ وكيف؟... إلخ. كانت مثل هذه الأمور في الماضي متعة لي، حين أكون بلا عملٍ مُلِحٍّ. أغراضي، دفاتري، جراندي، أوراقي يومياً مبعثرة في الغرفة الرئيسية، التي نسميها المضافة... مبعثرة على القواطع الثلاثة، على الطربيزات الأربع وفي الزوايا. واليوم، اقتحم العيد حياتنا، وصار لزاماً عليَّ لملمة هذه الفوضى. وها هي ذي الساعة بلغت الرابعة، وبصعوبة صارت الأوضاع في الغرفة مقبولة نسبياً. إذا كنت سأستمر في الاستطراد حتى أتعب، فسيطول المشوار. في مثل هذه السويعات، التي يتفارق فيها الليل والصباح، كثيراً ما عشت حالات الكتابة في شتى الأمور، التي انخرطت فيها في سنوات السبعين. ربما بدأت معي في الصفوف الأولى مطلع أربعينيات القرن الماضي". كان مراد شديد التطلب من نفسه تجاه الآخرين وتجاه القضايا العامة، لكنه كان كثير التسامح بالأمور والعلاقات الشخصية مع الآخرين.

ما كان يكتبه مراد في دفاتره هذه لم يكن يقصد نشره طبعاً، ويسميه الخواطر، لكنها عبرت هنا عن العزلة الشديدة التي عاناها في حياته، وعايشها في في السنوات الثلاث الأخيرة من حياته. عبّرتْ ليس فقط بما كتبه، بل بما عاينته وعايشته أنا بنفسي معه. ولم يكن ذلك سهلاً على مراد، الذي تمتّع بعلاقات اجتماعية وسياسية واسعة قبل أن يقع في مثل هذه العزلة الشديدة، إلا من عدد محدود جداً من الرفاق والأصدقاء، الذين ثابروا بالتردد عليه، واستمروا في التواصل معه مشكورين. ورغم الحسرة التي كان يحس بها مراد جراء ذلك، لم يصدر منه ولا مرة واحدة كلمة عتب على الرفاق والأصدقاء، الذين لم يثابروا في التواصل معه، بل

كان يجد الأعذار لهم لدى سماعه كلمات عتب عليهم من بعض المحيطين به، رغم قناعته الضمنية بما يقوله هؤلاء.

كان مراد يتطلب من الشيوعيين، والقادة على نحو خاص، أن يكونوا مثالاً يحتذى في كل جوانب حياتهم العامة والشخصية والعائلية، وأن لا يكونوا منظرين فقط. وهذا ما كان يطبقه على نفسه، ولو كلفه ذلك الكثير. وكان عزيز النفس، لا يريد أن يرمي بثقله على أحد، حتى وهو في حالته الصحية السيئة. في إحدى الأمسيات، دخلت البيت، فإذ به يجر كرسي الخيزران من المطبخ إلى غرفة الجلوس، وعليها ما عليها من حاجيات العشاء، التي حضرها في المطبخ، لأنه ما عاد قادراً على حمل الصينية بيده، وقال مازحاً وضاحكاً: شركة أبو جولان للنقل. تمنيت في تلك الظروف الصعبة عليه أن أكون بجانبه على الدوام، وقلت له: مراد، إذا أردت أن تريحني وتريح ضميري، أرجوك أن لا تدع الأمور لمبادراتي. من أجل مساعدتك في أي غرض وفي أي ساعة شئت، اطلبني لأكون عندك، تجنباً لأي تقصير قد يحدث. رغم ذلك، فإنه نادراً ما بادر بطلب المساعدة، لذلك دأبت وخصوصاً في الفترة الأخيرة من حياته على أن أكون بجانبه دائماً لمساعدته. وعشية ذلك اليوم، الذي أودت فيه الجلطة بحياته، بقيت عنده حتى ساعة متأخرة من الليل، وساعدته على الاستحمام، وحلقت له شعره ولحيته، فقال مازحاً: هكذا أصبحنا جاهزين لاستقبال بيبرس غداً، وبيبرس هو حفيده المدلل. وفي اليوم الثاني، تلفن سائلاً: هل ستأتي؟ أخطأت وقلت: سآتي إذا كنت بحاجة إليّ. قال: لا، لا ضرورة. وبعد ذلك بساعة، أخبرتني شقيقة زوجته عناية أن مراداً في المشفى. صدمت كثيراً، وأحسست بالذنب الذي ما يزال يلازمني حتى الآن. يبدو أن مراداً أحسّ بوضعه غير الطبيعي، مما جعله يتلفن، إلا أنه لم يشأ أن يقل لي تعال.

إلى روحك ...[100]

رسمي الشناعة

إنه الإنسان، الذي جمع في شخصه الأمانة الفكرية والنزاهة وسعة الصدر والسلوك الديمقراطي الأصيل، وجمع بين مواصفات المناضل الصلب والروح الإنسانية العميقة. وامتزجت هذه الخبرة العميقة بخفايا النفس البشرية مع الحس المرهف، كما قال الشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل في رثاء أحد أعزّ أصدقائه:

كموجة صافية الهدير ... تريد أن تعانق الغدير
وكان في نقائه ... وهجاً من العبير

إنه الإنسان النادر في مواصفاته ندرة المعادن الثمينة، التي لا تفقد شيئاً من قيمتها إذا وقعت على الأرض، بل تزداد تألقاً.

الإنسان الذي امتلك إحساساً حاداً بمعاناة الناس، وعاش آلامهم، رغم أنه عرف المعاناة بكل تلاوينها، وسار في الطريق الوعرة، التي لا يسلكها سوى المناضلين الأشداء. دخل السجن، وتحمّل عذابات لا تطاق، وصمد صمود القديسين سنوات عديدة، وخرج أقوى وأمضى. لم ينكفئ، ولم يتراجع، بل ازداد صلابة وتماسكاً.

كان يرفض أن يتاجر بالشعارات البرّاقة، ويرفض أن يتقنع بأقنعة المبدئية، بل كان يمارس حياته ببساطة الأطفال دون تعقيد، فلا غرابة أن تأتي كلماته بحجم قناعاته مشعّة بالصدق والجرأة والأصالة، وأحياناً تأتي مليئة بالشجن، الذي يعكس مكابداته ومعاناته الحياتية. وعندما تحاصره بالأسئلة السحرجة الصعبة، يبتسم بكل تواضع، ولا يقول شيئاً يمسّ غيره، بل كان يردد: "إن الكلام الذي لا جدوى منه يشبه الرصاصة، التي نطلقها في الهواء، لتخلق ضجة مفتعلة، دون أن تُصيب الدرينة، والتي من الأفضل أن نتوقف عن إطلاقها". إنه النموذج الحي للمناضل الصلب

---

[100] رسمي الشناعة - **حكايا الناس**. دمشق، 2009. كلمة إهداء الكتاب إلى ذكرى القائد الشيوعي مراد يوسف.

الثابت على المبدأ في غير جمود، الأمين على قناعاته بغير تحجُر، المستعد للتراجع عن أخطائه بلا حرج، إذ يعترف بالخطأ، وكأنه لا يفعل شيئاً غير عادي، وهذا هو السلوك الديمقراطي الأصيل... .

وكان لا يطيق الكلام المزوّق والعبارات المنمّقة والشعارات الفخمة والكلام المحلى بالعسل، ويرفض إدخالها إلى قاموسه السياسي، وينظر إلى صاحبها وقائلها نظرة تحمل ألف معنى ومعنى، دون أن يواجهه بكلمة قارصة، حتى لا يجرح إحساسه، وهذه نقطة خلافية بيننا وبينه، رغم أن سببها طيبة القلب وعلوّ الأخلاق.

إنه الرجل المختلف القادر على الاعتراف بالخطأ بشجاعة العلماء، الممتلك القدرة على مواجهة الخصوم دون تردد، القادر على النفاذ إلى جوهر القضايا الحسَّاسة بذكاء أخَّاذ، بحيث يواجه الآخر المختلف معه بكل التواضع الذي عُرف عنه، ولكن بكلّ الصدق والصراحة، التي لا تجرح. ويحترم كلّ من يخالفه الرأي بلا تزلف أو مجاملة.

وكان يرفض التعصب بكل ألوانه، ويعترف بالنواقص دون أي شعور بالمهانة، ودون أي محاولة لخلق التبريرات لنفسه، وخاصة عندما تأتي بالبراهين القوية، التي تدحض الآراء والأفكار التي كان يحملها قبل عاصفة الحوار، فالديمقراطية عنده ممارسة مبنية على الأخذ والعطاء والمصارحة الكاملة والتفاعل المتبادل و عدم المجاملة في القضايا المبدئية. كان ديمقراطياً حقيقياً بالفطرة، ودون تصنّع، ودون أن يحاول رفع شعاراتها والتغني بها والتبجح بأهميتها وضرورتها.

إذا امتدحته أصيب بالحرج والارتباك، لأنه لا يتحمّل المديح بكل ألوانه. وكان يردد في مجالسه الخاصة "إن من يستمطر المديح أحمق... ومن يتقبّله ويكون مسروراً به، يكون في منتهى الغباء، وفارغاً من داخله وممتلئاً بالأنانية حتى الحافة".

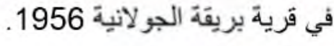
في إحدى اللقاءات، قال له أحد الرفاق في حديث جانبي: إن سبب تراجعنا وانتكاساتنا وانقساماتنا هو عدم ممارسة النقد وعدم وجود ديمقراطية حقيقية في الداخل، أي في حياتنا الداخلية، فقال: قد أتفق معك في الأسباب، ولكني أختلف معك في الأسلوب. صحيحٌ أن السكوت على

الخطأ أكثر خطراً من الخطأ نفسه، كما تقول، ولكن المواجهة غير المحسوبة خطأ أكبر في المناخ الحالي، فقد مارسها البعض، وأُجبر على التراجع رغم صحتها، لأن المناخ لم يكن مناسباً". فوداعاً يا أبا سامي، يا أشرف من عرفت، وأصدق من عايشت. أنت الصدق والنزاهة، التي امتزجت بالنقاء والصلابة، ونادراً ما تجتمع هذه المواصفات في شخص واحد.



مراد يوسف أثناء التدريس في ثانوية عجلون 1957.





في قرية بريقة الجولانية 1956.



دمشق أواسط العقد الأول للقرن الحادي والعشرين، من اليمين: مراد يوسف، قحطان كغدو، نبيه جلاحج، فايز جلاحج.

مات مراد يوسف... وظلَّ اسمه حياً في المطر الملوَّن![101]

عماد ندّاف

في مخطوطة روايتي (مطرٌ ملوَّنٌ - قصة الجسر الأبيض)، التي لم تُنشر بعد، ترد مجموعة أسماء ذات دلالات محددة في حياتنا الثقافية والسياسية والاجتماعية، كأسماء: شكري القوتلي وخالد العظم وصلاح البيطار وخالد بكداش وجمال الأتاسي وعصام العطار ويوسف الفيصل ورياض الترك ومصطفى السباعي... وغيرهم.

ومن بين هذه الأسماء، مراد يوسف (أبو سامي)... وبالطبع لن يتصوّر القارئ معنى ورود هذه الأسماء، إلا إذا قرأ الرواية، لأن واحدة من شخصيات الرواية هي من جماعة (مراد يوسف)، منظمات القاعدة في الحزب الشيوعي السوري قبل قيام الحزب الشيوعي الموحّد، وبالتالي يصبح اسم مراد يوسف هنا ذا دلالة.

أي أن مراد يوسف هو واحد من رموز الحركة السياسية في سورية في النصف الثاني من القرن العشرين، سواء اتفقنا معه أم لم نتفق.

والغريب أنني اتفقت مع أبي سامي رحمه الله على مجموعة أشياء من بينها: أنه يمكن للمواطن أن يكون تقدمياً، حتى لو لم ينتم إلى حزب تقدمي، أو يعتقد بما يعتقده حزب تقدمي. وتلك كانت في البداية مزحة، لكنها صارت اتفاقاً.

والحقيقة الآن مؤلمة، فقد مات مراد يوسف كواحد من شهود العصر، الذين قسا الوطن عليهم، فلم يُقدّم لهم حصة من المائدة الإعلامية، وهذه من المآخذ الكبيرة على أدواتنا الثقافية والإعلامية، التي تكاد صورتها الأصلية الظاهرة تخلو من الأسماء والزعامات والقامات، رغم وجودهم على الساحة السياسية والثقافية بكثرة، وأبو سامي واحد منهم.

رحل مراد يوسف، وفي رحيله، أفقد أنا شخصياً شيئاً من عناصر ذاكرتي، فهو واحد ممن قدموا لي سيلاً من التفاصيل عن الحركة السياسية

[101] النور. المصدر السابق.

في سورية، التي شغلتني الكتابة عنها طويلاً. وبالطبع، قاطعتُ معلوماته مع معلومات أخرى، لأنسج منها حقيقة تاريخية، أريد أن تستكمل شروطها ذات يوم. وهو واحد ممن قرؤوا لي بعناية على الورق وقبل النشر، وناقشني طويلاً بما كتبت.

أعتقد أننا نُخطئ في إعلامنا وصحافتنا عندما نفقد رمزاً من رموز الحركة السياسية السورية، ولا نهتم لفقدانه. وبالطبع، لا أقصد هنا الجهة التي ينتمي إليها هذا الرمز، فمن الطبيعي أن تتحدث عنه، وتشير إلى شخصيته أو أهميته السياسية أو الثقافية، ولكن أقصد تحديداً: التقليد الإعلامي الحضاري السائد في سورية، ففي صحافتنا محاولة الآن لتجاوز ذلك، ولكن المرض موجود، فليس من الضروري فتح ملف لأشخاص نختلف معهم، أو لا ينتمون إلينا.

إنها مفارقة حضارية، وإلا فكيف سيقرأ أحدنا صحيفة محلية، لا تقدم له أخبار بلده إلا بعين واحدة، لذلك من الضروري الاهتمام بشخصيات البلد السياسية، بغض النظر عن الاتفاق أو الاختلاف معها؟!

سنتذكر ذلك فيما بعد، ولكن ما فائدة هذا التذكر بعد أن يقع الخطأ؟!



في بيت العائلة مع صديق الطفولة صبري حسين، بريقة – القنيطرة، أواسط خمسينيات القرن العشرين.

خسر الحزب بفقده قائداً مجرباً صلباً![102]

باسم عبدو

حمل الموت مطرقته، ودقّ أوتاد خيمة الحزن، وأخذ منا عنوة الرفيق "أبا جولان"، لكنه لن يقدر أن ينتزع صورته من ذاكرتنا ووده من أفئدتنا.

تنقلتَ بين الأرياف والمدن والسجون... خمسة عقود ونصف أمضيتها في الدروب الشائكة، مناضلاً في حزب الخبز والجلاء... رحلتَ، وظلت ذكراك.

ما زلت أتذكر تلك اللقاءات بداية العقد السابع من القرن الماضي، في أحد أحياء دمشق القديمة.

تحمَّل الرفيق وخز الشوك ووعر الدرب الصعبة، صعوداً ونزولاً في الحر والبرد والملاحقة والتخفي... وبيت متواضع على كتف مرتفع يطل على دمشق، ما يزال مستأجراً، والكفاف من الجبنة والخبز والسلوان وهمسات لن تضيع.

كان أبو جولان، ونحن نصعد الدرجات المئة إلى الجادات العليا المعلقات، يقول: "يحلو الحديث في هذا الصعود، فلنقف هنيهات كلما صعدنا عشر درجات، حتى ترتاح صدورنا من هذا اللهاث".

أبو جولان، الرجل الصلب، بين تجاعيد الوجه تغفو الوداعة، وتستريح الابتسامات الودودات، وتتنامى الضحكات الصادقات، ومن يصدق أن أبا جولان كثير الحزن، يكمد آلامه؟ ولكن عندما تثور عاطفته، تتهاطل دموعه. وأنا شاهد على ذلك، أنه بكى في حالات تستحق البكاء من مناضل له قلب طفل، وعقل غير قابل للاستفزاز، وعناد في المنعطفات والمحطات الصعبة.

---

[102] من كلمة عريف حفل تأبين مراد يوسف، الذي أقامته اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري، يوم الأربعاء 23 نيسان 2008، في مقرّ الاتحاد العام لنقابات العمال بدمشق. **النور**، السنة السابعة، العدد 339، الأربعاء 30 نيسان 2008.

وكذا من مقدمة السلف، الذي نشرته جريدة الحزب المركزية بمناسبة عام على الرحيل. **النور**، السنة الثامنة، العدد 378، الأربعاء 25 شباط 2009.

كم كان حريصاً على حماية الرفاق! وكم كان دقيقاً في أحاديثه السياسية، وملتزماً ومنفذاً بأمانة للقرارات الحزبية، متروياً في إجاباته على أسئلة الشباب التعجيزية المتطرفة أحياناً، وتهدئة حماستهم، وتصويب مواقفهم وبلورتها وتصحيحها!

وكم كان متفائلاً بالمستقبل، مناضلاً من أجل وحدة الحزب، ومن أجل الدفاع عن مصالح العمال والفلاحين والمثقفين وجميع الكادحين! وأجمل ما في مواقفه، التي لا تُنسى، أنه كان المدافع عن الغائب، مهما كان موقفه مغايراً ومخالفاً لموقف الحزب! وأجمل ما في مواقفه أيضاً، أنه كان دائماً يسأل الرفاق عن أسرهم وأبنائهم وأعمالهم!

إنه القائد الشيوعي مراد يوسف، الذي كان أحد المساهمين الفاعلين والمؤثرين في وحدة الشيوعيين السوريين.



في احتفال الذكرى الثلاثين للانتصار على الفاشية والنازية: دمشق 9 أيار 1975: مراد يوسف، خالد بكداش قوطرش، يوسف الفيصل، السفير السوفييتي.

الصراحة والجرأة والتواضع أبرز ميزاته[103]

يوسف الفيصل

الوقوف في ذكرى رحيل مراد الدين تحقاخة "مراد يوسف" أمر مهيب، ذلك أن للرجل تاريخاً زاخراً وحضوراً قوياً. درس في الأزهر الشريف، وعمل في التعليم، وانضوى في صفوف الحزب الشيوعي السوري وتطوّر فيه مناضلاً أصيلاً وقائداً يتقن فن التعامل مع الناس وفن الاقتراب منهم.

تعرفت عليه قبل نحو أربعين عاماً أو أكثر قليلاً، عضواً في الحزب، واقتربنا أحدنا من الآخر خلال فترات النضال، وأصبح أميناً للجنة المنطقية في دمشق، ثم عضواً في اللجنة المركزية والمكتب السياسي.

هذا التطور يفرض بحد ذاته موقفاً أمام هذا القائد، ومن الواجب علينا أن نتذكر مآثره ومواقفه وسلوكه.

لقد كان صريحاً إلى أقصى الحدود، يفاجئك أحياناً بصراحته، التي تصدر عن صدق في التقدير ودقّة في تحديد الموقف، وحدود هذه الصراحة الدقة المبدئية ومعرفة الواقع. وإذ يتمازج هذان العاملان، يصدر الموقف الصحيح. ولكي يكون الموقف صحيحاً، عليه أن يكون مبدئياً وواقعياً في الوقت نفسه.

والصراحة تتضمن قسطاً من الجرأة، التي عودنا عليها فقيدنا، وكانت الصراحة والجرأة ميزتين أساسيتين في سلوكه.

وكان فقيدنا متواضعاً شديد التواضع، يهتمُّ بالبسطاء من الناس والرفاق، ويتقن فن الحديث معهم والاستماع إليهم، ويمتلك القدرة على اجتذابهم. ذلك أن الموقف من البسطاء في الحزب أمر شديد الحساسية، فهم أعضاء في حزب عنوانه الديمقراطية وسواسية الناس.

---

[103] كلمة رئيس الحزب الشيوعي السوري في حفل تأبين القائد الشيوعي مراد يوسف. **النور**، السنة السابعة، العدد 339، الأربعاء 30 نيسان 2008.

وكـان ماهراً في الـسياسة، ليس متطرفاً ولا مسـايراً، يعرف حـدود الموقف، ويعبّر عن ذلك بدقـة، والسياسة في الحـزب الشـيوعي أمر جوهري وحيوي، فالخطأ في السياسة يمكن أن يجرّ الحزب إلى اليمين أو اليسـار، ويخـرجـه عـن الخـط المبدئي، الـذي تقـرّره الهيئات العليا والمؤتمرات.

والسياسة لا تتأثر بالظاهرات، وإنما تأخذها بالحسبان في دقة الموقف وصوابيته، وجوهر السياسة هو تحديد الموقف الملموس في ظل الظروف والوقائع الملموسة، وهي بذلك تعتمد ما ذكرناه حول المبدئية الواقعية. والخطأ في السياسة لا يُصيب صاحبه فقط، بل يُصيب الحزب بالضرر الشديد، وغالباً ما يؤدي الخطأ في السياسة إلى مآس عميقة.

لقد وقع خـلاف مع الرفيق الراحل، وأدى إلى تبـاين في العمل التنظيمي، ولكن سرعان ما وجدنا معاً الطريق الصحيح، وعدنا إلى وحدة متراصة انصهر فيها الجميع.

كان يتقن الكتابة، ويملك ناصية اللغة العربية، وامتلاك الكتابة بلغة صحيحة أمر حيوي لكل قائد، فهو عندما يتحدث إلى الناس، ويكتب في صحافة الحزب، أو يساهم في صياغة وثائقه، يفرض فن التعبير عن اللغة، التي تلائم الموقف، وتحدد حدوده.

ولزاماً عليّ، أنا رفيق دربه الطويل، أن أقف أمام وطنيته، فهو ابن قومية أخرى، ولا ينسى جذوره هذه، بل يتمسك بها وبعاداتها وتقاليدها في حياته الخاصـة وعلاقاته مع أبناء هذه القومية. ولكنه وطني سوري أيضاً شـديد الوطنية، وحبُّ سورية وحبُّ شعبها وحبُّ تقاليدها واحترام رجالاتها، الذين قدّموا حياتهم قرباناً للدفاع عن الوطن، هي من صفاته وسماته الأساسية.

لقد انعكست وطنيته هذه في حياته اليومية، فقد سمى ابنه البكر جولان، تخليداً لهذه القطعة الثمينة من الوطن، وتصميماً منـه على إبقائها في الذاكرة، كي لا تنسى، وتعود إلى أحضان الوطن الأم.

وكان متمسكاً بقوة بسياسة الحزب الشيوعي السوري، التي تُعدُّ الوطنية ركناً أولياً في حياته، وهي مركز الاهتمام ومحدد الاتجاهات الرئيسي.

سُجن مراد يوسف من أجل الحزب ومبدئية الموقف الذي اتخذه من فكرة حلّ الحزب، ودافع عن وجود الحزب، وقدّم نموذجاً للقائد الصلب، الذي لم تتزعزع عزيمته، أو يتراجع صبره، أو يخف إيمانه طوال مدة سجنه.

لقد خسر الحزب، بفقد الرفيق العزيز مراد يوسف، قائداً مجرباً صلباً، وكانت خسارته فادحة، ولكن هذا هو درب النضال، وقيمة الرجال بما تركوه من مآثر، وهم يساهمون في الدرب الطويل، الذي يسير عليه الحزب في نضاله من أجل تحقيق قيم العدالة والاشتراكية.



وفد الحزب على سور الصين العظيم: مراد يوسف، جيانغ، أنس القسام، يوسف الفيصل. 29 حزيران 1992



من زيارة وفد الحزب الشيوعي السوري للصين 1992.

سيبقى زرعك باسقاً أبداً[104]

نبيه جلاحج

يقال إنه لا أقوى من الحياة إلا الموت. هل يستطيع الموت أن يُطفئ شعلة حياة امتدت جذورها عميقاً في أرض الوطن؟ حياة ارتوى نسغها من محبة الشعب والناس البسطاء؟ أية قوة يمكن أن تطغى على ذلك الضياء الساطع المنبعث من أنبل وأشرف ما في الإنسان من قيم ومثل سامية حملتها، وسعيت إلى نشرها يا أبا سامي؟

نحن لم نجتمع اليوم لنودعك، ولأنك باقٍ فينا ومعنا تحدونا في هذه الأمسية الرغبة في أن نسمر معك، كي يفوح عبق مسيرتك النضالية من حولنا، وتصبح أحلامنا بالمستقبل أحلى. وفي هذه اللحظة بالذات، تلوح أمامنا ابتسامتك، التي تحمل من طيبة النفس وسماحة الخلق ما لا حدود له. نحن نطمح إلى أن نقبس بعضاً من عبر حياتك الحافلة بالإنجازات، وبما ينوّر لنا الطريق من أجل تحقيق الأهداف، التي منحت عمرك كله في سبيل تحقيقها: الحرية والكرامة والعدالة والرفاه للناس!

منذ مطلع خمسينيات القرن الماضي سكن الحزب منك العقل والفؤاد، ولم يغادرهما لحظة واحدة بعد ذلك أبداً.

مع كونك شيوعياً، ومع كونك مناضلاً وطنياً، أنت قبل كل شيء مراد يوسف الإنسان. وإنسانيتك العميقة هذه صاغت حياتك، وطبعت سماتك الأخرى كلها، فكنت قائداً من طراز فريد.

أنت لم تطمح يوماً إلى مركز قيادي، ولكن الريادة هي التي سعت إليك، فارضة نفسها عليك، لما توفر لديك من خصال تميّزت بها. وما كان لك يوماً أن تبحث عن امتيازات من أي نوع كان. كنت الزاهد، ناكراً الذات، كناسك على قمة جبل من المنح والعطاء.

ولا أحد يعرف سبب ذلك العشق المتبادل، الذي تمكّن بينك وبين الفقر، هل يرجع إلى عدم قناعتك بالملكية الفردية، وأن لا غنى إلا بغنى

---

[104] النور، السنة السابعة، العدد 339، الأربعاء 30 نيسان 2008.

الناس جميعاً؟ أم أن الفقر أعجب بقسمات وجهك، فأمسك بتلابيب حياتك، ولم يفلتها حتى آخر لحظة منها؟

في الخمسينيات عرفتك أكثر من منظمة من منظمات الحزب أحد الكوادر الحزبية العاملة بدأب وصمت وتفان في نشر أفكار الحزب وسياسته، تـُعلـّم الرفاق، وتتعلـّم منهم.

وترك احتلال الجولان في قلبك جرحاً عميقاً نازفاً أبداً، ولكنك لم ترد لهذا الجرح أن يندمل، ما دام الاحتلال مستمراً، فأسميت ابنك البكر "جولان".

في سجن المزة، وخلال ثلاث سنوات، كنت أنت الحكيم والحكم بين الرفاق، إذا ما اختلفوا على بعض الأمور أحياناً.

جرت العادة لدى لجان التحقيق أن تستدعي بين فترة وأخرى مجموعة من المعتقلين، يتراوح عددها بين سبعة وعشرة رفاق، ينقلونهم من السجن إلى أحد أقبية المخابرات، وهناك تجري عملية تعذيب لإرغامهم على توقيع صك الإنسحاب من الحزب. وفي فترة من الفترات، بدا وكأن احتمال عودة أحد من هذه المجموعات أمر مستحيل، فكلٌ من ينزل من السجن إلى تلك الأقبية سيخرج حتماً، وساد جو من التشاؤم والإحباط أجواء السجن.

وفي أحد الأيام نُقلتَ يا مراد يوسف مع إحدى المجموعات إلى حملة تعذيب، وقبعنا ننتظر. ومضى أسبوع، وانقضى آخر، وفي عصر يوم سرى النبأ بين نوافذ المهاجع: لقد عاد أبو سامي إلى السجن. وكانت فرحة كأنها العرس. نعم عُدتَ منتصراً مظفراً بطلاً[105]. لقد أثبت أن مواجهة الجلادين وهزمهم أمر ممكن، إذا ما توفرت الإرادة والثقة بالحزب وبالشعب، وكان لصمودك أنت بالذات أكبر الأثر، لأن يحتذي بك

---

[105] تذكر شقيقة مراد سعدية ما يلي: "في أعقاب إحدى حملات التعذيب الشديدة التي أدت لتوقيع بعض الرفاق وأصدقاء للحزب صك انسحاب من الحزب الشيوعي، طلبت الوالدة مرافقتنا لزيارة مراد في سجن المزة. ولدى مواجهة مراد في غرفة المقابلة، ويفصل بينهما شبك، بادرت (وهي الأمية والمتدينة جداً، والتي بقيت ثقتها مطلقة بأولادها وتربيتهم رغم الشائعات الكثر عن الشيوعيين وبعدهم عن الإيمان) مراداً بالقول: اياك يا مراد أن تفعل ما فعله بعض رفاقك! فأجابها مراد: أنا ابنك يا أمي. فقال لها مدير السجن (الذي كان حاضراً): ماذا تقولين؟ تكلمي بالعربية يا أم. فقالت له: شو عم قول له؟ أقول كن بطلاً يا بني.

ولكم أن تتصوروا حماس المعتقلين الشيوعيين حينها واحتفائهم بمراد عائدين معه إلى زنزاناتهم.

رفاق آخرون... لقد أصبحت الرمز والأمثولة.

بعد الخروج من السجن، كنت من أوائل الذين أرسلوا للدراسة في المدرسة الحزبية في موسكو، وغدوت تلميذاً مجداً على مقاعد دراسة الماركسية اللينينية، وبذلت كل جهدك لفهم النظرية والتعمق في ثناياها، وأدركت باكراً مقولة لينين "إن النظرية رمادية، أما الحياة فخضراء دائماً". وأن النظرية بكل شمولها وعمقها، ليست أكثر من مرشد لفهم واقع بلادنا وفق الظروف الملموسة، واستنباط البرامج المناسبة والطرق الملائمة لتحقيقها.

ولأن الإنسان هو أولاً وآخراً غاية الاشتراكية، فقد ارتبطت الاشتراكية لديك بالديمقراطية على نحو لا يمكن الفصل بينهما. ولم يهز من عضدك انهيار الاتحاد السوفييتي وبلدان اشتراكية أخرى، ولم يكن أكثر من سقوط لتجربة أنجزت الكثير من الانتصارات والمكاسب، وحملت عوامل ضعف وفشل أيضاً، إلا أن قيمها ومُثلها ستبقى منارة يهتدي بها جميع المستضعفين في الأرض.

لقد كنت منحازاً دائماً، ودون تردد، إلى الموقف الطبقي المعبّر عن مصالح الفقراء والكادحين من جماهير شعبنا، والتصق ذلك لديك بالنضال من أجل حرية الإنسان والدفاع عن كرامته والسعي إلى تحقيق رفاهه كجزء لا يتجزأ من حرية الوطن.

بعد عودتك من الدراسة الحزبية، كنت في الصفوف الأولى من أجل إعادة الحياة الحزبية إلى مسارها الصحيح، والمطالبة بعقد مؤتمر للحزب بعد أكثر من خمسة وعشرين عاماً على غياب المؤتمرات عن حياة الحزب. وإذ انعقد المؤتمر الثالث للحزب في حزيران 1969، انتُخِبْتَ عضواً في اللجنة المركزية.

وكنت مساهماً رئيسياً في صياغة أول مشروع برنامج سياسي للحزب بعد المؤتمر.

ولأن طبيعتك السمحاء والمتواضعة ما كانت لتألف التبجح وعبادة الفرد في حياة الحزب، كنت محارباً حازماً لهذه الظاهرة المنافية أصلاً للشيوعية الحقة.

وقعت انقسامات عديدة في صفوف الحزب في فترة السبعينيات من القرن الماضي. وبغضّ النظر عن أسبابها وظروفها، لم تر أن هذه الظاهرة مبررة، ولم تسع يوماً إلى تكريسها، بل بقيت القضية بالنسبة إليك خلافاً حول قضايا فكرية وسياسية وتنظيمية، يمكن ويجب العمل على معالجتها وحلّها بالطرق الحزبية المبدئية، إذا ما توفرت حياة ديمقراطية داخلية سليمة.

وطوال مرحلة الانقسامات، ورغم حدة الصراع أحياناً، بقيت مترفعاً عن المهاترات والاتهامات ذات الطابع الشخصي.

وانسجاماً مع نفسك وأفكارك، وإيماناً منك بأهمية وحدة الحزب وضرورتها من ناحية، وبأن تقوم على التنوع في إطارها ضماناً لحرية التفكير والاجتهاد والاحترام المتبادل للآراء من ناحية أخرى، ساهمت مع فصائل أخرى في عملية توحيد الحزب، التي أُنجزت في المؤتمر السابع الموحد للحزب في تموز 1991. وانتُخِبْتَ في المؤتمر ذاته عضواً في اللجنة المركزية، وفي المكتب السياسي وأمانته.

وفي هذه الفترة، تعمق دورك القيادي على مختلف الصعد الفكرية والسياسية والتنظيمية. كنت مدافعاً صلباً عن أفكارك وآرائك بكل مبدئية ومرونة في آن، فأنت البليغ في حجتك، الفصيح في لغتك حين تتقارع وجهات النظر، مع قدرة فائقة على الاستماع إلى الآخرين واحترام آرائهم، مهما اختلفت مع قناعاتك.

ورغم غرقك الكامل في عملك الحزبي، كنت رباً شغوفاً بأسرتك الصغيرة، فأنت الزوج الحنون والمؤازر، والأب العطوف والصديق المتفهم لابنيك الشابين جولان وسامي.

وكان اهتمامك بعائلتك الكبيرة شغلك الشاغل، فتهتم بقضايا الرفاق الخاصة، وتسأل وتتابع شؤونهم الشخصية وأوضاع عائلاتهم.

يأتي إليك الرفاق في غرفتك البسيطة، حاملين إليك هموم الناس والوطن، ويلقون على ضفاف صدرك الرحب بأعبائهم، فيستريحون وتطمئن نفوسهم، ثم يعودون إلى منظماتهم، وهم على يقين بأن الشمس ستشرق في الغد أكثر سطوعاً.

في المؤتمر العاشر الأخير، الذي انعقد في نيسان 2006 أعربت عن موقفك بعدم الترشح مجدداً إلى عضوية اللجنة المركزية، وفشلت جميع المحاولات التي بُذلت لإقناعك بتبديل رأيك هذا، فأنت لم تكن مجرد رقم بين أعضاء اللجنة المركزية، وكان لاستمرار عضويتك فيها قيمة وأهمية كبيرة بالنسبة إلى الحزب كرمز ودور ما كان لأحد غيرك أن يحل محلك فيه. وكانت مبادرتك هذه حدثاً نادراً في سلوك القادة، مما حدا بالمؤتمر العاشر لأن يتوجه بتحية تقدير لك في ختام أعماله.

حياتك شاسعة وثرية يا أبا سامي. كانت وستبقى مشرقة مضيئة في صفحات حزبنا الشيوعي، ملهمة جميع الشيوعيين والوطنيين المبدئية والصلابة والنزاهة ومحبة الشعب والإخلاص للوطن.

لأمثالك يا أبا سامي تُقرع أجراس همنغواي، وتُتلى مزامير ناظم حكمت، وتُرتَّل قوافي الجواهري.

عقولنا ترنو اليوم إلى مآثرك، وقلوبنا كلها تهفو إلى محبتك. سنظل نشدو باسمك طويلاً إلى أجيال الحزب القادمة، ونسقي بالأمل والثقة بالمستقبل زرعك الذي غرست، كي يبقى باسقاً فوّاحاً أبداً.



مراد (يساراً) وأخوه نجدت في بيتهم المستأجر في بوابة الميدان - دمشق، 1957.

سنظل نذكر... مثلك رفيقاً وقائداً[106]

يوسف أبيض

إذا كان لنا نحن الشيوعيين أن نفخر برفاقنا، الذين خاضوا معارك الحرية والصمود في السجون السرّاجية دفاعاً عن الوحدة العربية والديمقراطية، فإننا نذكر بملء الاعتزاز والفخر القائد الرفيق مراد يوسف (أبو سامي) آنذاك، الذي برهن بثباته عن مثل رائع في المواجهة والصمود والتمسك بالدفاع عن شرف الحزب وحريته.

أذكر، وكنت أشاركه المهجع الخامس، أنه قال لي وقتئذ بعد عودته من "حفلة التعذيب" الدورية، التي كانت تجري بين وقت وآخر: هيهات أن يحلم الجلادون أن ينتزعوا مني كلمة آخ... إنني صامد، صامد بصمت. قال لي هذا، وهو يكشف عن ظهره، الذي أدمته سياط الجلادين، الذين لم يرحموا سنه، ولا ظهره المصاب بالتكلس والانحناء، غير أنه ظل قوياً صلباً ثابتاً، يربك جلاديه، ويفرض عليهم احترامه.

لقد كنا رفاقاً مناضلين ليس في سبيل الحرية والوحدة في سجن المزة وحسب، بل في غوطتي الشام وغيرهما، مؤمنين برسالة الحزب في خدمة الفلاحين والعمال، ورفع الظلم عن كاهلهم.

لقد عرفت الرفيق أبا جولان مناضلاً صبوراً واعياً، يتحمّل مشاق الأسفار وركوب الباصات والسير على الأقدام في بعض الحالات بهمة ودأب، لأنه كان يؤمن بصوفية أن قضية الحرية وتحقيق العدالة والديمقراطية والاشتراكية لا بُدّ آتية، إن عاجلاً أو آجلاً.

لقد كان هذا الإيمان بانتصار قضية الحزب وحقوق العمال والفلاحين والجماهير الشعبية، هو المحرك الذي كان يدفعنا للمزيد من التضحيات. فكان أحدنا مواظباً في كل مساء على زيارة قرية من قرى الغوطتين والمرج، ولا يعود إلا في ساعة متأخرة من الليل، مع كل ما كان يعانيه الرفيق أبو سامي من آلام موجعة في الظهر، لكن البسمة التي ترتسم على

---

[106] النور، السنة السابعة، العدد 340، الأربعاء 7 أيار 2008.

وجهه كانت دائماً هي التعويض الحقيقي عما يلقاه من مشاق وعنت، مفعمة نفسه بالمسرة والغبطة والتفاؤل، متطلعاً أبداً إلى تحقيق العدل ورفع الظلم عن الفلاحين، الذين كانوا يعيشون تحت رحمة الملّاك وربقة التخلف والفقر.

لقد تميَّز الرفيق القائد أبو جولان بالتواضع والحب الجم لنا ولعائلته ولجميع الرفاق والأصدقاء الذين عمل معهم، والذي يلفت الانتباه إليه دائماً هذه المرونة والموضوعية والهدوء والبعد عن التحيّز، إضافة إلى أنه لم يكن يتهرب من مواجهة النقد بصدر رحب، والاعتراف بقبول الآخر في نقاشه والحرص على الحقيقة، وإيجاد نقاط إيجابية تصله بالآخرين، حتى لو اختلفوا معه بالرأي.

إنك تذكرني دائماً بالإنسان المخلص للحزب والرفاق القاعديين، الذين يطمحون أن يكون الحزب حزب الحرية والعدالة والديمقراطية.

غبت عنا أيها الرفيق القائد، لكن أفكارك ومواقفك ونضالاتك من أجل توحيد الحزب وإخلاصك لمبادئه ستظل تعطينا المثل الصالح على الاقتداء بك في النبل والنزاهة والزهد والبسالة والصمود.

لتبق ذكراك أيها الرفيق والقائد الراحل أبو جولان راسخة في ضمائرنا وحياتنا، كما كنت في حياتك شجرة عملاقة خالدة، متجذرة في أرض وطننا وجولاننا الحبيب.



مراد وزوجته حياة

مراد مع زوجته حياة وابنه البكر جولان، 1967

سنديانة الجولان[107]
"إلى روح الرفيق مراد يوسف"

محمد مصلح

يباغتنا الموت أحياناً، ويرهقنا بحضوره الثقيل، وقبل أن يمضي يختطف منا قمراً آخر... الموت الذي لا يعنيه سوى إلغاء حضورنا، ليحقق وجوده بيننا. ولتجاوز لعبة الموت والانتصار عليها، يجب تكثيف حضورنا وحضور من نُحب، فعندما أراده الموت، فوجئ به منهمكاً بصنع الحياة، مشاركاً رفاقه بحلم وطن حرّ وشعب سعيد. فعلى امتداد سنيّ عمره، ظلّ رفيقنا مراد يوسف يعمل دون تعب أو ملل لتحويل الفكرة إلى واقع. لقد كان بصدق الشيوعي المؤمن والواثق بحتمية مستقبل مشرق للوطن، رغم الصعوبات والمحن والتضحيات. فلم تكن لدى رفيقنا حياة خاصة أو عامة، بل كان لديه حياة الحزب، فمنه يتنفس هواء يومه الصباحي، وكان هاجسه الدائم كيف نطوّر عملنا لتحقيق أهدافنا، ولم تكن له سوى قصة عشق واحدة، ألا وهي الجولان. لقد عاش حالة حب روحاني مع الجولان، واتحد معها كحالة اتحاد الصوفيين مع خالقهم، فعندما نقول مراد يوسف، نقول الجولان، لا شيء يجعله يهتز كقصبة سكر سوى زيارة قصيرة للقنيطرة، والوقوف على مشارف الجولان.

لم أتشرف بالعمل التنظيمي مباشرة مع رفيقنا لفارق السن، فعمره الحزبي يساوي ضعفي عمري، ولقاءاتي به كانت قليلة، لكنه كان الحاضر الدائم في وجدان منظمته، التي كان يرعاها، ويحنو عليها كأحد أولاده الطيبين. لقائي الأخير به كان في ساحة عرنوس في فضاء خيمة الحزب، بعد الانتهاء من انتخابات مجلس الشعب. فحضوره بيننا أشعل بداخلنا نار الثورة والحنين إلى الأرض، الرجل ذو الظهر المنحني والهامة المرفوعة، ذو الابتسامة الدائمة التي لا تفارق محياه، الأنيق في ليلة عرس، الإنساني إلى درجة الثمالة، المتواضع كزهرة لوز. مراد يوسف... واحد من جيل

---
[107] النور، المصدر السابق.

الأحلام الكبرى والهزائم الثكلى، الجيل الذي مزج بين رقيّ الفكر الماركسي ونقاء الوجدان في معادلة حب الحياة والإنسان، الجيل الذي قدَّم الكثير الكثير، رغم أنه جيل البدايات، التي غالباً ما تكون صعبة. مراد يوسف من الرفاق الأوائل، الذين نثروا سكر الكلام في الأزمنة المرَّة، وغمروا القلوب بالأغاني والأمل. إنه أحد القادة الشعبيين الحقيقيين في الحياة السياسية السورية، فهو لم يكتف بالعمل الحزبي المكتبي التنظيري، ولم يكن يؤمن بترفع القيادة عن قاعدتها الحزبية والجماهيرية، لقد عبَّر بتجربته التنظيمية عن العلاقة الحقيقية بين القاعدة والقيادة في وحدة عضوية لتحقيق الحزب. لقد كان القائد الشيوعي المثال والقدوة، القائد الميداني والمبادر الذي يتقدم الصفوف، هذا النموذج الذي لا يتبلور إلا من خلال الارتباط اليومي بقضايا الناس والدفاع عنها حتى الرمق الأخير.

في ذكرى الأربعين لرحيلك عنا، لا يليق بنا البكاء على قامات لا تنحني للريح، ولا يليق بنا رثاء رفاق دربنا الطويل، لأن غيابهم الجسدي لا يعني غياب المثل والفعل الذي أحدثوه. إنهم باقون فينا، يشعلون نار العاصفة، ويضيئون عتمة الطريق. إننا سنبقى أوفياء لمسيرة الكفاح والنضال، لتورق مقاومة تُحرِر الجولان، لتضع لك تمثالاً من الياقوت في ساحات قلوبنا.

وختاماً كأني أرى رفيقنا مراد يوسف يردد مع شاعرنا محمد الماغوط: (لا تضعوا سراجاً على قبري، سأهتدي إليه!).

مراد يوسف وإشكالية العمل القيادي[108]

سيف الدين قنطار

كثيرون أولئك الذين عرفوا الرفيق مراد يوسف معرفة تمكنهم من أن يتحدثوا عنه بمزيد من العمق، ومزيد من الإنصاف. وقد ارتحل عن دنيانا، وخلد إلى نومه الأبدي، ولم تبق من تلك المعرفة سوى الذكرى.

البعض عرفه منذ فجر الصبا، مدرِّساً في محافظة السويداء، يدرِّس بحماسة لغة الضاد، ولم يترك تلك المحافظة، إلا بعد أن غرس في عقول طلابه نبتة التفكير العلمي وقيم التقدم والعدالة. والبعض الآخر تعرَّفه في اجتماعات فرق الشيوعيين السرية، والاحتماء بالأسماء المستعارة، ورأى فيه رفيقاً أنيساً مقبلاً على العمل بحمية الشباب واندفاعه.

آخرون عاشوا معه سنوات السجن المرَّة، بما انطوت عليه تراجيديا حياة السجناء السياسيين، من قهر وإحساس بالظلم الإنساني، ليدفع هو ورفاقه ضريبة الإنشغال بالهمّ العام، وليصبح الصمود أمام الجلادين أحد أهم معايير الثبات على المبدأ، والدفاع عن حق الحزب بالوجود.

لقد صمد الرفيق مراد مع رفاق آخرين، واستطاعوا بهذا الصمود أن يكونوا حجر الزاوية في إعادة بناء صفوف الحزب من جديد، بعد أن تعرَّض الآلاف من أعضائه للمطاردة والتنكيل والتسريح والتجويع والحرمان من حق العمل[109]. والأقسى من ذلك، بعد أن عاش معظمهم كابوس القلق، وعدم الأمان، والخوف المستمر من "زائر الفجر" ينتزعهم

---

[108] من الكلمة التي ألقيت في حفل تأبين مراد يوسف في مقر الاتحاد العام لنقابات العمال. **النور**، السنة السابعة، العدد 342، الأربعاء 21 أيار 2008.

[109] يتذكر نجدت أخي مراد ملامح أساس لتلك الفترة فيكتب: "أعقاب قيام الوحدة السورية المصرية وبعد حملة الاعتقالات الواسعة وممارسات التعذيب الوحشية بحق الشيوعيين وأصدقائهم، والتي أدت إلى استشهاد عدد من الرفاق، ودفعت البعض للقبول بتوقيع صك انسحاب من الحزب الشيوعي مقابل إطلاق سراحهم. في تلك الأيام الحرجة وقبل اعتقال مراد بفترة بسيطة سألته شقيقته الصغرى زورة (المعروفة بسعدية): ألا تحتاجون من يحلّ مكان هؤلاء الرفاق الذين يستشهدون أو يتراجعون؟ فأجابها مراد: نعم نحن بحاجة.

جملة صغيرة ولكنها ذات مغزى عميق (خصوصاً وأنه لم يكن للعائلة من مورد سوى ما يتقاضاه مراد وأخيه نجدت، وكلاهما معرّض للتسريح من عمله وللاعتقال)، فالبيت بالأجرة، والشقيق

من غرف نومهم، ويقذف بهم في غرف التحقيق وأقبية التعذيب.

ولربما كانت المرحلة المفصلية في حياة الرفيق مراد مرحلة وصوله للمرَّة الأولى إلى الهيئة القيادية الأعلى في الحزب، ليقوم بدوره في المكتب السياسي، إذ لم يمض في هذا الموقع وقتاً طويلاً حتى تكشفت له مثالب العمل القيادي. وقد فاجأه غياب المنهجية والعمل المؤسساتي، وعدم الاحتكام إلى نظام يجسِّد الحقوق والواجبات، فتأذى من أسلوب عمل انتقائي، تُعرَض فيه بعض المسائل على طاولة المكتب السياسي، وأحياناً لا تُعرَض إلا على بعض من أعضاء هذا المكتب، وأحياناً لا يتم التشاور مع أحد. ويوماً بعد يوم، ولعوامل حزبية تنظيمية وعوامل سياسية وتحديات داخلية وخارجية، وجد الرفيق مراد نفسه في لجَّة صراع حزبي داخلي انغمس فيه، وشرب من كأسه حتى الثمالة، وانتهى بالانقسام الثاني في الحزب، وبالانقسامات كما كان يقول لينين: "يدفع الحزب ثمن أخطائه".

تحمَّل الرفيق أبو سامي بعد الانقسام مسؤولية قيادة جناح من أجنحة الحزب، محاولاً التعبير عما كان يدعو إليه قبل الانقسام، من ضرورة صياغة سياسة حزبية أكثر جذرية وأكثر تشدداً وتطلباً. غير أن الحياة برهنت له أن جناحاً من حزب شيوعي مقسم إلى ثلاثة أقسام آنذاك، لا يمكن أن يحقق تلك السياسة المنشودة، وقادته شجاعته ومؤهلاته القيادية، إلى أن يدرك خطر الانقسامات على الصعيد الحزبي والوطني، فسعى جاهداً إلى وحدة الشيوعيين، ولاقت إرادة التوحيد لديه استجابة من رفاق الأمس، فقاد رفاقه إلى المؤتمر السابع الموحد عام 1991، ليقول

الأصغر مريض جداً ويضطر والده لبيع قطعة أرض في القنيطرة من حين لآخر لتأمين تكاليف العلاج، حتى لم يبق سوى البيت فباعه.

لم يمض وقت طويل على اعتقال مراد إلا وكانت الصلة قد تمت، وانخرطت مباشرة في النضال الحزبي السري مع المجموعة التي أعيد تشكيلها بعد الضربة القاصمة التي وجهت للحزب الشيوعي من رفاق معظمهم من حيّ المهاجرين ومنهم: فايز جلاحج، وموفق كوشك، ويونس الصالح، ونذير قوشحه، وممتاز البحرة، وجودت تحقاخة - من تنظيم ركن الدين، ومجموعة من الرفاق من القنيطرة منهم: فكرت رجب، ومهدي صوقار، وشتيوي وبيبرس سمكوغ ... وآخرين. فتولت حديناً تأمين البيوت السرية لهؤلاء الرفاق، والصلة بينهم عن طريق الرسائل، وإيصال الرسائل وتلقيها مع المركز القيادي في لبنان بالتعاون مع الرفيقة سهام مللي إلى أن اعتقلت كما أكثرية هذه المجموعة، ولم يسلم من الاعتقال إلا القليل ونجدت أخي مراد منهم.

صراحة: "إن عطاءنا ونحن منقسمون صار أقل وأضعف، وإن إعادة توحيد قوانا يجب أن يمكننا من زيادة إسهامنا في تحمُّل الأعباء لتحقيق أماني شعبنا ومصالح وطننا". تلك الكلمة، التي ألقاها الرفيق مراد في ذاك المؤتمر، وثيقة من وثائقه، ولعلها من أهم الكلمات التي جادت بها قريحته، فقد حاول أن يقدم خلاصة ما تعلمه من جدل السياسة والحياة على أكثر من صعيد، وحَرِصَ على أن يجيب عن السؤال عمَّا جمع هؤلاء الشيوعيين بعد فراق ونقد متبادل، وانفصال خُيِّل للكثيرين أن لا تلاقي بعده، فأجاب قائلاً: "هموم الوطن هي التي جمعتنا أكثر من أي سبب آخر، هموم الشعب الكادح المنتج، الذي يركض وراء لقمة عيشه وعياله". ورأى أن أوَّليات تلك الوحدة هي "تعميق الهوية والروح الوطنية للحزب". وقد اقترن تعميق الهوية لديه بالدعوة إلى التجديد، ويعني التجديد في مقدمة ما يعنيه - كما يرى - تجديد أنفسنا، وتحرير عقولنا من الجمود السياسي والفكري. كما يعني أيضاً قدرة الحزب على استقطاب الأجيال الشابة، التي أدارت ظهرها للعمل الحزبي والسياسي برمته.

وأدرك الرفيق مراد، وهو ابن الجولان، أن تحرير الأرض من الاحتلال أسمى الأهداف وأنبل الغايات لكل مواطن، ولكل حزب، ولكل حكومة، فقال: "إن كل حفنة تراب من مرتفعات الجولان، وكل صخرة من صخوره السمراء، وكل شجرة بلوط وزيتون هي غالية علينا، وجزء من كينونتنا، وإن كل خفقة من خفقات قلوبنا تهتف بالحرية لإخواننا الجبليين الصامدين، ولن يهدأ لنا بال حتى يتحرر هذا الجزء الوطني الحبيب من تحت أقدام الغزاة".

يقول الرفيق مراد: "انطلاقاً من الهم الشعبي والوطني، وحدتنا أيضاً هموم الأمة، التي يشكل شعبنا جزءاً أساسياً في بنيتها وتكوينها ومستقبلها. ومن هنا تبرز أهمية صياغة سياسة بناءة تتوحَّد فيها الجهود العربية، ويتعزز التضامن بين جميع الأنظمة لمجابهة مشاريع إسرائيل والإمبريالية الأمريكية، التي ما فتئت تنتهج سياسة عدوانية تخاطبنا بها بلغة البوارج والصواريخ الموجهة والقنابل العنقودية".

كان الرفيق أبو سامي يدرك أية مسؤولية تقع على قائد الحزب، وأية

سجايا عليه أن يتحلى بها، وحاول جاهداً أن يُقدّم نموذجاً لقائد امتلك الشجاعة الفكرية، يعيد من خلالها قراءة مواقفه وتقويمها، وكان يراقب سلوكه اليومي، ليدقق هذا السلوك ويصوّبه، ويثري تجربته نقدياً. وقد انتهى به ذلك إلى امتلاك لغة حارة، يتوجه بها إلى وجدان العامل والفلاح والمرأة والطالب والمثقف، وبهذه اللغة اتقن ثقافة الحوار واحترام الرأي الآخر، ونظر إلى الفكر الماركسي بعدّه منبعاً متجدداً يحتاج على الدوام إلى التأمل والاجتهاد والإبداع.

وقد حافظ أبو سامي على الطبيعة الإنسانية في شخصيته، محباً للجمال وللموسيقا وللشعر وللمرأة وللطبيعة. ومراد يوسف سخيٌّ، والسخاء شجاعة، فهو يفضلك على نفسه حين يكون ثمة ما يغري، ويسير أمامك حين تكون المسألة شاقة، وقد عبّر على الدوام عن حرصه على معالجة الخلافات بين الرفاق بروح التسامي والتسامح والتوجيه.

ووجد الرفيق أبو سامي نفسه، شأن غيره من الرفاق في قيادة الحزب، أمام معضلة التوفيق بين الأسس والمقومات التي بُنيت عليها سياسة الحزب منذ أربعين عاماً، وكان يشعر بالمرارة حين تصطدم الرغبة بالإمكانية، وقد رحل، وبقيت هذه المهمة قائمة حتى اليوم، وتتجلى في:

1- التمسك بهوية الحزب الاجتماعية المتمثلة في استقلاليته، وتوجهه الطبقي بوصفها العامل الأساسي في حفاظ الحزب على قواعده وكوادره ومثقفيه.
2- الذود عن مصالح العاملين بسواعدهم وأدمغتهم للإبقاء على سياجه الجماهيري، كي لا يخسر رصيده الشعبي، ويحافظ على التفاف أوسع فئات الشعب حول برنامجه.
3- ترسيخ فلسفة التحالف، المتمثلة بالجبهة الوطنية التقدمية، والنهوض بهذا النهج، بحيث يجسد على الصعيد العملي التعددية الحزبية والسياسية، فتحت سقف الوطن لا بُدَّ أن تتمتع الأحزاب الوطنية بحق النضال المستقل دون تحفظ، ودون خطوط حمر.

ولعل الصعوبة في تحقيق التناسب بين هذه الأسس، واعتماد نهج لا يُغلِّب جانباً على جانب، قد أظهرت الحاجة العميقة إلى إغناء هذه الأسس

بعامل رابع يتجلى بالذود عن الديمقراطية في حياة الحزب والشعب. وقد بات معروفاً أن مبدأ المواطنة هو الركن الركين في الممارسة الديمقراطية الحقة، التي عبّرت عنها خير تعبير مقولة ماركس الشهيرة: "الإنسان أثمن رأسمال".

إن وفاءنا لمسيرة الرفيق مراد يوسف يتجلى في مواصلة الطريق المجيدة التي سار عليها، فهموم الوطن هي التي تدعونا إلى المضيّ قدماً على طريق وحدة الشيوعيين، وبذل الجهود دونما يأس لتذليل جميع العقبات ومتابعة الحوار، فهذا الشعار الحزبي والوطني جدير بالعمل الصبور، والنجاح في ذلك يضيء أمامنا الطريق لتوحيد جميع قوى اليسار والديمقراطية.

وهموم الوطن تدعونا إلى رفع وتيرة الكفاح من أجل الديمقراطية بِعَدِّها اليوم فرض عين على جميع أحزابنا، وحقاً منصوصاً عليه في تشريعنا، ولا شك أن العيش في ظلال الديمقراطية هو درع وطننا الحصين أمام الغزو الإمبريالي لمنطقتنا، والتهديد المستمر بحصار شعبنا.

ويحتاج النضال الديمقراطي إلى عمل حزبي تنويري، وإلى اقتران الديمقراطية السياسية بالعدالة الاجتماعية، وإلى تعزيز الوحدة الوطنية عبر التوزيع العادل للثروة الوطنية، وتأمين العيش الكريم للملايين من أبناء سورية، وتصفية قوى الفساد والنهب، وإقصاء القوى الليبرالية ودعاة اقتصاد السوق عن إدارة عجلة الاقتصاد، وترسيخ نهج يحافظ على ما تبقى من مؤسسات القطاع العام ويعززها ويطورها.

وهموم الوطن تدعونا إلى التفكير السياسي الجديد، فالألفية الثالثة تُعيد بناء العالم عبر الثورة العلمية في عصر المعلوماتية ومن خلال المالكين لناصية التكنولوجيا والخبراء الاختصاصيين في ميادين الفكر والسياسة. فهذه الثورة تضع على جدول البحث مستقبل أحزاب القرن الماضي ومدى قدرتها على مواكبة ومواجهة الألفية الثالثة، والتصدي لكل تحدياتها العابرة للهويات والأحزاب والأوطان.

إن هموم الرفيق مراد هي همومنا جميعاً، هموم أبناء الشعب، وطالما عبّرنا عن هذه الهموم بشعار: (***وطنٌ حرٌّ وشعبٌ سعيدٌ***).

مراد يوسف رمز وطني في ذمّة الخلود

زينب نبُوه

في قائمة الرفاق والرفيقات والأصدقاء، من يتعذر عليك التسليم بغيابهم، بعد أن باغتوك يوماً برحيل لا عودة بعده أبداً... كم هي عصية على الفهم حكاية الوداع الأخير، وكم هي موجعة! فمن أين للروح تلك القدرة على الاستيعاب؟ ومن أين للنفس البشرية تلك الاستطاعة على التماسك؟

سنوات أربعة مضت على اعتكافه القسري، فلم ينسحب خلالها إيقاعاً رهيناً في أوصال البيت، الذي كان يجوب جنباته في أيامه الأخيرة، إلا أن حضوره ظل يقيم في نفوس من حوله، ويخفق متوهجاً في ضمائر الأسئلة وصمت الكلمات.

لكأن الأمر وقع أمس الأول عندما تعرَّفت عليه، في حين مضى على ذلك أربعة وأربعون عاماً، عندما زرت برفقة زوجي أول بيت بعد وصولي إلى دمشق عام 1967.

بيت متواضع جداً في إحدى الجادات العليا في حي المهاجرين، استقبلنا في غرفة صغيرة ضيقة فيها بعض الأثاث البسيط ومدفأة صغيرة تحتل زاوية الغرفة، وتنفث أحياناً بعض الدخان... وإلى جانبه كانت تجلس والدته الحنون بوداعة ووقار.

نظرت إليه، فرأيت في جدل حركته مبادرة حبيّة تدور بين الأصلين، المهابة والمودة. وما إن استقر بنا المقام في جواره، حتى انطلق في حديث ممتع خافت الصوت، هادئ النبرات ينساب وقعاً، ويتدفق كالنهر غنى وتنوع آفاق، محلقاً من أفق إلى آخر، إجابة على بعض الأسئلة التي أردت الاستفسار عنها.

وبعد انخراطي في العمل الحزبي في سورية، كنت من أولئك الذين أسعفهم الحظ بالتعرف عن كثب على شخصية مراد يوسف وعلى نمط تعامله اليومي مع الناس والحياة وفي مواقعه الحزبية المختلفة ومجالات

عمله ومواقفه المبدئية.

كان أميناً للجنة المنطقية في دمشق، التي كانت تضم المدينة والريف. ويمكنني القول إن عنوان هذه الشخصية لم يكن في ما أنتج في إعداد رفاق مناضلين، على أهمية ذلك وعلى سمو شأنه، بل كان في موقفه المبدئي وفي انحيازه الحاد إلى قضية الإنسان في الحزب.

كان ديمقراطياً بكل معنى الكلمة، حيث تجد نفسك أمام شخصية مسكونة حتى الفيض بهاجس الإنسان، آلامه ومشاكله وأمانته لقيم الإنسان، وربما المنشأ الطبقي الذي عاش وترعرع فيه كان عاملاً محدداً لهذا السلوك.

ولمّا كنت شخصياً من أولئك الذين عملت معه سنوات طويلة في مختلف منظمات الحزب، وفي مراحل زمنية مختلفة، عززتها عائلته الكريمة، التي تحمل الكثير من الصفات المائلة له، وصلات مودة توطدت مع الأيام، وما تزال حتى الآن. وأخص بالذكر شقيقاته سعدية وأم فائز وأم فاروق، وأشقائه نجدت ورفعت وأبو حباب وبنات وأبناء شقيقاته زكية وسميرة ووفيقة وإنعام وفائز وفيصل وكل العائلة... وبعد زواجه من الرفيقة حياة، وهي من عائلة صديقة من القنيطرة، كنت قد تعرّفت عليها بعد زواجها، وجمعتنا صلات وطيدة معها ومع أشقائها عناية ونصري ومهدي، وبعدها أولاده جولان وسامي... والأساس من هذه العلاقة الوثيقة أن الأكثرية الساحقة من هؤلاء، كانوا ملتزمين بالحزب، وبعضهم في مراكز مرموقة فيه.

وإذا كان يصح أن نعرّف هذا الإنسان تعريفاً دقيق التعبير صادق الدلالة، فهو أنه رجل المبدأ ورجل النضال بالقول والممارسة العملية، لأنه من النفر القليل في مجتمعنا، الذي لا تأخذه في الحق لومة لائم، ولا يخشى على نفسه مغبّة رأي مخالف يجاهر به، أو موقف مغاير يتخذه من اقتناع عقلي بصوابه وجدواه.

ومن أبرز صفاته أنه كان مستمعاً جيداً، يصغي بانتباه إلى آراء الرفاق ومشاكلهم، ويساعدهم في تفهم الكثير من الأمور الصعبة، التي تصادفهم

في حياتهم العملية، ليس بالوعظ أو فرض الرأي، بل من خلال حوار رفاقي يصل فيه الرفيق إلى قناعة بما يجب ويمكن فعله.

كان يرى في الحزب ضالته، فالتزم به خياراً لا محيد عنه، الأمر الذي دفعه إلى إيثاره بكل جهوده ونشاطه والانصراف إليه بإخلاص وتفانٍ حتى التضحية، كما آمن بالعقل سيداً وبالمنهج العلمي مرشداً، فانحاز إلى العملية الثورية، مقاتلاً على جبهتها بالسلاح الذي يتقنه، أي سلاح الكلمة المضيئة الشجاعة الرائدة.

وقد عانى مع عدد كبير من رفاقه صنوف الاضطهاد والتنكيل والقهر، فاعتقل وسجن وعذب، لكنه صمد ببطولة أمام الجلادين، فهذا المناضل الصامت الكثير العمل القليل الضجيج كان أقوى من السجان وأكثر صلابة من قضبان السجن، يرعب المحققين، ولا يرتعب منهم، يتلقى بصبر ودون أن يرف له جفن ضربات جلاديه، ليصبح أكثر صلابة وقوة مع رفاقه في سجن المزة، الذين بات كلاً منهم بطلاً، اتحدوا طوعاً واختياراً، ليجعلوا حزبهم حزب البطولة، فقد تتلمذوا كلهم على حب الوطن والأرض والمواطن.

ورغم كل ما عاناه في الحزب من عبادة الفرد، ومواقف غير مفهومة وغير مبدئية، بقي مخلصاً لحزبه ولموقفه المبدئي. أما الأخطاء التي وقعت في هذه المرحلة أو تلك، فلم تكن أخطاء الأعضاء البسطاء الطيبين والقياديين الوسطيين، بل كانت أخطاء القيادة... كان حريصاً على وحدة الحزب وتماسكه وتآلف أعضائه، غير أن ما جرى من انقسامات بسبب ممارسات خاطئة، تتحمل مسؤوليتها قيادة الحزب، كانت أكبر من أن يتمكن ورفاقه من منع حدوثها. ورغم ذلك، فسلوكه المبدئي أثناء وحدة الحزب، كما في حال الانقسام، حافظ على العلاقات الرفاقية واحترام الرأي الآخر، وناهض ما طغى من قضايا شخصية وذاتية، فخلجات ذلك القلب الكبير، الذي كان يخفق في صدره، وعبر سوانح فكره المجنَّد لحركة التغيير الاشتراكي في وطنه وفي العالم الشاسع، جعله يشعر بمسؤولية تجاه مستقبل الحزب.

أردت أن أركـز على هذا الجانب من شخصية مراد يوسف الغنية،

اعتقاداً مني أنه الجانب الأساس والأهمّ من الجوانب التي تشكل هذه الشخصية.

في الحزب اغتنى بالثقافة الإنسانية الشاملة في بعدها الأممي، وأعطى أهمية خاصة للمرأة، فلم يكتف بالدعوة إلى مساواتها بالرجل. بل دعا إلى الإسهام في تحريرها من عبودية نظام ذكوري ظالم، تزيد بعض التقاليد المتخلفة من سمته القهرية بالنسبة إلى نصف المجتمع. إن حقوق المرأة لم تكن بالنسبة إليه مطلباً يُرفع فحسب، بل ممارسة تفرض من خلال النضال. كان يرى أنه لا يجوز تقديم زوجات الرفاق المسؤولين في الحزب إلى مراكز قيادية، دون أن يتمتعن بإمكانات وكفاءات حقيقية عملية ونظرية أكثر من باقي الرفيقات الموجودات، وإلا سيؤدي هذا إلى سلوكيات تسيء لقضية تطور المرأة في الحزب.

ورأى أن الشباب هم الأساس في صنع الانتصار التاريخي المتمثل باستكمال مسيرة التقدم والحرية، ولا بُدَّ من بذل جهود كبيرة لجذبهم إلى صفوف الحزب، وإن توقيع ميثاق الجبهة قبل عقود وموافقة قيادة الحزب على جاء فيه من منع النشاط في أوساط الطلاب والشباب كان خطأ فادحاً في تاريخ الحزب وتطوره.

كان يقول: "نحن لسنا قوة التغيير الوحيدة، ولكن لا تغيير دوننا، ولا تغيير على حسابنا، وهو لا يقوم مع معاداتنا وتهميشنا ومواجهتنا... كان يرى أنه لا مجال لحزب آخر غير الحزب الشيوعي أن يقوم بالدور التاريخي، الذي ينبغي على الحزب أن يقوم به، وأن إصلاح الحزب وتطويره هما أساس استعادة وحدته وتمكينه من القيام بدوره التاريخي".

كان ينتقل من موقع نضالي إلى آخر في الساحة نفسها، وإن اتسع مداها، وترامت حدودها، رافضاً السائد في الأنظمة المهترئة جميعها في السياسة والاجتماع والاقتصاد والفكر والإيديولوجيا، وقد جسَّد الانسجام الباهر بين الفكر والممارسة العملية وبين القيم والسلوك اليومي.

لقد لقي الاضطهاد في مراحل مختلفة من حياته، لكنه ظل في موقفه الفكري أولاً، وظل يعطي هذا الموقع حقه الموفور من أمانته ووفائه ونشاطه ثانياً. إنها ثقته العلمية تجاه حركة التاريخ، وبقدرة صانعي

التاريخ. إنه فكره العلمي، الفكر الماركسي، الذي انصهر مع هذا الكل المتكامل بين مقدمات شخصية، فجاء هذا الكل متجانساً في ظاهرات وجوده وفعله.

وهذا الموقف لم يتزعزع، بل كان يقوى ويثبت ويزداد رسوخاً مع الأيام. ورغم كل الظروف التي مر بها، تعامل مع مختلف أشكال المعاناة تلك بأسلوبه الذي نعرف وسيرته كلها. كانت المسألة عنده أن يقهر المعاناة، أن ينتصر عليها، حتى في أشد حالات المعاناة قوة وشراسة أثناء مرضه القاسي، عندما كانت المعاناة تضغط باتجاه تفتيت صبره وصموده في محاولتها تنكيس كبريائه خصوصاً، لكنه لم يكل أو يمل من ممارسته قهر المعاناة والانتصار عليها...

هل أتحدث هنا عن إنسان استثنائي لا وجود له إلا في شخص محدد؟ أم أن هذا تجاوز فقط لحدود الواقع، فذلك ما لا يقبل به هو ذاته، وما لا يستسيغه قطعاً في تحديد سمات الإنسان البسيط والمناضل الثابت فيه.

إن الكلمات كلها مهما كبرت واتسعت واستطالت واغتنت، لا تسعف في تحديد سماته وصفاته، وتعزّ عن اختصار حياته الغنية والطويلة منذ منتصف القرن الماضي حتى نهاياته. حسبي، ونحن نودعه بعد خمسة وأربعين عاماً من رفقة النضال، أن نعلن حزننا العميق على فراقه، وشأني في ذلك شأن العديد من الرفاق والرفيقات والأصدقاء والأقرباء، الذين عايشوه وأحبوه واحترموه ممن عرفوه في الحزب وعلى هامشه وخارجه، ورافقوه وعاشوا وعانوا معه وعملوا في كل ميادين النشاط والنضال إلى جانبه وفي رفقته.

هل من مهمة حديثي عن مراد يوسف مناضلاً وإنساناً أن يستوعب كل جهاته، دراسة وتوثيقاً وتحليلاً لهذا الغائب الإنسان؟ هذا غير ممكن أن يستوعبه حديث واحد كهذا الحديث... كان الهاجس الأعمق عندي، حين اخترت أن أتحدث عنه اليوم، أن يكون الحديث قد تضمَّنَ لقاءً معه على طول خط المسيرة النبيلة والشجاعة والخصبة، التي سارها بنقاء وشرف، ولكن هذا لم يحدث، فالمرض لم يمهل، وفاضت روحه الكبيرة على نحو أشبه ما يكون بالاستشهاد، أو قل هو الاستشهاد بعينه.

وبكل أسف لم يترك هذا القائد الشيوعي الحقيقي المراجع والمصادر، التي تستلزم العودة إليها ضرورة البحث المنهجي. ويوم تساقطت بين يدي تلك الأوراق، الذابلة المتآكلة في بعض منها والمهمشة الممزقة في معظمها، أدركتُ على نحو موجع عظم الخسارة التي لحقت بآثار هذا القائد الشيوعي وكتاباته وأفكاره، التي سجّل فيها نتاج قلمه وسحابة عمره[110]، ولم يبق سوى ما كتبه في صحف الحزب (نضال الشعب) و(النور)، دون توقيع، وفي البيانات والنداءات التي شارك في صياغتها والأحاديث القيمة التي تمّ تسجيل القليل جداً منها، وشكراً للرفيق خالد نعمة على مبادرته القيّمة في أخذ وحفظ ونشر ما أمكن أخذه من حديث رفيقنا الراحل.

لقد خسرت ساحة النضال كثيراً برحيل الرفيق مراد يوسف، وخسرنا على المستوى الشخصي صديقاً حميماً، أحزننا أبلغ الألم إننا لم نتمكن من وداعه، وعزاؤنا الوحيد أن من هم مثل مراد يوسف لا يغيبون أبداً حتى لو تواروا عن الأنظار، لقد أعطى شبابه وحياته كلّها، وكانت ممارساته السلوكية نموذجاً يصعب أن ينسى للتفاني الصادق فيما ينفع البشر، ويبعث على سعادتهم، ويحفّزهم دوماً على مواصلة النضال، فمن هم مثله محكومون بالأمل.

---

[110] كتبت زينب نبوه في الذكرى الأولى للرحيل: "كان مراد يوسف يختزن واحدة من أغنى التجارب النضالية، ويتمتع بذاكرة مذهلة، وهذا المخزون النضالي استند إلى فهمه العميق والشامل من منطلق وعيه الوطني والطبقي. وكانت تجربته تتعمق بمقدار ما كانت الأوضاع العامة في البلاد تتعقد، ويصبح النضال الوطني والطبقي أكثر صعوبة". النور، السنة الثامنة، العدد 378، الأربعاء 25 شباط 2009.

مراد كما عرفته

محمد خالد رمضان

تعرفت مراد يوسف بعد مأساة النازحين عام سبعة وستين، فقد انتقلت عائلته من القنيطرة أواسط عام 1953، وكنت قد انتقلت وظيفياً إلى دمشق قبل الاحتلال بأشهر قليلة، إذ كنت قبل ذلك موظفاً في الجولان، وبالتالي كنت ملتزماً بمنظمة القنيطرة منذ منتصف العام 1963 حتى شهر آذار من العام 1967. بقيت في منظمة دمشق أربعة أشهر فقط، ثم نقلت تنظيمي في شهر تموز 1967 إلى منظمة القنيطرة، وما زلت فيها إلى الآن.

منذ تلك الأيام، وفي تلك الظروف، تعرفت إلى الرفيق مراد يوسف، وبدأت أكتشف فيه رويداً رويداً تلك السمات الفريدة، التي تميّز إنساناً عن آخر، وتميّز رفيقاً عن رفيق. لقد لاحظت مدى تأثير حدث الاحتلال عليه، ولاحظت كم أثّر هذا الحدث الجلل في أعماقه، ومدى عمق هذا التأثير، الذي حوّل فيه الإترة إلى العناية الفائقة التي كان يبديها، وظهر هذا كهم يومي، وكيف اهتم به، وذلك بإعطائه وقتاً وجهداً إضافياً، وإبداء الحرص عن كل شيء من أمور النازحين، كيف كان يسأل عن الناس، يسأل عن أحوالهم ومعيشتهم، يسأل عن لجان العمل، وذلك كله ضمن الوسائل القليلة المتاحة في هذا المجال.

وأذكر يوم أتت بعض المساعدات من الدول الاشتراكية، وكيف اشترك رفاقنا في توزيعها، وكيف ظل هو يسهر الليالي مع الرفاق في المنظمة، ليوزع الأغطية والحرامات على المدارس والبيوت. حقيقة... لقد هز هذا الاحتلال أعماقه وكيانه، كما هز أعماق كل النازحين.

وبدأ هذا التعرف يزداد ويتعمق أكثر فأكثر، وتحول إلى علاقة إنسانية قوية. طبعاً عدا القضية الرفاقية، فقد تمتنت هذه العلاقة بالزيارات واللقاءات والاجتماعات الموسعة، وأيضاً خلال القراءات، فقد كان قارئاً نهماً للأدب وذواقاً له، خاصةً الشعر، وكان يطالعه ويتابعه في الدوريات

وفي الدواوين وغير ذلك، كان يسألني دائماً عن آخر ما كتبته في الشعر وغيره، وعما كتبه غيري، ويضع ملاحظة هنا وملاحظة هناك، وكان يتمنى أن يحضر الأمسيات الأدبية والمهرجانات المقامة التي نحضرها، ولكنه لم يستطع فعل ذلك لأعماله الكثيرة وانشغاله، فيتحسّر لعدم حضوره، ويسأل: كيف كانت الأمسية أو المهرجان، وأي شاعر قدم قصائد جميلة، وأي قاص قدّم قصصاً هامة؟ كان يسأل عما نشر من كتب أدبية لها أهمية من رواية أو مجموعة قصص أو ديوان شعر، هذا عدا الكتب الفكرية، التي كانت تهمه. والقارئ لبعض مقالاته السياسية، سيلحظ أسلوبه الأدبي، الذي لا يخفى على القارئ اللبيب، فلغته سليمة، وبعض جمله ذات طابع أدبي شيق، فيها طلاوة خاصة وحلاوة تحبب القارئ بالمقالة والمتابعة، فتجذبه إليها، ونصُّه قليل الحشو والإنشاء، لأنه يقدم الفكرة المطلوبة دون تعب وفذلكة... إلخ.

أما من الناحية الإنسانية، فقد كانت إنسانيته تتجلى في الترحاب والملاقاة. كانت البسمة المشرقة تتجلى في وجهه عنواناً بهياً، بسمة دائمة الإشراق مع الناس أكانوا رفاقاً أم أهلاً أم أصدقاء، إذ يحس الذي يلتقيه بتواضعه وبساطته الملأى بالود والحب والحميمية. كان ذا أسلوب مبسط بالحديث، بحيث يطمئن عن أحوال كل الرفاق اسماً وراء اسم، ويهتم كثيراً بالأسئلة عن الأهل والصحة والأحوال المعيشية ودراسة الأولاد والبنات، وكل ذلك بالتفاصيل الدقيقة.

عرفت مراد يوسف، وكان مثال الشيوعي المخلص لوطنه وحزبه ورفاقه، شيوعياً حقيقياً صامداً... وقد جُرّب في صموده، ولم يهن أمام الجلاد مطلقاً، رغم استعمال كل وسائل التعذيب والترهيب والإهانة والإذلال، وصمد مع رفاق عديدين طيلة أيام السجن، وأعطى بذلك مثلاً يقتدى به للرفاق الذين يعتقلون ويعذبون عن كيفية صمود الرفيق.

أثر الرفيق مراد يوسف تأثيراً كبيراً في كل الرفاق الذين عملوا معه، إذ كان مثالاً للشيوعي الذي يحافظ على مواعيده، والذي يعمل بجهد يفوق طاقته، ويتفانى في أداء رسالته، ولا يتوانى عن تنفيذ كل ما يكلف به من التزامات وواجبات، لذلك عَدّه الرفاق مثالاً لهم في نضالهم، كان يبز

الجميع في هذه القضايا، وكان المبرز دائماً والسباق في أي شيء، وكل هذا يحصل على حسابه الشخصي، على حساب صحته وراحته ووقته، والذي يعرف الأوضاع تماماً في بيته يعرف ما أقول، ويقدّر أن ذلك كله يتم ضمن إمكانات متواضعة لا تكفي مطلقاً لتقديم هذا الجهد الكبير. عملٌ وسهرٌ وإيثارٌ متواصلٌ في سبيل الحزب، كتلة نشاط لا تهدأ ولا تتوقف رغم التعب والجهد والمعاناة.

لم ينظر مراد يوسف إلى الجانب السلبي مما هو موجود حوله، إلا بمقدار أنه هو وغيره يجب أن يضيئوا هذا الجانب. نظر أمامه إلى الآتي، إلى الجانب الإيجابي المضيء في النضال، وهو يقول بصدد ذلك: "إن المستقبل لنا، فهو في صف الحياة، في صف الجماهير، في صف الذين نعمل لأجلهم، ومن أجلهم نكد ونسهر ونعاني..." صحيح أنه لم يكن ينظر إلى الجانب السلبي فيقنط، ولكن القلق كان يساوره أحياناً، القلق وليس السوداوية، فيحاول أن يكون الطريق أمامه وأمام الحياة سالكاً، ويعرف أحياناً أن ذلك الدرب بعيد وطويل، ولكنه لم يهن، ويعرف أنه من عمله وعمل الرفاق ستنجلي غمامات كثيرة عن طريق الحياة، لذا كان يرمي وراءه القلق والخوف، لأن المستقبل والتطلع للأمام كان همه، وكان يأخذ من الماضي والحاضر العبرة والخبرة، فالماضي للقراءة والاستنتاج وتقديم الأسئلة، ومحاولات الإجابة تأتي تباعاً. إذن، الماضي هو وقفة للتأمل والمراجعة، ثم يتابع السير متأبطاً بعض الإجابات والرؤى، فتتراءى أمام عينيه بعض الكوة المضيئة وبعض الإيماءات المشرقة، يتابع وهو يتطلع يميناً ويساراً ملاحظاً ومراقباً، ويقف حيناً ليراجع علامات الطريق ويتأكد من صحة الإشارات.

لم يترك له العمل اليومي فسحة للتأمل والكتابة في الفكر - مع أنني لاحظت سعيه - وكان بمقدوره ذلك، لو أتيحت له الفرصة، ولو سمح له الزمن بذلك، ولكن العمل اليومي كان يأخذ جل وقته، وأعتقد أن ذلك كان يحز في نفسه. وللأسف، حمل تلك اللوعة وذلك التحسر معه ورحل.

خلال اللقاءات مع الرفيق مراد يوسف، تبيَّن أنه أسهم مساهمة مباشرة في تنظيم أول فرقة حزبية في القنيطرة، وذلك بتكليف من قيادة الحزب،

وهذه اللقاءات تمت مع لجنة كتابة "تاريخ منظمة القنيطرة"، فروى لنا كيف تشكلت تلك الفرقة، ومن كان من الرفاق معه، وكيف عمل معهم، ومعنى ذلك أنه له باع طويل في هذا المجال. هذه اللقاءات معه مكتوبة ومحفوظة على شريط بصوته، وكذلك هناك عدة أوراق دونت بخط يده عن تاريخ المنظمة، وكنا قد طلبنا منه أن يكتب لنا حول ذلك، كما أن هناك عدة ملاحظات قيمة على بعض الأعداد من نشرتنا المحلية (صوت القنيطرة)، التي كانت تصدر سابقاً، وهي ملاحظات سديدة مست كل شيء فيها.

حقيقة، فقدنا بفقد الرفيق مراد يوسف قائداً شيوعياً سورياً بارزاً، فقد كان يملك كل سمات القيادة، التي ظهرت مبكرة عنده، إذ كان يمتلك الرأي السديد، والتحليل السياسي الذي يدور ليس فقط حول الأمور الآنية، إنما يحلل ما قد يأتي به المستقبل، ويستشف تطور الأمور من ماضيها، وما الذي يملكه الحزب تجاه ذلك، أو ما يجب أن يفعله تجاه الآتي. كان ذا نظرة ثاقبة، ومن الناحية الفكرية كانت لديه الإمكانية لمعرفة التحولات التي تجري في الحركة الشيوعية العالمية، ويحلل لماذا جرى ما جرى، وما هي العوامل التي أدت إلى هذه المجريات؟، وكان مع الجديد في الفكر الماركسي المتحول، ومع نبذ الوقوف عند الأفكار، التي أثبتت التجارب أنها خاطئة.

كان الرفيق مراد يوسف مطرح ثقة الرفاق في الحزب، فهم يثقون به وبرأيه، بحيث كانت لديه الإمكانية العلمية لإقناع الرفاق برأي سديد وصائب، إذ إنه خلال الحوارات وطرح الآراء يتوصل إلى إقناع الرفاق بوجهة نظره.

مراد يوسف شخصية شيوعية قيادية بارزة، تركت في الحزب وفي نفوس الرفاق آثاراً باقية لن تمحى.

كي لا ننسى[111]

يونس صالح

النموذج، اقتران الأقوال بالأفعال، الصدق والمصداقية، والتواضع بالفطرة، والرجولة، تلك هي المسألة. في تاريخ الحركة العمالية العالمية الكثير من المناضلين، الذين جمعوا بين هذه الخصال، وأعطوا كل ما يملكون من أجل مستقبل أفضل للبشرية، دون أن يبخلوا حتى بالحياة.

إلى هؤلاء الرجال والمناضلين ينتمي الشيوعي مراد يوسف (أبو سامي)، الذي قدم للحركة العمالية في سورية كل طاقاته بإنكار ذات، ودون أن يفكر بمصالحه الشخصية... وعندما جاء الامتحان الكبير في سجن المزة، حيث عُرفت معادن الرجال، اجتاز أبو سامي هذا الامتحان بامتياز.

جاء الرفيق مراد يوسف إلى الحركة العمالية، وانخرط في صفوفها بدوافع ثلاثة:

- الدافع الأول هو الدافع الإنساني العميق، فقد كان يكره الظلم، ولا يقبل به، وقد وجد في الحزب الشيوعي آنذاك ما يبتغيه.
- الدافع الثاني كان دافعاً اجتماعياً، فقد وجد في الحركة العمالية والشيوعية الأداة الحقيقية للتغيير الاجتماعي نحو العدالة.
- الدافع الثالث كان الدافع الوطني، إذ كانت سورية آنذاك عرضة لمؤامرات كثيرة هادفة إلى تغيير نهجها الوطني المستقل وربطها بالأحلاف الاستعمارية الغربية. وقد برز الحزب الشيوعي السوري آنذاك قوة طليعية مناضلة من أجل الاستقلال والسيادة الوطنيين.

إذاً هذه الدوافع الثلاثة هي التي قادت مراد يوسف إلى صفوف الحركة العمالية، والحزب الشيوعي السوري، ومنذ ذلك الوقت لم يبخل أبو سامي لا بالجهد ولا بالوقت في تنفيذ جميع المهام، التي كانت تتطلبها منه الحركة.

لقد تعرفت بالرفيق مراد عام 1957، عن طريق الصديق العزيز فايز

---

[111] **النور**، السنة الرابعة عشرة، العدد 629، الأربعاء 4 حزيران 2014.

جلاحج، وكنا آنذاك في مرحلة (الفتوة)، كان أبو سامي يكبرنا بسنوات عديدة، وكنا نعدُّه أخاً كبيراً لنا، إلا أننا لم نكن نشعر في الجلوس معه بأي حرج. كنا نتحدث بانفتاح كامل، وكان يصغي إلينا بانتباه دون أن يشعرنا البتة بأي ضيق، أو رفض لما كنا نتحدث به. هناك أشخاص تلتقي بهم في حياتك، ويمرون أمامك دون أن يخلفوا أي أثر، أما بالنسبة إلى أبي سامي، فقد ترك لدينا أنا والعديد من الرفاق الفتيان آنذاك انطباعاً لا ينسى.

كان أبو سامي من الذين نلتقي بهم، فلا ننساهم. وجه متواضع تظهر عليه علامات الطيبة والطفولة، وضحكات تخرج من القلب، واحترام للآخرين، وقوة شكيمة تظهر في عينيه، واستعداد للعطاء كبير جداً، وإنكار ذات. التقيناه فيما بعد في سجن المزة، فقد اعتقل في بداية الحملة الظالمة التي شنت على الحزب الشيوعي في أوائل 1959، أما نحن فاعتقلنا منتصف العام نفسه. لم يكن يتحدث عن نفسه مطلقاً، ولكن ما سمعناه من المعتقلين الآخرين عنه كان كبيراً. لقد روى لي الرفيق سعيد خلو، مثلاً كيف كانت السياط تنهال على جسده، دون أن تخرج من فمه كلمة تأوه واحدة رغم مرضه الشديد.

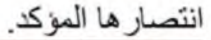
في إحدى المرات، وكنا نسير معه مع بعض الرفاق الفتيان آنذاك في ساحة السجن، في الطابق العلوي منه أثناء فترة النزهة، قال لنا: "اسمعوا يا رفاق! يفصل بين الصمود والتخاذل خيط رفيع جداً. إن هذا الخيط سوف ينقطع وسوف ينهار المناضل، إذا سمح لنفسه بأن يفكر في شخصه، سيقوده ذلك إلى أن يجد تدريجياً لنفسه المبررات للتراجع، لا تغفلوا ذلك أيها الشباب".

لقد كان وجوده ضرورياً لنا، نحن الذين كنا نخوض للمرة الأولى معركة لم تكن قد تهيأنا لها جيداً... إنني لن أنسى ذلك أبداً. في ما بعد، على مدى مسيرته النضالية في الحزب والحركة، تعرض الرفيق مراد يوسف للغدر، بيد أنه كان يستطيع أن يجد لذلك التبرير، كان يُرجع كل ذلك إلى الطبيعة الإنسانية، التي تحتوي في داخلها كل التناقضات الموجودة في المجتمع. كان يقر بعدم وجود الشخص المثالي الخالي من الشوائب. لقد كان يناضل، في سياق تعامله مع الرفاق، من أجل

تحسين الشخصية الإنسانية لديهم، وكان يصغي إليهم، ولا يألو الجهد في تقديم المساعدة لهم.

عاش أبو سامي الفترة الأكبر من حياته في منزل متواضع في حي المهاجرين، ولم تكن لديه أية ملكية خاصة، ورغم الإخفاقات الكبيرة التي عاشتها الحركة الشيوعية، والحزب الشيوعي السوري، ورغم سقوط الاتحاد السوفييتي المدوي، رغم كل ذلك كان أبو سامي يؤمن أن النضال من أجل العدالة الاجتماعية لن يتوقف، وأن التطور التاريخي لا يجري على خط مستقيم دائماً، لقد كان يعرف أنه ستكون هناك انكسارات وهزائم، وهذا الأمر قد أثبته التاريخ، إلا أنه كان يؤمن بأن الحركة في نهاية المطاف ستجتاز هذا المخاض الكبير الذي تتعرض له، وسترتقي إلى مستوى المهام التي تطرحها الحياة أمامها.

توفى الرفيق مراد يوسف، دون أن يعيش مرحلة النهوض في الحركة، إلا أن قيم الوطنية والعدالة والصدق والاستقامة، التي انغرست عميقاً في الأرض السورية، كان للرفيق مراد حصة فيها، ولذلك فهو سيحيا في انتصارها المؤكد.







الصورة اليمنى مراد وسعدية في حديقة دمشقية — الصورة اليسرى في يوم زفاف مراد يوسف، من اليمين: مراد، خيرية (أم فايز)، حياة

دفء قلب وشجاعة موقف

فؤاد كحل

"يا جدول سر نحو السهل الوعر
فأحزانك واهية
ولأنك تجري نحو الشمس
سترتحل الأنهار إليك
ولأنك تخرج من ظلمات الأمس
سترتسم الثورات عليك..."

هكذا كان إحساسنا، ولهذا ولدت الكلمات في قصيدة "فواز بن فواز"، التي توقد رمزاً لربيع بدأ ينمو في مساحات وعينا السياسي والمعرفي لحالة نهوض عام انتظرناه منذ نعومة أظفارنا.

وحين بدأت الشجرة التي حاولنا أن نستظل بها تتيبس شيئاً فشيئاً، قرعت قلوب أهلها نواقيس الخطر... لأنها رأت جيداً، وتلمست مكامن الخطر جيداً، وأدركت عمق الهاوية التي سيقع فيها الجميع جيداً، فكان أن وقفت القصيدة والفكرة معاً، على الحدود الفاصلة بين الربيع والخريف، بين الضياع والهداية، بين الرؤيا وبين أن تكون أو أن تتلاشى. لقد وقفتا على الحدود باتجاه أفق مشرق رغم غموضه، وهما تضعان أياديهما على قلبيهما! وكان أن تسلحتا بقوة إرادة، وشجاعة روح، وإنسانية إحساس، ونبل مقصد. وكان لا بُدَّ من أن تتوحد القصيدة والفكرة النضالية وتتقدا، في ظلم ينسجه حراس الفساد والخديعة، رغم أنهما أدركتا خطورة البدء، وحجم الأعاصير التي ستعصف بنارهما ونورهما!

كنت يا أبا سامي من حراس اللهب، وحاملي مشاعل النور، ورافعي راية الديمقراطية، ومرددي نشيد الحرية، وكنت من الدالين على الطريق الأكثر هداية للوصول إلى مستقبل حقيقي للوطن والإنسان... وكم كنا نشعر بتموج روحك، وصدق كلماتك، ودفء صوتك وهو ينساب هادئاً... شفافاً... مقنعاً... وشجاعاً، كأنه يمنح قساوة الفكرة السياسية غلالة من

بوح! وما زلت أتذكر نظرات أديبنا الكبير سعيد حورانية، وهي تومئ باطمئنان، وأنت تتحدث إلينا في واحد من لقاءاتنا الحميمة المسؤولة.

لقد كان لصدقك وإخلاصك أهم الأثر في نفوسنا، وكنت بقلبك الإنساني، كأنك تركب للكلمات الجافة أجنحة. ونعرف جميعاً كم يصعب أن نحوّل جندب السياسة البارد إلى فراشة مضيئة ودافئة، لها من القوة ما للنار من نور..!

ولكن ما الذي كان من الممكن أن نصل إليه، أكثر مما وصلنا إليه...؟ وطائر الحرية أصيب برصاص القناصة مبكراً! والرياح التي اعتقدنا أنها لنا، لم تكن إلا لغيرنا..! والطريق التي حاولنا أن نشقها، سبقنا إليها غزاة الأنظمة، وكوموا الحواجز عليها حتى قبل أن تخرج من أرواحنا! لكنا حاولنا، ودفعنا الثمن غالياً، وكان الإقصاء أقل معاناتنا! وكم خففنا من هزائمنا! لقد كنت من أول المصابين، الذين امتدت جراحهم إلى ما بعد موتهم، وما زالت تنزف حتى هذه اللحظة من بدء ربيعها..! ولكن هيهات يا أبا سامي، ألم يهدأ، وجرح يبرأ، وقلب يهدأ، وشعب يصمت... دون أن يشرق كوكب الحرية، ويتوقد في الأعالي!

والآن، بعد هذه العقود من الزمن، أطمئن روحك أن الشجرة التي حاولنا أن نقلم يباسها، ونطعم أغصانها ببراعم الحرية، ونعيد لها إزهارها... أصبحت تتوهج من جديد، على شكل حلم هطل من غيمة انتظار، وحطّ على أرض الناس الشرفاء...

ماذا أقول أيها الصديق الصدوق؟ إنها كلمات... كلمات وحسب..! تطمح لأن تكون نديّة كغيمة، وفية كقلب الأم... لتخفف من البرودة التي تحيط بجسدك، وتشير إلى رفاق وأحبة وأهل جدفوا في بحر المخاطر معك، واستظلوا بشجرة الوطن الحلم معك... وها هم يحملون روحك بين جوانحهم أغنية للحرية ...

السلام على وردة جمعتنا

السلام على كلمة وحدتنا

السلام على أفق

يستعد لخفق بيارقنا

وعلى وطن
لم يزل حلماً عامراً بالبنين
والسلام على ثورة تتوقد
بالنبض والياسمين...

الرفيق أبو سامي :
دمُ الجرائم يحيطُ بنا..
وفرحُ الروح يلوّحُ لنا من بعيد.
هل سنصلُ من خلال الكفاح إلى
ذلك الفرح الإنساني الكبير
الذي ترفرفُ عليه طيور السلام؟
من المؤكد أن النضال يوصلُ إلى
الحرية، النضال البشري بشكله [illegible]
والشاسع.. والشعر أحد
وروده وخناجره الجارحة [illegible]
أعتقد من كل تقدير..
[illegible]
صيف ١٩٩٠

تحية غالية جداً
عليه وحميمة لقلبي
وعقلي، و[illegible]
تقديري ف
صحيح يا صديقي
القريب... البعيد!

صيف ١٩٩٩ [illegible]
[illegible]
ف. ا. ر

هذه رسالة قصيرة شاعرية وحميمة [illegible] الصديق
الغالي والشاعر المبدع والطفل المغوار فؤاد كحل الذي [illegible]
التقيته أحياناً متباعدة [illegible]

الكلمة الطيبة[112]

في أحد الأيام آخر أيام عطلة عيد الفطر في النصف الثاني من ستينات القرن العشرين طُلِب منا عقد اجتماع للفرعية، وحددنا الزمان والمكان عندي في البيت. حضرنا جميعاً في الوقت المحدد نحن أعضاء اللجنة الفرعية الثلاثة، وتأخر الرفيق المسؤول أكثر من نصف ساعة ناقشنا خلالها بعض القضايا التي تهم عملنا وعمل المنظمة الفرعية. فتحت باب المنزل بعد طرقه وإذ برفيقنا المسؤول المنطقي ومعه الرفيق ملكي عيسى ورفيق آخر لم أره من قبل.

فور وصولهم للغرفة وقبل جلوسهم اعتذر الضيف عن التأخر الحاصل وقال أنهم كانوا في زيارة الرفيق رشيد كرد[113] في عامودا، وقال أنه مريض وتعبان جداً.

رحب الرفيق المسؤول المنطقي بالرفيق الضيف والرفيق عيسى ملكي، وكانت المرة الأولى التي نرى فيها ملكي بعد رجوعه من المدرسة الحزبية، وقال: "رفيقنا مراد يوسف من الرفاق المبدئيين مرسل من قبل قيادة الحزب"، وإتماماً للتعريف أردف: "الرفاق الثلاثة هم أعضاء فرعية الحي الشرقي في القامشلي[114]".

استلم الرفيق مراد قيادة الاجتماع، فأخذ يسأل عن عدد الرفاق والأصدقاء، وهل تتوسع المنظمة؟ وهل هناك قبول لسياساتنا؟ ما هي الصعوبات إن وجدت؟ وما هي أسبابها برأيكم؟

وبما أن الرفيق خلف زيدين من مؤسسي المنظمة وأقدم منا نحن الإثنين الباقين، وخوفاً من أن يتكلم أحدنا ويكون كلامه مجافياً الحقيقة سبقت الآخرين وقلت: "الرفيق أبو حميد (خلف) هو أقدم رفيق في الحي، ويعرف أكثر منا ... أرى أن يتكلم هو ويجيب عن هذه الأسئلة"، بعد استمزاج رأي الرفيقين الضيفين طلب الرفيق مراد من خلف الكلام.

تكلم الرفيق عن تاريخ المنظمة ومساهمتها في تنفيذ المهام التي كانت تطلب منها، وتوسّع التنظيم والتفاف الجماهير حول الحزب كون أكثرية أهالي الحي من العمال ... والحزب يعبّر عن مصالحهم. وتطرّق إلى

---

[112] كتب هذه الخاطرة الرفيق حمزة فندي (أبو سلام) في القامشلي بتاريخ 28 تموز 2009.

[113] رشيد كرد - أحد كادرات الحزب الشيوعي السوري المعروفة، من مؤسسي منظمة الحزب في الجزيرة السورية.

[114] وهي فرعية حي قدور بك.

الظلم الذي تلقته المنظمة مثل غيرها وأكثر أيام الوحدة حتى تلاشى التنظيم تقريباً، إذ اعتقل من رفاق الحي زوهراب، ومن ثم أثرت تصرفات عثمان ابراهيم ومشاكله في الموصل عند هجرته المؤقتة إلى العراق، وانعكاس بناء رمو شيخو لبيته في ظروفه المالية المعروفة بانه لا يملك شيئاً، إضافة إلى كثرة المخبرين والضغوطات الأمنية والاقتصادية العامة مما أثر على عملنا الحزبي سلباً وخاصة في ظروف بروز الأفكار الشوفينية القومية العربية والقومية الكردية، وخروج عدد من الرفاق من الحزب وطرد آخرين.وتابع قائلاً: "لقد بذلنا جهوداً مضنية لإعادة التنظيم من العدم تقريباً، عبر علاقات فردية من قبل عدد قليل من رواد متفانين، وشيئاً فشيئاً بدأنا نعيد ثقة الناس بدفاعنا عن مطالب العمال وأهالي الحي عبر تقديم العرائض والنشاطات الجماهيرية العلنية ... .

كان الرفيق مراد يكتب كل ما يسمع. بعد انتهاء الرفيق خلف من كلامه تساءل الرفيق مراد: "هل هناك إضافات أو أسئلة؟" طلبت الكلام، وقلت: "يا رفاق! يقول مسؤولنا أن المهم هو زيادة عديد المنظمة، تعرفوا على أصدقاء جدد دون خوف من مشبوهين (افرزوا هؤلاء وأبعدوهم عن التنظيم)"، قال: "وكيف ذلك؟"، قلت: "هذا الرفيق موجود ويمكن سؤاله"، فقال: "وما رأيك أنت؟"، قلت: "ناقشنا الفكرة حينها ولم أقتنع: إذ يمكن أن تتسرب عناصر منهم للحزب ويعملوا لتفتيت منظمته وضرب سمعته. وأنا أريد إعطائنا رأي المركز حول هذا". ووضّح المسؤول المنطقي أنه أراد من ذلك المساهمة في توسيع عديد المنظمة الحزبية ونشاطها، فعقب الرفيق مراد: "يجب أن نعرف أمثال هؤلاء ونحذرهم، فالضرر في حال الخطأ كبير ولا يجوز التهاون معه".

أثناء تقديم الشاي قدمت لهم الضيافة سكاكر وبسكويت غراوي، أخذ مراد واحدة مع الشاي ثم قال بعد أن انتهيت من ضيافة الرفاق الآخرين "رفيق هل لي أخذ بسكويتة ثانية ولتكن حصتي من ضيافة العيد المقبل، أريد أخذها الآن"، وضعت العلبة أمامه، وقلت "أنا ذاهب لإحضار طعام"، فأجابني معترضاً: "أنا أمزح أريد حبة أخرى من أجل الدخان".

كنت أتمنى ألا ينتهي هذا الاجتماع خلال وقته القصير، وها قد مضى ما يقارب نصف قرن وكأن الحادثة حصلت أمس. لم أنس كلماته الحلوة الطيبة والشرح المقتضب المستوعِب للآخر، كلمات نابعة من روح إنسانية صادقة وموضوعية في الطرح نتاج معرفة.

بعد لقائنا الأول بمدة غير قليلة، وفي صبيحة يوم ربيعي من شتاء

كانت أمطاره قليلة وبرده قارساً، وبينما كنت ذاهباً للعمل حوالي الساعة السابعة صباحاً التقيت، مراداً بمشيته الهويناء الهادئة يدخن، متهادياً وكأنه يحمل هموماً كثيرة، يسير مرفوع الرأس ونظره للبعيد وكأنه يضع حلولاً لما به يفكر. بعد تأكدي من معرفتي له بادرته بالتحية ثم بالقبلات وسألته عن صحته وإلى أين هو في هذا الوقت الباكر؟ فأجاب إنه ذاهب إلى بيت رفيقنا أبي شهاب، طلبت منه أن يحوّل لزيارتي لكسر السفرة، لمعرفتي أن أبا شهاب غير موجود، وكما يعرف هو ذلك. اعتذر وقال: "أنا قريب من البيت، وأنا ذاهب لعندهم"، ظننت أنه على موعد حزبي مستعجل لذا ودعته ومضيت.

بعدها بأشهر التقينا في اجتماع موسع مع كادرات المنظمة، وكان الخلاف الحزبي قد بدا ظاهراً، حضر عدد من القياديين أتذكّر منهم الرفيقين مراد يوسف ورياض الترك ... وقد تلاحقت أسئلة الحضور بعد تقديم تقرير اللجنة المنطقية، وكانت أجوبة الوفد الممثل لقيادة الحزب من خلال مداخلة للرفيق مراد، مداخلة كانت موضع إعجاب وتقدير أكثرية الحاضرين وخاصة ردودها المختصرة والمعبّرة والواضحة، المقنعة كبلسم على جرح[115]، وكان في أس أجوبته الدفاع عن الوطن وحمايته من خلال الدفاع عن مصالح الكادحين، وعلى الرفاق الشيوعيين تقع مهمة مركزية في التركيز على وحدة الحزب ومنظماته وتقويتها فهي أساسية في هذا ويجب أن تكون هذه المهمة من أولويات نضال الرفاق دون استثناء أياً كان مركزهم الحزبي.

وفي المؤتمر الرابع كان لنا درس لا يُنسى تمثّل في النقاش بين مفهومين وروحيتين في العمل التنظيمي والنضالي، خلال نقاش بين رفيقي درب: وصفي البني ومراد يوسف، فرغم ما بدر من وصفي أثناءه تجاه مراد إلا أن الرد لم يجرح أبداً الآخر المختلف معه ... ودفع هذا الرد الكثيرين للبحث في أعماق هاته الشخصية ومن أي معدن هي: أصقلتها التربية العائلية أم الشيوعية التنظيمية، أم أن اندماجهما سوياً مع خلاصة حياة الناس البسطاء الطيبين من أبناء شعبنا ... أم هي انعكاس روح من

---

(115) يتذكر الرفيق عبد الرحمن الأسعد في شباط 2018 عن ذلك: "لم يكن أبو سامي رفيقاً عادياً، بل كان استثنائياً بكل المقاييس، قيادياً ترتاح لحديثه السياسي، البسيط والمعبّر عما يريد إيصاله لمحدثه ولمستمعيه، يشعر المرء أنه يجلس مع أخ، مع صديق، وكأنك تعرفه منذ أمد ولو أنك تجلس معه لأول مرة. يستمع إليك باهتمام ويتابع كل صغيرة وكبيرة تتحدث عنها، ثم يردّ ويقنع محاوره، وقد يستفسر إن دعت الحاجة: يسأل عن رأيك، وأيهما الأفضل هذا أم ذاك؟ ثم يعود ويسمح لك بالحوار فقد تعدل أو تضيف. تشعر أنك أمام شخص مسؤول متفهم للوضع متقن الحوار والتعاون".

عانى متاعب الحياة دون تفكير بمغنم أو منفعة ذاتية. برز هذا خصوصاً في بداية ثمانينات القرن الماضي أثناء ذاك الشرخ/الانقسام الكبير، الأمر الذي عرّفني به عن قرب أكثر وأوصلني إلى قناعة أن الشيوعية بنيت بأمثال هؤلاء الجنود المجهولين من كل المشارب القومية والدينية الذين تآلفوا فكراً وعملاً.

وكحركة التاريخ كان هناك دائماً مستغلين ومستفيدين من جهود وعمل المخلصين، من ارتقى في مناصبه وتغطرس دون التمعن في النتائج، ودون النظر في نتائج عمله دون تقييم لما أدته من خدمة أو إساءة للهدف، الهدف المعلن المتمثل في وحدة الحزب والحفاظ على الرفاق والنظر سواسية إلى الجميع بعين واحدة.

ألف تحية لروح القائد المثل والرفيق القدوة الذي مثّل في حياته الإنسان بالغ التربية والتعامل الإنساني الخلوق مع رفاقه ومجتمعه، الإنسان الصبور في كل الأوقات وخاصة عند الملمات، العارف والمدافع عن المبادئ والمواقف الفكرية بأعماله وممارساته ... فكان لهذا المرجع الحق. فحياة الناس لا تقاس ببقاء النفس بل هي لمن تبقى ذكراه وسيرته حية في ذاكرة الآخرين وأعمالهم.



في استراحة جلسات المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي السوري، 2006، من اليمين جلوساً: نجدت تحقاخة، مراد يوسف (تحقاخة)، مشهور غريبة، حكمت طالوستان، أمين الحافظ، إنعام المصري، زينب نبّوه. وقوفاً: أسامة الحافظ، عناية قوشحة.

مراد يوسف[116]

إسحق الشيخ يعقوب

كان يفتح قلبه للجميع، ويبحث عن الحقيقة في قلوب الجميع، ويتلمسها في الجميع!

فالحقيقة شأن الجميع، وواقع موضوعي وذاتي في الجميع، وهي مُجزأة في الجميع، وشأن من شؤون الجميع، ومن هذه النظرة تأتي شفافية بساطة مُفرطة قد لا نجدها إلا في مراد يوسف، الذي ما عرفته، وما رأيته، إلا أوّاباً متعبداً في محراب الإنسانية والشيوعية!

وكان يقول، أو هكذا أتخيله يقول وأنا أقترب منه، وأكاد ألامس نبض قلبه في دفء كلماته: "الشيوعية تصبح شائهة إذا فقدت إنسانيتها، والإنسانية تصبح شائهة إذا فقدت شيوعيتها".

أرفع رأسي فأسمع حشرجة صدرٍ أرهقته وطأة التدخين، فأقول له: إذن بوصلة الشيوعية، وبوصلة الإنسانية بوصلة واحدة، وعندما فقد الرفيق إحداها فقدت الشيوعية في عهده مسارها. يهز في وجهي إصبعه المدبب كالمسامير مبتسماً، وهو يقول: لا، لا... هذا شأن آخر!

وكنت ألمس حقيقته في بساطته، وفي تلقائية مبدئية تستمد حقيقتها من انتصار قضية المظلومين، ليس في سورية، وإنما على وجه الأرض!

أن تكون أممياً هذا يعني أن تستجلي مصادر الحقيقة من مختلف منازلها، تماماً كما استجلت الماركسية مصادرها من جهاتها الثلاثة: الألمانية والإنكليزية والفرنسية.

هل أدرك مراد يوسف بساطة الحقيقة في بساطته المؤثرة والجذابة وتجزئها حقيقة مجزأة في الجميع؟!

وكان مراد يوسف متماسك العقيدة الفكرية والسياسية، وكان يتجلى صلابة ومبدئية نقدية وبساطة وزهداً، وكان يدرك أن الشيوعيين ليسوا ملائكة، إلا أنه يرى أن عليهم أن يكونوا من طينة خاصة، وكانت صرامته المبدئية النقدية وإخلاصه للقضية الأممية والإنسانية وكراهيته للوصولية

---

[116] إسحق الشيخ يعقوب - **وجوه في مصابيح الذاكرة**. الجزء 4، دار الفارابي، ص 292-293.

والانتهازية والذاتية أثارت البعض ضده، وقد كان على رأس أول انقسام مبدئي في الحزب الشيوعي السوري (عرف بمنظمات القاعدة) قلت: انقسام مبدئي، هل هناك انقسام مبدئي؟ وتذكرت البلاشفة والمناشفة!

ما كان سهلاً ولا مبدئياً أن تُوجه الاتهامات والأباطيل الجارحة والمتحاملة وغير المبدئية، وكان مراد يوسف يتمزق حزناً وألماً، وكان ما حل بمراد يوسف، حل بيوسف فيصل، أ كان انقساماً مبدئياً؟!

وكانت وحدة الحزب المبدئية والأممية هاجساً ما فتئ يخفق بقلب مراد يوسف، الذي يرى أن تلاحم الحزب وقوته تتشكل في نقاوة مبدئية إرادته والارتفاع به فوق أنانية الزعامة الذاتية!

لقد رافقت مراد يوسف وبعض كوادر منظمات القاعدة، وتشكلت في حميمية طهرانيته الرفاقية ونظرته الصائبة للحياة السياسية والفكرية وتحليلاته المميزة تجاه الوضع السوري والأوضاع العربية.

مراد يوسف قيمة إنسانية وشيوعية كبيرة، ورافعة وطنية وفكرية في المجتمع السوري، طوته الأوضاع البائسة، ولم يحظ بعناية تليق به وبمنزلته الوطنية الكبيرة!

وهذا شأن ما يجري في الدول العربية بشكل عام تجاه الكثيرين من نوابغ الوطنية في السياسة والفكر والأدب، وكأننا أمة لا تذكر من أعطوا ثمرة جهادية وكفاحية حياتهم للإنسان والوطن، إلا بعد رحيلهم عنا.

رحم الله مراد يوسف، وأسكنه فسيح جناته، وألهم أهله وأصدقاءه ورفاق دربه الصبر والسلوان.

في الليل لما خلي[117]

وليد حافظ

كما أبو فراس الحمداني في سجنه بطلٌ صلبٌ في مواجهة الروم ما أشرقت الشمس، حتى إذا جنَّ الليل ضعف في لحظات الوحدة، وخصوصاً في هداة الليل، وقد شاع الهدوء في الكون ونام الناس والطبيعة، يرى نفسه عارياً من الأقنعة التي يغلف بها نفسه، سواء أ كانت وطنية أم حزبية أم أسرية، وتتجلى له في ذلك الهزيع الأخير من الليل بإرادته أو دونها خفايا وأعماق، يعضّ عليها في مواجهته للناس والواقع:

إذا الليلُ أضواني بسطتُ يد الهوى   وأذللتُ دمعاً من خلائقه الكبر

رأيت مراداً في بعض هذه اللحظات، على قلتها، رأيته وهو يسمع أرقّ الأغاني وأزخرها بالعاطفة الرقيقة النظيفة في عصر كان من الممنوع فيه على المناضلين أن يفعلوا هذا. ورأيته ونحن نتناشد ما بقي في ذاكرتينا من مخزون الشعر العربي، ولاسيّما القديم. ورأيته، وقد سهرنا إلى الصباح في القرية، نتمشى على الطريق المحاذية للغابة المسكونة بالتاريخ والأشباح والألغاز، ثم رأيته، وهو موضوعنا الساعة، في ما بقي من كتاباته.

المحزن في الأمر، في رأي مستقل عن أيّ اعتبار، أن الهموم الحزبية خصوصاً والسياسية عموماً، لم تمنحه إجازة صافية حتى في هذه اللحظات القليلة، فتراه يكتب تحت عنوان "فكرة" ما قد يطرحه في مؤتمر حزبي قادم، أو يستعيد مواقف للحزب، ملتبسة في مرحلة من المراحل، فيحاول ثانية وحده أن يقنع بها، أو يبحث فيها عن نقاط الضعف، ولا تخلو مفكرته من مشاريع أناشيد حزبية مقترحة لهذا الرفيق أو ذاك، ولكن من دون تعليق.

وإذا تجاوزنا هذه التداخلات غير القليلة، نبدأ معه وقد انتقل من السنة الثالثة إلى الرابعة في كلية اللغة العربية بالأزهر، فرحاً بنجاح لم يكن

---

[117] النور، السنة الثامنة، العدد 379، الأربعاء 4 آذار 2009.

يستحقه في رأيه، ولكنه في الوقت نفسه كان مقتنعاً بأن هذه الكتب (اللانفعية) على حدّ تعبيره تستحق أكثر من هذا الجهد والوقت. ثم في نهايات عام 1953، وقد تخرّج واشتغل في عمل لا يَدُرُّ إلا القليل، ولا يلبي شيئاً من الآمال التي منّى بها النفس أو عقدها عليه الأهل الذين أرسلوه، على رقة حالهم، إلى الأزهر لعل هذا الفتى الضعيف، بل المريض على حدّ تعبيره هو في إحدى مكاشفاته لنفسه، يصبح قاضياً أو ما شابه، تراه في حالة من التشاؤم واليأس المريرين يتحسر على أخته التي تنتظر وعوده، ويحزن لأمه وأبيه في ليالي الشتاء الباردة الفقيرة.

على أعتاب الستين، وتحديداً في بداية عامه الثامن والخمسين يعود أكثر من مرة إلى موضوع العمر، ويحتار في تصنيف نفسه: أ هو كهل أم عجوز، ويحاول أن يستبعد الأخير. كان الوضع التنظيمي للحزب في تلك الفترة يقلقه، ولاسيَّما أنه لا يعرف من سيخلفه إن حصل له شيء.

أعرف، بحكم قرابتي الأدبية لمراد، أنه كان مشروع أديب، شاعر أو قاصّ. وأذكر أنني اطّلعت بالمصادفة، وأنا جدُّ صغير، على كتابة له جميلة في هذا السياق، وهو في طريق العودة من الأردن في ليلة شتائية ممطرة. وأخمّنُ أن هذا المشروع، الذي لم تسمح ظروف الحياة، سياسيّها واجتماعيّها وماديّها، بأن يرى النور، دفع مراداً للبحث عمَّا يمكن أن يكون تعويضاً، ولو جزئياً، عنه، في مختاراته الأدبية وتعليقاته على بعض قراءاته. ويتعجب الباحث في أوراقه من التنوع أو التنافر الظاهري في هذه الاهتمامات، من عنترة وطرفة بن العبد الجاهليين إلى عمر بن أبي ربيعة وسميح القاسم ومحمود درويش المعاصرين، بل النص الكامل لأغنية فيروز :"لا تسألوني ما اسمه حبيبي"، ولكن ليس صعباً أن تكتشف أن خيطاً إنسانياً يجمعها.

نرى في ما كتبه من ذاكرته الأبيات الشهيرة لطرفة بن العبد، التي يرسم فيها مذهبه في عبثية الحياة والموت، ومعلقة عنترة، التي يفخر فيها ببطولات لا تخلو من الطابع الطبقي، ومعلقة الأعشى في وصفه الشهير لهريرة، وغزليات جميلة لشعراء عذريين ككُثَيّر عزة وجميل بثينة، مروراً بحِكم للمتنبي وأخرى للمعري.

ونجد من حين لآخر عَقِب الانتهاء من تسجيل خاطرة شعرية أو تذكُّر أبيات، بعض الحسابات المالية التي تؤرّق كل فقير من ثمن دواء أو طعام.

وتجد ورقة مقصوصة من مجلة فيها قصيدة نزار الشهيرة: هوامش على دفتر الهزيمة، وقصاصات عليها قصائد لسميح القاسم، منها القصيدة المعروفة: رسالة إلى غزاة لا يقرؤون. وكلمة محمود درويش في الذكرى الخمسين للنكبة، وقصائد للشاعر الفلسطيني الرائد توفيق زياد، وأخرى للعراقي سعدي يوسف عن الحرية، وأبيات إبراهيم طوقان الشهيرة في الثائر: عبس الخطب فابتسم... إلى أشعار لوصفي البني في السجن، وخاطرة موجزة مع القاص المظلوم في نقدنا الأدبيّ سعيد حورانية، وكلمة إعجاب بسعد الله ونوس. ويبدو أنه كان بودّه أن يجمع أو يطّلع على ما قيل ويقال في الجولان: حبيبته الأولى.

رثى مراد نفســـه أكثر من مرة، وكان أقساها بعدما رثى شجرتي السنديان والكينا الشامختين في بيت الطفولة، اللتين اضطر أبوه إلى اقتلاعهما لحماية الأسرة من برد الجولان الذي لا يرحم. يُقارن مراد نفسه بالشجرتين الضحيتين راثياً نفسه، شاكياً فقدان الصديق: "وكذا أسير في منحدر عمري وحيداً، رغم أن الكثيرين يظنوني غير ذلك، وربما يغبطني البعض على كثرة أصحابي ورفاقي وأصدقائي، وهم كذلك، ولكن ليس بالمعنى العميق. شديدٌ على المرء أن يفقد مثل هذه الشواهد[118]، التي رافقت طفولته، ولكن الأشدُّ من ذلك هو أن ينزل المنحدر من عمره وحيداً من الأصدقاء الحميمين، ولا يجد بجانبه بين فترة وأخرى على الأقل واحداً من أهله أو من أصدقائه، يستطيع أن يتبادل معه الحديث عن أدق مشاعره وأفكاره وعواطفه دون حرج. أوّاه كم كان عندي من هؤلاء الأصدقاء[119]، وكم أنا الآن وحيد ليس بجانبي أحد مثلهم. وكل الذين من حولي من الأقربين، إمّا رفاق لا تجمعني بهم المشاعر الروحية البسيطة والعميقة، التي لا قرار لها، وإمّا أقرباء لا يجمعني بهم العمر المتقارب.

---

118) شجرتي السنديان والكينا في دار أهله.

119) تكلم أبو سامي دائماً بتفصيل ومودة وحنين عن رفيق شبابه صبري حسين، الذي وافته المنيّة في عزّ شبابه.

إذا كان لمراد مثل هذه الشكوى، وهو في عزّ عطائه الفكري والتنظيمي أو نشاطه، فكيف، ونحن ربما لم نلاحظ، أو ربما قصّرنا، في أواخر عمره، وقد حدّ المرض والعمر من حركته الجسمية والفكرية. عفوك مراد، وقد فات الأوان، كم ظلمناك! ونحن نصدّق أن هذه السنديانة، التي قاومت عاصفة التعذيب في أقبية المزّة، وقاومت عشرات العواصف، التي لا يستطيع المرء أن يعددها، أقوى من أن تحتاج إلى بوح الهزيع الأخير من الليل.



في استراحة جلسات المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي السوري، 2006 من اليمين: نجدت تحقاخة، مراد يوسف (تحقاخة)، خالد نعمة، حكمت طالوستان، عناية قوشحة.

المناضل المتواضع[120]

حسين العودات

من المفروض - حسب أهل الفكر والرأي – أن يكون المناضل بسيطاً ومتواضعاً، وعادة ما يوصف بهاتين الصفتين في معظم الروايات والأساطير والمتخيّل في كل العصور. ومن الطبيعي أن من يتصف بهما يعترف بالآخر وجوداً وفكراً ووجهات نظر، ويحترمه، ويتمثل قول الشافعي: "رأيي صحيح يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصحة"[121]، وما دام الأمر كذلك، لا يسلك المناضل عادة أي سبيل أو ممارسة أو سلوك لمجافاة الآخر أو تهميشه أو تجاهله أو التعالي عليه. ولهذا فإن المناضل متواضع حقاً، قولاً وفعلاً، ولا يجد مسوغاً لنفسه ليفتخر بغير التواضع والبساطة، وليكون أكثر صدقاً مع نفسه ومع الآخرين، وأكثر تقبلاً وقبولاً لآراء غيره وأفكارهم، وأكثر جديّة في عدّ النضال مسؤولية لا استعراضاً، من يلتزمه يحمل عبئاً لا يقربه من مناخ الزهو والافتخار، ولا يتاجر بنضاله ويطلب مقابل ذلك مديحاً من المعجبين وتكريماً من الآخرين. هذه هي الصورة النمطية للمناضل، مبنى ومعنى، كرسها الفلاسفة والأدباء، في الفلسفة والرواية والمسرح والقصص الشعبية، وأسبغوها على قادة وأبطال تاريخيين، ونادراً ما يوصف المناضلون بالغرور والصلف والتكبر والتجبر واستعراض الإمكانات، إلا إذا كانوا أعداء.

إلا أن الحياة المعيشة تشي بأن بعض المناضلين عملياً وواقعياً ليسوا كذلك، فهم أميل للتفاخر بنضالهم، يذكّرون من هم حولهم بهذا النضال بكل مناسبة، ويستجدون منهم المديح أو ينتظرونه، وبعضهم يطلب مباشرة

---

[120] **النور**، السنة الثامنة، العدد 378، الأربعاء 25 شباط 2009.

[121] كنت أحد شهود نقاش (طرفاه مراد ودانيال) مرّة حول هذا القول، وخرجت بقناعة صواب مقولة "رأيي خطأ فيه بذور من صواب، ورأي غيري صواب فيه شذرات من خطأ"، والفرق بين المقولتين واضح، ولكني رأيت أن كلا المتناقشين طبقا في ممارستهما الحياتية المقولة الثانية أكثر – **المُعِدُّ** (معن).

أو مداورة أن يعطيه نضاله قيمة اجتماعية كبيرة، سواء كان يستحقها أم لا، تكريماً لنضاله. وينسى، أو يتناسى، أن النضال كان واجباً ومسؤولية، وأنه سار في هذه الطريق مختاراً، واتخذه بقرار ذاتي نهج حياة، وأنه وسيلته لتحقيق أهدافه، وربما تحقيق إنسانيته فضلاً عن أنه التزام، ولذلك فلا مجال للافتخار والغرور والشعور بالتعالي، الذي يؤدي بالضرورة إلى عدم احترام الآخرين وعدم السماع لهم (فكيف بالإصغاء) ورفض الحوار، والولوغ في نمط علاقات لاديمقراطي، والوصول في نهاية المطاف، وخاصة إذا كان المناضل قائداً سياسياً، إلى التعالي والتفرد بالقرار، والغرور بالنفس والإمكانات، وعدم فهم الآخر أو قبوله، بما يفضي إلى عـدم فهم المجتمع وطبيعة الأحداث التي تمرُّ، والظروف التي تحكم المسار، سواء كان حزبياً أم سياسياً أم وطنياً أم من أي نوع.

إن مأثرة مراد يوسف أنه كان يعدُّ النضال التزاماً وواجباً شخصياً ووطنياً، وموقفاً لا ينبغي المطالبة بثمنه، ولذلك كان متواضعاً، رغم أنه كان بشهادة كل من عرفه مناضلاً صلباً مضحياً، أثبتت الأحداث استعداده للتضحية دون حدود من أجل ما يؤمن به، وشهد له كل رفاقه أنه تحمَّل التعذيب في سجن المزة، دون أن يتراجع أو يفكّر بالتراجع، وكان جسده الضعيف أقوى من سياط السجان، بل وكان يعود من "حفلة" التعذيب باسماً، وكأنه قادم من حفل سعيد أو إلى حفل سعيد. ولأنه كان يؤمن أن النضال مسؤولية وواجب، لم يستغل عذاباته ومصاعب نضاله يوماً ليستعرض ماضيه، أو يظهر تفوقه، أو يطلب بمنن على رفاقه أو حزبه به. وبقي، رغم كل الظروف والوقائع التي تتيح له غير ذلك، متواضعاً على صلابته، قوياً على ضعف جسمه، حتى إنه كان يستفزك بتواضعه، وكأنك أنت المناضل الصلب، وهو التابع البسيط الذي يعوّل عليك الكثير.

تعرفت عليه قبل أربعين عاماً، وكان حينذاك عضواً حديث العضوية في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري. ويومئذ، لم تكن القوى التقدمية العربية وقوى التحرر تشعر بوطأة هزيمة حزيران، ولا تعدُّها بداية التراجع، وكان مناصرو هذه التيارات يعتقدون في ذلك الوقت أنهم، رغـم الهزيمة، قاب قوسين أو أدنى من تحقيق النصر وبناء المجتمع

التقدمي وقهر الرجعية والإمبريالية، إضافة إلى الإيمان بأشياء أخرى مماثلة. وفي تلك الجلسة، تحدث الرجل حديثاً طويلاً بصوت منخفض وبهدوء لافت، طرح من خلاله معلومات ومقدمات وتحليلات، وتوصَّل إلى نتائج متماسكة جميعها، فلم يزيّن تحليله بالشعارات ولا بالأحلام والأوهام، كما هي عادة البعض، وشخَّص الواقع في ذلك الحين، واستخلص ملامح التطور المقبل وصعوباته، وأوحى بما لا يقبل الشك أن النكسة حصلت، والانحدار بدأ، وتراجع هذه القوى حاصل لا محالة، وأن مهمتها الأساس هي تخفيف وقع النكسة والهزيمة، وإبطاء حركة التراجع، واستيعاب الصدمة، ثم الاستعداد للردّ على الانتكاسة العسكرية والسياسية بل و"الإيديولوجية"، دون أن ينبئ تحليله هذا عن سوداوية أو تشاؤم أو يأس. وأذكر جيداً كم كان تحليله سلساً وعذباً ومتماسكاً، وتواضعه لافتاً، وأفكاره نقية، ولأنني لم أكن أعرف عنه الكثير، وبسبب هذا التواضع غير العادي، الذي لم يعتد المثقفون والقادة على ممارسته، اعتقدت أنه عامل مهني عادي تربى في صفوف الحزب، فتثقف بالممارسة. وكم دهشت فيما بعد، عندما عرفت أنه كغيره مناضل وخرِّيج سجون، ودرس سنتين في المدرسة الحزبية في موسكو، وعجبت أنه لتواضعه لا يبدو كذلك، ولعل هذا من أولى صفات القائد السياسي.

تحاورنا مرتين في ما بعد حواراً طويلاً وجدياً خلال هذه العقود الأربعة، المرّة الأولى بعيد انقسام الحزب الشيوعي السوري في سبعينيات القرن الماضي، حين تزعَّم مراد يوسف إحدى الفرق المنشقَّة، والمرة الثانية بعد انتخاب ميخائيل غورباتشوف أميناً عاماً للحزب الشيوعي السوفييتي، وتوليه السلطة، وطرحه شعاري البيروسترويكا والشفافية، وصولاً إلى محاربة الفساد والبيروقراطية وتطبيق المحاسبة وإفساح المجال للحريات الفردية وللديمقراطية وإعادة النظر بالسياسات السوفييتية الداخلية والخارجية، وغيرها مما طرح غورباتشوف بعيد انتخابه.

كان الحوار حول انشقاق الحزب طويلاً وجرَيئاً منه ومني، وقد أبديت تخوفي على التيارات المنشقة عن الحزب من أن تبتعد شيئاً فشيئاً عن المسيرة الشيوعية، بل والماركسية، وتضطر مع الزمن وضغط

الظروف، إما إلى نهج التطرف اليساريّ، أو الانتكاس إلى اليمين، فما انشق فريق عن حزبه خلال التاريخ، في الغالب الأعم، إلا وسار في أحدهما، فضلاً عن أن الإنشقاق يضعف الجميع، ويشجّع الآخرين على الاستقواء على الحزب، كما يزيد حيرة الشيوعيين وارتباكهم من التعقيدات الطارئة داخلياً وإقليمياً وخارجياً، ويجلب اليأس إلى نفوسهم، مما يشجعهم على ترك التنظيم الحزبي والسير في طريق يشبه طريق اللامبالاة. وبالتالي، فالانشقاق، حسب مرافعتي، شرٌّ كله، ولا يوصل الحزب إلى النقد الذاتي البناء، أو يقوّم تجربته ومسيرته وسياسته، أو يؤهله لإعادة النظر فيها وتجديد أساليب نضاله وتحالفاته، وربما رؤاه العقائدية وفهمه لظروف بلادنا، وتوطين الاشتراكية فيها، كما يتوقع البعض أن يحدث، بل ربما يكون بداية الشرذمة والتذرر.

لم يبالغ مراد يوسف في ردّه، ولم يتحزب للانشقاق، بل أدانه من حيث المبدأ، وأكّد ضرورة الحذر الاستثنائي والمحاولات الجادّة لاستيعاب نتائجه، وقرأت في طيّات حديثه وحواره أن وحدة الحزب قادمة رغم كل المخاطر، وأنه سيعمل للوصول إليها، وأن الانشقاق كان شرّاً لا بُدَّ منه، إلا أنه عبّر عن قناعة التيار الذي ينتمي إليه أن تقويم مسيرة الحزب لم تعد ممكنة بالطرق التقليدية، ولا بُدَّ من " صدمة" لتحقيق ذلك، وأن مثل هذا الأسلوب سيقنع الجميع بعودتهم إلى وحدتهم، وهذا ما عمل له، وتحققت وحدة الحزب عام 1991، وصدقت رؤية مراد يوسف ورؤاه عامة.

كان الحوار الطويل الثاني في النصف الثاني من الثمانينيات، حين انتقدت بقسوة ممارسات الحزب الشيوعي السوفييتي قبل غورباتشوف، وخاصة تكريس البيروقراطية داخل الحزب، وتحوُّل المركزية الديمقراطية إلى مركزية فقط، والإلغاء الفعلي للنقد والنقد الذاتي، وتفويض اللجنة المركزية المكتب السياسي صلاحيات مطلقة، وتفويض المكتب بهذه الصلاحيات للأمين العام، واختصار الحزب بشخص واحد، وابتعاده عن مهماته الأساسية، في الوقت الذي سارت فيه الدولة السوفييتية على النسق نفسه، فعمّ الفساد والخراب والتخريب والبيروقراطية، وانعدمت الرؤية

السياسية والاقتصادية الداخلية والدولية، وعبّرت عن قناعتي بأن رؤى غورباتشوف سوف "تشيل الزير من البير"، وتنقذ الاتحاد السوفييتي والمنظومة الاشتراكية.

سمعني مراد يوسف بإصغاء "أرضى غروري"، ثم تحدث فاعترف بأخطاء الحزب الشيوعي السوفييتي، لكنه عاد لأسبابها وللظروف التي أوصلت إليها، ورأى أن ذلك من طبيعة الأمور، وأن التشاؤم لا يحلّ المشكلة، والمناضل يحتاج إلى التفاؤل، وعليه أن يكون متفائلاً، ولذلك عبّر عن تفاؤله بما طرحه غورباتشوف، لكنه كان تفاؤلاً حذراً، وأتبعه بخوف من أن النوافذ التي فتحها ستتسع دون حدود، ولن تترك مجالاً للترميم، وأن الإصلاح لا يكون بهذه الطريقة، وأنه كان الأولى أن يبدأ بالحزب، ثم ينتقل إلى المجتمع. وفي الحالتين، كان تحليله ضمن منهجية علمية، لا من خلال استعراض سياسي وتبجح وتجاهل للظروف المحلية والدولية، ورأى أن هذه الطريق العشوائية ستودي بالاتحاد السوفييتي والمنظومة الاشتراكية... وهذا ما حصل.

عجبت بعد ذلك، أي بعد فشل المنظومة الاشتراكية وأحزابها الشيوعية، من إصرار مراد يوسف على التمسُّك بالحزب أكثر فأكثر، بدءاً باسمه وانتهاء بأن خلاص الإنسانية لن يكون إلا بالماركسية. ولم تكن قناعاته هذه نوعاً من المكابرة أو القفز على الواقع أو هروب إلى الأمام، وإنما قناعات الشيوعي المثقف المناضل، الذي يرى أكثر مما يرى غيره، والذي يؤمن أن نهضة الأمم أو انتكاساتها تنشأ من منظومة معقدة من الشروط والظروف.

بقي أن أقول إنهم نادرون، أعني أولئك السياسيين، الذين نجوا من أنماط الحياة الاستهلاكية، ومن نهمها ومباذلها. نجا مراد اليوسف، الذي عاش فقيراً وبسيطاً، وربما كان يستمتع بفقره، أو على الأقل لم يكن يمتعض من هذا الفقر.

الباب الخامس: الخاتمة

مراد يوسف (1928 - 2008)
الوطني الشيوعي المخلص لأفكاره
في أجواء الصعود النهضوي وهبوطه

(1)
المراحل التي سبقت مراد يوسف ثم التي عاش في أجوائها

قبل بدء النهضة منتصف القرن التاسع عشر كانت الإيديولوجيات الصوفية هي المسيطرة، سواء في المدن أم الأرياف. وربما استغرب القراء عدَّ الطرق الصوفية على أنها أحزاب الناس أيام زمان.

ومع التغيرات الاقتصادية الاجتماعية، ونتيجة التأثر بأوروبا البرجوازية، أخذت تظهر معالم الدولة الحديثة من جهة، وما تبعها من ظواهر، وفي مقدمتها نشؤ الأحزاب السياسية. وقد تزامن نشوء الأحزاب وتطورها مع نمو الوعي الوطني والقومي من جهة، وانبعاث حركة التنوير الإسلامي من جهة أخرى. وقد مرَّت المجتمعات السورية في القرن العشرين بعدد من المراحل هي:

- مرحلة ظهور النهضة المتزامنة مع الإصلاحات في الدولة العثمانية، وما أعقبها من الحكم الاستبدادي للسلطان عبد الحميد، ومن ثمَّ قيام ثورة الاتحاد والترقي، وإزاحة السلطان عبد الحميد عام 1909، لتنتهي المرحلة العثمانية عام 1918.
- مرحلة الدولة الوطنية العربية المدنية، وتنصيب الشريف فيصل ملكاً عليها.
- مرحلة الانتداب الإفرنسي بين عامَيْ 1920 و1943 المتصفة بالسماح بحرية الأحزاب وإجراءات ليبرالية حداثية تطويرية من جهة، والقبضة الاستعمارية الساعية لتمكين الرأسمال الأجنبي من استغلال ثروات البلاد. ***(ميلاد مراد يوسف 1928 في بيئة فقيرة...).***
- مرحلة فجر الاستقلال بين عامَيْ 1943 و1958، وفيها أُطلقت حرية الأحزاب من جهة وسعى الحكم البرجوازي الإقطاعي لضبط البلاد قدر طاقته المحدودة. نهاية هذه المرحلة شهدت أزهى عهود سورية الحديثة في الحكم البرلماني، والحريات الديمقراطية، وصعود الفئات الوسطى، واحتلال الطبقة العاملة الناشئة دوراً في الحياة السياسية. وقد تميَّز الوعي الوطني في مرحلته الثالثة عن المرحلتين السابقتين بامتداده في أعماق المجتمع، وانتشاره النسبي بين فئات واسعة من الشعب، في حين كان الوعي الوطني مقتصراً في المرحلتين السابقتين على نُخَب محدودة من المثقفين، الذين تأثر معظمهم بالثقافة الغربية البرجوازية. وقد

أسهم تنامي الوعي الوطني في ظهور الأحزاب، التي ضمّت (فيما عدا الاخوان المسلمين) جميع أبناء الوطن، بغض النظر عن دينهم أو طائفتهم أو عشيرتهم أو عائلاتهم أو مناطقهم. ومعنى ذلك أن ظهور هذه الأحزاب الوطنية كان أول اختراق كبير للمجتمع الأهلي السابق، القائم عموماً على التكتلات المذهبية والطائفية أو العشائرية والعائلية، التي تراجعت لصالح الولاءات الوطنية والقومية. ***(وفي هذه المرحلة نضج الوعي السياسي لدى مراد يوسف).***

- مرحلة الوحدة بين سورية ومصر، وقيام الجمهورية العربية المتحدة بين عامَيْ 1958 و1961، التي مُنعت فيها الأحزاب، وأخذت فيها المباحث السلطانية تشدد النكير على دعاة الحرية، ممهدة الطريق للحكم الشمولي وفصل السياسة عن المجتمع. ***(وفيها زُجَّ مراد يوسف مع المئات في السجون، مترافقاً ذلك مع التعذيب دون محاكمة).***

- مرحلة عودة الجمهورية السورية إلى الحياة من جديد في أيلول 1961، وبالتالي عودة الأحزاب السياسية لتحتلَّ واجهة الأحداث في إطار الحياة البرلمانية، مع تشويش من الشعبة السياسية أحد أذرع المخابرات السلطانية، وهي في دور التكوين. ***(الخروج من السجن... الدراسة الحزبية... وهب مراد حياته لتحقيق المبادئ، التي اعتنقها).***

- مرحلة حكم البعث نتيجة الانقلاب العسكري في 8 آذار 1963، وما تلاها من فترات مضطربة ما تزال مستمرة... وأهم ما يميِّز هذه المرحلة بعهودها المتتالية هو الحكم العسكري المتسربل بثياب حزب البعث المدنية. ***(استمرار مراد يوسف في نشاطه السياسي وفق قناعاته، أو انسجاماً أو استسلاماً للظروف الحاكمة أو القاهرة... الرحيل 2008).***

(2)
مراد يوسف في أحضان الحركة الشيوعية والحزب الذي أخلص لمبادئه في التحرر الوطني والعدالة الاجتماعية

لم اسمع باسم مراد يوسف إلا عندما استلم مركزاً قيادياً في الحزب الشيوعي السوري، فسألت عنه الكثيرين، وكانت الأجوبة التي استرعت

انتباهي هي:
- أنه شركسي من القنيطرة، وابن عائلة فقيرة.
- أنه خريج الأزهر في القاهرة، وهذا ما بعث السعادة في نفسي، لقناعتي منذ الصغر، أن على اليسار أن يكسب الجماهير المتدينة إلى صفه، وهذا لا يتم دون قيادات من أوساط تلك الجماهير.
- أنه وَهَب حياته للقضية التي اعتنقها. ومع الوقت تواترت الأخبار التي كنت اسمعها عن مراد يوسف، بأنه يولي جلَّ اهتمامه لنصرة المستضعفين، ولا يتوانى في الذهاب إلى أي مكان في سبيل كسب القوى العاملة الطامحة في التحرر والإنعتاق. وأنه كان عفيف النفس، وعاش حياة عادية "على الحافة التي فوق خط الفقر"، مما يؤكد أنه كان صادقاً مع نفسه ومع مبادئ المساواة، التي اعتنقها.

*****

رأت عينا مراد يوسف النور عام 1928 في القنيطرة، التي كانت حسب تعبيره "شبه ضيعة"، ومن ثمّ تحوّلت إلى مركز قضاء للجولان، الذي كان قسم منه حتى منتصف القرن التاسع عشر، بادية ماطرة. كانت القنيطرة أرض ترحال لـ(العرب)، وهم البدو الرُحَّل[122]. ولهذا السبب اختارت الدولة العثمانية أواخر القرن التاسع عشر القنيطرة وعدداً من الأماكن في بلاد الشام لتكون سكناً للشراكس القادمين من القوقاز (القفقاس) عامَيّ 1879 و1980 والمشهورين بفروسيتهم، كي يكونوا عائقاً أمام غزوات البدو، وقوة بشرية تقوم بتوسيع المعمورة على حساب البادية[123]. وقد جرى توطين الشركس بمساعدة الدولة العثمانية، التي ملّكتهم الأراضي الأميرية بهدف الاستيطان، وتوسيع رقعة المعمورة على حساب البادية، وبسط سيادة الدولة الضعيفة في تلك المناطق[124]. وإلى جانب الشراكس والبدو وُجِدَتْ في الجولان ومحيطه قرى فلاحية من سُنَّة

---

122) هذه العشائر العربية البدوية في الجولان، كما في بادية الشام، كانت حتى الربع الأخير من القرن العشرين ترى "في الاستيطان ذلاً، وأن بيوت الشعر هي رمز العز". وكثير منها كان يغزو المعمورة للنهب والتسلط وفرض الخوّة، وهي ضريبة يفرضها البدو الرحُل على الفلاحين المستقرّين المسالمين، ليزيدوا من آلامهم وسيف الدولة العثمانية مسلط فوق رؤوسهم.

123) ترى كثير من المصادر العربية أن توطين الشركس في هذه الأماكن هدفه الوقوف أمام أية حركة عربية معادية للعثمانيين، ولا نستطيع الجزم في هذا الأمر.

124) ولم تقتصر هذه السياسة على القنيطرة والجولان، بل شملت عدداً من المناطق المحاذية لبادية الشام: شمال اللجاة وبوادي حمص وحلب وشرقي الأردن، التي استوطنها الشركس، وعملوا على توسيع رقعة المعمورة فيها، كما أسهموا أيضاً في حماية الطرق من قطاعها.

ودروز وعلويين ومسيحيين وبعض التركمان. وفي منتصف القرن العشرين، ومع الصعود النهضوي وانتشار الوعي الوطني، ساد الهدوء بين هذه التجمعات، وهذا ما اختزن في ذاكرة الشاب مراد يوسف، وهو ما رواه في الشريط المسجل.

يرد في الشريط المسجّل بلسان مراد، والمنشور في الباب الأول من هذا الكتاب، أنه تلقى تعليمه الابتدائي في القنيطرة، وحاز شهادة السرتفيكا عام 1942. وبسبب الفقر، فُتحت أمامه أبواب الكلية الشرعية في دمشق، التي كان التلاميذ يدرسون فيها مجاناً، والغرباء عن دمشق تأويهم الكلية مجاناً مع إطعامهم. ومن دمشق انتقل إلى الأزهر الشريف خريف عام 1946، وهذا ما سنتطرق إليه فيما بعد، متابعين تحوّل أفكاره ونظرته للحياة، وهو المحور الأساسي لهذه الخاتمة.

يسرد مراد يوسف أيضاً في الشريط المسجل، الوارد في الباب الأول، كيف تعرّف على الأفكار الاشتراكية والشيوعية أوائل خمسينيات القرن العشرين، مع الصعود الوطني الذي عمَّ سورية، وكيف أنه انتسب إلى الحزب الشيوعي عام 1955، أي في مرحلة العصر الذهبي للحزب.

*****

تأسس الحزب الشيوعي في سورية عام 1924، ومرَّ بمراحل متعددة قبل أن يتعرف عليه مراد يوسف المتشوّق إلى المعرفة وإلى تحرير المضطهدين. وبرز من بين صفوفه في أوائل ثلاثينيات القرن العشرين الكاتب اللبناني (والسوري) سليم خياطة، وجهاً وطنياً عربياً معادياً للفاشية والاستعمار. وكان خياطة ينظر إلى الأمور نظرة شرقية بمنظار ماركسي، و"يحاول أن يجد في الغرب ذلك الدرس، الذي يستفيد منه الشرق في عراكه وفي سيره مع الغرب". وعلى خطا سليم خياطة سارت مجلة **الطليعة** اليسارية الدمشقية، (أوائل 1935 - أوائل 1939) في رفع لواء مناهضة الفاشية، والدعوة إلى انتاج ثقافي انساني، وتكوين الحلقات الأولى لليسار.

وجاء خالد بكداش بشخصيته القوية الجذابة، وتأهيله الفكري في دمشق وموسكو، ليضفي على الحزب لوناً ساطعاً، ويطبعه بطابع لافت للنظر خلال مسيرته الطويلة في الحزب الشيوعي (1930 - 1995). هذه الشخصية الكارزمية المتميّزة (بإيجابياتها الكثيرة وسلبياتها، التي تكاثرت مع تقدمه في السن)، ومع أجواء الانحسار الوطني والأزمة التي ألمّت بالحركة الشيوعية العالمية، كنا نتمنى أن يقدّم لنا مراد يوسف رأيه

فيها، وهو الذي سار مع "الرفيق خالد"، ثمَّ انفصل عنه معلناً قيام "منظمات القاعدة"، ليتابع المسير في انضمامه (أو اتحاده) إلى الضفة الحزبية الأخرى المقابلة لفصيل الحزب الشيوعي بقيادة خالد بكداش، ومن ثمَّ زوجته.

خلال هذه المسيرة الطويلة لخالد بكداش، ومعه "حزبه"، واجه قبل الانقسامات، التي عصفت بالحزب، محطتين حرجتين:

- الأولى قرار هيئة الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود، وموافقة الاتحاد السوفييتي، وانشغال ذهن كل من كان يرغب في الانتساب إلى الحزب الشيوعي بمعرفة موقفه من التقسيم... ولمعرفة جلية الأمر استعان مراد يوسف، الذي صار مدرساً للغة العربية في السويداء، ويتحلق حوله مجموعة من الطلاب المتطلعين إلى الاشتراكية، بمدرس الرياضيات خليل حنا. وكان خليل حنا قد عاش تلك الفترة طالباً في الجامعة السورية، ثمَّ مدرساً في السويداء ومساهما مع سعيد حورانية في تكوين الحلقات الشيوعية الأولى. التقى مراد بخليل أكثر من مرة، ليزوّده بأسباب موافقة الاتحاد السوفييتي على التقسيم. هذا مع الإشارة أن **صوت الشعب** جريدة الحزب الشيوعي كانت ضد التقسيم، ومنادية بدولة فلسطينية يعيش فيها العرب واليهود غير الصهيونيين في دولة واحدة. والدخول في التفاصيل خارج عن نطاق هذه الخاتمة، وقد تطرق إليها كثيرون، ومنهم مصطفى أمين في ذكرياته الصادقة والمكتوبة "لوجه الله".

- المحطة الثانية تتعلق بالموقف من الجمهورية العربية المتحدة، التي أرادها الحزب الشيوعي أن تكون جمهورية عربية ذات محتوى ديمقراطي، وأرادتها قوى أخرى أن تكون جمهورية رئاسية، "الفرد" هو الحاكم المطلق فيها. وكان جمال عبد الناصر الشخصية الوطنية العربية الكارزمية، وهو الذي غزا قلوب الجماهير العربية (وكاتب هذه الأسطر منها)، المؤهل لمنصب رئاسة الجمهورية العربية المتحدة. لقد سارت الجموع العربية مهللة ومؤيدة لهذه الجمهورية، وبسبب "إشكالية" رفض الحزب الشيوعي حلَّ نفسه، ولأسباب لا مجال للدخول في تفاصيلها هنا، شنت المخابرات السلطانية[125] حملة الاعتقالات الواسعة ضد الشيوعيين ليلة 31 كانون الأول من عام 1958 ويوم 1 كانون الثاني 1959 بمباركة من "الأمريكان" للقضاء على الحزب الشيوعي، بذريعة أنه معاد

---

[125] برئاسة الضابط الوطني السراج، الذي صار وزيراً للداخلية، وبنى أسس المباحث السلطانية في سورية.

للجمهورية العربية المتحدة. في هذه الحملة، اعتُقل مراد يوسف كغيره من مئات الشيوعيين، ودخل السجن، ليخرج منه بعد ثلاث سنوات من القهر والتعذيب دون محاكمة "ولا من يحزنون".

*****

فتح المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي السوري عام 1969 الباب واسعاً أمام المشكلات المتراكمة والمنذرة بالانفجار، وقد سبق انعقاد المؤتمر أعمال تحضير واسعة سياسية وفكرية وتنظيمية، فقد أعدت اللجنة المركزية للمؤتمر ثلاث وثائق هي: النظام الداخلي للحزب، وبرنامج التدابير الاقتصادية، والبرنامج الزراعي. وكما جاء في النص الرسمي الصادر عن المؤتمر، فقد جرت مناقشة هذه الوثائق في كل منظمات الحزب مدة تتراوح بين سنة وسنة ونصف.

دلّ وضع برنامَجَيْ الحزب: برنامج التدابير الاقتصادية والبرنامج الزراعي على أن الحزب الشيوعي، رغم الاضطهاد والقمع وملاحقة أعضائه وكوادره، استطاع الوقوف على رجليه وتربية كادر تمكّن من وضع هاتين الوثيقتين الهامتين، اللتين تعالجان القضايا الاقتصادية المعقدة التي واجهتها البلاد.

عقدت اللجنة المركزية المنتَخَبة من المؤتمر الثالث دورة استمرت يومين، وجددت انتخاب خالد بكداش أميناً عاماً للحزب وانتخاب مكتب سياسي ولجنة مركزية، كان في عدادها مراد يوسف، لكن الخلافات سرعان ما دبَّت حول أفكار مشروع البرنامج السياسي نظرياً بين تيارين، وواقعياً بين ثلاثة تيارات:

- تيار الأمين العام خالد بكداش ومعه من المكتب السياسي يوسف فيصل، وكان مراد يوسف في هذه الفترة مع هذا التيار.

- تيار ما سيُعرف فيما بعد بالثلاثي، المؤلف من أعضاء المكتب السياسي دانيال نعمة وإبراهيم بكري وظهير عبد الصمد. وهؤلاء هم الذين قادوا النضال السري للحزب في الداخل أيام ما يسمى بحكم الانفصال، وفي المرحلة الأولى من حكم البعث، قبل أن تتحسن العلاقات بعد وصول اليسار البعثي إلى السلطة. "قيادة الداخل" هذه رسّخت أقدامها في صفوف الحزب الناهض بعد الضربات الأليمة، التي تلقاها على أيدي المباحث السرّاجية أيام الوحدة. وباءت بالفشل محاولات خالد بكداش (المقيم اضطرارياً في موسكو) دخول البلاد بصورة علنية، مما أفقده زمام المبادرة في قيادة الحزب، والاضطلاع عن كثب على التطورات الجارية

في سورية في أعقاب الإصلاحات الزراعية والتأميمات.

كما تحلقت حول رياض الترك مجموعة من الكوادر الشابة الوازنة الراغبة في التغيير (وضمنياً الطامحة إلى نوع من الاستقلال عن السياسة السوفييتية دون أن تكون معادية للسوفييت)، والسير لبناء حزب جماهيري عن طريق التشديد، بوتيرة أكثر عمقاً، على "القضايا القومية" من جهة، دون إغفال الجانب الاجتماعي. ويمكن القول أن أكثرية الحزب، وتحديداً قواه الحيّة المؤثرة وذات الصلة بالمجتمع، كانت مع هذا التيار (وليس مع رياض الترك كفرد).

دار الخلاف في الرأي حول الأمور الفكرية التالية: حول تقييم المرحلة التي تمر بها البلاد عام 1970، وحول التحالفات مع القوى اليسارية الأخرى داخل حكم البعث وخارجه، وحول الموقف من حركة الوحدة العربية، التي كانت الدعوة لها ما تزال في أوجها قبل التراجع المعروف، وحول الموقف من حركة المقاومة الفلسطينية ودورها في مقاومة العدوان الإسرائيلي. هذا الخلاف الفكري والسياسي لم يكن وحده سبب الانقسام داخل الحزب الشيوعي، فقد كان ثمة خلاف أشد ضراوة حول الموقف من عبادة الفرد المتمثلة في خالد بكداش، ولم يكن بالأمر السهل وقوف التيار المخالف لبكداش في الرأي والمتذمر من هيمنته المطلقة على الحزب، ولا كذلك وصوله إلى برّ السلامة.

*****

حول انقسام الحزب الشيوعي سُوّدت مئات الصفحات، وعُقدت اجتماعات لا تُحصى، وهَدَرَ "الرفاق" أوقاتاً لم تأت بثمار يانعة، بل أدّت إلى التشرذم واليأس والملل و"جلوس كثيرين في بيوتهم". الانقسامات المتتالية هي:

- عام 1972 حزبان: خالد بكداش مع يوسف فيصل، وبالمقابل المكتب السياسي: ظهيرعبد الصمد دانيال نعمة إبراهيم بكري رياض الترك وعمر قشاش.

- تحت ضغط "الرفاق السوفييت" جرت "تسوية" توحيد الحزب، وعودة الوحدة الواهية بين تيار الثلاثي (عبد الصمد - نعمة - بكري) وتيار الأمين العام خالد بكداش، وبقي رياض الترك ومعه عمر قشاش وقوى وازنة في حزب "مستقل" عُرِف باسم الحزب الشيوعي - المكتب السياسي.

- خروج مجموعة "حركة اتحاد الشيوعيين" برئاسة يوسف نمر من

تنظيم المكتب السياسي.

- تشكل "منظمات القاعدة" برئاسة مراد يوسف، بعد فصل مجموعة من أعضاء اللجنة المركزية من تنظيم خالد بكداش.

- ظهور تنظيمين شيوعيين يحملان الاسم نفسه، أحدهما يقوده يوسف فيصل، والآخر يقوده خالد بكداش بعد أن عقد بكداش مؤتمراً منفرداً لأنصاره خلافاً لرأي كامل أعضاء المكتب السياسي والأغلبية الساحقة من أعضاء اللجنة المركزية.

- اتحاد التنظيم الذي قاده يوسف فيصل والثلاثي (عبد الصمد - بكري - نعمة) وتنظيما يوسف نمر ومراد يوسف في حزب واحد هو "الحزب الشيوعي السوري الموحد".

- تشكيل قدري جميل تنظيمَيْ قاسيون ثمَّ العمل من أجل وحدة الشيوعيين عام 2000، إثر الانقسام الحاصل في جناح الحزب الشيوعي الذي قاده خالد بكداش، وبروز وصال فرحة بكداش وريثة لزوجها في قيادة ما تبقى من الحزب، ومشاركة ابنها عمار "سدة القيادة" لوراثتها، وهذا ما جرى.

هذه الانقسامات المتتالية، إضافة إلى عوامل كثيرة داخلية وخارجية، جعلت من الحزب الشيوعي المفكك الأوصال حزباً ضعيفاً مهيض الجناح. وزاد في الطين بلّة تفاقم الأزمة داخل الحزب الشيوعي وتعمق انقساماته، ضغوط الحكم البعثي، وإملاءات أجهزته الأمنية، و"كسْبها" لكوادر تقنية لها تأثيرها في الحزب الشيوعي، من خلال تسليمها "مناصب" مع "امتيازات" و"سيارات" وأمور كثيرة، كان لها دور بارز في حدوث الانقسامات وتعمُّقها.

*****

ولا بدّ هنا من الإشارة إلى العوامل الرئيسية الثلاثة في أسباب ضعف الحزب الشيوعي وغيره من قوى اليسار، وهي:

- المفاعيل التراثية، بكل ما يحمله مفهوم التراث من مضامين متنوعة ومتناقضة. هذه المفاعيل مختزنة في عقول أبناء العروبة وحملة ألوية الحضارة العربية الإسلامية المجيدة.

- التأثيرات الخارجية، وفي مقدمتها البيروقراطية الآخذة بمجامع قلوب "ختيارية" الاتحاد السوفييتي، وما تلاها من كوارث بعد انهياره مع ما كان يعرف بالمنظومة الاشتراكية، مضافاً إليها تعاظم وتيرة الهجوم الكاسح للعولمة الرأسمالية بصيغتها الإمبريالية الجديدة ومضامينها

البربرية، وليست العنجهية الصهيونية إلا إحدى وجوهها. ويلاحظ انكماش دور الحركات المناهضة لهذه العولمة في عالم الرأسمال "المنتصر".كما دخلت ذمَّة التاريخ تلك الحركات العمالية الجماهيرية، التي كانت تقف في بلدان الرأسمال إلى جانب حركات التحرر الوطني، تشدُّ من أزْرِها، وتدفع بالحركات التحررية في وجهة إنسانية. وقد رافق ذلك تصاعد دور الأصوليات الدينية من مسيحية وإسلامية ويهودية صهيونية، مما كان له أثر بالغ في عملية الهبوط الوطني والنهضوي.

- الأوضاع الداخلية العربية، وما تحمله في أنسجتها من مفاعيل اقتصادية واجتماعية وفكرية وسياسية. ونرى من عوامل الهبوط في الربع الأخير من القرن العشرين توضُّح معالم الدولة الأمنية، أو الدولة التسلطية، في عدد من بلدان العالم العربي، التي حجَّمت مؤسسات المجتمع المدني، أو جعلتها تابعاً من توابع الدولة التسلطية، تأتمر بأمرها، وتزيِّن سياستها...

ثمة أسباب رئيسية وفق رؤيتنا أسهمت في ترسيخ دعائم الدولة الأمنية العربية، وهي:

1- في الربع الأخير من القرن العشرين أخذت كفَّة الدولة الريعية تبسط سلطانها على دولة ما قبل الاقتصاد الريعي في كل من بلاد الشام والعراق ومصر، وتحل مكانها. ومع ازدياد قوة شكيمة الدولة بفضل **الريع النفطي** المتركِّز في يد الدولة[126] ، أخذت مؤسسات المجتمع المدني بالتراجع مع الهجوم الكاسح لقوى الدولة ذات السمات الريعية المحجِّمة لمؤسسات المجتمع المدني بقصد وضعها تحت مظلة "الدولة الأمنية"، التي أخذت سماتها تنتصر على سمات الدولة ذات الطبيعة الحداثية للبرجوازية الوطنية المنتجة. وبكلمة أوضح، أدى ازدهار الدولة الريعية النفطية إلى ترسّخ أقدام الدولة الشمولية... الدولة الاستبدادية. ألم يُصدر عام 1937 الماركسي اللبناني يوسف إبراهيم يزبك، أحد مؤسسي الحزب الشيوعي، كتاباً بعنوان "النفط مستعبد الشعوب"؟!!!

لم يؤدِّ الريع النفطي إلى ازدياد شكيمة الدولة التسلطية فحسب، بل قاد أيضاً إلى ترسيخ دعائم التيارات الدينية المتزمتة والمتحجرة

---

126) الريع في الأصل هو الدخل الذي يحصل عليه المالك، الذي أجّر أرضه الزراعية، ثمّ تطور ليشمل كل دخل لا يأتي نتيجة عمل، وإنما نتيجة توظيف الرأسمال أو تأجيره أو إقراضه. والاقتصاد الريعي هو الذي يقوم على إنفاق العائدات المالية من تصدير النفط.

والمنغلقة على نفسها، بفضل ما وصل إلى صناديقها من "أموال نفطية" "بترودولارية"، بنتْ بفضلها مؤسسات متنوعة الأشكال والألوان، مما جعلها "دولة داخل الدولة". وجاء التقدم التقاني وظهور المحطات الفضائية واستخدام تلك التيارات لها، ليُحَجِّم دور التفكير العقلاني، ويضعف التيارات الدينية المستنيرة، التي لا تملك "البترودولار". وبالمقابل، أخذت تيارات الإسلام السياسي المتطرف والمُتخم "بنعم" الدولار النفطي تشق الطريق محتلّة أفئدة أعداد كبيرة...

2- "القطاع العام" أو بالأصح **"قطاع الدولة"** قام في كل من مصر وسورية والعراق على ركيزتين: "تأميم الرأسمال" الكبير وإدارة الدولة لمؤسساته من جهة، وقيام الدولة بتشييد مشاريع صناعية وخدماتية بفضل أموال النفط. وقد ساعد هذا القطاع الفئات الاجتماعية الفقيرة والمتوسطة على تحسين أوضاعها، إلا أنه من جهة أخرى أمسى بقرة حلوب للفئات الحاكمة، التي اغتنت بفضله وبفضل "الدولار النفطي" المتدفق على هذه الدول، بدءاً من سبعينيات القرن العشرين. وقد أدت هذه الظاهرة إلى احتلال هذه الفئات البيروقراطية والطفيلية مراكز الصدارة في المجتمع، ومكّنتها من الهيمنة على الفئات العمالية وتسييرها وفق مصالحها، مقدمة لمتزعميها ما تيسّر من فتات "المائدة النفطية".

3- جرى الأمر نفسه بالنسبة إلى أكثرية المثقفين، الذين تحوّلوا إلى مثقفي السلطان يتغنون بفضائله. أما ما تبقى من المثقفين، فكان مصيرهم خلاصة ما كتبه النهضوي الدمشقي صلاح الدين القاسمي في جريدة **المقتبس** عام 1909: لم يبق أمام المخلصين إلا الصمت أو مغادرة البلاد...[127] وهكذا خسر اليسار، وعلى رأسه الحزب الشيوعي، القاعدة الشعبية، التي كان يستند إليها، مما دفع بعض قيادته إلى السير في ركاب من بيدهم الجاه والسلطان والمال ومفاتيح السجون. ومَنْ احتجَّ، ورفع الصوت عالياً من تيارات الحركة الشيوعية وغيرها من أجنحة اليسار، كان مصيره معروفاً لدى القاصي والداني.

*****

[127]) ما كتبه القاسمي حرفياً في المقتبس بتاريخ 19 حزيران 1909 هو التالي: "العامة حُرمت بسبب الجاهلين مما أحلّ الله من العناية بضروب العلوم الرياضية والكونية، حتى الدينية كالتفسير والحديث". و"العامي لا مذهب له، وإنما مذهبه قول مفتيه في الضغط الفكري على العلماء، واضطرار هؤلاء لاتخاذ التقية شعاراً في أغلب الأحايين... ولكم كتم العالم ما يجول في خاطره من الحقائق العلمية، وشُرّد الآخرون إلى بلاد نائية".

وهكذا تدفقت الثروات إلى جيوب البيروقراطية الحاكمة وحليفتها البرجوازية الطفيلية، وأصبحت أرصدة هذه الفئات في البنوك وما امتلكته من عقارات مبالغ أسطورية، حسب ما تتناقله ألسنة الناس في هذه البلدان. ومن هنا نفهم كيف أخذت دول من بلاد الشام والعراق ومصر، تسير بسرعة مذهلة نحو دول ذات سمات تسلطية، في وقت فقدت فيه هذه الدول ما كانت تكتنزه من سمات الدولة الليبرالية الحداثية، فالبرجوازية المحلية المنتجة والفئات الوسطى المتنورة كانت الحامل الاجتماعي للدولة الليبرالية، التي ترعرعت بين ظهرانيها مؤسسات المجتمع المدني، وما رافقها من قوانين وضعية وأجواء علمانية منفتحة. ومع سيادة "البرجوازيات" البيروقراطية والطفيلية، وتقلّص دور الفئات الوسطى، تلاشت طبيعة الدولة الوطنية الليبرالية بفضل هذه الظاهرة من جهة، وتحت وطأة الأحداث الداخلية والخارجية من جهة أخرى. وبكلمة مختصرة أسهم "القطاع العام"، قطاع الدولة، بدور كبير في ترسيخ دعائم الدولة الأمنية، وفي سحب البساط من تحت أقدام اليسار، الذي ألقيت على كواهله مسؤولية فشل القطاع العام.

ونتيجة العوامل المذكورة أعلاه، يلاحظ في الربع الأخير من القرن العشرين استشراء الظواهر التالية:

- طوائف المجتمع الأهلي تسعى لاختراق الدولة والسيطرة على ما تستطيع من أجهزتها.
- عشائر المجتمع الأهلي ترسل أفرادها لتسنُم المناصب الرفيعة في أجهزة الحكم.
- الدولة الأمنية المختَرَقة من رجال الطوائف والعشائر تقوم بالمقابل بالاستفادة من تلك العشائر والطوائف للسيطرة على مؤسسات المجتمع المدني، وتُسيِّرُها وفق مصالحها، أو بالأصح مصالح المسيِّرين للدولة الأمنية وجيوبهم.

ذات مرة دُعيت من اللجنة المنطقية للحزب الشيوعي السوري الموحد لإلقاء كلمة في شبه ندوة، (سُمِح بها) في المركز الثقافي العربي بدمشق. تكلم أولاً باسم الحزب الشيوعي مراد يوسف، ولفت نظري أنه كان حذراً في تعابيره وفي الحديث عن "الجبهة الوطنية التقدمية"، وارتحت لكلمته، فهو ممثل الحزب، وعليه أن يراعي الظروف السائدة. وجاء دوري، فتحدثت بمحتوى ما ذكرته قبل قليل، ساعياً إلى إيصال ما أريد، مع الحذر لفظاً وأسلوباً لعدم تجاوز الخطوط الحمراء، كي لا أحرج

الداعين إلى الندوة أولاً، وكي لا أسبب متاعب لي لها أول وليس لها آخر.
وكنت أثناء الحديث أرمق مراد يوسف بطرف عيني، فلاحظت علامات السرور بادية على محياه، فاشتدت عزيمتي...[128]

(3)
مقتطفات من كلام مراد يوسف في الشريط المسجل من بيت مؤمن إلى مدرسة شرعية أشعلت في نفسه تحوّلات جذرية
نتيجة ما عاشه فيها من تناقضات

حسب اجتهادنا ونظرتنا التاريخية، تدل المقتطفات، ومجمل ما ورد في الشريط المسجل بمبادرة خالد نعمة، أنَّ سير مراد يوسف في اتجاه النهضة والتنوير الإسلامي والتجديد، لم يستند فيه على ما كتبه رجال التنوير الديني، بل كان "سيراً على بركة الله"، وعلى الفطرة المقترنة بحياة الطفولة النقية والغريزة الإنسانية الصافية. ولهذا كان ما سلكه مراد، كما ورد في شريط ذكرياته، يتوافق مع طروحات أعلام التنوير الديني، دون أن يكون على معرفة بما نادوا به. وهذه الظاهرة ليست نادرة في التاريخ، وتدخل في باب ما يُعرف بتوارد الأفكار والاكتشافات من علماء كثيرين، دون أن يعرف بعضهم بعضاً.

وسننقل مقاطع مما ورد على لسان مراد في الباب الأول ومقارنته، أو بالأصح معاينة اتساقه مع حركة التجديد والتنوير الإسلامي أولاً، ثم انتقاله ثانياً إلى جبهة المنادين بالتحرر الاجتماعي، متبعاً خطا من سبقوه إلى الحركة الشيوعية (أو الدعوة إلى الاشتراكية) دون أن يكون على علم بهم، كما نقدّر.

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن الصعود النهضوي، الذي وعاه مراد يوسف في منتصف القرن العشرين، ارتكزت منطلقاته الفكرية على الأمور التالية: العقلانية، الوطنية، التجديد الديني الإسلامي، العلمانية (لدى بعض أجنحة النهضة)، الحداثة والتحديث، الديمقراطية، الدولة الحديثة،

---

[128] مع الأسف لم تُتح لي الظروف الالتقاء بمراد يوسف لمحاورته في هذه القضايا ومعرفة رأيه، أو الظروف التي دفعته إلى هذا الخط أو ذاك.

مواطنون لا رعايا ...

فالنهضة مرتبطة إذن بثلاثة مظاهر: اكتساب المعارف والتقنيات، والانتقال من الحِرَف إلى الثورة الصناعية ومن الإقطاعية إلى الثورة البرجوازية، وتأتي لاحقا قضية "الحلم الاشتراكي"، الذي حلّق مراد يوسف كغيره في سمائه.

نقتطف من الباب الأول المتضمن تسجيل بعض ذكريات مراد يوسف المقاطع التالية:

"... بيتنا كان بيتاً مؤمناً، فالوالد مؤمن، والوالدة ابنة شيخ، وأبوها كان حداداً ماهراً... وقد علّم جدي الأولاد والبنات القرآن، وافتتح الكتاتيب دون مقابل، وتعلّمت أمي القرآن لدى أبيها، وقرأته قراءة عادية، وعرفت السُوَر، فقد كانت تفك الحرف فقط، لأنها لم تتعلم في المدرسة، وكانت تستطيع القراءة في الجريدة، وتحديداً العناوين الكبيرة، لكنها كانت تتكلم العربية بضعف...".

"... وفيما يتعلّق بالإسلام، فإن والديّ كانا مؤمنين، وكان يوجد في العائلة علماء دين، فأبو جدي زكريا، أي جد والدي، كان يكنى في الجولان بالحافظ. وعموماً، فإن كل الأساطير الموجودة لدى اليونانيين موجودة أيضاً لدى الشراكس، لكن بقوالب وتسميات أخرى...".



في منزل العائلة سبعينات القرن العشرين، من اليمين: رفعت (الشقيق الأصغر)، زهرة (والدة مراد)، خالدية (زوجة رفعت)، في الخلف وفيقة شاكوج.

"... الفكر الذي عشته في البيت وفي بيتنا كان الفكر الديني، لكنه الفكر الديني الإيماني الصافي الأخلاقي الإنساني، الذي يسوده التعاون

والتسامح والمساعدة وتجنب الشرور وتجنب المفاسد. كان هذا هو دين الأهل ودين الذين كانوا حولنا، وكان هذا سائداً على نحو كامل في البيت...".

بعد أن نال مراد الشهادة الابتدائية (شهادة السرتفيكا) أوائل صيف 1942، لم يكن بإمكانه متابعة دراسته في دمشق بسبب فقر أهله، ولهذا لجأ إلى الكلية الشرعية بدمشق. حول هذه المدرسة الشرعية قال مراد:

"... الكلية الشرعية بدمشق هي مدرسة دينية، يعلّمون فيها الدين، ويتخرج فيها علماء دين يدرسون المرحلتين الإعدادية والثانوية،... إن الدراسة فيها مجانية، وفيها مبيت، وإن السكن والأكل مؤمنان، ويعطون فيها التلميذ حتى الكتب والدفاتر...".

فَرِحَ والداه بدخوله الكلية الشرعية، وكانا يريدانه أن يصبح شيخاً وعالماً، وعن نفسه قال مراد:

".. وأنا حقيقة كنت فرحاً ومبسوطاً، وهذا كان منسجماً مع نفسيتي، فقد كنت آنذاك أصلي وأصوم، وكان إيماني مثل إيمان أمي وأبي، والدين بالنسبة إلينا كان يعني التسامح وحب الآخرين ومساعدتهم وحب الخير وكره الشر والظلم. وبالمناسبة، كان في بيتنا كره شديد لكل شيء فيه ظلم...".

"... وكنت مسروراً لدخولي الكلية الشرعية، وتابعت الدراسة الدينية بحماسة في الصفين السادس والسابع وبانسجام في المدرسة. وتكوَّن لديَّ أصحاب وأصدقاء من المحافظات، إذ كان هناك تلاميذ من ريف دمشق ودمشق نفسها ومن حمص وحماة وحلب ودير الزور والبوكمال. كانت هذه مرحلة جديدة. وفي الصف الثامن تقريباً، بدأت تحولات يمكن القول عنها إنها فكرية، فقد بدأ فكري يتوسع، فأنا خرجت من شبه ضيعة، وأتيت إلى دمشق ورأيتها، ودخلت السينما، وكنت أذهب إلى السينما والتكية السليمانية وملعب الحشيش، الذي كان يوجد في منطقة معرض دمشق القديم، والذي سمّي لاحقاً بالملعب البلدي، فأشاهد فيه مباريات كرة القدم... هنا بدأت حياة جديدة تماماً مختلفة، ففي داخل المدرسة جرى تغيير فكري كبير فيما يتعلق بمسألة الإيمان والدين، وأفكاري تبدلت تبدلاً جذرياً باتجاه الابتعاد عن الدين كلياً، رغم أنني كنت أدرس في كلية شرعية بوجود مشايخ وعلماء أكثريتهم يضعون حطات بيضاء، وبعضهم لفات صفراء، ويرتدون جبات. وكنا ملزمين بارتداء اللباس الرسمي في المدرسة وبوضع لفة على الرأس...".

وبعد ذلك انتقل تلميذ الكلية الشرعية للحديث عن أسباب نفوره من المتظاهرين بالدين، أو ما يمكن أن نُطلق عليه "التديُّن الاستعراضي"، على النحو التالي:

"... السنتان الأولى والثانية، أي الصفان السادس والسابع، مرّتا تقريباً مروراً عادياً، وإن كانت قد ظهرت فيهما البدايات والأسباب التي أنزعج منها، والمؤدية إلى ابتعادي عن الدين. إنها تعامل المشايخ، سواء كانوا بعض المدرسين أم بعض الناظرين وغيرهم. بمعنى أنني كنت أنزعج من تعاملهم المتكبر الفوقي... كثيراً ما كان يقال لي وللتلاميذ: ها قد أتى الشيخ، فاذهبوا وقبلوا يده، وأنا لم أكن أفعل ذلك. هذه كانت أول الأمور التي شغلت ذهني، أما الأمر الثاني فكان سوء تعامل بعض المدرسين، وأنا لا أريد أن أقول تعامل كل المدرسين، لأن بعضهم كان مستقيماً وجيداً والبعض الآخر فظاً وجلفاً...".

"... الظاهرة الثانية التي أزعجتني بعد تقبيل اليد هي الجشع لدى تناول الطعام في هذه المدرسة الداخلية، إذ كان هناك تهافت كثير على الأكل عند صغار الموظفين، أو عند قسم من التلاميذ، الذين أظهروا جشعاً وحب الاستئثار بالأحسن والأفضل، هذه الأشياء أزعجتني وكرَّهتني، وحتى صدمتني. وجاءت تعاملات الناس التمييزية، فالأساتذة كانوا يميزون بين الذين يأتون لهم بهدايا، ويقبلون أيديهم ويسايرونهم ويتملقونهم، وبين الذين لا يفعلون ذلك. يعني كان هناك نفاق وكذب وعدم مصداقية وتمييز بين الناس وممارسة الغبن والظلم، وهذه أشياء بدأت ألمسها في واقع المدرسة. يعني كان هناك فصام بين التسامح الإنساني والأخلاقي والديني، وبين التصرفات والممارسات المسلكية، بدءاً من: التعامل بالسلام، وصولاً إلى العلامات والنجاح والرعاية والاهتمام بالتلميذ لأسباب مصلحية، وهي أسباب صغيرة أحياناً، ومرتبطة أحياناً بأبناء العائلات إن كانوا يعرفونها أو لا، ثم إن بعض التلاميذ من المحافظات كانوا يصلون دون وضوء، ويتملقون المشايخ والمدرسين وما شابه ذلك، وينجحون، ويأخذون علامات...".

"... لمجمل هذه الأسباب، ومنها أنهم كانوا يخبئون الأكل، كأن يحتفظوا لأحد الناظرين بعشر بيضات، كانت تحدث النكت، فقد كنا نتظاهر بالنوم عندما ندخل إلى المهاجع كي ننام، وكان هذا الناظر، الذي يضع لفة (لام ألف)، يأتي لينادي على نادل المطعم بالقول: (أين بيضاتي؟)، فيبدأ التلاميذ ضحكهم المكبوت...".

"... هذه الحالة مع التدين والإيمان الصافي والنقي والمساعدة والتسامح والمحبة بين الناس ومساعدة الآخرين شكلت مفهومي للدين. كنت متديناً جداً، وأتيت إلى دمشق، وفيها تكرست لديَّ المفاهيم الوطنية من خلال المدرسة والمظاهرات الطلابية، التي كانت تقوم ويدعوننا للمشاركة فيها، وفيها كنا نسمع شعارات: (ليسقط الاستعمار الفرنسي)، ونشاهد إغلاق الأسواق والإضرابات والاصطدامات مع الجنود السنغاليين والقوات الفرنسية في الشوارع...".

"... وبعد ذلك سافرت إلى مصر في تلك الحالة التي ابتعدت فيها عن الدين، ليس بالمفهوم الإلحادي، بل بمفهوم ترك العبادات، فقد كنت أصلي وأصوم دائماً، لكنني تركتهما بالتدريج خلال هذه السنوات الأربع في المدرسة الشرعية، نتيجة مشاهدتي لطلاب يضعون العمائم ويصلون دون وضوء...".

"... وهكذا فإن ابتعادي عن الدين في المدرسة جاء نتيجة النِفاق والتزلّف، اللذين كانا يحدثان فيها، ونتيجة العلاقات التي كانت قائمة بين المعلمين والموجهين والتلاميذ، وحتى ما بين التلاميذ أنفسهم. كنت ألاحظ كيف يستخدم الدين لمصالح شخصية، وكيف أن بعض الأشخاص يتظاهرون بالتدين: يُقبّلون يد الشيخ، ويتزلفون له، ويصلون خلفه كي يراعيهم ويحبهم. هذه الأمور كلها أدت إلى رد فعل لاشعوري تطور شيئاً فشيئاً حتى الصف الثامن، فتركت المظاهر الدينية، وإن كان الإيمان بالمعنى الإنساني لم يتغير، فقد وجدت أن الدين لم يعد وسيلة للتعاون بين الناس، بمقدار ما كان يستخدم وسيلة للتزلف...".

لم يكن جميع الطلاب والمدرسين والناظرين[129] كلهم في المستوى نفسه، بل كما ذكر مراد "كان بين الناظرين أناس طيبون وجيدون، ومنهم الشيخ صلاح الزعيم أخو حسني الزعيم، وكان من المحبوبين كثيراً لديَّ، فقد كان متواضعاً ومتقشفاً وعفيفاً، كان يأكل قليلاً، ولا يطلب مخصصات إضافية. كانت الصلاة تؤدى في الساحة على حُصُر ممدودة. وبعد العشاء كنا ندخل إلى غرفة المطالعة، وكان هو يتمدد على الحصيرة هناك للمحافظة على هدوئنا، دون أن يكون عليها مخدة، وكان لا يطلب من أي أحد أن يأتيه بشيء، فسألناه يوماً: يا أستاذنا، يا شيخ صلاح أنت تنام أو

---

[129] هم المشرفون عن الطلاب في غير أوقات الدرس.

تتمدد هكذا على حصير رطب، فهل نأتيك بشيء؟ فأجابنا: قال عمر بن الخطاب (اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم)، يا أبنائي على المرء على ألا يعوّد نفسه عليها. لقد كانت معاملته جيدة، وكان حازماً وعادلاً، وكان منصفاً بين التلاميذ، ولا يميز بينهم. لذلك فمجمل هذه الأشياء التي رأيتها بالتعامل بين بعضهم ومع الآخرين، ودون وعي، وشيئاً فشيئاً وجدت نفسي أبتعد عن الدين. ولم أعد أواظب على الصلاة أو أهتم بها".

وتجدر الإشارة هنا إلى موقف وسلوك الشيخ صلاح الزعيم، فهذا الشيخ الشعبي المتواضع أصبح - وهذا أمر جهله مراد حينها - عام 1949 عضواً في اللجنة الوطنية لأنصار السلام في سورية، التي كان المحامي الدكتور مصطفى أمين أشبه بأمين سرها والمشرف على جريدتها السلام، والتي كان وجهها البارز الشيخ محمد الأشمر أحد قادة ثورة 1925. والشيخ الأشمر ابن حي الميدان بدمشق كان معروفاً في سائر أنحاء بلاد الشام بشجاعته ونخوته ونُصرته للمظلوم، ومضافته في حي الميدان كانت مفتوحة للجميع، بدليل أن فلاحين من كفر سجنة والهبيط التجؤوا عام 1937 إلى الشيخ الأشمر مطالبين بإنصافهم[130].

---

[130] في 27 آذار 1937 وجه عدد من فلاحي قريتي كفر سجنة والهبيط من قرى قضاء معرة النعمان رسالة إلى النائب الوطني الشعبي فخري البارودي، بث الفلاحون فيها ظلامتهم إلى النائب البارودي المعروف بمواقفه الوطنية الجريئة وبوقوفه، رغم منبته الإقطاعي وأجوانه البرجوازية، إلى جانب الطبقات الشعبية والسير أحياناً في تيار مطالبها العادلة. وهذا هو السبب، الذي دفع فلاحي قريتي كفر سجنة والهبيط للكتابة إلى البارودي، رئيس المكتب العربي للإعلام، والنائب في المجلس النيابي، الذي كوّن إحدى حلقات الاتصال داخل التحالف الوطني قبل 1945 بين الطبقات العليا المعادية لبعض جوانب الاستعمار والفئات الدنيا العدو الرئيسي له. جاء في رسالة الفلاحين إلى البارودي: "... اننا منذ جيل، متصرفون بقطع اراضي معلومة بقريتي الهبيط وكفر سجنة من اعمال قضاء معرة النعمان ابا عن جد، كما هو مسجل في السجل العقاري، ونملك بيوت القريتين وآبارها...". وفي جلسة المجلس النيابي في 11 أيار 1937، تليت ضمن مطالب الشعب مضبطة من فلاحي الهبيط وكفر سجنة... بعد ان شعر الفلاحون انه لا فائدة من تسطير عرائض الاحتجاج، شكلوا وفداً الى دمشق، قابل عدداً من رجالات الكتلة الوطنية والشخصيات الشعبية. وفي الهبيط التقى عبد الله حنا كاتب هذه الحاشية في 1984/8/25 الفلاح محمد الحماد (حمادو) احد الموقعين على الرسالة الموجهة إلى فخري البارودي، وكان عمره نحو التسعين. في بداية الحديث كان الفلاح المسن حذراً من اللقاء، مشتت الذهن متحفظاً، فتجارب الايام علمته الكثير... وبدأ يتحدث عن تاريخ الهبيط، واستعاد من ذاكرته ما جرى للوفد الفلاحي الذي أمّ دمشق عام 1937، ونحن هنا ننقل كلامه حرفياً:

"... قدّمنا عريضة إلى هاشم بك الأتاسي، فقال: بعد ثلاثة أيام نتكلم في الكتلة...".

"... جميل مردم بك قال لنا: إذا أنا وزّعت ضياع بيت مردم على الفلاحين، فسيوزع عليكم ابن العظم ضيعته...".

"... سعد الله الجابري قال لنا: قتلتم مصطفى بك، وتريدون أن تقتلوا ناصح بك...".

بسبب إغلاق المدارس في أيار 1945، مع تصاعد المقاومة الوطنية المطالبة بجلاء جيوش الاستعمار الفرنسي عن سورية، انقطع مراد يوسف عن الدراسة، ليقيم في القنيطرة سنة ونصف. وجاء الفرج بإمكان قبول مراد طالباً في الأزهر، حيث الدراسة والمنامة والكتب مجانية، إضافةً إلى خرجية شهرية مقدارها جنيهان أو ثلاثة، وهي تكفي للطعام والمصروف... يقول مراد:

"... وسافرت إلى مصر في تشرين الثاني 1946. وكانت كل رغبتي في أن أصبح شيخاً، مع أنني لم أكن أرى أن ذلك هو المخرج المناسب للحياة... كانت حياتنا حياة طلبة، ولم يكن الأزهر مثل الكلية الشرعية في دمشق، فهو لم يكن فقط جامعة دينية إسلامية، والعقول لم تكن جامدة مثلما رأيت في دمشق، فحتى الأستاذ الذي يلبس الحطة والجلباب كان يمزح وينكت ويروي القصص، ومع ذلك كان يعطي الدرس كما يجب ويذهب. هناك قضيت سنة تحضيرية، وانتسبت إلى كلية اللغة العربية، وكان يوجد هناك آنذاك ثلاث كليات هي: كلية أصول الدين، وكلية الشريعة، وكلية اللغة العربية... وكانت الفوارق الطبقية في مصر أكثر وضوحاً مما كانت عليه في دمشق أو القنيطرة، وكانت فاقعة جداً... أما بالنسبة إلى المعتقدات الإيمانية والدينية، فقد كان يوجد جو ديني في الأزهر، إلا أنه كان جواً متحرراً. مثلاً في كلية أصول الدين، وهي إحدى الكليات الثلاثة التي كانت تشكل جامعة الأزهر، كان المرء يدرس منشأ الديانات وتطورها وأصول الدين الاسلامي، وكيف أنه امتداد للديانات القديمة وما الجديد فيه، لذلك فإن طلاب الأزهر ذاتهم كانوا يقولون إن هذه الكلية تخرّج ملحدين، ولهذا السبب لم يكن هناك جو متزمت طاغ، فمع وجود الجو الديني كان هناك حرية في النقاش حتى مع الأساتذة داخل

"... حكيت لمدها. الأشمر قصتنا، فسأل: كم واحد عندكم؟ أجبت: 300 زلمة، فقال: أنا سأعطيكم بواريد وغرانات، اذهبوا واقتلوه...".

رواية الفلاح المسن حمد الحماد عضو وفد فلاحي الهبيط إلى دمشق عام 1937 محتجاً على أعمال ناصح مصطفى بك العظم تعبّر، إضافة إلى صدقها واتساقها مع الأحداث، عن مضمون اجتماعي عميق، وتعرّي المواقف الطبقية لـ"رجال الوطنية" من كبار ملاك الأرض الإقطاعيين، وتبيّن من جهة أخرى أن موقف الأشمر هو الموقف الشعبي، المرشد حسب رأيه إلى الطريق الأساسي، للتحرر من الإقطاعية. لكن الظروف جميعها آنذاك لم تكن متوفرة للقيام بانتفاضة فلاحية مسلحة. ومع ذلك، فإنهم قاموا وتحركوا، وبدلاً من أن يحملوا البندقية التي لا يملكونها، حملوا المذراة والفأس، وثاروا ضمن الظروف الموضوعية التي عاشوا فيها. انظر التفاصيل الوافية عن ذلك في كتابنا الموعود (**تاريخ الفلاحين، المجلد الثالث**).

الكلية، وكانت النقاشات تجري حول الدين وصحته ودوره وصولاً حتى إلى المسائل الإلحادية، ورغم أن الأساتذة لم يكونوا يأخذون بهذه المسائل إلا أن بعضهم كان يناقشها...".

بعد تخرج مراد من الأزهر عاد إلى بلده، وقام بتدريس اللغة العربية والديانة في المعهد العربي الإسلامي. يذكر مراد: "... نبهني المدير أكثر من مرة إلى أنني أعطي دروس الديانة، لذلك من الضروري أن أصلي بالطلاب في الجامع داخل المدرسة بعد كل أذان، وقد أجبته إن وظيفتي هي تدريس الديانة لا أن أئم الطلاب، ولذلك حدث جفاء بيني وبينه...".

(4)
من الوسط الديني إلى الشيوعية في منتصف القرن العشرين[131]

1- بعض رجال دين في بلدة الباب يقفون مع الحركة الشيوعية[132]

الباب مدينة صغيرة نسبياً، تقع شمال شرق حلب، يعتمد سكانها في حياتهم على الزراعة وتربية الماشية، إضافةً إلى عدد من الحرفيين، الذين يلبون حاجات الإنتاج تلك، وفيها عدد غير قليل من التجار، الذين يتطفلون على إنتاج الفلاح ويتحكمون به.

يسود المدينة جو عشائري حاد، وأهل المدينة محافظون جداً، وهم يحمدون الله على الصحة ودين الإسلام والسكن في الباب. ولقد عانوا شدة الفقر والتخلف أيام الاستعمارين العثماني والفرنسي. وفي الثلاثينيات، لم يكن في الباب سوى مدرسة ابتدائية واحدة، وكان معظم الناس يتعلمون قراءة القرآن عند حفظته من أصحاب الكتاتيب.

كان الواقع الطبقي المتخفي في الأطر العشائرية والدينية يدفع

---

131) في أواخر القرن العشرين جرى الانتقال العكسي من الشيوعية واليسار إلى الدين بدرجاته المتعددة في التزمت.

132) بمناسبة الذكرى الستين لقيام الحزب الشيوعي، نشر الأستاذ محمود الوهب، في مجلة **دراسات اشتراكية**، تشرين الأول وتشرين الثاني 1984، مقالة بعنوان: "صور وحكايا نضالية من تاريخ منطقة حلب – مدينة الباب". وقد رأينا تغيير العنوان ليناسب موضوع خاتمتنا، مع المحافظة على حرفية النص ومحتواه.

بعض الناس، ومن بينهم رجال دين متنورون، للبحث في طبيعة العلاقات الاجتماعية القائمة وفي أساس الظلم المخيم، خصوصاً في ظل ما كانوا يرونه أيام الاستعمار الفرنسي من تسلط ونهب واعتداء على الحرمات والأرواح. وكان هؤلاء البعض يرفضون تلك الوقائع، ويرفضون أن تكون التعاليم الإسلامية غطاءً له، وكانوا يتطلعون إلى نظام عادل يزيح سياط الظلم عن عشرات الألوف من فقراء الشعب. ولقد حدثت بعض المصادمات الفردية مع الضباط الفرنسيين، وكذلك بعض المواجهات مع رجال الدين الرجعيين أثناء فضهم لبعض المشكلات الاجتماعية. ويمكن القول أن التطلعات الوطنية والتقدمية كانت تعبّر عن نفسها على نحو عفوي، وهذا يؤكد أن المناخ العام كان مواتياً لتقبل الفكر التقدمي.

ليست هناك معلومات دقيقة عن كيفية دخول الأفكار الشيوعية الأولى إلى تلك المدينة، ولكن جميع الشيوعيين القدامى المتبقين على قيد الحياة يؤكدون أن الأفكار الأولى وردت عبر بعض رجال الدين المتنورين، الذين حملوا بطريقة ما بيانات الحزب الشيوعي السوري وصحفه وكراريسه، التي كانت توزع في حلب، وكان ذلك في النصف الثاني من الثلاثينيات بين عامَيْ 1937 و1938، إن لم يكن قبل ذلك[133].

ومن الشيوعيين الأوائل نذكر: الشيخ محمد القنبر[134]، الشيخ طاهر الحمشو صاحب دكان سمانة، الشيخ أحمد الشيخ قدور عمل في الزراعة وتربية المواشي، والشيخ علي رسلان[135]، وغيرهم. وكان إلى جانبهم الشاعر مصطفى البدوي[136]، الذي كان يعمل حداداً، ثم عُيّن معلم حرفة في المعهد الصناعي بحلب، والموظف الصغير رشيد الأيوب وبشير السعيد الذي عمل جابياً في بلدية الباب، وعبد الوهاب شهاب وهو صاحب

---

133) عندما قرأ مؤلف هذا الكتاب ما كتبه محمود الوهب، قدّر أن في الأمر مبالغة، ولكن ما رواه النقابي الشيوعي انذاك سعيد السواس، المسؤول عن منظمة حلب، من أن 15 شيوعياً من الباب أتوا عام 1937 إلى مكتب الحزب في حلب، وقد وجههم أحد قبضايات الحزب الشيوعي إلى مكتب الحزب السوري القومي لأكل الكاتو وشرب الشاي، وهناك اصطدموا مع القوميين السوريين، وجرت مشاجرة وتدخلت الشرطة، وهذا يثبت ما ذكره الوهب.

134) الشيخ محمد القنبر تلقى علومه الدينية في مدرسة دينية، كان يشرف عليها واحد من آل حمدان. والشيخ محمد كان يعمل بتجارة الأخشاب، وكان معظمها يقتطع من ضفاف نهر الساجور، الذي يصب في الفرات، وقد جف الآن.

135) لا توجد معلومات دقيقة عن عمله، لكن عمله الأخير كان في شركة النفط البريطانية.

136) لمصطفى البدوي أربعة دواوين شعر، وهو شخصية محبوبة كان لها حضورها في الوسط الأدبي، وكان أمياً علّم نفسه بنفسه.

صاحب أملاك من آل الشهابي[137].

ويروى أن الشيخ محمد القنبر الشخصية الشعبية الشيوعية كان قد لعب دوراً بارزاً في تحريض الجماهير الفقيرة، ودعوتها للانتساب إلى الحزب الشيوعي، وقد كسب للحزب فيما كسب عدداً من رجال الدين، وكان يدعو إلى نزع الخيالات والأوهام من الأذهان، وقد رفض التكسّب عن طريق كتابة التمائم والتعويذات، التي كانت تقوم مقام الطبيب في الأوساط الشعبية. كما يذكر من التقيت بهم على أن رشيد الأيوب قام بدور تنظيمي وتثقيفي، وقاد المنظمة طيلة الأربعينيات، يساعده في ذلك الدكتور فهيم لاوند[138] وبعض الرفاق الذين يأتون من حلب، ومنهم عبد الجليل سيريس[139].

2- ظهير عبد الصمد من النشأة الدينية إلى الحزب الشيوعي نموذج متقدم لمراد يوسف

إن النشأة الدينية لظهير عبد الصمد، ووعيه الذي امتد إلى أعماق التاريخ العربي والإسلامي، قاداه وهو الفتى، إلى دراسة النظرية الماركسية وقراءتها قراءة الباحث، الذي يفتش عن الحقيقة، ليس بالانفصال عن التاريخ، وليس بالانغلاق القومي، بل بتتبع المدى التاريخي لكل ما جاد به التراث العربي والإسلامي والعالمي من فكر تقدمي ينشد العدل والمساواة بين الناس، ويوضح السبيل إلى ذلك[140].

عندما أوفدت قيادة الحزب الشيوعي ظهير عبد الصمد إلى المدرسة الحزبية في موسكو عام 1966 (تقريباً)، كانت مفاجأة لعدد من

---

[137] عبد الوهاب شهاب معروف بعبدو أفندي، ولقب الأفندي كان معروفاً في تلك الأيام. واشتهر بذكائه الحاد، وتمرده على المجتمع الذي هو فيه، وكان على صداقة مع رشيد الأيوب. وكان في الأربعينيات يذهب أحياناً إلى لبنان برفقة الأيوب، وليس معروفاً إن كان يلتقي بأحد الشيوعيين هناك.

[138] فهيم لاوند طبيب حلبي، أرسله الحزب ليفتتح عيادة في الباب، وليساعد "الرفاق" هناك، وقد افتتح عيادته في عام 1949 في منزل الشيخ محمد القنبر لمدة أربعة أشهر تقريباً، ثم استأجر عيادة مستقلة. وكان يعامل الناس معاملة حسنة، ويعالج معظمهم مجاناً، وخصوصاً الفقراء، فأحبه الناس كثيراً، وكان دعماً للشيوعيين آنذاك.

[139] كان سيريس مسؤول منظمة حلب في أربعينيات القرن العشرين.

[140] هذا ما كتبه الشيوعي ماهر الجاجة بمناسبة مرور عام على وفاة ظهير تحت عنوان: "عام مضى على رحيل مناضل وقائد شيوعي كبير". انظر جريدة النور، 4 كانون الأول 2002.

طلاب الجامعة الشيوعيين السوريين[141]) أن ظهيراً اختار المفكر الإسلامي الجزائري عبد الحميد بن باديس موضوعاً لأطروحته[142]).

لم يكن اختيار الشيوعي ظهير عبد الصمد ذو النشأة الإسلامية لابن باديس محض مصادفة أو ترفاً فكرياً وبحثاً أكاديمياً، بل كان هدف ظهير اكتشاف هذا النهضوي الإسلامي، والاستفادة من منطلقاته التنويرية للوصول إلى ثلاثة أهداف:

- فهم الحركة الإسلامية النهضوية في المغرب العربي، ومقارنتها مع شقيقتها في المشرق العربي.

- الاستناد إلى منطلقات بن باديس للرد على التيارات الإسلامية المتزمتة والمنغلقة على نفسها، والتي اكتوى ظهير بنارها عندما انضم إلى الفكر الماركسي مع عدد من طلاب المدارس الشرعية في حمص.

- طموح ظهير من خلال دراسته لابن باديس، وبالتالي للإسلام النهضوي، لتلقيح الحزب الشيوعي بأفكار إسلامية تنويرية، يمكنها أن تجذب بعض الجماهير المتدينة الواعية باتجاه الحزب الشيوعي، وتحويل هذا الحزب إلى حزب جماهيري.

ولد محمد ظهير عبد الصمد في حمص عام 1919. وبعد أن أنهى "الكتّاب"، دخل المدرسة الوقفية، التي كانت تدرّس إلى جانب علوم الدين مبادئ عامة في الرياضيات والكيمياء وبعضاً من العلوم الاجتماعية. وفي هذه المدرسة، تأثر ظهير، كغيره من التلاميذ، بالأفكار الاشتراكية والعدالة الاجتماعية، التي كان يروّج لها في التدريس الشيخ أحمد البواب، المتحمس لأفكار أبي ذرّ الغفاري. ويلاحظ أن كثيراً من تلامذة الشيخ أحمد البواب انتسبوا، عندما بلغوا سن الرشد، إلى الحزب الشيوعي، أو أصبحوا من أصدقائه[143]).

---

141) انظر ما كتبه عبد الكريم أبا زيد في جريدة **النور**، (زاوية دبابيس)، لدى استهجانه لاختيار ظهير بن باديس موضوعاً لأطروحته، وقد ضاع رقم العدد من أرشيفنا.

142) عبد الحميد بن باديس، المولود عام 1889 في قسنطينة، من كبار أعلام النهضة في الجزائر، وقد ناضل ضد اتجاهين: اتجاه التنكر للتراث الإسلامي والاندماج في البنية الاستعمارية وفقدان مقومات الوجود الوطني، واتجاه الأطر الدينية الجامدة المنغلقة في أطر العصور الوسطى، ودعا بن باديس إلى إسلام عصري منفتح على معطيات الحضارة الحديثة. ورداً على الاستعمار، أعلن بن باديس ثلاثيته المشهورة: "الإسلام ديني والعربية لغتي والجزائر وطني".

143) هذه المعلومات أخذناها من ورقة بخط اليد مغفلة من اسم كاتبها، لكن من يقرأها يلمس أن كاتبها من الأقرباء أو الأصدقاء المقربين لظهير. والورقة موجودة بين أوراق دانيال نعمة، الحريص على المحافظة على أية وثيقة. ويبدو أن ابنه لؤي ورث عن أبيه صفات كثيرة، ومنها الولع بحفظ

بعد تخرج ظهير من المدرسة الوقفية، عمل معلّماً في مدرسة الشراشفي ومدرسة الجودي، ثم انتقل للعمل في مهنة النسيج المنتشرة في حمص، والمشهورة بأنوالها وخبرة صنّاعها ودقتهم في الإنتاج.

عام 1940 انتسب ظهير عبد الصمد إلى الحزب الشيوعي على يد عبد المعين الملوحي، وسرعان ما أصبح من قادة منظمة حمص في عامي 1943 و1944[144].

عندما قرَأتُ الكلمات الملقاة في حفل تأبين ظهير عبد الصمد في حمص، شدتني الكلمة المختصرة المعبّرة من عبد المعين الملوحي، الذي أخذ بيديّ ظهير إلى الحزب الشيوعي عام 1940، كما رأينا.

قال الملوحي[145]:

"... الفقراء الذين استطاعوا كسر أغلال فقرهم فئتان:

1- الفئة الأولى أناس ذاقوا ويلات الفقر، ولما حطموا بسعيهم قيود فقرهم، وظلوا يذكرون ماضيهم، ويخلصون للطبقة التي خرجوا منها، ويسعون إلى إنقاذها.

2- الفئة الثانية أناس ذاقوا، كما ذاقت الفئة الأولى أحوال الفقر والجوع، لكنهم لما أيسروا، نسوا ماضيهم، وخانوا منبتهم الطبقي...

وأشهد أن رفيقنا ظهير عبد الصمد كان في طليعة الفئة الأولى، لم ينس ماضيه، ولم يخن طبقته، بل زاد على ذلك، فقرر إنقاذها".

3- وعلى درب ظهير سار مراد يوسف، متابعاً الخطى، التي أورد بعض آثارها هذا الكتاب.

(5)
مقتطفات مما قيل في مراد يوسف[146]

"...ولزاماً عليّ، أنا رفيق دربه الطويل، أن أقف أمام وطنيته، فهو

الوثائق وأرشفتها. ومن لؤي حصلنا على هذه الورقة المكتوبة بعد وفاة ظهير، كي تُنشر في جريدة **النور**.

[144] انظر ما كتبه ظهير تحت عنوان: "بعض الأضواء على تاريخ منظمة حمص الشيوعية" في مجلة **دراسات اشتراكية** 20 كانون الأول 1991.

[145] **النور**، 20 كانون الثاني 2002، ص 10.

[146] وهي مأخوذة من الباب الأخير، وتعكس جوانب من حياة مراد يوسف.

ابن قومية أخرى، ولا ينسى جذوره هذه، بل يتمسك بها وبعاداتها وتقاليدها في حياته الخاصة وعلاقاته مع أبناء هذه القومية. ولكنه وطني سوري أيضاً، شديد الوطنية، وحبُّ سورية وحبُّ شعبها وحبُّ تقاليدها واحترام رجالاتها، الذين قدّموا حياتهم قرباناً للدفاع عن الوطن، هي من صفاته وسماته الأساسية..."[147].

*****

"... في السجن (سجن المزة أيام ج ع م) جرت العادة لدى لجان التحقيق أن تستدعي بين فترة وأخرى مجموعة من المعتقلين، يتراوح عددها بين سبعة وعشرة رفاق، ينقلونهم من السجن إلى أحد أقبية المخابرات، وهناك تجري عملية تعذيب لإرغامهم على توقيع صك الانسحاب من الحزب. وفي فترة من الفترات، بدا وكأن احتمال عودة أحد من هذه المجموعات أمر مستحيل، فكلٌّ من ينزل من السجن إلى تلك الأقبية، سيخرج حتماً، وساد جو من التشاؤم والإحباط أجواء السجن... وفي أحد الأيام نُقلتَ يا مراد يوسف مع إحدى المجموعات إلى حملة تعذيب، وقبعنا ننتظر. ومضى أسبوع، وانقضى آخر. وفي عصر يوم، سرى النبأ بين نوافذ المهاجع: لقد عاد أبو سامي إلى السجن، وكانت فرحة كأنها العرس. نعم، عُدتَ منتصراً مظفراً بطلاً. لقد أثبت أن مواجهة الجلادين وهزمهم أمر ممكن، إذا ما توفرت الإرادة والثقة بالحزب وبالشعب، وكان لصمودك أنت بالذات أكبر الأثر، لأن يحتذي بك رفاق آخرون... لقد أصبحت الرمز والأمثولة..."[148].

*****

"... لكأن الأمر وقع أمس الأول عندما تعرّفت عليه، في حين مضى على ذلك أربعة وأربعون عاماً، عندما زرت برفقة زوجي أول بيت بعد وصولي إلى دمشق عام 1967. بيت متواضع جداً في إحدى الجادات العليا في حي المهاجرين، استقبلنا في غرفة صغيرة ضيقة، فيها بعض الأثاث البسيط ومدفأة صغيرة تحتل زاوية الغرفة، وتنفث أحياناً بعض الدخان... وإلى جانبه كانت تجلس والدته الحنون بوداعة ووقار..."[149].

---

[147] يوسف الفيصل (الأمين العام للحزب الشيوعي).

[148] نبيه جلاحج (محام، ومن القياديين الشيوعيين الأشداء والمتواضعين).

[149] زينب نبّوه (من قيادات الحزب الشيوعي الواهبة نفسها للقضية، وهي مناضلة لبنانية اقترنت بالقيادي الشيوعي السوري الراحل عبد الجليل بحبوح).

"... لم يترك له العمل اليومي فسحة للتأمل والكتابة في الفكر - مع أنني لاحظت سعيه - وكان بمقدوره ذلك، لو أتيحت له الفرصة، ولو سمح له الزمن بذلك، ولكن العمل اليومي كان يأخذ جل وقته، وأعتقد أن ذلك كان يحز في نفسه. وللأسف، حمل تلك اللوعة وذلك التحسر معه ورحل..."(150).

*****

"... جاء الرفيق مراد يوسف إلى الحركة العمالية، وانخرط في صفوفها بدوافع ثلاثة:

- الدافع الأول هو الدافع الإنساني العميق، فقد كان يكره الظلم، ولا يقبل به، وقد وجد في الحزب الشيوعي آنذاك ما يبتغيه.

- الدافع الثاني كان دافعاً اجتماعياً، فقد وجد في الحركة العمالية والشيوعية الأداة الحقيقية للتغيير الاجتماعي نحو العدالة.

- الدافع الثالث كان الدافع الوطني، إذ كانت سورية آنذاك عرضة لمؤامرات كثيرة هادفة إلى تغيير نهجها الوطني المستقل وربطها بالأحلاف الاستعمارية الغربية. وقد برز الحزب الشيوعي السوري آنذاك قوة طليعية مناضلة من أجل الاستقلال والسيادة الوطنيين.

لقد تعرفت بالرفيق مراد عام 1957... التقيناه فيما بعد في سجن المزة، فقد اعتقل في بداية الحملة الظالمة التي شنت على الحزب الشيوعي في أوائل 1959، أما نحن فاعتقلنا منتصف العام نفسه. لم يكن يتحدث عن نفسه مطلقاً... عاش أبو سامي الفترة الأكبر من حياته في منزل متواضع في حي المهاجرين، ولم تكن لديه أية ملكية خاصة، ورغم الإخفاقات الكبيرة التي عاشتها الحركة الشيوعية، والحزب الشيوعي السوري، ورغم سقوط الاتحاد السوفييتي المدوي، رغم كل ذلك كان أبو سامي يؤمن أن النضال من أجل العدالة الاجتماعية لن يتوقف، وأن التطور التاريخي لا يجري على خط مستقيم دائماً، لقد كان يعرف أنه ستكون هناك انكسارات وهزائم..."(151).

*****

"... إن مأثرة مراد يوسف أنه كان يعدُّ النضال التزاماً وواجباً شخصياً ووطنياً، وموقفاً لا ينبغي المطالبة بثمنه، ولذلك كان متواضعاً، رغم أنه كان بشهادة كل من عرفه مناضلاً صلباً مضحياً، أثبتت الأحداث

---

(150) محمد خالد رمضان (كاتب).

(151) يونس صالح (من قياديي الحزب الشيوعي الذين نشطوا في أوساط الشباب).

استعداده للتضحية دون حدود من أجل ما يؤمن به، وشهد له كل رفاقه أنه تحمّل التعذيب في سجن المزة، دون أن يتراجع أو يفكر بالتراجع، وكان جسده الضعيف أقوى من سياط السجان، بل وكان يعود من "حفلة" التعذيب باسماً، وكأنه قادم من حفل سعيد أو إلى حفل سعيد. ولأنه كان يؤمن أن النضال مسؤولية وواجب، لم يستغل عذاباته ومصاعب نضاله يوماً ليستعرض ماضيه، أو يظهر تفوقه، أو يطلب بمنن على رفاقه أو حزبه به. وبقي، رغم كل الظروف والوقائع التي تتيح له غير ذلك، متواضعاً على صلابته، قوياً على ضعف جسمه، حتى إنه كان يستفزك بتواضعه، وكأنك أنت المناضل الصلب، وهو التابع البسيط الذي يعوّل عليك الكثير.

بقي أن أقول **إنهم نادرون، أعني أولئك السياسيين، الذين نجوا من أنماط الحياة الاستهلاكية، ومن نهمها ومباذلها. نجا مراد اليوسف، الذي عاش فقيراً وبسيطاً، وربما كان يستمتع بفقره، أو على الأقل لم يكن يمتعض من هذا الفقر..."[152].**



---

[152] حسين العودات (مثقف متعدد المواهب).

الفهرس

قام بإعداد هذا الكتاب وكتابته عن حياة ونضال الرفيق مراد يوسف الرفيقان العزيزان خالد نعمة ومعن دانيال داود بالتعاون مع الرفيق نجدت شقيق مراد. وقد بذل هؤلاء الرفاق جهداً مميزاً فلهم كل الشكر والتقدير.

إن إلقاء الضوء على جوانب خلفية مخفية حتى الآن من نشاط وعمل الحركة الشيوعية السورية يحتاج إلى دراسة معمقة تستند إلى الوقائع والوثائق ويشارك فيها عدد من الرفاق الذين أتيح لهم معرفة أهم الوقائع وتتوفر لديهم الوثائق كاملة. ولعل هذا الكتاب إحدى تلك المحاولات التي تلامس هذا المبتغى.

إننا لواثقون أن هذا الكتاب، إضافة لما أصدره الرفيق نايف قيسية عن المرحلة ذاتها، والتنظيم نفسه، هو عمل جدي يُقدم مادة هامة عن تاريخ الحركة الشيوعية في سوريا وأعتقد أنه يمثل صفحات مضيئة من هذا التاريخ.

ولا شك أن تاريخ الحزب الشيوعي السوري والحركة جميعاً منذ نشوئها هنا إنما تحتاج إلى مزيد من الدراسة والتوثيق وهذا عمل كبير، ولكنه ضروري بالغ الأهمية، ولا بد منه.

نالتشيك السبت 3 آذار 2018

فايز جلاحج